

# عالم الفكر

العصور الكلامية

- عالم هوميروس
- تطور الفن الاغريقي
- ميديا أو هزيمة الحضارة
- الثورة الرومانية



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني  
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

# عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت \* أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨١  
المراسلات باسم : السوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

## المحتويات

### العصور الكلاسيكية

التمهيد	بقلم مششار التحرير	٣
عالم هوميروس	الدكتور لطفي عبد الوهاب	١٣
تطور الفن الاغريقي	الدكتور أحمد حسن غزال	٥٧
ميديا أو هزيمة الحضارة	الدكتور يحيى عبد الله	٧٣
الثورة الرومانية	الدكتور محمد عواد حسين	٩١
المصادر الكلاسيكية لشرح شكسبير	الدكتور أحمد عثمان	١٤٧



### شخصيات وآراء

فرديناند تونيز	الدكتور أحمد أبو زيد	٢٢٩
----------------	----------------------	-----



### مطالعات

دار العلم في طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجري	الدكتور عمر عبد السلام تدمري	٢٥٧
---	------------------------------	-----



### صدر حديثاً

حرب البوير	الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى	٣٠١
------------	-------------------------------	-----

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

أرادة العمل . وهذا التراث هو الذي يميز الأوروبيين عن غيرهم من الشعوب ، كما أنه هو العوة الدافعة للحضارة الأوروبية الحديثة . والواقع أن التساؤل الذي يتضمن التشكيك في أهمية دراسة اللغات الكلاسيكية يمكن أن يصدق على كثير من فروع المعرفة الأخرى مثل الآداب القديمة أو التاريخ القديم . ولكن إذا كان ثمة ما يبرر الاهتمام بدراسة التاريخ بعامة فإن الأمر يستحق منا أن ندرس التاريخ القديم ، وإذا كانت الفلسفة تستحق الدراسة فإن فلاسفة اليونان كانوا في أغلب الظن أعظم الفلاسفة على الإطلاق ، وهكذا .

ولكن دراسة الكلاسيكيات تتميز إلى جانب هذا كله بميزتين هامتين :

الأولى هي أنها في أساسها وجوهرها دراسة واسعة شاملة للثقافات أو حضارات متكاملة وليست مجرد تخصص ضيق يهتم بجانب واحد من جوانب هذه الثقافة أو الحضارة ، فهي تتيح للباحث فرصة للتعمق في دراسة الآداب والفن والتاريخ والفكر وأساليب الحكم والسياسة ، مع الاحاطة بشكل واف بالعادات والتقاليد وأنماط الحياة والعلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس .

والميزة الثانية هي أن هذه الدراسات تتمتع بدرجة عالية من الموضوعية نظرا لقدم تلك المجتمعات والعصور ، وهو أمر قلما يتحقق في دراسة المجتمعات المعاصرة أو الثقافات التي لم يمض على اندثارها سوى وقت قصير . فالبعد الزمني الذي يفصل بيننا وبين تلك العصور والمجتمعات يجعل من السهل على الباحث أن يتخلص إلى حد كبير من الأفكار المسبقة والأهواء والأغراض التي كثيرا ما تشوب دراسة المجتمعات القائمة الآن وقد تؤثر فيها وتوجهها وجهات معينة بالذات . وكلنا الميزتين تساعدان في آخر الأمر على اللقاء كثير من الأضواء على الثقافة الانسانية - بل وعلى 'الشرعية بوجه عام . وربما كان هذا هو ما يعنيه ماثيو أرنولد Matthew Arnold من قوله : « أن الذين لهم صلة دائمة بالعالم القديم كانوا يبدون لي أكثر خضوعا لحكم الواقع وأكثر فهما للحقيقة من غيرهم ».

ومن الانصاف أن نميز هنا بين دراسة الثقافات الكلاسيكية واللغات الكلاسيكية . فمعظم الاعتراضات والانتقادات التي تنور الآن في أوروبا ، وفي إنجلترا بالذات ، تنصب على تعليم اليونانية واللاتينية وليس على أهمية دراسة الثقافات الكلاسيكية . وهذا موقف سبق أن واجهته الجامعات المصرية حين أراد طه حسين إدخال اللغة اللاتينية في كلية الآداب واللغة اليونانية في بعض أقسام تلك الكلية بحيث تدرس لطلاب الامتياز ، وهي قضية أشار إليها دافع عنها في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » ولم يسترح أعداء اللغتين إلا بعد أن ألغى تدريسها إلا بالنسبة لطلاب الدراسات الكلاسيكية بالطبع وأقسام اللغات الأجنبية . فتدريس اللغات الكلاسيكية إذن هو الذي يلقي المقاومة والاعتراض .

ولكن كما يقول بلم S.H. Plumb في مقدمته القصيرة للكتاب الذي أشرف على نشره في الستينات بعنوان Crisis in the Humanities والذي يناقش فيه عدد من الاساتذة المتخصصين الوضع الحالي لموضوعات



مخصصهم ، انه حتى الاربعينات من هذا القرن كانت « الثقافة » التقليدية تقوم على دراسة الكلاسيكيات والكتب المقدسة والتاريخ والأدب ، وكان هذا النوع من « الثقافة » هو الذي يميز الصفوة والطبقات الحاكمة في بريطانيا ويوجد بين افرادها ، كما انه كان يعتبر من اهم الملامح التي تميز السيد المهذب ( المجتهدان ) عن غيره من الناس ( صفحة ٧ ) .. والواقع انه حتى الآن ، وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لفرض تعليم اليونانية واللاتينية على تلاميذ المدارس بوجه خاص فان الاعمال الكلاسيكية ذاتها لا تزال تجد اهتماما متزايدا واقبالا شديدا على قراءتها مترجمة الى اللغات الحديثة . فأعمال هوميروس تباع الآن في الخارج بملايين النسخ ، واعمال توكيديديس Thucydides تباع بمئات الآلاف ، بل حتى اعمال تاكيتوس Tacitus تباع بعشرات الآلاف . ولا يزال الرجل الاوروبي يقبل في شراة رثم على قراءة هذه الاعمال وغيرها بل وعلى كل ما يساعده على معرفة العالم القديم وفهمه . ومن الطرفين ان نجد الاستاذ فيني M.L. Finley استاذ التاريخ القديم والتاريخ الاجتماعي في جامعة كمبريدج وصاحب كتابي The Ancient Greeks, the world of Odysseus يقول في مقاله عن « أزمة الكلاسيكيات Crisis in the Classics المنشور في كتاب بلم السالف الذكر ، ان عدد نسخ اليايزة والاديسة المتداولة الآن اكبر بكثير جدا من كل النسخ التي ظهرت لهاتين الملحمتين خلال كل العصور الكلاسيكية مجتمعة ، ولكنه يعترف في الوقت ذاته بان هذا الاهتمام بالاعمال والكتابات الكلاسيكية لا يرتكز على دعائم قوية ومتينة ، وانما هو يقوم على اسس واهية مهتزة ، نظرا لأن اللغة اليونانية اخفت منذ سنوات طويلة من المدارس بعد ان كانت احد المتطلبات الاساسية لدخول الجامعات البريطانية ، وان الدور جاء الان على اللغة اللاتينية ، ويرى ان ذلك سوف يكون له اثر سيء في اعداد الدارسين الذين سيتخصصون في الدراسات الكلاسيكية ، فضلا عن سيتخصص في اللغات الكلاسيكية ذاتها ( صفحة ١٢ ) . ومع ذلك فلا بد من التسليم بان الاوضاع الان تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه منذ نصف قرن مثلا ، كما ان النظرة الى التخصصات المختلفة قد تغيرت هي ايضا ، بحيث اصبحت اهمية التخصص تقاس بمدى نفعه في الحياة العملية . وليس ثمة من يجبر الآن على ان يقول ما قاله توماس جيزفورد Thomas Gaisford عميد كلية Church Christ واستاذ اليونانية في اكسفورد في اوائل القرن التاسع عشر من ان الدراسات الكلاسيكية « تساعدنا على ان ننظر في شموخ واستعلاء وترفع الى كل الذين لم يشاركونا في مزايها » .

فلقد انقلب الوضع تماما واصبحت فروع المعرفة الاخرى ، بل والعلوم البحتة والتطبيقية تجذب معظم الناهيين من الطلاب وتحظى بمكانة رفيعة فائت تلك التي كانت تحتلها الدراسات الكلاسيكية حتى عهد قريب . ومع ذلك فان اقبال المثقفين على قراءة الاعمال الكلاسيكية في ترجماتها الحديثة لا يزال يشير الامل لدى الكثيرين من العلماء في بعث الاهتمام بتعلم اللغات الكلاسيكية ذاتها مرة اخرى ، على اعتبار ان تذوق الآداب ، والشعر بوجه خاص ، في لغاتها الاصلية يكون اعظم واصدق بكثير من تذوقها مترجمة ومنقولة الى لغات اخرى .



وليس ثمة شك في أن الحضارة الأوروبية الحديثة تدوين بالشيء الكثير لحضارة الاغريق بحيث تعتبر - بشكل أو بآخر - امتدادا لتلك الحضارة . وعلى الرغم من ضياع جوانب كثيرة من الثقافة الكلاسيكية خلال العصور الوسطى المظلمة فقد شاهد عصر النهضة وما تلاه حركة احياء لدراسة تلك الثقافة والاهتمام بها ، لدرجة ان اطفال المدارس - وبخاصة في إنجلترا وفرنسا والمانيا - كانوا يدرسون في القرن التاسع عشر وفي سن الحادية عشرة او الثانية عشرة اللغة اليونانية دراسة جادة ، تمهيدا لقراءة هوميروس ، بل وايضا اعمال ارسطو ذاتها . ولم يكن ذلك الاهتمام قاصرا على اللغة والادب وإنما امتد الى ميادين ومجالات اخرى ، فنجد عددا من علماء الاركولوجيا مثلا يقومون بكثير من عمليات الحفر والتنقيب بقصد البحث عن ادلة وبيانات قد تلقى الضوء على ما تحتويه الآداب الكلاسيكية والتراجيديات والاساطير من احداث ، وتساعد بالتالي على معرفة مدى صدق هذه الاعمال الادبية وتعبيرها عن وقائع حدثت بالفعل . وقد كشفت بعض هذه الكشف الاركولوجية عن عدد من المواقع المرتبطة بعصور ما قبل التاريخ والتي تردد ذكرها في اعمال هوميروس . مثل طروادة وكثير من قبور - ميكيناى Mycenae كما القى كثير من الضوء على قصور المينويين Minoans في كريت ، وظهرت اسما عدد كبير من علماء الاركولوجيا الذين شغلوا انفسهم بهذه النواحي من البحث من امثال شليمان Schlieman وسير آرثر ايفانز Sir Arthur Evans وغيرهما ممن كانوا يربطون بين الاساطير اليونانية ونتائج الكشف الاركولوجية\* - وهذا مثال واحد للجهود ( الفنية الطويلة التي 'بذلها كثير من العلماء المتخصصين خلال القرنين الاخيرين لدراسة وفهم حضارة الاغريق ، ومع ذلك فلا تزال هناك جوانب كثيرة تحتاج لمزيد من الجهد والعناء .

كذلك شغل كثير من العلماء انفسهم في تتبع اصول تلك الحضارة والبحث بوجه خاص عن العناصر والتأثيرات الشرقية بالذات التي دخلت في تكوينها . ولقد كان الاغريق انفسهم ينظرون بكثير من الاجلال الى الحضارة المصرية القديمة والفكر المصري القديم ، بل والى العلم المصري ايضا ، كما ان الديانة الاغريقية والفن الاغريقي المبكر يكشفان عن وجود تأثيرات وعناصر مصرية كثيرة . الا ان الفكر الاغريقي له بغير شك اصلاته وذايته وخصائصه المميزة - وربما كان اهم تلك الخصائص انشغال ذلك الفكر بالكون ، واهتمامه الشديد بالانسان ومكانته في هذا الكون ، والاعجاب بطبيعة الانسان وبكل ما يتعلق به ، سواء في ذلك جسم الانسان او عقله . وبينا كان الاهتمام بالعالم الآخر يؤلف النقطة المركزية في كل الحضارات الشرقية القديمة ، كانت حضارة الاغريق تهتم بهذا العالم وبوضع الانسان فيه ، وهي امور تبرز واضحة في فلسفتهم وفنونهم وآدابهم واساطيرهم .. لم يكن ايسخيلوس مثلا يهتم بقدر الانسان ومصيره النهائي المحتوم بقدر ما كان يهتم بوضعه في الارض وعلاقته بالآلهة .. ولقد كان السوفسطائيون في منتصف القرن الخامس ق . م ينادون بان الانسان هو مقياس كل شيء ، وكان همٌ سقراط البحث عن اخلاق جديدة عن طريق اختبار الذات ، كما ان افلاطون قال جملته الشهيرة

« اعرف نفسك » فاقصدا بذلك ان باستطاعة المرء ان يعرف الخير ، وان هذه المعرفة كفيفة بان تجعله يفضل الخير ، وهكذا .

ولم تتفق الآراء على تحديد الأصل الاول الذي انحدر منه الاغريق اوموطنهم الاصلي ، وان كان هناك من العلماء من يذهب الى انهم اتوا الى بلاد اليونان او الى هيلاس Hellas \* - كما يسمونها - من اواسط اوروبا ، وان عملية الهجرة والتوطن تمت ببطء شديد واستغرقت عدة قرون . ولسنا نعرف ايضا شيئا مؤكدا عن سكان هيلاس الاصليين قبل مجيء تلك الموجات من الوافدين ، وان كنا نعرف ان آخر هؤلاء الوافدين كانوا الدوريين ، وهم على اية حال اكثر الجماعات الوافدة تأخرا وادناهم في المستوى الحضاري ، وقد سبقهم الى المجيء الايونون والاثيون مع غيرهم من الجماعات الاقل عددا مثل الايوليين . وكان الاتينيون يفتخرون باصولهم الايونية او على الاصح بترانهم الايوني العريق ، ولديهم كثير من القصص عن مدى قدم هذا التراث ، وعراقته ، ولذا كانوا يعتبرون انفسهم ارقى واسمى من الدوريين الانجاج . وبها يكن من شيء فان المنصرين الايوني والدوري كانا هما الشعبان الرئيسيان في بلاد هيلاس خلال المصور الكلاسيكية . وكان الهيلينيون او الاغريق يعتبرون انفسهم بذلك شعبا متميزا ومختلفا عن بقية شعوب العالم ، الذين كانوا يشيرون اليهم باسم البرابرة او المنبرسرين Barbarai وهو لفظ كان يقصد به في الاصل الاشارة الى اللغات او اللهجات الاجنبية والغريبة غير المفهومة ، وان كان اللفظ يتضمن في الوقت ذاته نوعا من التقويم لتلك الشعوب والحكم عليها بالقطاظة والتخلف ، وبأنها أدنى مكانة واقل حضارة من الاغريق ، وهذا هو المعنى الذي اتخذته الكلمة ابتداء من القرن الخامس ق.م على ما يقول اندروز- ( صفحة ٢٧٣ ) . ومع ذلك فانه لا يمكن القول ان الاغريق كانوا « سلالة » او « عنصرا » نقيّا من الناحية العرقية البحتة ، بل ان اختلاف عاداتهم واعراقهم وقمايزها كان هو الذي يميزهم في المحل الاول عن غيرهم من الشعوب .

كان الاغريق يفتخرون على غيرهم من الشعوب الاجنبية المتبريرة بانهم شعب من الاحرار ، بينما كانوا يعتبرون كل من عداهم عبيدا وارقاء بشكل أو بآخر . واعتبارا من القرن الرابع ق.م بوجه خاص بدأوا ينظرون الى انفسهم على انهم شعب له حضارة ذات خصائص مميزة ، وانهم قد حققوا الكثير من الانجازات العقلية الرفيعة السامية وبخاصة في انبثا . وربما كان اهم خصائص هذه الحضارة هي حرية التفكير والتأمل التي لم يكن يجدها شيء ، سواء اكان ذلك سلطة الحكم او قوة الاساطير او سطوة الخرافات السائدة في تلك العصور المبكرة . ويكفي

\* عرف اليونانيون بعامية باسم الهيلينيين Hellenes اعتبارا من القرن السابع ق.م. اما كلمة الاغريق Graeci فقد اطلقها عليهم الرومان فيما بعد نسبة الى الحمايين Graioi الذين كانوا يسكنون إقليم موريثا . واما اسم اليونانيين فهو تحريف من كلمة ايونيين Iones الذين كانوا اول من احتك بهم ممالك الشرق الاقصى القديم من الاغريق . وعلى ذلك فان الصفات الثلاثة هيليني واغريقي ويوناني تستخدم هنا بمعنى واحد . راجع في ذلك كتاب الأستاذ الدكتور عبد اللطيف احمد علي : « التاريخ اليوناني ، المصور الهللاي » الجزء الاول ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٦ ، صفحا ٨ ، ٧ ، هاشم رقم ٩

دليلاً على هذه الحرية ان الاغريق لم يعرفوا ذلك النوع من الحكم الاستبدادي الذي كان يسود امبراطوريات الشرق ، والذي يتمثل بشكل خاص وقوى في امبراطورية الفرس ، بكل ما كان يحيط بها من مظاهر القوة والبأس والتقاليد والطقوس والمراسم التي كان الاغريق ينظرون اليها بسخرية تامل - حسب قول اندروز - سخرية الامريكان من نظم الحكم الملكي والامبراطوري التي كانت تسود في اوربا حتى عهد قريب . ( صفحة ٢٧٣ ) .

وعلى الرغم من سيطرة الفكر الاسطوري - وهو امر طبيعي في المراحل المبكرة من تطور المجتمعات والثقافات - فقد ظهرت لدى الاغريق بوادر التفكير العلمي الذي اصبح ركيزة العلم الحديث . وليس المقصود بذلك ان نزع وجود علاقة مباشرة بين العلم اليوناني القديم وما حققه العلم الحديث من تقدم وانجازات هائلة ، وانما المقصود هو ابراز التشابه في الموقف الفعلي الذي يؤدي في آخر الامر الى الانجاز العلمي . ومع ذلك فليس ثمة شك في ان افلاطون اثر تأثيراً واضحاً في عصر جليليو Galileo ، وان العلوم الوضعية تدبى بالشيء الكثير لارسطو .

وما له دلالة هنا ان التاريخ لدى الاغريق لم يبدأ بمجرد تسجيل سردي لأحداث ووقائع محددة ومحدودة ، وانما اتخذ طابع التأليف التاريخي الذي لا يخلو من بعض التحليل والتعميم ، كما يظهر بشكل واضح في تاريخ هيرودوت . بل ان هذا يصدق حتى على أعمال توكيديديس على الرغم من انه كان يهتم بالحرب والسياسة في المحل الاول ، ولم تكن له تلك النظرة الواسعة الشاملة المحيطة التي كان يتمتع بها هيرودوت .

وهذا كله يكشف عن قدرة العمل اليوناني القديم على التساؤل وعلى البحث والتقصي . ونحن نعرف مثلاً ان ارسطو حين شرع في تأليف كتاب « السياسة » كان يدرك ان ثمة عدداً من المشكلات العامة التي تحتاج الى اجابة ، ولذا عكف على دراسة « الدساتير » التي اتبعت له معرفتها ، فجمع قدراً هائلاً من المعلومات المستمدة من ١٥٨ دستوراً كانت حصيلة جهود طويلة لاجيال متعاقبة في بحثها عن افضل الاساليب التي يمكن بها حكم الشعوب وسياستها .

وعن طريق فهم هذه ( الدساتير ) وتحليلها وتصنيفها كان ارسطو يحاول الوصول الى ( الدستور ) الذي يحقق افضل ما تظمه هذه الدساتير وتجنب ما فيها من مساوئ ونقائص بقدر الامكان .

كان الاغريق يعيشون فيما يعرف باسم « الدولة - المدينة » وهي ترجمة لكلمة Polis <sup>١</sup> ويعتبرون ذلك من

<sup>١</sup> يقول الدكتور عبد اللطيف احمد علي في كتابه السالف الذكر . ان بلاد اليونان كانت منقسمة الى « عدة وحدات سياسية صغيرة تعرف كل منها باسم Polis - وهي كلمة من المصدر ترجمتها بدقة وقد تسمى المدينة الحرة اودولة المدينة او المدينة الدولة او الدولة » ( صفحة ١٩ ) . وعلى الرغم من ان معظم المؤرخين يعتبرون دولة المدينة من اهم الالامح المميزة للحضارة الهلنستية فان الدكتور عبد اللطيف احمد علي يشير الى ان دول المدن كانت موحدة في بلاد سوريقيل ميلاد الحضارة الهلنستية بحرالي التي سبقت كما كانت موحدة في ارض كنعان . وبذلك يتضح ان نظام دولة المدينة ليس في حد ذاته سمة مميزة لاسلوب الحياة الهلنستية ، وانما التي تميز الحضارة الهلنستية فهي انتاعها هذا النظام كرسيلة للتصير العملي عن طرفة خاصة الى الكون وبد غير الفيلسوف اليوناني بروكهوراس الاندري في القرن الخامس ق م عن هذه النظرة بقوله المأثور: ان الانسان مقياس كل شيء . ( صفحة ١١١ ) .

أهم المميزات التي تميزهم عن الشعوب المتبرية التي تعيش في ممالك وإمبراطوريات وتخضع لنظم حكم ملكي . وكان أرسطو يقول انه لا يمكن لغير الحيوانات أو الآلهة ان تعيش في غير دولة - مدينة ، وهو قول يلخص بطريقة رائعة الى حد كبير موقف الأغريق ونظرهم الى تنظيمهم السياسي وتقويمهم له ، كما أنه يمكن اعتباره مكملا لعبارة أرسطو المشهورة « الانسان حيوان يتميز بأنه يعيش في » دولة - مدينة « وهي العبارة التي كثيرا ما ترجم بطريقة غير دقيقة الى « الانسان حيوان سياسي » ( او اجتماعي ) . ومع ان نظام دولة - المدينة لم يعش طويلا ولم يمكن تطبيقه في أي مكان اخر ، على الأقل بنفس الطريقة . فان فلاسفة الاغريق كانوا يرون انه هو التنظيم السياسي الاجتماعي الوحيد الذي يمكن ان تتوفر فيه الحرية والديمقراطية . ففي هذا النظام يحكم الانسان نفسه بكل ما في هذه العبارة من معنى ، وبطريقة لا تتوفر في الامبراطوريات التي لا يمكن للمرء ، رغم كل ما يقال عكس ذلك ، ان يحكم فيها نفسه او يتمتع بالحرية الحقة لأن الآخرين هم الذين يحكمونه وهم الذين يرسمون له ما يفعل دون ان يشارك هو في سياسة حياته ويمتصه مشاركة فعلية على ما يفعل الاغريق في دولة المدينة . ولذا كانت اقسى عقوبة يمكن توقيعها على أي شخص هي الحكم بنفيه من دولة المدينة التي يعيش فيها وينتمي اليها ، لأن هذا النفي معناه انه لم يعد له ما ينتمي اليه . ازاء هذا كله يبيل كثير من علماء السياسة الى القول بأنه ليس ثمة أي وجه للمقارنة بين نظام دولة المدينة ونظم الحكم النيابي التي تتبع الان في « العالم الحر ».

الا ان هذا النظام كان يحمل بين ثناياه عناصر ضعفه وإندثاره ، لأن هذه المدن أو الدويلات المستقلة المتأخرة كانت تدخل في تنافس شديد وخطير مع بعضها البعض . وكثيرا ما كان هذا التنافس يؤدي الى الحرب نظرا لعدم وجود أي سلطة اخرى اعلى من سلطة دول المدن تتولى الاشراف على تنظيم العلاقات بينها جميعا . ومن ناحية اخرى ، لم يكن يتمتع بهذه الحقوق الا المواطنون الاحرار ، بينما لم يكن الاغراب والاجانب يحظون بحقوق كاملة ، مع حرمان العبيد او الارقاء من كافة هذه الحقوق . ولكن هذا لا يعني ان الاغريق الاصليين الاحرار كانوا يمثلون طبقة غنية خاملة ومترفة تعتمد في حياتها على العبيد اعتادا تاما ، وظروف الحياة القاسية التي كانت تحيط ببلادهم كانت تضطرهم جميعا الى العمل ، وربما كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو اسيرته التي كان عدد العبيد فيها يفوق كثيرا عدد المواطنين . الاحرار الذين كانوا يقتنعون بأداء بعض الاعمال غير المنتجة . وعلى العموم فلم يكن العبيد - وبخاصة في اثينا - يعاملون معاملة سيئة في اغلب الاحوال .

ولكن على الرغم من هذه المنازعات والصراعات والتنافس بين المدن أو الدويلات الاغريقية فقد كانت هناك بعض القوى في الحياة اليونانية ذاتها تساعد على التقارب بل وعلى التوحيد ..

• Stewart c. Easton, The Heritage of the Past, Holt,

Rinehart, Winston, N. Y. 1963, P. 190

أولاً : كان هناك أولاً ذلك الاتفاق العام بين جميع الاغريق على اعتبار انفسهم اعلى واسمى من بقية الشعوب التي تعيش في الممالك والامبراطوريات المتبريرة والتي لم تكن تفهم معنى الحرية ، بل ولم تكن في نظر الاغريق خليفة بالحرية على ما سبق ان ذكرنا .

ثانياً : وكان هناك ، القدرة على التماسك والترابط والتكاتف امام التهديدات والغزوات الخارجية مثلما حدث في الحرب ضد الفرس المتبريرين في اوائل القرن الخامس .

ثالثاً : كان هناك ، تلك الاعياد والاحتفالات الاغريقية الكبرى التي كان يشارك الجميع فيها بصرف النظر عن انتماءاتهم المحلية الى مدن متعادية ، كما هو الحال في الاحتفالات بالالعب الاولمبية .

رابعاً : ثم كان هناك ، الآلهة الكبار الرئيسيون الذين كان جميع الاغريق يتجهون اليهم على الرغم من ان كل مدينة كان لها إلهها الخاص او ربها الخاصة التي تحميها ، وذلك بالإضافة الى وجود بعض الطغوس والشعائر ذات الطابع الديني العام مثل الشعائر الاورفية . بل ان بعض الكهان او المتنبئين ، مثل كاهن ابوللو في دلفي ، كانوا يقدمون المشورة والارشاد لجميع من يقصدهم بغير تفرقة .. اذن فكل هذه العناصر الثقافية كانت تعطي نوعاً من الاحساس بالوحدة والتكامل الذي يخفف من حدة النزاع والصراع والتفكك بين دول المدن .

ولقد رد هذا التفكك والنزاع الى نوع من الوحدة حين افلحت مقدونيا في بسط نفوذها على كل المدن الاغريقية ، ثم ما لبث ان ادى التوسع المقدوني الاستعماري الى ظهور حضارة جديدة متمايزة تماماً نتيجة لاتصال الاغريق بالشرق ، وبوجه خاص بالامبراطوريات والشعوب التي كانوا يترفعون عنها ويصفونها بانها متبريرة . ولقد كان عام ٣٣٤ ق.م نقطة تحول حقيقي في تاريخ العالم الكلاسيكي ، اذ عبر فيه الاسكندر من اوروبا الى آسيا ومنها الى مصر وبلاد ما بين النهرين في طريقه الى الشرق الاقصى .

وحين غادر الاسكندر بلاد هيلاس كان واقفاً تحت تأثير نوعين متعارضين من التعاليم : تعاليم ارسطو التي ترى ان الاغريق وحدهم دون بقية البشر هم الذين بلغوا درجة الانسانية ، بعكس المتبريرين الذين كانوا بالطبيعة عبيداً ، ولم يكن العبيد سوى آلات حية ، وتعاليم ايزوكراتيس Isocrates التي كانت تصبو الى تحقيق الوحدة الاغريقية . ولكن آمال الاسكندر كانت تتخطى وتتعدى كلتا الفئتين من التعاليم ، فقد كان يصبو الى تحقيق الوحدة العالمية ، او على الاصح وحدة الجنس البشري . وهذا هو الذي يفسر لنا - كما يقول جون وتيرجسون \* - زيارته لمعد زوس - آمون في سبوه بمصر ، حيث جاءته البشارة بانّه هو ابن الاله الذي هو ابو البشر جميعاً . وثمة عبارة في بلوتارك تشير الى ان الاسكندر كان يعتقد ان رسالته هي التقريب بين الناس بشكل

\* John Ferguson, The Heritage of Hellenism, Thawes

عام ، وان الوسيلة الوحيدة لذلك هي العمل على ادماج الشعوب كلها بعضها ببعض ومزج عاداتهم وتقاليدهم واساليب حياتهم معا . كذلك يقول اراتوستينيس Eratosthenes ان الاسكندر اغفل النصيحة بأن يعامل الاغريق كأصدقاء وأن ينظر الى كل من عداهم على انهم اعداء له ، وانه فضل بدلا من ذلك ان يؤازر ويصادق كل من يستحق المؤازرة والصداقة بصرف النظر عن انتمائه العرقي .

وكانت هذه الرؤية وذلك الاتجاه نحو ادماج الشعوب المختلفة وتوحيدها يمثلان خروجا واضحا على نظام دولة المدينة وتهديدا لوجودها وتغطيا لكل الحواجز التي كانت تقيمها بين الناس ، مثلما كانا يمثلان خروجا على التصنيف الاغريقي التقليدي للبشر ، واعادة تصنيفهم على اسس سلوكية واخلاقية جديدة . وحين مات الاسكندر انقسمت امبراطوريته التي كانت تغطي مليوني ميل مربع ، وتضم عددا من الشعوب والثقافات الى عدد من الممالك المستقلة ، اذ لم يكن هناك من يمكنه ان يمسك باطراف كل تلك الامبراطورية الواسعة مثلما امسك هو بها خلال حياته القصيرة .

الا ان امتداد الفتح الهليني كانت له بعض النتائج المضادة . ذلك أن الثقافة - الهلينية دخلتها عناصر ثقافية اخرى من كل تلك الشعوب الشرقية القديمة ذات الحضارات العريقة وترتب على هذا الاتصال والتأثير الشرقي ان ظهرت حضارة جديدة تعرف باسم « الحضارة الهلينية » او « الحضارة المتأثرة » كما يسميها الاستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب يحى ، ويدافع عن هذه التسمية في كتابه الرائع العميق ( الحضارة الهلينية ) مع ان هذه الحضارة ظهرت نتيجة لدخول مؤثرات شرقية كثيرة افلحت في تغيير الكثير من ملامح وجوانب الحياة والثقافة الهلينية التقليدية .. المهم هو ان العالم الهلينيستي كان عالما ( كوزمو بوليتانيا ) بمعنى الكلمة ، واصبحت صفة العالمية هذه خاصة مميزة لكل الفكر اليوناني والمجتمع اليوناني في ذلك العصر . وارتبط بذلك كله ظهور كثير من الملامح المميزة للمجتمعات الحضارية الكبرى مثل ازدياد النزعات الفردية . وعلى اية حال فان من الصعب الحكم بما اذا كانت هذه الفردية هي سبب او نتيجة لذلك التدهور او التفكك الاجتماعي الذي صاحب زوال نظام دولة المدينة . وكما يقول ايستون Easton ( صفحة ٢٨٤ ) فان مظاهر الفردية والتفكك والصراع الفردي والتنافس في العصر الهلينيستي لم يكن ينقصها الا « الثورة الصناعية » لكي يكون هو « مجتمعا الاوروبي الحديث ».

ويذهب كثير من العلماء الى ان الحضارة الرومانية ليست الا امتدادا طبيعيا للحضارة الهلينية ، وانه لم يكن هناك اي توقف او انقطاع في سير الحضارة ، وبذلك لم تكن هناك فجوة بين الحضارتين . فبيضا كان الرومان يعملون على تطوير النظم المميزة لحضارتهم ، ونعني بها القانون والحكومة في ايطاليا والغرب ، فانهم كانوا يعتمدون دائما على الاغريق في كل فروع الثقافة والمعرفة الاخرى . فلقد كان اتصالهم بالمدن اليونانية في جنوب ايطاليا هو الذي ساعد على ظهور بواكير الشعر والفن لديهم ، كما ان اليونانيين هم الذين هياؤا لهم المجال لتذوق الادب وتقبل الفلسفة ، ويقول ايستون في ذلك « ان روما - بالمعنى الدقيق للكلمة - كانت مجرد استعمار ثقافي لليونان ،

وانها كانت آخر مركز غربي هام يضمه الاغريق الى امبراطوريتهم الثقافية - وعلى ذلك فحين غزا الرومان الحضارة الهلينستية بالقوة فانهم كانوا فقط يرون العمل الذي قامت به مقدونيا من قبل » . ( صفحة ٢٩٩ ) .

ومع ذلك ، فقد كان للرومان لغتهم اللاتينية المتميزة التي افلحوا في فرضها على الاغريق في مجالي القانون والحكومة ، الا ان ذلك لم يمنع من ان يستمر العالم الهلينستي عالما يونانيا الى حد كبير نظرا لقوة اللغة اليونانية وتغلغل الحضارة الهلينستية فيه . ومن هنا كان معظم المؤرخين حين يتكلمون عن حضارة الرومان يقصرون كلامهم على القانون ونظام الحكم ، باعتبار ان الاسهامات الاصلية للرومان كانت في هذين الميدانين بالذات . وعلى العموم فان تزاوج الحضارة الهلينستية والحضارة الرومانية يمثّل في تأثيره تزاوج الحضارة اليونانية والتأثيرات الشرقية التي نجمت عنها الحضارة الهلينستية ذاتها . ولكي ندرك عمق الآثار المترتبة على هذا التزاوج فانه يمكننا تشبيه غزو الفكر والفنون والفلسفة الهلينستية للعالم الروماني بغزو الحضارة الامريكية الآن لدول اوروبا الغربية والتأثيرات الناجمة عن هذا الغزو .

ولقد مر العالم العربي في حياته الثقافية المعاصرة بمرحلة كانت الاعمال الكلاسيكية تلقى فيها كثيرا من العناية والاهتمام ، وظهر ذلك بوجه خاص خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن . وكان من المؤلفين ان تنشر المجلات الثقافية تراجم لبعض هذه الاعمال او مقالات ودراسات عميقة عنها ، وكان هذا واضحا في مصر بالذات . ورغم انكسار حدة هذه الموجة من الاهتمام بالاعمال والعصور والثقافة الكلاسيكية فلا تزال هناك جهود مشكورة تبذل في نقل الاعمال الضخمة الخالدة منلما فعل ثروب عكاشة بالنسبة لكتاب أو فيد « مسخ الكائنات » ، وما فعله حسن عثمان في ترجمته للكوميديا الالهية رغم الاجزاء التي اغفلها منها لأسباب دينية ، او ما فعله محمود حمدي في ترجمته للاتياده ، وكذلك الجهود التي تبذل منذ اعوام لنقل عدد من المسرحيات الكلاسيكية عن لغاتها الاصلية والتي تظهر في سلسلة « المسرح العالمي » التي تنشرها وزارة الاعلام في الكويت . ولكن يمكن القول ان تغير المناخ الثقافي العام صرف معظم المتقنين عن ان يهتموا بهذه الدراسات التي كانت تؤلف جانبيا اساسيا في التكوين الثقافي منذ نصف قرن او اقل . والذي نرجوه ان يكون هذا العدد من « عالم الفكر » بداية لاهتمام جدي بالدراسات الكلاسيكية من جديد .

دكتور احمد أبو زيد





الحديث عن هوميروس كان ، ولا يزال ، حديثاً  
 متشعب الجوانب ، يتسع مجاله لباحث اللغويات بما  
 فيها من خصائص وقواعد ، وللمتوفر على دراسة  
 الأدب بعامة ، والمتبحر في الشعر وصوره على وجه  
 التخصص ، ولدأريسي التاريخ الحضاري الذي  
 يحاول أن يتعرف على قسبات المجتمع الذي ترد  
 الاشارات اليه في ثنايا الشعر المنسوب الى هذا  
 الشاعر . وفي هذا المجال الأخير فان حديث  
 هوميروس يوحى لأول وهلة بجوتشيع فيه البطولات  
 والأساطير وتلتقي فيه الآلهة بالبشر . ويتخذ الناس  
 والأشياء أحجاماً غير تلك التي نعرفها ، وتظهر فيه  
 الانجازات والقيم في أبعاد غير تلك التي ألفناها في  
 عالم أقل ما يوصف به أنه غريب عن عالمنا الذي  
 نعيشه ، وأنه يقع ببطولاته وأساطيره وأشخاصه  
 وأشيائه وقيمه جميعاً في منطقة تتخذ مكانها الضبابي  
 بين الحقيقة والوهم أو بين الواقع والخيال . والدراسة  
 الحالية هي محاولة لرد كل ذلك الى حجمه الطبيعي  
 برغم ما قد يوجد من إحصاءات في الأشعار خلدت اسم  
 هذا الشاعر .

١ - هوميروس

## عالم هوميروس

لطفي عبد الوهاب يحيى

أستاذ تاريخ الحضارة في جامعة الاسكندرية

وفي صدد هذه المحاولة ، فان أول ما يجابهنا هو  
 هذا القدر الهائل من النقاش الذي دار ولا يزال يدور  
 حول هوميروس ، بحيث تكاد تكون الحقيقة الواحدة  
 التي لم يدر حولها خلاف في الرأي هي أن اليونان  
 اعتقدوا أنهم في فترة مبكرة من تاريخهم قد جمعوا  
 قواتهم وأبحروا من بلادهم تحت قيادة أجاممنون  
 Agamemon ، أكبر ملوكهم ، ليشنوا حرباً

انتقامية على طرواده ، وهي منطقة تقع بالقرب من مداخل البحر الاسود في القسم الشمالي الغربي لآسية الصغرى ، وأن شاعرا اسمه هوميروس قد خلد هذه الحرب في ملحمتين : احداهما هي الالياذه ( نسبة الى مدينة اليوس أو اليون Ilios, Iion عاصمة منطقة طرواده ) ويقع مسرحها ضمن نطاق الحرب ذاتها حول أسوار المدينة وفي داخلها . والأخرى ، وهي الأوديسية ، تتخذ موضوعها مما تعرض له أوديسيوس Odysseus ، احد الملوك والقادة اليونانيين ، من مخاطر وهو في طريق عودته الى اثاكا Ithaka مقر ملكه وهي جزيرة تقع عند الساحل الغربي لشبه جزيرة البلقان .

أما فيما عدا ذلك فقد ظل الخلاف مستمرا ومتشعبا ، سواء فيما يتصل بالظروف التي تتعلق بالشاعر او تلك التي أحاطت بشعره ، بحيث لا ترقى معرفتنا بهذه الظروف الا الى مرتبة التقريب والتجميع دون أن تصل الى مرتبة القطع واليقين . ومع ذلك فالالياذه والأوديسية كانتا ، ولا تزا لان ، تشكلا مصدرأ أساسيا للتعرف على الجوانب المختلفة لعالمه بأكمله ، هو حياة اليونان وحضارتهم في عصرهم المبكر . وسأحاول في الشوط الأول من هذه الدراسة أن أتحدث عن الخطوط العامة في هذا الخلاف الذى أثاره ما اكتنف الشاعر وشعره من غموض ، وعن الاعتبارات التي لا تنتقص ، رغم ذلك ، من قيمة هذا الشعر كمصدر لما تبغيه من التعرف على العالم المذكور . ولكن بداية الحديث عرضا سريعا للمادة التي أثارَت ما ذكرت من خلاف والتي أحاط بها ما ذكرت من غموض ، والتي لاتزال تعتمد عليها في تصوير عصر كامل من حياة اليونان : أعني هوميروس وملحمته ، الالياذه والإوديسية .

### الشاعر والشعر

وقد كان هوميروس ، في اعتقاد اليونان ، شاعرا أعمى - هكذا تحدثوا عنه ، وعلى هذه الصورة ابرزوه في تماثيلهم التي نحتوها على مر العصور لتمجيده وتخليده ، وكان ينشد شعره أمام سامعيه من اليونان ، وبخاصة في قصور ملوكهم ونبلائهم ، على نحو ما كان يفعل غيره من الشعراء المتنقلين الذين كانوا يحملون شعرهم وأنشادهم من مكان الى مكان . ولكن هوميروس كان في نظر اليونان غير بقية هؤلاء الشعراء ، فهو سيدهم بلا منازع ، وهو شاعر فيه صدق المعلم وأكثر من لسة من الوسى الهللي . اعتقد اليونان ذلك ولم يشك فيه حتى كبار مفكرهم وأدبائهم الذين اتخذ بعضهم من شخصيات الملحمتين أو حوادثها مادة لما كتبوه من مسرحيات ، تمثل الخلفية التاريخية المستمدة من الواقع والحقيقة في عملهم الادبي . هكذا كانت قناعة اليونان ومن ثم كان كل ما قدمه هوميروس في الالياذه والإوديسية يشكل في نظرهم تاريخا حقيقيا لأحداث ومواقف وقعت وحدثت ووجدت فعلا في حقبة سابقة من حياتهم .

والموضوع الرئيسى الذى تدور حوله الالياذه ( أو ملحمة اليون ) ، كما يظهر من أول سطر فيها هو غضب

أخيليس . والملمحة تتخذ نقطة بدايتها من حيث يدب الشقاق بين أخيليس Achilles ؛ أعظم المحاربين اليونان ( أو الأخيين كما كان يسميهم الشاعر في أغلب الاحيان ) ، وبين أجاممنون Agamemnon أكبر ملوكهم والقائد الأعلى لقواتهم ، حول مسأله تتعلق باحدى النساء الطرواديات اللاتي وقعن سبائا في أيدي الأخيين . وحين يبدأ هذا الشقاق يكون الأخيون قد بدأوا عامهم العاشر في حصار اليون ، في محاولة منهم لاسقاط هذه المدينة واستعادة هيليني Helene زوجة مينيلوس ( الذي كان ملكا لاسبرطة وأخا لأجاممنون ) ، وكان باريس ابن ملك طروادة قد أغراها بالفرار معه الى بلاده ، بعد ان نزل ضيفا على زوجها .

ثم يروي لنا الشاعر العواقب الخيمة التي ترتبت على غضب اخيليس ، سواء بالنسبة للأخيين الذين كان عليهم أن يحاربوا بدون أعظم محارب بينهم ، أو بالنسبة لأخيليس نفسه ، الذي كانت نتيجة امتناعه عن الاشتراك في الحرب أن فقد أقرب أصدقائه اليه ، باتروكلوس Patroklos الذي سقط في ميدان القتال بعد ان صرعه هكتور Hektor البطل الطروادي . ويستطرد ناظم الملمحة الى حيث يقرر أخيليس ، بعد ذلك ، أن يصفي النزاع بينه وبين أجاممنون على أثر وقوع هذه المأساة ، فينتقم لصديقه بقتل هكتور بعد مبارزة حامية تظهر بطولة الغالب والمغلوب . وبعد أن يقيم أخيليس الاحتفال المناسب لتوديع جثمان صديقه ، يقبل فدية يقدمها برياموس Priamos ملك طروادة ليستعيد بها جثمان هكتور ويشيعه ، بعد اقامة الشعائر اللازمة ، الى مقره الأخير .

والموضوع كما هو واضح ، قصير . ونحن اذا تنبنا مداه الزمني عبر سطور الاليزاء ، نجد انه لا يستغرق أكثر من أربعين يوما . ومع ذلك فالشاعر يجعل منه هيكل لقصة ( وان كان التفصيل ليس بنفس القدر في كل الأماكن ) ، عن روعة الحرب وأساتها في الوقت ذاته ، وعن المتناقضات التي تسيطر على تصرفات البشر والآلهة على السواء . وهي قصة تستوعب في دائرة مواردها وشواردها كل السنوات العشر التي استغرقتها الحصار والقتال . بل وتقتد في بعض الأحيان الى ما قبل هذه الحروب من ناحية وتستشرف الفترة التالية لها من ناحية أخرى . كذلك فان القصة لا تقتصر على ميدان القتال الرئيسي حول أسوار اليونان ، وإنما تنتقل بنا الى ما خلف القتال ، حيث معسكر الأخيين واجتماعاتهم ومشاوراتهم ، وإلى داخل أسوار اليون حيث استمدادات الطرواديين للدفاع عن مدنتهم وفك حصارها . بل ان القصة كثيرا ما تأخذنا بعيدا حتى عن ميدان القتال في طروادة لتطوف بنا في أماكن أخرى كانت مسرحا لحوادث أو بطولات أخرى .

والشاعر بليجا في الوصول الى تفاصيله لكل الوسائل التي يمكن أن تصل اليها مهارة الاديب ، سواء أكانت الوسيلة ذكريات عن الماضي يرويها أبطال الملمحة أو تتبؤات عن المستقبل أو مقارنات بين حوادث وقعت في أماكن مختلفة أو أزمنة متباعدة ، أو مقارنات بين أشخاص أو جماعات من الناس وبين عادات كل منهم ، أم أستطرادات يضمها الشاعر على لسان أبطال الاخيين أو على لسان الآلهة ، أو يقوم بها هو ذاته واصفا او معلقا وهو يضع وراءه

كل هذا خلفية من العصر الميكر الذي تصوره اليونان ورسموه في أدهم وفي كتاباتهم عصرا للأبطال ، ويتحدث فعلا عن بعض هؤلاء الأبطال مثل هراكليس ( هرقل ) Herkales كما يشير الى ما دار في هذا العصر من حوادث رئيسية اعتقد اليونان في وقوعها مثل « حرب السبعة الأشداء ضد طيبة » وهكذا ..



فأذا انتقلنا الى الأوديسية وجدنا موضوعها أكثر تعددا في جوانبه . فبينما تتركز الألياذة ، رغم تشعب تفاصيلها ، حول موقف واحد هو غضب اخيلويس ، نجد الأوديسية ، رغم أنها تتخذ موضوعها أساسا من عودة أوديسيوس من حرب طروادة الى وطنه في اثاكة ، تمتد على ثلاث مراحل ، ولكن مع ذلك ، فهي تشبه الاللياذة من ناحية المدى الزمني الذي تدور فيه الحوادث التي تعالجها فهذه ، هي الاخرى ، لاستغرق أكثر من أربعين يوما تقريبا من أصل عشر سنوات تشير اليها الملحمة ، وما عدا ذلك فيأتي بشكل جانبي أو عابر من خلال الأحاديث والذكريات .

والمرحلة الاولى تدور في اثاكة حيث تعلم في بداية الملحمة أن أوديسيوس لا يزال غائبا رغم أن حرب طروادة قد انتهت منذ عشر سنوات وعاد من بقي حيا من أبطالها الى مواطنهم . والمنظر الاساسي في هذه المرحلة ( التي تمتد عبر أربعة أناشيد من أصل الأناشيد الأربع والعشرين التي تتكون منها الأوديسية هو قصر أوديسيوس حيث يتكالب عليه نبلاء المدينة ويكادون يقيمون فيه بصفة دائمة ، وكل منهم طامع في أن يحصل على يد بنيلوبي Peneiope زوجة الملك الغائب بعد أن اعتقد أهل إثاكة أنه مات ولن يعود ، فالذي يتزوج الملكة سيتربع على عرش الملكة ( وان كنا لانعرف كيف سيتم هذا في وجود تليماخوس ، الذي كان أبوه قد تركه رضيعا عندما أبحر الى طروادة قبل عشرين سنة ، وأصبح الآن بعد أن بلغ سن الرشد أهلا ليتولى العرش حتى دون وصاية ) . ولكن الملكة وابنها لم يفقدا الأمل في عودة أوديسيوس ، ويستعد تليماخوس من جانبه للقيام برحلة يتقضى فيها أخبار والده من رفاقه الذين قدر لهم أن يعودوا من طروادة .

والمرحلة التالية من الأوديسية تمتد من النشيد الخامس لستوعب الأناشيد التالية حتى القسم الأول من النشيد الثالث عشر وفيها نرى أوديسيوس في رحلة العودة ، بعد ان توسطت الالهة أثينة بالاس لدي زيوس ، كبير الالهة ، ليفك أسر البطل اليوناني من جزيرة أو جييجا Ogygia حيث كان واقفا تحت سيطرة كاليبسو Kalypso حورية البحر ، وبعد رحلة يتعرض فيها أوديسيوس لغضب إله البحر بوسيدون Poseidon يصل اخيرا الى جزيرة اسخيرية Scheria حيث يستضيفه ملكها ألكينوس Alkinos ، وهناك يحظى الملك بضيفه ويريوي أوديسيوس للملك ما تعرض له من مخاطر وما صادفه من صعاب تدخل في دائرة العجائب ذاتها ، وتنتهي هذه الرحلة بأن يبحر أوديسيوس ومعه بعض ابناء الجزيرة الى حيث يوصلونه الى إثاكة مقر ملكه .

اما المرحلة الأخيرة ، وهي التي تستغرق بقية النشيد الثالث عشر وتمتد الى نهاية الملحمة ، فالمنظر يعود فيها الى إناكه حيث يبدأ أوديسيوس ، تعاونه الآلهة أثينة ، في الاستعداد للصدام المحتم مع النبلاء الذين كانوا يطعمون في عرشه . وهكذا يتنكر أوديسيوس بمساعدة الآلهة في زي سائل يتسلل الى داخل القصر ، دون ان يدرك هويته أحد من النبلاء ، بينما يجمله الشاعر يلتقي بابنه وزوجته اللذين يتعرفان عليه . وتكون هذه هي البداية التي تنتهي بقتال يدور بينه هو وأتباعه الذين ظلوا على وفائهم له من جانب ، وبين طائفة النبلاء من الجانب الآخر ، يختمه الشاعر بانتصار أوديسيوس وعودة السلام الى ربوع إناكه .

#### الغموض الذي يحيط بالشاعر والشعر

هذه هي قصة هوميروس ، الشاعر الذي وضعه اليونان على رأس شعرائهم ، والملحمتان اللتان نسبتاها اليه واللذان آمنوا بما جاء فيها كتاريخ لشعبهم في مرحلته المبكرة . ولكن ، مع ذلك ، فإن الخلاف والغموض ، كما ذكرت ، قد أحاطا بأكثر من جانب من جوانب هذا الموضوع ، سواء فيما يخص الشاعر أو الشعر الذي نسب اليه . ففما يتعلق بالشاعر تصورتنا مقطوعة أدبية ترجع الى النصف الاول من القرن الثاني الميلادي ، مدى الحيرة التي كانت لاتزال تسيطر حتى ذلك الوقت المتأخر على اليونان أنفسهم حول اسم الشاعر وسبب تسميته وحول أصله ، والمكان الذي ولد ونشأ فيه<sup>(١)</sup> . أما عن الاسم وسبب التسمية فيذكر لنا كاتب هذه المقطوعة ثلاثة أسماء أعطتها الروايات المختلفة لهوميروس غير اسمه الذي نعرفه به ، كما يجدرنا عن اختلاف مماثل حول أصل الشاعر . وهو اختلاف يبدو أنه كان كبيرا فعلا حيث نجد سبع روايات كل منها تنسب لهوميروس الى أب مختلف ، وسبع روايات أخرى تنسب الشاعر الى سبع أمهات مختلفة ، وما يقال عن الأصل الذي انحدر منه هوميروس . يصدق كذلك عن المكان الذي شهد مولده ونشأته ، حيث يذكر لنا الكاتب أنه « ما من مدينة إلا ونسبته اليها وادعى أهلها أنه من بين ظهرانيهم » .

هذا ، وليس أصل الشاعر ونشأته هما اللذان يحيط بهما الغموض فحسب ، بل يمتد هذا الغموض ليلف جوانب أخرى من القضية ، فهل هناك شاعر واحد نظم الملحمتين أم أن هناك أكثر من شاعر . لقد كان اليونان أنفسهم قاطعين في هذا الموضوع ، فاعتقادهم لا يرقى اليه الشك في أن الالباءة والاديسية قد نظمها هوميروس . ولكن الامر لم يكن بهذه السهولة عند نقاد العصر الحديث ، فقد كان القرن الماضي مسرحا لرأيتين متناقضتين ، أحدها يؤيد ما آمن به اليونان ، والآخر يرى أن الملحمتين لا يمكن أن يكونا من نظم شخص واحد . وليس من بين

١ - المقطوعة لكاتب مجهول وضرباها « حول هوميروس وهزيودس ، أصلها واللباءة بينهما » Kai Hesiodou Kai Tou Genovs Kai Agonosautou Peri Homerou وقد كانت كتابتها في عهد الإمبراطور الروماني هادريانوس ( ١١٧ - ١٢٨ ق.م ) أو بعد مائة سنة تقريبا . والمقطوعة يدون كاتبها اعتد على ما كتبه في فترة سابقة السوفسطائي الكيداماس Alkidamas قبل ذلك بنحو خمسة قرون ونصف ( حوالي ٤٠٠ ق.م ) راجع نص المقطوعة في : Marckscheffel , Hesiodi Fragmenta, p. 35

اهداف هذه الدراسة التي تهتم أساسا بالمعصر أو العالم الذي يرسمه الشاعر أن أخوض في تفاصيل هذا الخلاف ، ولكن اكتفي بأن أقول إن الرأي الغالب الآن بين المهتمين بهذه القضية هو أن اليونان كانوا على حق في اعتقادهم ، وأن الملحميين ربما كانوا من نظم شاعر واحد ، وإن كان لا يزال هناك من يفترض وجود شاعرين تفصل بينهما فترة زمنية وصلت في أحد الآراء إلى نحو مائة سنة<sup>(٢)</sup> .

وحتى إذا افترضنا أن الملحميين من نظم شاعر واحد فإن هذا لا يضع حدا للقضية ، إذ لا يزال هناك خلاف حول حقيقة الدور الذي قام به هذا الشاعر الواحد . وهناك اتجاهان فيما يخص هذه المسألة ، أحدهما يرى الداعون اليه أن هوميروس انتفع بالمقطوعات الشعرية التي كانت موجودة ومتراكمة في التراث الشعبي اليوناني في الفترة السابقة لظهوره ، ثم اضاف اليها لمساته الخاصة ليخرجها في صورة الملحميين كما نعرفها الآن . بينما يرى أنصار الاتجاه الآخر أن الشاعر نظم ملحمتيه في البداية ثم حدثت بعد ذلك اضافات تفصيلية عليها قام بها شعراء آخرون<sup>(٣)</sup> .

وإذا كان الشاعر يحيط به الغموض من أكثر من جانب ، فإن شعره الذي تجسده الملحمتان لم ينتج من هذا الغموض والحيرة التي تصاحبه من وجهة نظر التاريخ . لقد حاول الآخريون والمهتمون بدراسة الآثار أن يشبثوا حرب طروادة من الناحية التاريخية . وقد بدأ هذا البحث وراء الحقيقة التاريخية هابنريخ شليمان Heinrich Schliemann التابثر الألماني الذي تحمس منذ صباه لهوميروس ولغته وشعره ، وأمن بأن ما جاء في هذا الشعر لا يمكن أن يكون كله خيالا وأنه لا يد وأن يكون له أساس من الحقيقة . وقد قام بحفائره في اواسط النصف الثاني من القرن الماضي في المنطقة المعروفة الآن باسم تل حصارك - وهي تبعد عن شواطئ الدردنيل بنحو اربعة كيلومترات الى داخل أسية الصغرى - واستطاع أن يعثر فيها على طبقات أثرية ، ثم تابع الحفر في هذه المنطقة الباحث الأثري ديرفيلد Doerpfeld قرب أواخر القرن ، واستكملها بعد ذلك عدد من علماء الآثار الأمريكيين على رأسهم بليجن Blegen ( بين ١٩٣٢ و ١٩٣٨ ) . وكانت النتيجة هي العثور على آثار المدينة التي تتفق أوصافها مع ظروف طروادة التي تحدث عنها هوميروس في الطبقة التي أعطائها العلماء الآخريون رقم ١٧ .

٢ - من بين الذين استقروا على شاعر واحد للملحميين :

E.V. Rieu: Homer, The Liad ( Pelican ed. ) p. VII

C.M.Bawra : Ancient Greek Literature, P. 19

من بين أصحاب نظرية الشاعرين ، واحد لكل ملحمة ، مع قاري زمني بينهما :

M.I. Finley : The World of Odysseus ( Pelican ed. ) P. 36

٣ - ليعر هذه القضية أساسا العالم الألماني فراف Wolf في أواخر القرن الثامن عشر في كتابه « مدخل الى هوميروس » Prolegomena ad Homerum من بين أنصار الرأي الأول الكاتبان الألمانيان G. Hermann و K. Laehmann ومن بين أنصار الرأي الثاني الكاتب الإنجليزي R.P. Knight ومن بين الذين حاولوا التوفيق بين الرأيين المأرّخ G. Grote

وقد أثبت هذا الكشف من ناحية الدراسة التاريخية ، حرب طروادة التي رسمها هوميروس بالشعر والقصص - ولكن التطابق بين التاريخ والقصة يتوقف عند هذه الحدود العامة ، فإذا ازلنا في التفاصيل لا نلبث أن نصلدهم بأكثر من نقطة لا تتفق فيها القصة مع التاريخ ، وهكذا يبدأ الغموض الذي دفع بأحد الباحثين مؤخرًا إلى أن يقول « ان هناك خطأ ما ، إما في طروادة شليمان أو في طروادة هوميروس »<sup>(١)</sup>.

وسأعرض الآن بعض الخطوط العامة لهذا التناقض بين ما أنشده الشاعر وما اكتشفه البحث الأثري والتاريخي الحديث . وأول جوانب هذا التناقض يتصل بساحة القتال ، أمام أسوار طروادة ، بين اليونان « أو الآخيين حسب تسمية هوميروس ، وبين الطرواديين ، لقد أورد هوميروس كثيرا من التفاصيل الدقيقة لملاح هذه المنطقة وهو يتحدث عن تحركات القوات والتحام المحاربين ، بحيث يصحح من الممكن أن نرسم صورة دقيقة لساحة القتال بكافة ملامحها . ولكن الصورة التي يرسمها الشاعر لا تنطبق على الآثار التي كشفت عنها معارك الأثريين في المنطقة.

وإذا كانت ملامح طروادة التي تحدث عنها الشاعر قد اختلفت ، فانتا لا نجد للطرواديين أنفسهم وجودا تاريخيا في غير ملحمة هوميروس . وهذا يبدو غريبا إذا عرفنا أن كثيرا من الاقوام التي تحدث عنها الشاعر قد ثبت وجودها التاريخي ، وكان وجودا مستمرا في احيان كثيرة . ومن بين هذه الاقوام على سبيل المثال المصريون والفنيقيون الذين يتحدث عنهم الشاعر في أكثر من موضوع ، والدور التاريخي والحضاري لكل منهما ثابت ومعروف . كذلك فان الشاعر يذكر بين حلفاء الطرواديين أنفسهم اقواما ثبت وجودهم التاريخي ، مثل الفريجيين ( أهل منطقة فريجيه Phrygia ) والكاريين ( أهل منطقة كاريه Karia وهم وسابقوهم من آسيه الصغرى ) وغيرهم . بل أكثر من هذا فان هوميروس لا يعطي الطرواديين في كل الأحوال صفات أو ملامح تميزهم بشكل قاطع ، ففي أسماهم على سبيل المثال نجد تداخل بينهم وبين اليونان . فاسم هكتور مثلا ، وهو بطل طروادى ، هو اسم يونانى . وباريس Paris ابن ملك طرواده ، الذى كان اغراؤه هيلينى بالفرار معه سببا في حرب طرواده ( حسبما يذكر هوميروس ) هو اسم غير يونانى ، ولكن الشخص ذاته يحمل اسما آخر يونانيا ، هو الكسندروس Alexandros ( الاسكندر ) .. وهكذا<sup>(٢)</sup>.

كذلك هناك تناقض آخر يخص الفترة الزمنية التى استغرقتها الحرب . ان هذه الفترة الزمنية امتدت عشر سنوات في حساب هوميروس ، ولكن مع ذلك فان بعض مناظر الحرب ولامحها لا تتفق مع هذه الفترة الزمنية

Rhys Carpenter: Folktales Fiction and Saga in the Homeric Epics. P. 51 - 1

١ - عن ذكر المصريين عند هوميروس انظر الأوديسة ، نشيد ٤ ، سطر ٨٣ ، نشيد ١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٨٦ ، نشيد ١٧ ، ٤٣٢ . عن ذكر الفينيقيين ، الأوديسة ١٢ ، ٢٧٢ ، ١٤ ، ٢٨٨ ، ١٥ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٧٣ ، الألياذة ، نشيد ٢٣ ، ٢٤٤ ، عن الفريجيين ، الألياذة ، النشيد الثاني ، ٨١٢ ، عن الكاريين ، النشيد ذاته ، ٨٦٧ . عن اسم الكسندروس ، الألياذة ، ١٦ ، ٤ .

الطويلة . وعلى سبيل ، المثال فانتا نجد هيليني في أحد المناظر وقد جلست على تحصينات طروادة الى جانبها يظهر برياموس ملك الطرواديين ، وهي تشير الى بعض القادة الأخييين حتى يتعرف الملك عليهم<sup>(٦)</sup> . وهذا يبدو غريبا ، اذا تذكرنا أن هذا المنظر يقع في السنة العاشرة من الحرب - اذ لا يعقل أن يغفل الملك مثل هذا الموضوع الهام وهو معرفة قادة أعدائه ، تسع سنوات أو أكثر ، ولا يبدأ في التعرف على هؤلاء القادة الا في السنة العاشرة ، قرب نهاية الحرب .

#### القيمة التاريخية للشاعر والشعر

الخلاف والغموض والتناقض ، اذن ، لا يلبث أن يحيط بهوميروس ويلحمتهى الاليانة والاديسية . اذا أردنا أن نضع الشعر والشاعر داخل حدود الحقيقة التاريخية الثابتة . ولكن مع كل هذا فقد كان للملمحتين قيمة كبيرة ومركزا لا يستهان به في حياة اليونان - وهو مركز لا يقتصر على مجرد الاحترام والتبجيل ، وإنما يتعداه الى التشبث بما كتبه هوميروس على انه حقيقة لا يرتقى اليها الشك . والمسافة بين هذا الأثر الكبير الذي يشكل نقطة قوة ، وهذا الغموض الذي يشكل نقطة ضعف ، في رأيي ، هي التي يجب ان نبحت فيها عن القيمة التاريخية لما تركه لنا هوميروس . والطريقة السليمة للوصول الى ذلك هي أن نحاول التعرف على أسباب التناقض الذي يكمن وراء قدر كبير من هذا الغموض ، وهناك ثلاثة اسباب اقدمها في هذا المجال :

أما السبب الاول فهو أن هوميروس لم يبدأ من نقطة اللاتمهي في نظم قصيدتيه الطويلتين ، وإنما كان تحت يديه قدر كبير متراكم على مر القرون من التراث الأدبي الشعبي ممثلا في أناشيد وأساطير وأغاني ومقطوعات نسجها أبناء الأجيال المتعاقبة من اليونان حول الحوادث التي مرت بهم وحول القيم والمثل التي تسيطر على حياتهم . وطبيعي أن هذه المخلقات الأدبية تختلف في توجيهها من فترة الى فترة ، مع تطور الزمن - فالعادات تتغير ، والأدوات والأسلحة التي يستخدمها الناس تتغير ، والمعادن التي يصوغون منها هذه الادوات والاسلحة تتغير ، والنظم والاجتماعية والسياسية ونوع الموارد الاقتصادية التي يعتمد عليها اليونان تتغير وتتطور هي الاخرى ، وهكذا . والشاعر يأخذ من هذه المخلقات الادبية المتداولة التي وصلت اليه ما يحتاج اليه في نسج روايته أو قصته الطويلة ، حقيقة انه يضع لسانه الاخيرة ، وربما ، بل من المؤكد انه زاد على هذه المخلقات الشيء الكثير من عنده - ولكن هوميروس لم يكن مؤرخا او ناقدًا تاريخيا ، وإنما كان أدبيا قبل كل شيء وفوق كل شيء . وبحور الاليانة عنده ليس حرب طروادة التي ذكر لنا انها استغرقت عشر سنوات ، وإنما غضب اخيلئوس والمآسي التي ترتبت عليه هي التي تشكل هذا المحور ، وهي لاستغرقت اكثر من أربعين يوما من السنوات العشر . كذلك فان طريق العودة من طروادة الى اثاكة ليس هي محور الاديسية بالنسبة لهوميروس وإنما بطولة أوديسيوس

٦ - الالهة ٢ : سطر ١٦٠ وما بعده .



التي تدعمها عدالة قضيتها في مواجهة النبلاء الطامعين في عرشه هي ما أراد الشاعر أن يصوره . ومن هنا لا يتم الشاعر بهذه التناقضات التفصيلية التي قد تقوم بين ما وجدته تحت تصرفه من المقطوعات والقصائد والأناشيد التي ترجع الى فترات زمنية متباينة وتحمل في طياتها ، لهذا السبب ذاته ، بذور التناقض فيما بينها . وإنما الذي يهتم به الشاعر هو التوافق أو الانسجام « العام » في الملحمة « ككل » وليس بين تفصيلاتها « كأجزاء » .

والسبب الثاني للتناقض الذي يبدو في بعض جوانب الاشعار الهوميرية يرجع الى طبيعة المجتمع اليوناني ذاته التي فرضتها عليه ظروفه الخاصة . فبلاد اليونان لم تعرف مجتمعا موحدا منذ بداية تاريخها حتى سقطت تحت السيطرة الاجنبية ، وإنما كان هذا المجتمع في حقيقته مجموعة كبيرة من المجتمعات سواء في بلاد اليونان الأصلية في جنوبي شبه جزيرة البلقان أو في المناطق التي هاجر اليها اليونان . وقد كان من بين الاسباب التي أدت الى هذا الاتجاه الانفصالي دون شك ، الظروف التضارسية التي نرى فيها الجبال تمتد في كل اتجاه لتمزق البلاد الى مناطق ومن ثم الى مجتمعات منفصلة عن بعضها أو تكاد تكون كذلك . وقد كان لكل من هذه المجتمعات الصغيرة بالضرورة أساطير وأناشيد التي تختلف عن غيرها ، والشعراء المتجولون ، ومنهم هوميروس ، كانوا يحبون هذه المناطق أو الأقسام او المجتمعات المختلفة ويتغنون فيها بأشعارهم أمام فئات الشعب المختلفة أو أمام الحاكم ، ومن ثم فقد كانوا يلتقطون كثيرا من هذه الاساطير والأناشيد لتصبح لديهم مجموعات متعددة منها يستخدمونها في نسج قصة أو رواية ينشدونها بدورها ، وهكذا - ومن بين هذه الاخرة ، للمحماتان المنسوبتان الى هوميروس . وقد كانت هاتان ، من واقع تواترها واستمرارها ، هما ما تغنى به الشعراء المتجولون المذكورون في هذا الصدد .

كذلك فان تعدد هذه المجتمعات الصغيرة كان معناه أنه كان على هؤلاء الشعراء المتجولين أن يكونوا على شيء من المرونة وهم ينشدون ملحمة مثل الاللياذة أو الأوديسية ، فالموقف أو المنظر الذي يجده بيتا حاكما معنا قد لا يكون من الملائم أن ينشد كما هو أمام حاكم من بيت آخر إذا كان هناك عداء مثلا ، بين البيتين الحاكمين . وتغيير البيوت الحاكمة نتيجة انقلاب أو أية حركة مماثلة ، وكثيرا ما كان هذا يحدث في بلاد اليونان ، كان يستتبع بالضرورة تغييرا فيما ينشده الشاعر فيما يخص الشخصيات والأبطال التي كانت تمت بصله حقيقة متصورة الى البيوت الحاكمة المختلفة وهكذا وبمرور الوقت ، أصبحت هناك تغييرات في سياق الاللياذ والأوديسية أدت بالضرورة الى التناقض الذي يظهر في بعض جوانبها .

والسبب الاخير الذي أدى الى ما يبدو من هذا التناقض هو أن اليونان في الحقبة المبكرة من تاريخهم مروا بفترة لم يعرفوا فيها الكتابة ، ومن هنا كان الاعتماد في الاحتفاظ بقصائدهم وملحهم على الرواية الشفوية أساسا ، بكل ما يعنيه هذا من تغيير بين شاعر وشاعر وبين جيل وجيل من هؤلاء الشعراء المتجولين الذين كانوا يكسبون خبز يومهم بانشاد هذه الملحمة . حقيقة كان هناك نوع من الخط في العصر البرونزي ، ولكن لا توجد

أية شواهد على أن هذا الخطأ استخدم في تدوين أي شيء يستحق أن تطلق عليه صفة الادب . كذلك فقد أعقبت هذا العصر فترة من الجهل بالكتابة امتدت الى حوالى القرن الثامن ق.م. تقريبا قبل أن ينقل اليونان الحروف الأبجدية عن الفينيقيين ، الذين كانوا قد نقلوها بدورهم عن المصريين ثم صقلوها . وحتى بعد أن عرف اليونان الكتابة فإنها كانت قليلة الانتشار حتى القرن الخامس ق.م.



هذه هي الاسباب التي تكمن وراء التناقض الذى يظهر في أشعار هوميروس . ولكن رغم هذا التناقض الذى يبدو في كثير من التفاصيل ، الا أن الصورة العامة أو الخلفية التى تظهر وراء هذه التفاصيل فيها شيء كثير من الوحدة والانسجام أو التوافق في عمومها . وهذه الوحدة العامة تصلح كبداية تساعد دارس الحضارة في استخدامه للمحتوى هوميروس كإداة لتصوير حقيقة من حياة المجتمع اليونانى دون أن يتعرض لأكثر من القدر المقبول من الخطأ لعدة أسباب . وأول هذه الاسباب هو أن هوميروس لم يقم نفسه في المواقف التى كان يذكرها الا في أضيق الحدود الممكنة ، وإنما احتفظ مكانه بعيدا عن التعليق على ذلك الى أقصى حد مستطاع . وقد لفت هذا نظرا أرسطو في كتابه عن الشعر ، حيث يذكر أن « هوميروس يستحق الثناء في أكثر من مجال ، وبخاصة لأنه يدرك دون غيره من الشعراء ، الدور الذى يجب أن يتخذه ، فالشاعر يجب ألا يتحدث عن نفسه الا أقل القليل<sup>(١٧)</sup> . وهذه في الواقع ميزة للباحث في تاريخ الحضارة لأن معناها أن الدور الرئيسى الذى قام به هوميروس هو نقل المادة الأدبية التى كانت موجودة ومتراكمة حتى عهده دون أن يدخل شخصيته في محتواها ، وإنما اقتصر دوره على ترتيبها وإخراجها في الصورة التى وصلت إلينا ، فظل هذا المحتوى معبرا عما كان موجودا بالفعل في المجتمع اليونانى . وان كنا يجب أن ندخل في الاعتبار بطبيعة الحال أن هوميروس كان يقوم بالضرورة بانتقاء المادة التى يراها تصلح للقصة أو تنفق معها .

كذلك فنحن لا نعتمد على الإلياذة والأوديسية لمعرفة تفاصيل أو أحداث معينة ، وإنما المجال الرئيسى لاعتدائها عليها هو أساسا في معرفة اتجاهات عامة ، ( سواء في معرفة الأوضاع والقيم الاجتماعية أو التيارات السياسية أو الاقتصادية أو غيرها ) تعتمد على التحليل العام للملحمة أو للمحتئين ككل دون أن نحصر أنفسنا داخل التفاصيل . وهكذا تضيق حدود الخطأ بالنسبة للباحث في تاريخ الحضارة اليونانية مرة أخرى ، وبخاصة إذا لجأ الى مقارنة ما يصل اليه بما كان سائدا في بلاد اليونان ذاتها في المصور التالية أو بما يتوصل الى معرفته عن المجتمعات الأخرى .

## ٢ - عصر هوميروس

لا أقصد بعصر هوميروس الفترة التي عاش فيها الشاعر الذي نسب إليه اليونان نظم الإلياذة والأوديسية والذي أشرت إلى بعض الظروف التي أحاطت بشخصيته وعمله الأدبي، وهي ظروف كانت مثارا لأكثر من خلاف - وإنما أعني بهذا العصر كل المرحلة التاريخية التي نجد إشارات إليها في الملحمين المذكورين . وقد كانت الملحمتان بما فيها من إشارات ، كما رأينا ، محصلة لتطور مستمر على مدى طويل كان كل شاعر يضيف فيه إلى سابقيه شيئا جديدا يصوغه في هيئة مقطوعة أو أنشودة يتغنّى فيها بحدث أو باسطورة تحمل معالم الوقت الذي يعيش فيه ، حتى جاء الشاعر الذي صاغ الملحمين المذكورين من كل هذا التراث ، أو بما اختاره من بينه . وبهذا المفهوم يصبح من البديهي أن عصر هوميروس يغطي من حياة المجتمع اليوناني فترة لا يمكن رسم أبعادها الزمنية بشكل محدد ، وأن من الممكن مع ذلك أن نشير إلى بعض الظروف التي أحاطت بها .

## بداية عصر هوميروس

وليكن الحديث الآن عن بداية هذه الفترة أو هذا العصر . لقد حاول اليونان الأقدمون أن يحددوا تاريخ حرب طروادة ووصلت بهم حساباتهم في هذا الصدد ( وهي حسابات تقوم غالبا على عدد الأجيال التي انقضت منذ وقوع هذه الحرب من خلال نسب بعض الحكام أو الأشخاص الظاهرين أبطال الملحمين ) إلى الاعتقاد بأن هذه الحرب وقعت في الربع الأول من القرن الثاني عشر ق.م. ومن الناحية الأثرية فإن الحفائر التي قام بها شليمان والذين جاؤوا بعده ، تكاد تطابق هذا الاعتقاد ، فقد وجدت آثار مدينة ( وهي التي أطلق عليها اسم طروادة ٦ ) كانت على اتصال ببلاد اليونان الأصلية حيث كانت الحضارة الميكينية قد وصلت إلى مرحلة قوتها ابتداء من ١٤٠٠ ق.م ، إذ تظهر فيها مخلفات مستوردة من هذه المنطقة ، وقد دلت الحفائر على أن هذه المدينة قد دمرها زلزال حوالي ١٣٠٠ ق.م وبعد الزلزال أعيد بناء المدينة بشكل أقل في مستواه مما كانت عليه من قبل ، ولكن هذه المدينة دمرت هي الأخرى وأحرقت بعد نحو مائة عام أي في أوائل القرن الثاني عشر ق.م. تقريبا<sup>(٨)</sup> . فإذا أدخلنا في الاعتبار هذا التاريخ ، وأن طروادة التي يتحدث عنها هوميروس قد دمرت وحُرقت كذلك ، يمكن أن نحصل على نوع من التوافق ، أو على الأقل عدم التعارض ، بين ما اعتقده اليونان وبين ما كشفته هذه الحفائر الأثرية .

كذلك فإن الحفائر قد كشفت عن آثار تشير إلى هذا التاريخ بشكل تقريبي من ناحية أخرى . فقد اكتشفت معالم من الحضارة الميكينية في كل الأماكن العامة التي أشار إليها هوميروس في أشعاره ، وقد ذكر الشاعر هذه

الأماكن حين كان يصدد الحديث عن الكنائس اليونانية التي تجمعت أمام طرواده . ومن بين هذه الأماكن : ميكيني وتيرنس وأرجوس ويولوس وأثينيه وغيرها ، وقد كانت المخلفات التي وجدت في هذه المناطق على نفس المستوى المرتفع الذي تطرق الى وصفه هوميروس في بعض الأحيان ، والاستثناء الوحيد في هذا المجال هو مدنيته اناكه التي لم تبلغ المخلفات التي وجدت فيها نفس المستوى الذي وصفه هوميروس وهو يتحدث عن قصر أوديسيوس<sup>(٩)</sup> .

وقد ازدهرت الحضارة الميكينية في بلاد اليونان في الفترة الواقعة بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ ق.م. فهناك شواهد كثيرة تشير الى انتشار هذه الحضارة التي كانت مدنيته ميكيني Mykenae مركز اشعاع لها ، الى عديد من المدن اليونانية : ففي أثينيه وجدت آثار قصر وحصن ومقبرة وكلها ذات طابع ميكيني ، وفي أورشومينوس Archomenos وجدت مقبرة على النمط الميكيني ، وفي كورنثه Korinthos والمدن الواقعة في غربي بلاد اليونان وجدت آثار مشابهة تدل على مدى تأثير هذه المناطق بالحضارة المذكورة<sup>(١٠)</sup> .

كذلك تقترب الحفائر الأثرية من الإشارة الى الفترة التي اعتقد اليونان أن حرب طرواده وقعت خلالها من ناحية أخرى . ففسر هوميروس في الاللياذة يعطى انطباعاً بأن مدينة ميكيني كان لها نوع من السيطرة على بقية المدن اليونانية - وهذه الفكرة لابد أن نخرج بها حين نرى الشاعر يعرض لنا الاستجابة الجماعية من جانب هذه المدن لنداء أجاممنون . ملك ميكيني ، حين أهاب باليونانيين ( أو الأخيين كما يسميهم هوميروس ) أن يجمعوا قواتهم ويخفوا لحرب انتقامية ضد طروادة لأن ابن ملكها قد أغرى زوجة أخيه ( أي أخي أجاممنون ) بالفراق معه الى بلاده . كما تؤكد هذا الانطباع التسمية التي يطلقها الشاعر على أجاممنون حين يصفه بأنه « ملك البشر » او « سيد الأخيين » في أكثر من موضع من سطور الملحمة . ولكن يبدو أن هذه السيطرة كانت تقارب نهايتها ، بدلنا على ذلك موقف أخيليوس وتحديه السافر لأجاممنون ( وهو الموضوع الذي تدور حوله وتبتدىء به الاللياذة ) ، وهو موقف يصل فيه أخيليوس الى مداه حين يمتنع عن الاشتراك في الحرب لفترة معينة ولا يملك أجاممنون أن يجبره على العودة الى الصف . كل هذا وأخيليوس لا يزيد عن أن يكون ملكاً لحدى المدن التي يفترض أن تكون تابعة لميكيني وملكها أجاممنون ، سيد اليونان !

ان هذه السيطرة التي كانت قوية ولكنها بدأت تتخلخل ، تعكسها نتائج الأبحاث الأثرية في بلاد اليونان وتشير الى الفترة الزمنية التي تم فيها ذلك . فقد وجد عدد من الطرق الممهدة التي مدت لتصل بين ميكيني وبين عدد من المناطق اليونانية - وهي طرق كانت تعبر الأنهار التي تعترضها عن طريق جسور أقيمت لهذا الغرض ،

٩ - راجع لي هذه النقطة :

M.p. Nilsson : Homer And Mycenae

H.L. Lorimer : Homer and the Monuments

J.B. Bury : A History of Greece ( 3r. ed. ) p. 30 - ١٠

كما كانت تنقلب على التلال التي تقف في طريقها بمساعدة عمرات شقت خصيصا للغرض ذاته . وإذا كانت الآثار تشير الى هذه السيطرة في فترة الندوة التي وصلت اليها الحضارة الميكينية ، فانها لا تلبث ان تشير الى انحدار مركز ميكيني وتغلغل قوة المدن الأخرى التي امتدت اليها السيطرة والحضارة وهو الانحدار الذي يفسر لنا هذا الموقف الضعيف لسيطرة اجماعيون على الملوك الآخرين الذين ذهبوا الى طروادة تحت قيادته على نحو ما يظهر من أشعار هوميروس . وقد ابتدأ هذا الانحسار أو الانحدار منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر ، يدلنا على ذلك ما تحدثنا عنه المخلفات الأثرية من أن ميكيني قد بدأت في غضون القرن الثالث عشر تزيد من تحصيناتها الدفاعية وتبدأ بالاهتمام بحماية مواردها المائية ، كما ان هناك احتمالا بانها أقامت صومعة كبيرة لتخزين الغلال كاجراء وقائي اذا حدث أى هجوم على المدينة - وهو اتجاه يحتمل انه انتشر في أماكن أخرى من بلاد اليونان ، اذ تشاهد في الفترة نفسها استعدادات تحصينية مشابهة في حصن مدينة تيرس وفي حصن الاكروبوليس في أثينة .<sup>(١١)</sup>



على ان الآثار الميكينية في بلاد اليونان ليست المصدر الوحيد الذي يساعدنا على تحديد بداية العصر الهوميروى ، اذ نحن نجد بعض الشواهد التي تتصل بهذه المسألة وتسهم في القاء الضوء عليها في القرائن التاريخية والاثرية المتصلة بالشرق ، سواء في آسيا الصغرى أو في مصر . ففيما يخص آسيا الصغرى نجد هوميروس يشير الى ابناء دولة فريجية Phrygia على انهم أحد الاقوام التي كانت تقطن قسما من آسيا الصغرى والتي حالت طرواده اثناء تصديها للهجوم الذي شنه عليها الآخيون تحت قيادة أجاممنون . ولكن الفريجيون لم يكونوا من سكان هذه المنطقة منذ الفترة المبكرة من تاريخها ، وانما كانوا يقطنون قبل ذلك منطقة مقدونية في شبه جزيرة البلقان . ثم هاجروا منها ضمن موجات الهجرة التي عرفت بها بعض مناطق القسم الشرقي لمحوض البحر المتوسط ، عرفت باسم حركة هجرات الشعوب - وهي الحركة التي شهدت انتقال اقوام باكملها من مناطق الى مناطق داخل نطاق هذا القسم في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر ق.م.<sup>(١٢)</sup> . وقد استقر الفريجيون في آسيا وأقاموا دولتهم هناك ضمن الدول التي قامت على أنقاض الامبراطورية الحيثية - الامر الذي يجعلنا نضع حرب طروادة بعد بداية القرن الثاني عشر ، وهو الوقت الذي شهد انهيار هذه الامبراطورية .

على أننا اذا اردنا أن نقرب من التوقيت الدقيق لهذه الحرب فاننا نستطيع ان نقول انها وقعت بعد فترة وجيزة من سقوط الامبراطورية الحيثية قد لا تتجاوز عقدا أو عقدين من الزمان . والقرية الاولى التي نستطيع ان ندمع

١١ - المرجع ذاته : صفحات ٤٥ - ٤٦

١٢ - عن وجهة الفريجيون كحلفاء للطروديين في هوميروس ، الاية ٢٠ ، ٨٦٢

بها ترجيحنا لهذا التوقيت نجدها ضمن مجموعة من وثائق الامبراطورية الهيتية التي اكتشفت في مدينة بوغازكوي Boghaz—Keui ( في القسم الشمالي من وسط تركية ) يرجع تاريخها الى فترة تقع بين أواسط القرن الرابع عشر ونهاية القرن الثالث عشر ق.م. وهذه الوثائق تشير بشكل متكرر الى مملكة الأخيابة Achiyyawa كانت على علاقة بالامبراطورية الهيتية . وقد اتفق الباحثون على ان هذا الاسم هو المقابل لاسم الأخيين الذي يطلقه هوميروس في أشعاره على اليونان ، كما يظهر من الوثائق المذكورة ان المنطقة التي كانت تقع فيها هذه المملكة كانت توجد عبر البحر - وهذا ، من وجهة نظر الهيتيين ، يعني بالضرورة بحرا يجه الذي يقع بين الشاطئ الغربي لآسية الصغرى والشاطئ الشرقي لبلاد اليونان في شبه جزيرة البلقان - وان المنطقة التي تسيطر عليها كانت تضم عددا من جزر هذا البحر . والذي يحمنا في هذا الصدد هو ان هذه الوثائق تشير الى استيلاء الأخيابة ( الأخيين ) على جزيرة قبرص في أواخر عهد الامبراطورية الهيتية ، أى قرب نهاية القرن الثالث عشر ق.م.<sup>(١٢)</sup> . فاذا اعتبرنا سقوط قبرص في يد الأخيين مؤشرا نحو المجدية المتزايدة لاتجاه الهجرات الآخية نحو الشاطئ الغربي لآسية الصغرى فانه يصبح من الممكن والمنطقي ان نضع حرب طروادة - التي تمثل محاولة في هذا الاتجاه - في العقود الاولى من القرن الثاني عشر ق.م.

وهذا التوقيت يدعمه ما تحدثنا عنه آثار مصر وآسية الصغرى من اتجاه الأخيين ( ضمن أقوام أخرى ) في تحركاتهم التي سبقت الإشارة اليها نحو شواطئ القسم الشرقي للبحر المتوسط ، اذ تروى لنا النقوش ان مجموعة من الشعوب هاجمت مصر عن طريق البحر مرتين : احداها في ١٢٢١ ق.م. ( قبل سقوط الامبراطورية الهيتية ) والاخرى في ١١٩٠ ق.م. ( حوالى الوقت الذي سقطت فيه هذه الامبراطورية او بعده بقليل ) . وفي المرة الاولى كان من بين المجموعة التي حاولت ان تغزو الشواطئ المصرية قوم أسباهم المصريون « أخياواشة » Achiyawasha وهو اسم استقر رأى الباحثين على انه النطق المصرى للفظ « أخيين » ( الاسم الذي عرف به اليونان الذين هاجموا طروادة في أشعار هوميروس ) . وفي القائمة التي خلد بها الفرعون المنتصر انتصاره على جدران معبد الكرنك نجد قائمة بالأسرى الذين وقعوا في يده من هؤلاء المهاجمين ، ومن بينهم اسرى الأخياواشة . أما المرة الثانية التي تعرضت فيها مصر للهجوم من جانب شعوب البحر ( في ١١٩٠ ) فقد جاءها

O.R. Gurney : The Hitties ( Pelican ed. ) PP. 46 — 50' R.W. - ١٢

Hutchinson : Prehistoric Crete ( Pelican rd. ) pp. 312 — 313 ;

J.B. Bury: op. Cit; p. 440

المهاجمون من الشمال الشرقي وكان من بينهم مجموعة تدعى « دانونه » Danuna وهواسم اتفق الباحثون ، مرة أخرى على انه مقابل لاسم الداناتيين Danaoi الذي يظهر في أشعار هوميروس مرادفا لاسم الأخيين .<sup>(١٤)</sup>

وفي الواقع فانه من السهل ان نضع هجوم البرتانيين على طرواده في هذه الفترة التي شاهدت تحركات أو هجرات الشعوب التي نحن بصدد الحديث عنها في بدايات القرن الثاني عشر ق.م. كواحدة من هذه التحركات التي واكبت فترة عدم الاستقرار في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط والتي ظهرت على أترابها الحضارة المينوية في كريت حوالي الوقت الذي رجحناه ، وانتهاء السيطرة الكريتية التي كانت بمثابة صمام الأمن في منطقة بحراجه .

ونحن نستطيع ان نتصور الأخيين وقد اغرهم هذه الغارات على المنطقة الواقعة في شرقي المتوسط في تلك الفترة ، فالأخيون يظهر بينهم. هذا الاتجاه بشكل واضح في شعر هوميروس . وعلى سبيل المثال فان وصف « محاصر المدن » يظهر بين الأوصاف المشرقة التي يطلقها هوميروس على أبطاله . ومن بين أبطال الالابذة والاديسية الذين أطلق الشاعر عليهم هذا اللقب أخيليوس وأوديسيوس<sup>(١٥)</sup> . كذلك فان حديث هؤلاء الأبطال عن الغارات أمر عادي بل ويتم أحيانا بشكل عابر كما نرى في أحد المناظر حيث يقول أخيليوس وهو في مجال الحديث عن شيء آخر يختلف تماما هو قيمة حياة الانسان « ان الحياة تحصل عليها مرة واحدة ، أما الماشية فنستطيع الحصول عليها في أية غارة » . كذلك نرى نسطور ، ملك بيلوس ، وهو يتذكر أجداد صباه يقول « كنت في شرخ الشباب ، ولدي من القوة ما كنت املك حين شب نزاع بيننا وبين اهل ايليس بسبب غارة للحصول على الماشية ... لقد كانت الغنائم التي اخذناها كثيرة . ثم يمضي ليمد قطعان الماشية والاعنام والحنازير والماعز والحيل التي حصل هو وأتباعه عليها في هذه الغارة التي عاد في نهاية حديثه نسفاها حربا .<sup>(١٦)</sup>

وفي الواقع فان حرب طروادة يمكن ان تكون واحدة من هذه الغارات ، وان كانت على نطاق اوسع وأعنف من الغارات التي تستهدف الحصول على قطعان الماشية من المناطق المجاورة . وقد اشرت في مناسبة سابقة الى

١٤ - عن نص الأرسى من الإخبارات ، وعن المطابقة بين هذا الاسم واسم الأخيين ، وعن النص الخاص بالدائرة والمطابقة بينه وبين الداناتيين ، لم عن الترايف بين الداناتيين والأخيين في أشعار هوميروس راجع على التوالي :

J.H. Breasted; Ancient Records of Egypt, 588; Hutchinson :

Op. cit, p. 314; R.D. Barnett & C. Moss: A Phoenician

Inscription From Eastern Cilicia ( Iraq, 1948 ) p. 56;

الالهة ، التشيد الأول : ٤٢

١٥ - الالهة ، ٢ : ٢٧٨

١٦ - الالهة ، ١٧٠ - ١٨٤

ان هذه الحرب لا يمكن ان تكون قد استمرت عشر سنوات كما شاء خيال الشاعر أن يصور لنا ، وإن مدتها لا بد أن تكون أقصر من هذا بكثير ، فقد رأينا برياموس ملك طرواده وهو يحاول أن يتعرف من مكان مراقبة على أسوار المدينة ، على قادة الآخيين المهاجمين - وهو أمر لا يمكن أن يحدث في السنة العاشرة من الحرب - وإنما هو أنسب ما يكون في بداية الحرب بل في الايام الاولى منها . وهكذا ربما لم تزد هذه « الحرب » فعلا عن الايام الأربعين التي تدور فيها الحوادث حسبها ترى في الالياةة .

ومثل هذه الغارة أو الحرب التي شنها الآخيون ( أو اليونان ) على طرواده في تلك الفترة التي كانت فيها هجرات الشعوب وتحركاتهم تغتال الاتجاه السائد - أو « صيحة الموسم » ، اذا جاز لي ان أستعير هذا التعبير الحديث - من الممكن أن تدخل ضمن تحركات اليونان نحو الشرق في محاولة للحصول على المعادن أو على الحبوب من المناطق المطلة على شواطئ البحر الأسود ، وقد كان موقع طرواده الذي يتحكم في مداخل البحر الاسود وفي الطريق البرية المؤدية الى الشواطئ الجنوبية لهذا البحر يشكل دون شك حجر عثرة أمام هذه التحركات .

#### نهاية العصر

العصر الذي اصطلاحنا على تسميته باسم عصر هوميروس ، اذن ، يمكن ان نضع بدايته بوجه عام حول بداية القرن الثاني عشر ق.م ، أي في فترة أفول الحضارة الميكينية التي انتهت بعد ذلك بنحو مائة عام . وتبقى في آخر الحديث محاولة لمعرفة نهاية هذا العصر ، وهنا ، كذلك ، أشير قبل بدء المحاولة الى ان هذه المحاولة ستكون من قبيل التعرف العام ولن تكون لها صفة التحديد الدقيق .

لقد قال المؤرخ اليوناني هيرودوتوس في هذا المجال « انى اعتقد أن هزيودوس وهوميروس عاشا قبل الوقت الذى أعيش فيه بأربعائة عام ، ليس اكثر »<sup>(١٧)</sup> وقد كتب هيرودوتوس تاريخه في أواسط القرن الخامس ق.م. وعلى هذا يكون هوميروس في رأى المؤرخ قد عاش - او بعبارة ادق تكون الالياةة والأوديسيه قد ظهرتا ، في أواسط القرن التاسع ق.م. ويبدو من صيغة التحديد التى تظهر واضحة من هذه العبارة أن هيرودوتوس ربما يكون قد حسب المسألة عن طريق تتبع أنساب بعض الأشخاص الذين يردون نسبهم الى بطل أو آخر من الأبطال الذين جاء ذكرهم في ملحمتى الالياةة والأوديسيه .

وبغض النظر عن كلام هيرودوتوس فان بعض ما جاء في الملحمتين يشير الى عصر لاحق لحرب طرواده بعد قرون . ففي العصر الميكيني ، الذى وقعت فيه حرب طرواده كان البرونز هو المعدن السائد في الاستعمال . أما الحديد فقد كان آنذاك معدنا ثمينا نادرا ، وبلغ من ندرته انه كان يستخدم في صنع الحلي . ولكننا نراه في شعر



هوميروس معدنا عاديا يستخدم في صناعة أدوات الاستعمال اليومي مثل السكاكين والبلط . حقيقة ان البرنز يظهر في شعر هوميروس ، ولكن ذلك دون شك يرجع الى اعتاد الشاعر في بناء ملحمتيه على قصائد ومقطوعات قديمة يرجع نظمها الى قرون قبل عصره .

والشيء ذاته نلمسه في عديد من المظاهر الأخرى من بينها ، على سبيل المثال ، أن الموتى في شعر هوميروس تحرق جثثهم ويوضع الرماد المتخلف في أنية ، بينما يدفن أهل العصر الميكيني موتاهم . كذلك فإن هوميروس يشير الى وجود معابد بينما لا توجد شواهد على وجود المعابد في العصر الميكيني . ومن بين هذا المظاهر كذلك : طرق القتال التي نجد اختلافا كبيرا بينها كما وردت في اشعار هوميروس وبين ما كانت عليه في العصر الميكيني . وحتى في الأمثلة التي يورد فيها هوميروس طريقة كانت معروفة في العصر الميكيني ثم اندثرت ، وهي استخدام العجلة الحربية ، نجد لا يدرك كيفية استعمالها ، وهكذا يصور أبطاله وقد ركبوها هذه العجلات ولكنهم لا يستخدمونها في القتال ، وإنما ينتقلون بها مسافة قصيرة بعيدا عن معسكراتهم ثم ينزلون منها ليصلوا الى ميدان المعركة سيرا على الاقدام .



الوقت الذي نظم فيه هوميروس ملحمتيه ( وهو الوقت الذي يمثل بالضرورة نهاية العصر الذي نحن بسبيل تحديده ) يقع ، إذن ، بعد حرب طروادة بفترة غير قصيرة ، فإذا أردنا تحديدا أكثر وجدنا ظاهرتين ، على الأقل ، تشيران الى ذلك والظاهرة الأولى تتصل بمعرفة الكتابة . وفي هذا المجال نجد أن أبطال هوميروس لا يعرفون الكتابة ، وإنما تسيطر عليهم الأمية بشكل واضح ، فهم ينقلون رسائلهم شفاهة بشفة دائمة ، علما بأن عصر الحضارة الميكينية الذي وقعت حرب طروادة قبل انتهائه بنحو قرن كامل ، قد عرف أهله الكتابة ، كما يظهر في المخطافات التي عثر عليها والتي كانت تحتوي عليها قصور الحكام في ذلك العصر .

والمثال الوحيد الذي يشير الى الكتابة في أشعار هوميروس هو الرسالة التي حملها بلوروفونتييس Bellorophontes من أرجوس الى ليقية . وكانت زوجة برويتوس قد أرادت أن تنتقم من بلوروفونتييس هذا ( لسبب عاطفي ) فحملته هذه الرسالة الى والد زوجته تحضه فيها على قتل بلوروفونتييس ، لأنه أراد أن يضاجعها ( أي زوجة برويتوس ) على غير رغبة منها ( بما في ذلك من خيانه واضحة لزوجته ) (١٨) .

والطريقة التي يعرض بها هوميروس هذه القصة توحى بشكل واضح بأن هوميروس كان يعيش في عصر قد بدأت الكتابة تتسرب اليه حديثا وفي أضيق الحدود . فمن الواضح أن بلوروفونتييس الذي يحمل رسالة اعدائه بيده لا يعرف الكتابة . كذلك من الواضح أن المرأة التي كانت تود الايقاع به كانت مطمئنة الى أنه لن يصادف

في رحلته من يستطيع قراءة الرسالة ، وأنه لن يفكر في أن يسأل أحدا أن يقرأها له لأن جو الأمية الذي يسود العصر لن يوحى اليه بمثل هذا السؤال . كذلك فإن الطريقة التي عرض بها هوميروس هذه الرسالة توحى بأن الكتابة كانت آنذاك شيئا نادرا . فالكلمات المكتوبة يصفها الشاعر بأنها « علامات رهيبة » أو « رموز تؤدي الى الموت » .

وهذا الوضع الذي تسوده الامية ، وإن كانت الكتابة قد بدأت تتسرب فيه بهذا الشكل المحدود ، إذا كان لا ينطبق على القرن الثاني عشر ، فهو ينطبق على بداية الفترة التي نقل فيها الفينيقيون طريقة الكتابة ( بعد أن نقلوا الحروف الأبجدية عن المصريين ثم طوروها ) الى بلاد اليونان . وقد تم دخول الكتابة الى بلاد اليونان بين بداية القرن التاسع وأواسطه تقريبا ، وهو وقت يبدو منطقيا إذا عرفنا أن الكتابة قد انتشرت بعد هذا التاريخ بقرن واحد ( حوالى ٧٥٠ ق.م. ) في مناطق يونانية كثيرة من بينها أثينة وطيبه وكورنته ورودى وكريت .

أما الظاهرة الثانية التي أود أن أوردتها في مجال هذا التحديد فهي ظهور الفينيقيين في الأوديسية بشكل يدل على نشاط مزدهر من جانبهم في مجال التجارة في القسم الشرقي للبحر المتوسط . ونحن نعرف ان صيدون وصور لم تكونا قد وصلتا الى مركز تجاري ظاهر في الفترة التي عاصرت حرب طروادة ، وإنما بدأ ظهورها بالشكل الذي يتفق مع ما جاء في الملحة المذكورة بعد ذلك بكثير - في غضون القرنين التاسع والثامن ق.م.<sup>(١٩)</sup>

### ٣ - الحياة الاقتصادية في عالم هوميروس

#### الزراعة والرعي

ولنبداً الحديث بعرض سريع للحياة الاقتصادية في بلاد اليونان كما نلمسها من قصائد هوميروس . وهنا نجد أن الزراعة والرعي هما الموردان الرئيسيان للاقتصاد اليوناني . وكانت المحاصيل الرئيسية هي الحبوب والكرم . وهما محصولان لم تكن تخلو منهما أية ضئيلة كبيرة : الحبوب لصنع الخبز وهو الجانب الاساسي من الغذاء عند اليونان ، كما هو الحال عند اغلب السكان الذين يقطنون حوض البحر المتوسط ، والكرم لصناعة النبيذ الذي لم تكن تخلو منه مادة او احتفال ديني او حتى المناسبات العادية .

وفي هذا المجال يحدثنا هوميروس عن تليماخوس بن أوديسيوس عندما ماراد أن يغادر اثاكة الى بيلوس Pylos واسبرطه - فيذكر أنه أخذ معه على سبيل التكوين أثناء الرحلة اثني عشر دنا مليئة بالنبيذ ، وعشرين معيارا من أنقى أنواع الدقيق في أكياس من الجلد<sup>(٢٠)</sup> . كذلك يشير هوميروس في موضع آخر الى الخبز والنبيذ -

وهنا رمز زراعة الحبوب والكرم - على أنها المقومان الأساسيان للوجبة اليونانية ، كما يرينا طرفا من حياة الرعي حين يقول على لسان يومايوس Eumaeos ، الراعي الذي كان يعمل في مراعي أوديسيوس ، حين التقى به هذا الأخير عند عودته الى اثناس ، ولم يدرك الراعي أنه يتحدث سيده بسبب تنكر أوديسيوس (٢١) :

« وعلى أية حال ، اتبعني يا سيدى الى كوخى  
لنقاسمني طعامي ، حتى اذا ما أصبحت كل ما أنت  
بحاجة اليه من خبز ونبيد أخبرتك عن المكان الذى  
أتيت منه وعما يضيّق به صدرك من هموم .

وهنا قاد الراعى الطريق الى كوخه ، وأفسح  
لأوديسيوس طريق الدخول ، ثم أوما اليه بالجلوس  
فوق كومة من الأغصان والحشائش الخشنة بعد أن  
رتبها له وغطاها برقعة من جلد الماعز ، وقد سر  
أوديسيوس ، ولم يخف سروره لهذا الاحتفاء » .

وفي موقع آخر يعيد هوميروس الاشارة الى أن الزراعة كانت تشكل المورد الاقتصادى الأساسى في بلاد  
اليونان حين يقول أوديسيوس ردا على ما قابله به الملك ألكينوس في قصره من اكرام (٢٢) :

« أيها الرب زيوس ، لمنح ألكينوس القدرة على  
أن يحقق كل ما وعد ، ولتجعل صيته ينتشر حيثما فلع  
انسان أرضا » .

ولعل خير ما قدمه هوميروس لنا في تصويره للوضع الاقتصادى لبلاد اليونان هو ما جاء في أثناء تصويره  
للمناظر التى تحتها هفايستوس اله الصناعة الأعرج ، على الدرع الذهبية التى أهدتها الالهة ثيتيس للبطل  
أخيلئوس حيث يقول (٢٣) :

« أما المنظر التالي فكان يمثل حقلا من التربة  
الليئة الخصبة يحرث للمرة الثالثة ، يقوم بذلك عدد  
من الرجال يسوقون أزواج الماشية جيئة وذهابا ،

٢١ - الأديسية ، ١٢ : ٤٥ - ٥٢

٢٢ - الأديسية ، ٧٠ : ٣٣٦ - ٣٣٣

٢٣ - الألياذة ، ١٨ ، ٥٤١ - ٥٨٨

وحين كانوا يصلون الى حافة الحقل حيث يرتدون بحاريتهم ، يأتى اليهم رجل ليعطي كلا منهم كأساً من نبيذ حلو المذاق ، وعندئذ يعودون الى الحافة الأخرى وهم يشقون التربة السمراء الداكنة ...

كذلك يرينا الاله ( على الدرع ) ضيعة لأحد الملوك حيث كان الأجراء يقومون على شؤون الحصاد ، وبأيديهم مناجلهم الحادة ، وقد أخذت مجموعات من عيدان القمح تنساقط في شكل منتظم على جوانب المخطوط ، وجعل آخرون يحزمون السنابل بينما كان عدد من الصبية يزدونهم بكميات من عيدان القمح بشكل مستمر وفي وسطهم وقف الملك ، وقد أمسك بصولجانه وبدت عليه دلائل الارتياح .

بعد ذلك نرى حقلاً من الكروم قطوفه دائية ، يقود اليه عمر واحد يستعمله الجامعون عندما ينضج المحصول بينما مجموعة من الفتيات والفتية الذين غرهم المرح يأخذون ما جمع من الكروم في سلال يذهبون بها الى حيث يفرغونها .

كذلك صور الاله منظراً لقطع من البقر والثيران ذات القرون المستقيمة ، وهي تتجوز أثناء اسراعها من حظائرها نحو أرض المرعى حيث تترنح عيدان الحشيش على حافة غدير هامس الحرير ، وقد صحب الماشية أربعة رجال ( صاغهم الاله ) من الذهب بينما كانت تسير الى جانبيهم تسعة من كلاب المرعى .

وقد أضاف الاله الاعرج العظيم الى الصور منظراً فيه مرعى واسع برعى فيه قطع من الغنم ذات الصوف الأبيض ، يقع في واد جميل ، قامت به أبنية القرية بما فيها من حظائر الغنم ومنازل الرعاة . «

## الحرف والتجارة والصناعة

ولكن رغم أن الزراعة كانت ، هي والرعي ، تشكلان الموردتين الرئيسيتين لاقتصاديات اليونان في العصر الهوميروى ، فقد كان لا يمكن لها أن يستمر على هذا الوضع . فبلاد اليونان بلاد لا تصلح مهدا للزراعة أو الرعي على نطاق واسع ، فهي بلامقابل مناخها إلى الجفاف ، كما تغطى ٨٠٪ من مساحتها بحيث لا يتبقى من الأماكن التى تصلح مبدئيا للزراعة إلا نحو ربع المساحة الجبلية وخمس المساحة العامة .

والأمر لا يقتصر على هذا ، فإن المناطق السهلة نفسها ليست على جانب كبير من الحصوبة ، بحيث كان لا يمكن لهذه الامكانيات الزراعية أن تساهم بزيادة السكان والنمو الطبيعي لاحتياجاتهم ومستوى معيشتهم . وهكذا قامت ، إلى جانب الزراعة والرعي ، في شكل ثانوى في العصر الهوميروى ، موارد اقتصادية أخرى وفي هذا الصدد فإن اليونان في هذه الفترة المبكرة من تاريخهم كانوا قد بدأوا يتعرفون إلى التجارة ، وفي هذا المجال يرسم لنا هوميروس صورة تمثل هذا النشاط التجارى في شتى جوانبه فحين تظهر الآلهة بالأس آتية لأول مرة أمام تليامخوس ( بن اوديسيوس ) ، تترامى له في هيئة احد الزعماء اليونان ثم تخاطبه قائلة (٢٤) :

« أنى سأبحر مع عدد كبير من الملاحين إلى  
أرض أخرى إلى تيميسي Temese وقد أخذت  
حديدا لأقايض به برونزا . »

وحين يصل تليامخوس إلى بيلوس Pylos يسأله نسطور Nestor عما جاء به إلى هذه المدينة ، أي نوع من المصلحة وأي نوع من العمل (٢٥) ، والمعنى يدور في الحديث حول المصلحة المادية المتصلة بالعمل التجارى .

ولم يكن الأمر قاصرا على التجارة الداخلية بين المدن أو المناطق اليونانية وبعضها ، بل امتدت هذه كذلك إلى خارج بلاد اليونان لتصل إلى الشواطىء الأخرى المطلة على البحر المتوسط ، فنحن نقرأ في الإلياذة وألاديسية عن الأقمشة الشفافة الموشاة الآتية من صيدون ، والأدوات المصنوعة من الذهب الآتية من فينيقية عموما وعن مجموعة من المصنوعات الأخرى مثل المزهريات والسلال المصنوعة من أسلاك الفضة والأدوات المصنوعة من العاج والبرونز والفضيف . كل هذه كانت تأتي بالضرورة من الخارج إذ أن الخامات التى تصنع منها لم تكن موجودة ببلاد اليونان . كذلك كان الرقيق ضمن واردات بلاد اليونان ، وفي هذا المجال يشير يومايوس في حديثه مع

٢٤ - الإلياذة ، ١ ، ١٨٢ - ١٨٤

٢٥ - الإلياذة ، ٣ ، ٧٢

أوديسيوس الى جارية فينيقية في قصر والده كانت ابنة لأحد الموسرين ، ثم اختطفها القراصنة وباعوها في سوق الرقيق ، كما نجد جارية أخرى من صقلية في بيت لائرتيس<sup>(٣٦)</sup> .

وكان اليونان من جانبهم يقاضون على هذه الواردات أساسا بالمعادن أو بالماشية ، اذ لم يكن التعامل بالنقد قد عرف في بلاد اليونان اذ ذاك . وقد مر بنا المثال الذي رأينا فيه الالهة أثينة بالاس ، متخفية في شكل رجل يرمع الرحيل ليقاض حديدا ببرونز . كذلك نجد احدى الجوائز التي يقدمها اخيلويس في الاحتفالات الجنزية التي أقامها بعد موت صديقة باتروكلوس ، تتكون من حامل من النوع الذي يستخدم في المعابد قيمته اثنا عشر ثورا ، وجارية قيمتها أربعة ثيران ، كما نجد لائرتيس يدفع عشرين ثورا ثمنا لجارية اشتراها . وقد كانت الجهات التي تتم معها هذه المقايضة التجارية ، حسب ما يظهر من قصائد هوميروس ، هي البلاد الموجودة في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط وهي تراقية وأسية الصغرى ، وقبرص وفينيقة ومصر<sup>(٣٧)</sup> .

كذلك لم تكن بلاد اليونان في الفترة التاريخية خلوا من الصناعة ، فقد قامت في هذا الوقت المبكر صناعة المنسوجات والجلود والصناعات المتصلة بالمعادن والاختشاب والاولاني الخزفية ، حقيقة ان اغلب هذه الصناعات كان يقوم على أساس فردي يهدف في المقام الاول الى تغطية الحاجات المباشرة لافراد المجتمع ، ولكن بعضا منها وصل الى درجات متقدمة من التخصص . ففي صناعة الاختشاب مثلا كانت الجذوع المقطوعة تأتي من الغابات محملة على الدواب ، ثم تشق الى الواح أو عروق لاستخدامها في الصناعات الخشبية الثقيلة ، كما كان المقياس المدرج والفرجار يستعملان عند استخدام هذه الاختشاب في بعض الصناعات مثل صناعة المراكب ، بينما كانت كل الادوات اللازمة للزراعة تصنع أساسا من الخشب .

واتجاه التخصص نجده ، مرة أخرى في صناعة المعادن والجلود والبناء فهناك مثلا درع اخيلويس ، التي سبقت الإشارة الى بعض مناظرها ، والتي كانت تبدو فيها الدقة البالغة في استعمال معادن الذهب والفضة وغيرها ، وان كان هوميروس قد نسب صنعها ، في طريقة كاريكاتورية ، الى الاله هفايستوس ليدل على مقدار الدقة والروعة والمهارة التي تظهر في صنعها وتصميمها . وهناك تيخوس Tychios صانع السلاح الماهر الذي يذكر لنا هوميروس عنه انه صنع درعا لاياس استخدم في انجازها سبع طبقات من جلد الثيران - وقد كان أشهر من يعالج صناعة الجلود ، ثم وضع فوقها جميعا طبقة من البرونز . ولاتركيب الذي يأمره نسطور ، في احد مناظر الاوديسية ، أن يغطي بالذهب قرون بقره قبل أن يضحى بها امام الالهة أثينة . أما عن صناعة البناء فليدلنا على ما وصلت اليه من تخصص هو قصور الملوك والزعماء التي تُظهرها لنا الالياذة والاوديسية على مستوى عال من

٣٦ - انظر على التوالي ، الالياذة ٦ ، ٢٨٧ ؛ ٢٨٩ ، الاوديسية ١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٩ ، ٢١١ ، ٢٤ .

٣٧ - انظر على التوالي ، الالياذة ٢٢ ، ٧٠٢ - ٧٠٥ ، الاوديسية ٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ .

فخامة الصنع بدقة الزخرفة ، مثل قصور براموس وأوديسيوس ونسطور ومنيلاس وألكينوس ، هذا الى جانب الجسور وغيرها من المرافق العامة (٢٨) .

### الهجرة

ولكن هذه الموارد الاقتصادية كانت ، كما ذكرت ، ثانوية الى جانب الزراعة والرعي ، وهذان كما عرفنا كانا غير كافيين لتغطية الاحتياجات المعيشية لليونان ، وهي احتياجات كانت تسير سيرها الطبيعي نحو النمو والتزايد . وأذن فسيجد اليونان أنفسهم مضطرين منذ فترة مبكرة من تاريخهم الى البحث خارج بلادهم عن الرزق الذي ضاقت سبله أمامهم بداخلها - وهكذا يندفع اليونان الى الهجرة ، يحلون عن طريقها مشاكلهم الاقتصادية . ولم تتجه هجراتهم هذه نحو داخل القارة الأوروبية ، فقد وقفت جبال الكربات في شمال شبه جزيرة البلقان حاجزا في وجه اليونان بينما كان البحر من الشرق والجنوب والغرب مشجعا لهذه الهجرات بما له من مميزات تسهل الاتصال بين شواطئه المختلفة .

وفي هذا المجال نجد البحر المتوسط من جهة بحرا مقفلا يكاد يكون بحيرة لولا المضيق الذي يفصل بين شبه جزيرة أيبيريا والساحل الأفريقي في الغرب ، وكان ذلك سببا في هدوئه الى حد كبير اذا استثنينا بعض العواصف المحلية البسيطة التي يتعرض لها في بعض مواسم السنة - وقد كان هذا الهدوء دون شك من العوامل التي شجعت اليونان على ركوب البحر في فترة مبكرة من تاريخهم . كذلك شجع على الملاحة في هذا البحر تقارب سواحه في أكثر من موضع ، وكثرة الجزر التي تنتشر في أرجائه والتي تشكل نقاط ارتكاز ملاحية بين شواطئه القارات الثلاثة المطلة على هذا البحر ، كما شجع على ذلك كثرة الانحناءات والتعاريب على طول سواحه والتي تمثل أماكن لحماية السفن وموانئ طبيعية من الطراز الأول .

وأذن فقد تهيأت الوسائل لعدد من الهجرات انبثقت من بلاد اليونان منذ وقت مبكر ، وأدت الى انتشار اليونان على شواطئه البحر المتوسط . ومن بين هذه الهجرات كانت اغزرها وأكثرها تلك التي انطلقت نحو الشرق ، والسبب في ذلك هو التوجيـه الجغرافي الذي سيطر على بلاد اليونان والذي جعل انجذاب اليونانيين في أي نشاط حيوي لهم يتخذ طريقه أساسا نحو الشرق . فالسواحل اليونانية الشرقية أكثر تعرجا من السواحل الغربية ، ومن ثم فهي تقدم لليونان عددا من الموانئ الطبيعية لحماية السفن أكثر مما يقدمه الساحل الغربي - وهو أمر على جانب غير قليل من الأهمية في تلك الفترة المبكرة التي كانت فيها الملاحة لاتزال في طفولتها ، وبالتالي كانت مخاطر البحر أكثر بالنسبة للملاحين . كذلك نجد بحر إيجه الذي يقع الى شرق بلاد اليونان الاصلية ويمتد حتى الساحل

٢٨ - عن درج أجيلوس راجع اعلاء ، عن باقي الحقائق انظر على التوالي ، الألبانقة ، ٧ : ٢٢٠ - ٢٢٤ ، الأوديسية ، ٣٠ : ٤٢٥ - ٧ : ٨١ - ٧ : ٨١ - ٧ : ٨١ .

الآسيوي يكاد يكون خليجاً كبيراً ، فالإيالة تتحد من ثلاث جهات في الغرب والشمال والشرق ، بينما تنتشر فيه عشرات الجزر التي تشكل جسراً يكاد يكون الساحل اليوناني والساحل الآسيوي .

وحرب طروادة - التي جعل منها هوميروس موضوعاً للمحمته ، دون شك إحدى المحاولات المنظمة للانتشار أو الاستيطان اليوناني على شاطئ آسيا الصغرى ولكن مع ذلك فإن الهجرة التي قتلها حرب طروادة لا بد أنها كانت في بداية حركة الانتشار اليونانية ، فإن الإلياذة والأوديسية تظهران اليونان وقد نظروا إلى البحر نظرهم إلى عالم مجهول يزخر بالأخطار والمخاوف ويكتنفه عدد لا يحصى من الأهوال والصعاب ، بينما نحن نعرف أن الطريق الوحيد لحملة اليونان على طروادة هي بحر إيجه ، وهو بحر على ما ذكرت من الهدوء وكثرة التيارات والجزر التي تقعد ركب البحر ولا تقف في سبيله . وإذن فالسبب في هذه النظرة هو أن اليونان كانوا حتى ذلك الوقت لازالون في مرحلة المبتدئ المتردد : يشعرون بأن مواردهم الطبيعية التي درجوا على الاعتماد عليها حتى ذلك الوقت لا تكفيهم ، ومع ذلك فهي الموارد التي يعرفونها ، أما غيرها فهو بالنسبة لهم مجهول لا يدري المرء إذا كان يستطيع أن يقف عليها بأقدام ثابتة . إن هذه النظرة تظهر في أكثر من مناسبة في الإلياذة ورغم أن هذه الملحمة لا تتناول في الواقع الرحلة البحرية إلى طروادة ، وإنما شامت رغبة هوميروس أن يكون مسرحها على الشاطئ الآسيوي بعد أن وصل اليونان هناك فعلاً .

ثم هي تظهر في أغلب مناظر الأوديسية التي جعل الشاعر منها في الواقع سجلاً للأخطار التي أحذقت بأوديسيوس ، أحد قادة اليونان ، أثناء عودته من طروادة حتى وصل إلى جزيرة اثاكة ( مقر ملكه ) الواقعة على الساحل الغربي لبلاد اليونان . وهي بعد ليست سجلاً لكل ما واجهه هذا القائد من أخطار ، وإنما لما واجهه منها خلال شهرين من أصل عشر سنوات قضاها يضرب في عرض البحر لكي يقطع هذه الرحلة التي لا بد أنها كانت تبدو لليونان الذين كانوا يستمعون إلى هوميروس وهو يتغنّى بها ، كأنها رحلة عبر عالم مجهول في بحر ظلمات بعضها فوق بعض .

ولنتأمل الآن بعض هذه المناظر لتسبر حقيقة تردد اليونان في هذه المرحلة التي بدأوا فيها يطاردون لقمة العيش خارج حدود بلادهم . ولتأخذ أول أمثلتنا من النشيد الأول للإلياذة ، والمنظر يمثل شقاً بين أخيليس ، أحد قادة اليونان ، وبين أجاممنون قائدهم الأعلى ، وقع بسبب محاولة أجاممنون الاستيلاء على فتاة أخيليس التي سبها من بين بنات طروادة . ففي أثناء المشادة التي وقعت بين البطلين يقول أخيليس لأجاممنون (٢٣) :

« ألا ما أبعدك عن الحياء أيها الاناني ، كيف  
تنتظر أن يتكبد أي يوناني من أجلك مشقة السفر



والحروب . انك لتعلم أنني لم آت الى هنا لمحاربة  
أبناء طروادة الشجعان من أجل نفسي ، فهم لم  
يسينوا الي قط إنهم لم يسلبوا بقري ولا خيلي ، ولم  
يجرؤوا محاصيلي في حقول فثية Phthia الحصبة ،  
فبيني وبينهم يقوم بحر صاخب وجبال تحجب  
الشمس . »

وهكذا يلخص اخيليس في الكلمات القليلة فكرة اليونان عن المورد الاقتصادي الأسامي ، وهو الأرض ،  
سواء أكانت للزراعة أو للرعى ، بيتاً يعبر في وضوح عن نظرتهم الى المجال الحيوى الجديد - هذا العالم المجهول  
الذى يقف بينهم وبينه « بحر صاخب وجبال تحجب الشمس » .

ولتلتقط الحيط من هذه الجملة الأخيرة التى فاه بها البطل اليونانى لتلقى نظرة على الأخطار التى تعرض لها  
بطل يونانى آخر ، هو أوديسيوس ، أثناء عبوره لهذا العالم الذى لم يكن اليونان يعرفون عنه الا ظلالا من  
الحقيقة ، والا لسخروا من هوميروس وهو يروى عنه أحداثا ويرسم له صورا لا يمكن أن يكون لها وجود الا في  
خياله الخصب الرحيب . ولكن منظرا الأول في هذا المجال هو الجزيرة التى تقطنها حورية البحر كاليبسو  
. Kalypso

ان المنظر يبدأ بالالهة أثينه وهى تبتهل الى والدها زيوس ، كبير الآلهة ، لكي يرفع مقته عن البطل أوديسيوس  
الذى ضل طريقه وأخذ يضرب في البحر دون أن يصل الى موطنه اناكه . ويستجيب زيوس لتوسلات ابنته فيرميل  
هرميس Hermes ، رسول الالهة ، الى الجزيرة التى استبقت فيها الحورية أوديسيوس بعيدا عن وطنه وغلوا من  
آية وسيلة يعود عن طريقها الى الوطن . ثم يطير هرميس الى الحورية وبخبرها برغبة كبير الآلهة وأبيهم في أن  
تطلق سراح البطل الذى اتخذته عشيقا لها على غير رغبة منه ، فاذا بها تتحج في بداية الأمر وتذكر أنها انقذت  
أوديسيوس من الموت المحقق ...

« حين جرفة التيار وهو ممسك بما تبقى من سفينة  
بعد أن حطمتها زيوس بصاعقته فوق البحر الذى في  
وكية النبيذ ، وبعد أن فقد ( أوديسيوس ) كل رجاله  
ودفعته الرياح والأمواج وحيدا الى هنا . » (٢٠)

وبعد أن يقنعها هرميس بأن تساعد أوديسيوس على العودة الى وطنه تخرج من كهفها لكي تبلغ عزمها الى أوديسيوس ...

« فإذا هي تجده جالسا على الشاطئ، وقد تندت  
عيناه بالبكاء ، كما كان يفعل دائما . ان الحياة وما  
فيها من متعة كان يذرفها دمعاً من عينيه على وطنه  
المفقود ، فقد بدأ يسلو الحورية منذ وقت طويل .

حقيقة انه كان يخلو اليها في الليل تحت سقف  
المغارة ، ولكن كما يخلو عاشق سأل الى امرأة تضج  
بالدفعه والحياة . بيتا كان النهار يجده دائما وقد  
جلس فوق الصخور أو الرمال ، تعصر قلبه العبرات  
وهو ينظر من خلال دموعه عبر صفحة الحفص الذي  
خلا من أسباب الحياة » (٣١) .

ولكن هوميروس لا يكتفي بهذا لكي يرسم لسامعيه صورة البحر وما يحف به من مخاطر وأحوال ، وإنما يضع لهذا  
المنظر اللمسات الأخيرة . فحين تخرج الحورية أوديسيوس بعزمها على مساعدته على العودة الى وطنه في مركب  
يصنعها من أشجار الجزيرة ، بعد أن تزوده بكميات كافية من الماء والحيز والخبز ، نجده يجيبها وهو لا يكاد  
يصدق أذنيه (٣٢) :

« أينها الالهة ! إنك حين تقترحين على أن أعبر  
هذا البحر اللاتهامي بكل ما يحف به من مصاعب في  
هذا المركب ، لا يمكن أن يكون في نيتك سلامة  
عودتي ، وإنما انت تضررين شيئا آخر .

اذ ان اسرع المراكب لا يمكنها ان تقطع الرحلة ،  
حتى ولو كانت الريح تواتي اشرعتها كل المواتاة .  
وهكذا لن أطمئن الى الابصار الا اذا صاحبتني  
نوابك الطيبة . »

٣١ - الشيد ذاته ١٥١ - ١٥٩

٣٢ - الشيد ذاته : ١٧٢ - ١٧٩

وهكذا ، يرى أوديسيوس في البحر الهاديء المليء بالجزر خضيا لا نهائيا به المصاعب والأهوال ، وقد كان أحد هذه الأهوال هو ما قابله أوديسيوس ورجاله حين دفتهم الرياح الى جزيرة الكيكلوبيس *Kyklopes* . أن هوميروس بصور لنا سكان هذه الجزيرة كقوم اقرب الى الوحوش منهم الى الأكيمين ، ويرسم لنا واحدا منهم وهو بوليفيموس *Polyphemos* ، فاذا هو عملاق مخيف له عين واحدة تتوسط جبهته ، يحاول أوديسيوس أن ينزل هو ورجاله ضيوفا عليه يحنون في جواره ، بعد أن يذكر له ما صادفه من رياح غير مواتية دفعت به وبهم الى هذه الجزيرة بعيدا عن موطنه في إناكه . ولندع أوديسيوس يرسم بنفسه المنظر الذي أعقب هذا اللقاء ، وهو منظر كان هوميروس يتغنى به أمام سامعيه من جموع اليونان ، دون أن يجدوا فيه ما يتعارض وما يعرفون من حقائق وتجارب عن حياة البحر ، فقد كان ما يعرفون في هذا المجال لا يزال بعد في طوره الجنيني . ان البطل اليوناني يقول (٣٢) :

« ولكنه ( بوليفيموس ) ، وقد خلا قلبه من  
الرحمة ، لم يستجب لنا . ولما قفز واقفا ومد ذراعيه  
نحو رجالنا ، فأخذ اثنين منهم في قبضته وهشم  
رأسيهما على أرض المغارة فسال مخم وبلى التربة .  
ثم جعل يمزقها اربا اربا ليتخذ منها وجبة له  
التهمةا ، كما لو كان أسدا من أسود الجبال ، دون ان  
يتوقف خلال ذلك ، حتى اتى عليها لحما وعظما  
وتخاعا ، بيتا كنا لاستطيع أن نرفع أيدينا بالضراعة  
الى زيوس ، ونحن في ذروة الملح من هذا المنظر  
الشعب ، وقد شل اوصالنا شعورنا باليأس القاتل . »

هذه هي بعض المناظر التي أدت بها أن أرسم صورة للوضع الاقتصادي في بلاد اليونان عبر الاناشيد التي تُنسب الى هوميروس . ويؤدى هذا الوضع هو أن الشعب اليوناني في هذه الفترة المبكرة من تاريخه كان لا يزال يعتمد على الزراعة كمورد اقتصادي أساسي ، وان كان قد بدأ يحس أن هذا المورد لم يعد يفي بحاجاته المعيشية . وهكذا بدأ اليونان يولون وجههم شطر الهجرة ، وبخاصة نحو الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، بحثا وراء مجال حيوي جديد ، وان كانت الفترة التي عاصرتها حرب طروادة تمثل هذه الهجرات في بدايتها المترددة .

## ٤ - الحياة السياسية في عالم هوميروس

### المجتمع السياسي في طريق التنظيم

وفي هذا المجتمع الزراعي الذي لم يعرف التعامل والتبادل عبر البحر بشكل مستمر وعلى نطاق واسع ، ومن ثم لم يعرف التجارة والصناعة إلا في كثير من التردد والخوف - كان من الطبيعي أن تكون طبقة اصحاب الاراضي هي صاحبة السيطرة الحقيقية على موارد الانتاج ، ومن ثم صاحبة التحكم السياسي في المجتمع اليوناني القائم اذ ذاك .

وقد ساعد على ذلك أن الظروف التي كانت تحيط ببلاد اليونان كانت تضع في يدهم ، الى جانب السيطرة الاقتصادية ، التحكم في الجانب الحربي . فالمدن اليونانية لم تكن اذ ذاك قد عرفت النشاط السياسي الكبير الذي قام فيها بينها في الفترات التالية من تاريخها ، ابتداء من القرن السادس ق.م. وعلى هذا فهي لم تكن بعد في حاجة الى الجيوش الكبيرة التي تحتاج الى اعداد غفيرة من المجندين . وانما كانت تكفي للسيطرة على الموقف العسكري في الغارات المتبادلة بين المدن أو القبائل قوات الفرسان الصغيرة العدد من الارستقراطيين الذين كان في مقدورهم اقتناء الخيل ، وفي وقتهم متسع للتدريب على الفروسية وفنون القتال في وقت لم تكن فيه الدول اليونانية قد عرفت بعد التزام الدولة بمسؤولية الانفاق على الشؤون الدفاعية .

ولكن المجتمع الهومييري لم يكن مجرد استمرار للمجتمع الزراعي الاقطاعي القديم الذي كان فيه الملك هو الرجل الاول في البلاد ، والقايض على زمام السلطة في كافة جوانبها ، وانما كان هذا المجتمع قد بدأ يشهد ظاهرة جديدة ، فالمجتمع الهومييري كان قد انتهى لتوه من الخطوة التي تنقله من مرحلة التكوين البدائي الى مرحلة جديدة بدأت تتضح فيها معالم اليونانية كدول أو كيانات سياسية قائمة بذاتها ترتبط بقدر من الحقوق والحدود التي يستتبعها هذا الدور الجديد .

وهنا أستدرك فأقول انه كان طبيعيا ، والمجتمع لا يزال في مرحلة الانتقال ، أن نجد كثيرا من الثغرات في هذا التكوين الجديد ، فمقومات المجتمع القديم لم تكن قد اندثرت تماما ، ولم يكن من الطبيعي أن تندثر تماما ، وانما ظلت آثارها هنا وهناك وان كانت قد بدأت تختفي تحت طبقة من التقاليد الجديدة كان سمكها يزداد من يوم الى يوم . والمجتمع الجديد ، وان كانت معالنه قد ظهرت واتضحت ، الا أنها لم تكن قد بدأت تقوم بدورها بصورة ايجابية كاملة من جميع نواحيها تجعل منها كلا متناسقا وليس مجرد أجزاء متجاوزة متلاصقة .

ويظهر لنا هذا الوضع في وضوح اذا نظرنا الى هذه المدن الجديدة ان هوميروس يذكر لنا عددا كبيرا من هذه

المدن ، ولكن أغلبها لا يزيد عن قرى صغيرة لا تصلح أن تكون مقرا إلا لتجمعات قبلية بدائية ، ولا يقل أن تكون إطارا لدولة ذات تكوين كامل ومقومات كاملة . فجزيرة كريت ، حسبما يذكر الشاعر في مناسبتين ، مثلا ، كان بها تسعون أومائة من هذه المدن ، ولكنه لا يتحدث الا عن سبع من بينها لها الحجم المناسب للمدينة والعدد الكافي من السكان الذي يتناسب وهذا الكيان الجديد ، وأجاممنون ، قائد اليونان في حربهم ضد طرواده ، يعد بتقديم سبعة من هذه المدن هدية لابنته عند زواجها ، بينما نجد منيلاوس الملك الاسيوطي يفكر في أن يجلي إحدى مدن لاكونيه لكي يقيم فيها أوديسيوس وأتباعه<sup>(٣٤)</sup> .

واذن ، فهذه الاماكن رغم أن الشاعر سهاها مدنا ، الا أنها كانت تفتقر في الواقع الى المساحة وعدد السكان اللذين يكفيان بشكل معقول ليكونا قاعدة لمدينة . وهكذا لا نتعد كثيرا عن الصواب اذا قلنا ان التكوين السياسي الجديد الذي كان يقيم على نظام المدينة لم يكن قد عم بلاد اليونان في العصر الهومييري . وانما كانت المدن التي ظهرت تشمل العشائر الكبيرة او الظاهرة في أغلب الاحوال ، بينما احاط بهذه المدن الرئيسية عدد كبير من « المدن » الصغيرة أو القرى حيث كانت تعيش فيها القبائل والعشائر الصغيرة في شبه عزلة نسبية .

كذلك لم تكن الدويلات التي قامت في المدن الرئيسية تمثل مجتمعا تتداخل أقسامه أو مكوناته من مجموعات وافراد ، لتشكّل كلا متكاملا متكافلا ، وانما كان هذا المجتمع يتكون من أقسام أو مكونات صغيرة تلاصق بعضها ، ولكنها لا تزال نرى آثار الحديود التي تمثل قوامها القديم . وقد كانت هذه الحديود تدور حول القبائل والعشائر والاسر ، فالمجتمع الجديد لم يتكون من كل من كان يقطن بالمدينة من سكان ، وانما من أفراد هذه المجموعات القديمة بصفتهم أعضاء فيها ، بينما لم يحظ غيرهم بالمميزات التي كفلها المجتمع الجديد ، سواء تمثلت هذه في حق المواطنة في القمة أو في الحقوق المدنية التي تنظم المعاملات العادية اليومية في القاعدة . لقد كانت هذه القبائل والعشائر حتى الاسس القريب في تنافس وتناحر مستمرين يصلان في بعض الاحيان الى درجة العدوان المباشر الذي يتخذ شكل الغارات المتبادلة ، وقد ظلت اثار هذه النزعة واضحة الى حد ما في المجتمع المدني الجديد - فكلية مدينة polis لم تكن تعني عند هوميروس ، في أغلب الأحوال ، المعنى الذي أصبحت تفهده فيما بعد ، وهودولة المدينة ذات الكيان السياسي الكامل القائم بذاته ، وانما كان معنى هذه الكلمة ينصرف عادة الى مجرد المفهوم المكاني لكلية مدينة . كذلك فان الدور الذي كانت تقوم به العشائر أو القبائل المكونة للمدينة في العصر الهومييري كان واضحا بشكل مبالغ فيه ، مما يدل على أنها كانت لا تزال قريبة عهد بالتمسك داخل حدود المدينة الواحدة . فعدد اسهام مدينة معينة بعدد من المراكب ، على سبيل المثال ، في الاسطول المشترك الذي اقل اليونانيين الى طرواده ، يذكر لنا هوميروس ان كل قبيلة أو عشيرة كانت تقدم عددا مساويا للذي

٣٤ - انظر الى الترواي ، الاوديسية ، ١٩ : ١٧٤ ، الايلياذة ، ٢ : سطر ٦٤٩ وما بعده ، الايلياذة ، ٩ : ١٤٩ وما بعده ، الاوديسية ، ١٧٤ : ١٧٤ وما بعده .

تقدمه كل من العشائر الأخرى ، والتي<sup>٢٥</sup> ذاته ينطبق على عدد البحارة الذين تقدمهم المدينة ، فقد كان موزعا بالتساوي بين القبائل والعشائر التي تنقسم إليها ، وهكذا .

ولكن مع كل ذلك فقد بدأت حدة هذا الوضع تحبو وتتلاشى تحت وطأة التقاليد الجديدة التي واكبت ظهور المدن . وهكذا بعد أن كان المعنى الأصلي لكلمة demos هو المكان الواقع حول مركز المدينة ، أصبحت الكلمة تعني بالتدريج سكان هذا المكان - وهو معنى يعتبر علامة على الطريق في استخدام هذه اللفظة التي أصبحت تعني « الشعب » في عصر ازدهار دولة المدينة كنظام سياسي ومدلول حضاري عام<sup>(٢٥)</sup> . كذلك بدأ يظهر بين المجموعات المتلاصقة من سكان المدينة علامات تعترف بقواعد وأصول وبيادى عامة تتبعها في حسم ما يثور بينها بين الحين والحين من ألوان الشقاق والصراع ، وأخذت هذه المبادئ أو التقاليد تكتسب شيئا كثيرا من القوة ، فالذي يتحداها يتعرض لغضب الآلهة opies theos - كما يظهر من ثنايا الحديث الذي دار بين أوديسيوس وبوليقيموس في جزيرة الكيكلوين ، حين حذر أوديسيوس هذا الرجل المتوحش من غضب الاله زيوس الذي يرعى الغرباء والمستجربين فقد كان هذا الغضب يمثل في حقيقة الامر غضب المجتمع الجديد لخرق تقاليده ، التي كانت قد بدأت في التبلور حول مصالحه الناشئة .

#### بين الملوك والطبقة الارستقراطية :

هذه الظروف الجديدة كان من الطبيعي أن تترك أثرها على مجرى الحياة السياسية التي انتقلت الى المدينة . وهنا نجد الملوك الذين تم على ايديهم توحيد القبائل المتنازرة ، يحيط بهم النبلاء أو الأرستقراطيون من أصحاب الاراضي . وهكذا أدى قيام المدن إلى تجمع الارستقراطيين بعد أن كانوا متفرقين في ظل النظام القبلي .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التجمع داخل اسوار المدن الضيقة هو تركيز انتباه هؤلاء الارستقراطيين حول سلطة الملك التي أصبحت الآن نصب اعينهم ، فقد يسر لهم هذا التجمع سبل الاتصال المستمر فيما بينهم ، وهكذا وجد لديهم الدافع والفرصة لمناقشة السلطات التي كانت تتركز في يد الملك ، والحقوق والامتيازات التي كانت تتعلق بمنصبه بل أكثر من هذا لقد بدأوا ينفسون على الملك هذه السلطات والحقوق ويعملون على اقتسامها معه ، أو حتى الاستيلاء عليها .

والمثال الذي سأتقنيه في هذا المجال من الالياذه . وهو يتعلق بالسلطة القضائية التي كان معروفا أنها من

<sup>٢٥</sup> راجع مناقشة هذه النقطة وتعلق عليها في . 15 p. T.A. Sinclair: A History of Greek Political Thought.

٢٦ - الأوديسية ، ٩ : ٢٦٩ - ٢٧٢

حق الملك في عصر سطوة الملكية - والمنظر الذي يصور هذا المثال هو أحد المناظر التي يذكر هوميروس أن الاله هفايستوس نقشها على الدرع التي صنمها لتهديها الآلهة إلى أخيلوس فماذا نرى في هذا المنظر؟

« لقد تجمعهم الناس في مكان الاجتماع ، اذ قامت هناك مشادة بين رجلين من أجل دية قتيل . وقد أخذ أحد الرجلين يعلن أمام الجميع أنه دفع كل شيء ، بينما جعل الآخر ينكر أنه تسلم شيئاً على الإطلاق . وكل منهما يرغب في أن يفصل الحَكَمُ في المسألة لصالحه .

وقد احاط بكل من الطرفين أنصاره وهم يلغظون ويثرثرون بينما جعل المتنادون يحاولون فرض السكون والنظام . وقد جلس النبلاء في هيئة نصف دائرة على مقاعد من الحجارة المصقولة يحملون في أيديهم الصيغانات وكل منهم يقف في دوزة ليدي بهكمه في القضية . » (٣٧)

وواضح من هذا المنظر أن الفصل في القضية لم يعد من حق الملك فحسب وأن دور النبلاء لم يعد دوراً استشارياً وإنما أصبح لهم دور رئيسي في الفصل في الأمور . أما المنظر الثاني فهو من الأوديسيه ، ويمثل بيت أوديسيوس في أثناء غيابه وهو في طريق عودته إلى أثاكه . إن البيت ينص بعدد هائل من النبلاء . وقد ساد الاعتقاد بأن الملك لن يعود ، وكل منهم يحاول أن يغري زوجة الملك أن تنزوجه . والوضع القانوني غامض بعض الشيء ولكن الشاعر يوصي لنا بأن من يفوز بزوجة الملك سيكون العرش من نصيبه بطريقة من الطرق . ويظهر واضحاً من المنظر أن منصب الملك لم يعد له كل ميزاتة القديمة ، كما يظهر منه أن حق الوراثة ، أحد الأركان الأساسية للنظام الملكي ، قد بدأ يتعرض لضربات الارستقراطيين ، وأنه بدأ يترنح تحت وطأة هذه الضربات . وفي هذا المنظر تقوم مشادة بين بعض النبلاء وبين تلياخوس بن أوديسيوس ، يظهر فيها هذا شيئاً من الجرأة ولندع هوميروس يصور لنا بقية المنظر (٣٨)

« لقد أدهشهم جميعاً أن يكون لدى تلياخوس من الجرأة ما يجعله يتخذ هذه النغمة في كلامه ولم

٣٧ - الألبانة ، ١٨ ، ٤٩٧ - ٥٠٦ .

٣٨ - الأوديسية ، الشيد الأول : سطور ٣٨٩ - ٣٩٥ .

يكن امامهم الا أن يعضوا شفاههم غيظا وعجبا .  
ولكن أنتينوس بن يوبثيس نهض أخيرا وقال : يبدو  
أن الآلهة قد بدأت تشد من أزرك ، إذ أنها علمتك  
هذه الطريقة المرفوعة في الكلام . انك بحكم بنوتك  
لأبيك وريث لعرش هذه المملكة وإن كنت أسأل  
الاله الاتصيح ملكا في يوم من الأيام .

ولكن تلياخوس أجابه دون تردد : قد يسوؤك أن  
تعرف أنني سأكون مسرورا بقبول منصب الملك من  
يدي زيوس ( كبير الآلهة ) وقد تقول أنت ان أسوأ ما  
يمكن أن يصيب المرء هو أن يصبح ملكا . أما أنا فعلى  
العكس من هذا ، أرى أن منصب الملك ليس شرا ،  
فهو يزيد من سطوة من تقلده ويوفر الثروة في بيته .

ولكن مع ذلك فإن بين الآخيين عدد وافر من  
الأمرء سواء منهم المستنون أو صغار السن وإن واحدا  
منهم لابد وأن يصبح ملكا على اناكه التي يحيط بها  
البحر من جميع جهاتها بعد أن مات أوديسيوس  
الطيب .

وهنا جاء الرد من يورماخوس بن يولوبوس : أي  
تلياخوس ! أن الآلهة هي التي ستقرر من من الآخيين  
سيصبح ملكا على اناكه . »

ولكن الملكية ، وإن كانت قد بدأت تتعرض لتحدي الارستقراطيين ، بل وتترنح أمام ضرباتهم في بعض  
الاحيان ، الا أنها لم تكن فقدت كل شيء ، وإنما كانت لا تزال فيها بقية من قول ، وإن بدت متداعية في بعض  
الأحيان إذا كان المسك بزمائها أو صاحب الحق فيها ضعيفا كما رأينا من موقف تلياخوس ، فقد كانت في أحيان  
أخرى متأسكة تستطيع الوقوف أمام التحدي الجديد ، بل إن هذا التحدي لم يكن هناك بد من الاصطدام به ،  
كما يظهر لنا من موقف أوديسيوس حين عاد أخيرا الى اناكه ، مفر ملكه ، حيث نجده ينجح بعد فترة غير طويلة



في أن يتغلب على النبلاء المتأمرين ، ويرد كيدهم الى نحرهم ، بل ويجد العون بين صفوف العامة من رعيته الذين لم ترقهم مؤامرات الطامعين في الحكم ، وانما ظلوا محافظين على ولائهم للملكهم رغم طول غيبته . (٣٩)

ونحن نلمس هذا الموقف الذي كان لا يزال يسك على النظام الملكي بعضا من قوته السالفة بوجه خاص في ظاهرتين : الأولى هي أنه اذا كان الاستقراطيون قد بدأوا يتجرأون على سلطات الملك وحقوقه ، وحتى على نظام وراثة الحكم الذي يعتبر أساسا للنظام الملكي ، فانهم لم يجرؤوا على تجاهله او انكاره صراحة ، كما رأينا من حديث انتينوس الى تلياخوس حيث يقول : انك بحكم بنوتك لأبيك وريث لعرش هذه المملكة .

أما عن الظاهرة الأخرى فهي أن الحق الإلهي للملك ظل هو العباد الأساسي للنظام الملكي بصرف النظر عن أي اعتبار . وفي حديث أنتينوس ، مرة أخرى ! نجد رغم عدائه الواضح لأوديسيوس وابنه تلياخوس ، لا يملك الا أن يعبر عن هذه المساندة الإلهية لابن الملك حين يقول لتلياخوس ان الالهة تشد من أزره . بل حتى حين يبدي أمنيته الصريحة في ألا يصبح تلياخوس ملكا في يوم من الايام ، فإنه يتوجه الى الآلهة بهذه الرغبة ، على اساس أن الالهة هي التي ستحدد من يكون ملكا ومن لا يكون .

كذلك فالتا نلمس هذه المساندة الإلهية بشكل واضح منذ اللحظة التي يعود فيها أوديسيوس الى اثنائه . ان الالهة أثينة بالاس تقف الى جانب الملك العائد خطوة خطوة ، وبشكل ليس فيه لبس أو مواربه ، فهو ميزوس يحدثنا عن لقاء يتم بين الالهة والملك حين يصل هذا الى اثنائه ، يجلس فيه الانان « ليدبرا معا سقوط النبلاء » ، ونحن نجد الالهة توضح لأوديسيوس الأمر فتحته على أن يفكر في طريقة يخرج بها ظافرا من الصدام بينه وبين هؤلاء النبلاء ، « تلك العصاة التي عاثت فسادا في بيتك طوال ثلاث سنوات » ، ثم تعدو في النهاية بالمساندة التامة . بل يبدو من حديثها أن مسألة عودة أوديسيوس الى عرشه وانتصاره على أفراد الطبقة الاستقراطية الذين كانوا يهددون هذا العرش ليست مسألة تخص أوديسيوس وحده ، وانما تخصها هي كذلك ، وهكذا تقول الالهة (٤٠) :

« من المؤكد أنني سأقف الى جانبك . وأني لن  
انساك حين يأتي الوقت الذي تقضي فيه مهمتنا  
هذه . أما عن أولئك ( الاستقراطيين ) الذين  
يطاردون زوجتك ويبعثون ثروتك فأني اراهم الآن  
( مقبلا ) وقد صبغت دمازهم ورؤوسهم المهشمة  
أرض قصرك » .

٣٩ - عن وفاة رعية أوديسيوس له انظر الإديسية ، ١٥ : ١٣٧ - ١٤٧ ، كذلك الإديسية ، ٢٤ : ٣٩٧ - ٤٠٢ . عن انتصار أوديسيوس على أعدائه من افراد الطبقة الاستقراطية انظر الإديسية ، ٢٤ : ٥٣٤ - ٥٣٨

٤٠ - الإديسية ، ١٣ : ٣٩٢ - ٣٩٦

## طبقة العامة

كانت هذه هي الصورة التي رسمها هوميروس للوضع السياسي في بلاد اليونان - وهو وضع انتقالي كما رأينا ، تخوض فيه الملكية مآركها الاخيرة في ضعف أحيانا وفي قوة أحيانا أخرى ، أمام زحف طبقة النبلاء أو الاستقراطيين . أما بقية المجتمع فقد كانوا من أصحاب الحرف الصغيرة الذين يسكنون المدن ويتجمعون حول السوق ، أو من سكان الريف من الذين لا أرض لهم إطلاقا أو ليس لهم منها الا النزر اليسير الذي لا يكاد انتاجه يغطي ضرورات حياتهم . والكترة الغالبة من هؤلاء يعتمدون بطريقة مباشرة على اصحاب الاراضي أو يعملون عندهم كأجراء يعقود فيها بالنسبة للأجير الكثير من الاجحاف والالزام والقليل من الغنم او فرص النظم . وهم يشكلون طبقة لاتكاد تملك من الحقوق السياسية شيئا على الاطلاق ، وهي وان كانت قد بدأت تتطلع الى شيء من الحقوق فان هذه لم تزد على حق الشكوى أو حق النقد اذا وصلت الى اقصى مداها . وعلى أية حال فان هذه الشكوى او هذا النقد لم يكن ظاهرة عامة بين صفوف هذه الطبقة وإنما اقتصر على حالات فردية بسيطة وكان النبلاء والملوك يسارعون الى القضاء عليها .

وسأنتقي لتصوير هذا الموضوع منظرا من الالιάدة يمثل اجتماعا عقدته القوات اليونانية الرابضة أمام طروادة . في هذا المنظر يدب الشقاق بين أجاممنون قائد القوات اليونانية وأخيلئوس أحد الملوك القواد الذين كانوا يعملون تحت لوائه . فيهدد أخيلئوس بالانسحاب ، والعودة الى بلده ، ثم تحدث مساع لاصلاح ما بين الملكين تنتهي أخيرا بعقد هذا الاجتماع الذي حضره ، الى جانب الملوك والنبلاء ، كل الجنود اليونان . وارىد ان اوجه الضوء الى موقف بالذات في هذا المنظر ، وهو موقف ترسيثيس Thersites الذي قام من بين صفوف الجنود ( وهم من طبقة العامة بطبيعة الحال ) ليوجه اللوم والتقريع الى أجاممنون الذي كان السبب فيما ما دب بين الصفوف من خلاف . ولكن النبلاء والملوك لاشجعون هذا الموقف رغم أنهم كانوا جميعا يعرفون مقدار الخطأ الذي يحيط بتصرفات أجاممنون . ثم يمضى شاعر الالιάدة في تصوير المنظر فيقول (١) :

« ولم يكذ ترسيثيس ينتهي من كلامه حتى  
وصل أوديسئوس الى حيث يقف ، وفي عينيه نظرة  
صارية قاتلا له : ان حديثك هذا قد يكون فيه  
فصاحة ولكن وقتنا ليس به متسع لفصاحتك ...  
أيها المعتوه ، يا أحقر من تبع آل أتريبوس ( عائلة

أجاممنون ) الى طروادة ! كيف نجرؤ على أن نتلفظ  
 بأساء الملوك أو توجه اليهم التقرير ... فلتنصت اذن  
 الي كلماتي . وانها بالقطع ليست تهديدا أجوف : اني  
 اذا امسكت بك مرة أخرى وانت متلبس بمثل هذا  
 التهريج الذي قست به اليوم ... قلن يكون تليماخوس  
 من طلبي ان لم أنتزع ملايسك حتى تبدو عاريا ، ثم  
 ألحظ ظهورك وأقذف بك الى حيث تولول بجانب  
 السفن . وحين انتهى أوديسيوس من كلامه ضرب  
 ترسيتيس بعصا على ظهره وكشفه ، فأنفجر هذا باكيا  
 والتهب ظهره من أثر الضرب وجلس وقد بدا عليه  
 الذعر وغلبه الألم ، بينما طفرت الدموع من عينيه  
 وجعل ينظر حوله في حالة تدعو للرناء . »

والمنظر حتى هذه المرحلة يعطينا فكرة واضحة عن علاقة الطبقات التي يتكون منها المجتمع اليوناني ممثلا في  
 جيشه . ولا نستطيع أن نقول ان التقرير الذي وجهه أوديسيوس الى ترسيتيس والعقاب الذي أوقعه به انما هو  
 سبب تطاول جندي على قائده ، فالنغمة الطبقيّة واضحة من كلام أوديسيوس بمقادير العسكري ، وقد عوقب  
 ترسيتيس لأنه أهان اجاممنون بوصفه ملكا وليس بوصفه قائدا في المقام الأول .

### العلاقة بين المدن

هذا عن الوضع السياسي من حيث علاقة الطبقات ببعضها داخل كل مدينة أو دويلة من الدويلات التي  
 كانت في ذلك الوقت قد تكاملت عناصر تكوينها في بلاد اليونان . أما من حيث علاقة هذه الدويلات ببعضها فما  
 نجده في الاشعار المنسوبة الى هوميروس يكمل الى حد ما الاتجاه الذي رأينا الاكثارتشير اليه في مناسبة سابقة :  
 لقد كانت هناك رابطة من نوع معين بين هذه الدويلات من جانب وبين دويلة ميكيني التي جعل هوميروس أجا  
 ممنون ملكا لها في الملحمين ، ودلينا على ذلك هو مدى الاستجابة التي قابل بها ملوك هذه الدويلات نداء  
 أجاممنون حين أهاب بهم ان يسيروا تحت لوائه في الحرب ضد طرواده .

ولا ينبغي هذه الرابطة أو يضعف منها أن السبب الذي يقدمه لنا شاعر الملحمين لهذه الحرب هو مجرد استعادة  
 زوجة هاربة والانتقام من الذي أغراها بالهروب معه - وهو سبب لا يكفي في حد ذاته لقيام حرب امتدت عشر  
 سنوات بأكملها كما يزعم الشاعر . إن الامر الذي يعيننا هنا ليس سبب قيام هذه الحرب ، وانما هو الاستجابة

نفسها - وهو امر لابد وأنه حدث أو كان من الممكن أن يحدث ، والا لكان في تغني الشاعر به أمام سامعيه ضرب من العبث الذي لا يمكن أن يستسيغه هؤلاء السامعون من اليونان الذين يعرفون عن طريق الرواية شيئا من تاريخ بلادهم السالف في اطاره العام ، ان لم يكن في تفاصيله الدقيقة .

أما كنه هذه الرابطة فهو حسب ما نستطيع استنتاجه من مناظر الملحنتين ، وبخاصة الايلياذة ، لا يكاد يتعدى حد يد الولاء العام للملك ميكيثي دون ان يُريد على ذلك . وفي هذا المجال أستبعد المنظر الذي يدور فيه النزاع بين أجاممنون وأخيليس والذي رأينا فيه هذا الاخير يكيل الترقيع والتأنيب لأجاممنون ويهدد بالانسحاب من الحرب والعودة الى مدينته ومقر ملكه دون ان يجد في ذلك خروجا على التزام معين - وهو تهديد لم يقابله أجاممنون من جانبه بأية اشارة الى مثل هذا الالتزام ، وانما قابل الترقيع والتأنيب بالتأنيب ، وأنهى كلامه بأعتراف ضمني منه بأن في امكان أخيليس أن يعود اذا كانت هذه هي رغبته وارادته<sup>(٤٢)</sup> ، هذا بينما يقتصر دور بقية الملوك الذين حضروا المشادة بين الملكين على مجرد بذل المساعي لاصلاح ما بينهما ، محاولين ارضاء كل من الطرفين على توحيد الصف ، انتهاء للشقاق بين المحاربين اليونان وهم في مواجهة العدو المشترك .

#### ٥ - الحرب والسلام في عالم هوميروس

عصر هوميروس ، إذن ، كان عصر انتقال بين عالمين ، بين مرحلتين من المراحل التي مر بها المجتمع اليوناني في تاريخه المبكر . وقد رأينا صدى هذه الظاهرة الانتقالية في حياة هذا المجتمع ، سواء في ذلك وضعه الاقتصادي ، أو تكوينه السياسي . وقد كانت هذه الظاهرة الانتقالية في الحقيقة هي سمة العالم الذي يطل علينا أينما نتقلنا بين المناظر التي يرسمها الشاعر من خلال سطور ملحنته . لقد تركت بصائنها على هذا العالم الهومييري في حركاته وسكناته وكل ما يتصل بها من قيم ومواقف . وقد ظهرت هذه البصمات بصورة واضحة في موقف أبناء ذلك العصر من الفكرة التي كان لا بد أن يقابلوها أينما اتجهوا في عالمهم ذاك الذي كان يجيش بحركة دائمة ، سواء في هجراته من مكان الى مكان أو في انتقاله من مرحلة الى مرحلة - وأعني بها التارجح الحتمي بين فكرة الحرب والسلام وما يربط بذلك من تصورات عن المجد والبطولة والفردية والجماعية والشوق الى المغامرة والحنين الى الاستقرار .

#### الحرب

والجانب الاول من الصورة الذي يقدمه لنا هوميروس في هذا الصدد فيه تمجيد للحرب في أكثر من ناحية . حقيقة ان الشاعر يذكر لنا أن ما يصبو اليه من ظهور قد يحصل عليه في مجال الخطابة أمام أقرانه المجتمعين في

٤٢ - الايلياذة ، ١ ، ١٣٣ - ١٧٥ حيث نجد اجاممنون يوجه الخطاب الى أخيليس قائلا : عد وارك وأحبك اذا كنت تريد ، واني لارجو لك الا تبقى هنا من أجل حسب ، فمعي آخرون يشرفني وجودهم .

مجلس أو آخر من المجالس التي تعقد بين الحين والحين ، وبخاصة في أوقات الشدة ، لتناقش أمور المجتمع وتقرر الخطوة التي يجب أن يقوم بها . ولكن مع ذلك فإن الخطابة ليست هدفا في حد ذاتها ، وإنما تهدف هدفا أبعد هو الاستعداد للحرب . والظهور الذي يميزه المره فيها ليس الا وسيلة لتأكيد ظهوره في ميدان القتال<sup>(٤٣)</sup> .

ولكن الظهور في ميدان القتال لم يكن في عصر هوميروس انعكاسا لروح قومية أو وطنية في كل الاحوال ، بل على عكس ذلك كان المجد الشخصي الذي يستهدفه المحارب . والسبب في ذلك ينبعث من الوضع الذي كان سائدا إذ ذاك والذي لم يكن فيه المجتمع قد وصل إلى التبلور الكامل الذي يجعل شخصية الفرد تذوب الى حد كبير في شخصية المجتمع . كذلك فإن حالة عدم الاستقرار في وقت كانت فيه تحركات الشعوب أو هجراتها التي عمت القسم الشرقي للبحر المتوسط بوجه خاص تكاد تكون هي الاتجاه السائد وهي تحركات رأينا فيها سبق أنها ابتدأت في هذه المنطقة حوالي القرن الثاني عشر ق.م. ثم ظهرت مرة أخرى في صورة الغزو الدوري الذي تعرض له العالم اليوناني بعد ذلك والذي أدى إلى انهيار الحضارة الميكينية وهي حالة كانت أبعد ما تكون عن أن تخلق قيا اجتماعية ثابتة تؤدي إلى اندماج الفرد في المجتمع .

ومن هنا لم يكن القتال يمثل في كل الاحوال دفاعا عن قيم جماعية محضة - الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا في مجتمع نعم بالاستقرار لفترة طويلة ، وإنما كان هذا الدفع يختلط إلى حد كبير بعوامل عائلية أو حتى شخصية وفي هذا الصدد فإن السبب الذي يقدمه لنا هوميروس على أنه التحرك الأول لحرب طرواده هو محاولة استعادة هيليني ، زوجة مينلاوس ، التي اختطفها باريس ابن ملك طرواده - مسأله عائلية محضة ، ولكنها كانت كافية ، في نظر الشاعر الذي ينظر في الواقع الى الامور من خلال نظرة عصره ، لأن تسبب حربا . كذلك فاننا نرى أخيلئوس يمتنع عن الاستمرار في القتال لأن اجائمنون يريد أن يستولي على الفتاة التي كانت من نصيبه وقت توزيع السبايا ، حتى ولو كان امتناعه هذا سيؤدي الى كارثة جماعية في صفوف المحاربين اليونان .

كذلك كثيرا ما كان الدافع هو حماية الأراضي والأموال التي يمتلكها المحارب . وهنا ، مرة أخرى ، نجد اخيلئوس يوجه تفريره الى اجائمنون أثناء الشقاق الذي دب بينهما فيتسائل عن السبب الذي يجبره على الاشتراك في القتال ما دام الطرواديين لم يخربوا محاصيله أو يستولوا على جياده<sup>(٤٤)</sup> . وهو حين يقرر العودة الى القتال لا يكون الدافع الوطني الجماعي هو الذي يوجه قراره ، وإنما نجد هذا الدافع يكاد يكون شخصيا محضا ، وهو الانتقام لصديقه باتروكلوس الذي خر صريعا امام هكتور ابن الملك الطروادي . وإذا لم يكن الدافع هو حماية الاراضي في بعض الأحيان فهو على وجه اليقين البقية في الحصول على مزيد منها ، كما يظهر لنا من المنظر الذي

٤٣ - الايليافة ١ ، ٤٩٠ ، ٢٠٢ ، ٣ ، ٢٠٤ وما بعده ، ٣٦٠ ، ٨٠ وما بعده ، ١١ ، ٤٠٧ - ٤١٠

٤٤ - راجع أعلا ، كذلك ، الى جانب هذا المنظر ، الايليافة ١٢ ، ٣٢٠ - ٣٢٨ ، حيث ترى الالهة نفسها تنحرف للقتال في سبيل الاملاك الشخصية

سبق ذكره والذي رأينا فيه نسطور يتذكر بارتياح كبير أيام صباه حين هاجم منطقة إيليس هو واتباعه ، ثم يعدد الغنائم التي حصل عليها من الخيل والماشية والاغنام وغيرها .

ولعل خير ما يمثل هذا الدافع الشخصي للحرب ، سواء أكان يتصل بمائلة الشخص أو بما يحصل عليه في الحرب من غنائم وأسلاب ، هو دعاء هكتور حين كان يستعد لمنازلة أخيليلوس ، ولنستمع إليه في هذا الصدد حين يقول (٤٥) :

« أي زيوس وإيتها الآلهة الأخرى ! اني اتجه اليكم بالدعاء ان يشب ولدي على ما أنا عليه ، أعظم شخص بين الطرواديين ، وأن يكون مثلي قويا وشجاعا ، حينئذ يقول الرجال عنه حين يعود من الحرب : انه اشجع حتى من والده .

ولتكن مشيتكم أن يعود ( من الحرب ) بأسلاب تصبغها دماء الرجال الذين يقتلهم ، حتى يهنا بذلك قلب أمه . »



الحرب التي تقف بها هوميروس ، إذن ، حرب لها الطابع الضيق الذي لم يكن قد وصل بعد الى تجسيد اتجاهات المجتمع ككل : وقد مجد الشاعر هذه الحرب وفصل فيها الى حد كبير . فهي في نظره الشغل الشاغل للرجال ، من صباهم الى شيخوختهم ، وإن كانت تمثل زهرة الصبا بوجه خاص ، ومنظر السلاح يكتفي ليملاً نفس المحارب بسعادة عارمة ، هي سعادة من نوع خاص لا تثير في النفس الا المعركة ، تجعل المرء يتحرق الى القتال ولا يله أو يكل منه . وأن الآلهة لتسهم بدورها في تحقيق هذه السعادة في ميدان الحركة ، فحين ينتشي المقاتلون بالاقتراب من النصر نجد ان الحرب نفسها ، بمباركة الآلهة ، هي التي تهب الرجال قدرات ليست في الحسبان . ولعل خير شاهد على هذا هو المنظر الذي نرى فيه الاله بوسيدون Poseidon وهو يهب هذه القدرة لاثنتين من الأخيين وهما بجوار السفن يستعدان لمنازلة الطرواديين (٤٦) .

« ومن بين الاثنتين كان أباس بن أوليلوس هو أول من عرف الاله . وفي الحال وجه حديثه الى

٤٥ - الألياذة ، ٦ : ٤٦٧ - ٤٨٩

٤٦ - الألياذة ، ١٣ : ٦٨ - ٧٥

اياس بن تيلامون : ... ان الشجاعة التي في قلبي  
لتجعلني أتحرق الى المعركة وان قدمي من اسفل  
جسمي ، ويدي من أعلاه لتهزها نشوة التطلع الى  
القتال . »

والشاعر يزيد من تمجيده للحرب حين يرى أن الموت في المعركة بدافعها الذي أشرت إليه ليس عارا ما دام  
يؤدي إلى انقاذ البيت والعائلة ، وإغا العار هو الجين الذي يجعل الرجال يفرون من الميدان ، وعلى ذلك فإن الجين  
والضعف لا بد أن ينحيا المرء جانبا وأن يجمع كل حماسه ليدخل المعركة أمام تحدى الحياة<sup>(٤٧)</sup> :

« أيها الاصدقاء ، تحلوا بالشجاعة وكونوا  
رجالا ، وليكن خوفكم الوحيد هو الخوف من العار .  
فأن الذين يفرون من العار أقلهم هم الذين يقتلون  
بيننا تنجو الغالبية ، أما الذين يفرون من المعركة فانهم  
يفقدون سمعتهم ويفقدون حتى الأمن الذي  
ينشدونه . »

### بين الحرب والسلام

على أن العصر ، كما ذكرت كان عصر تداخل بين القيم لأنه كان بطبيعته عصر انتقال . ومن هنا فإن الشاعر  
الذي مجد الحرب لا يلبث أن يبدى في شعره جوانب أخرى تتراوح بين تمجيد الحرب والسعى إلى السلام . فالعالم  
اليوناني في الفترة بين بداية عصر هوميروس ونهايته كان قد تدرج من التحمس للحرب ومن الهجرة والتجوال  
والغارات وبدأ يتطلع الى افاق أخرى ، إن لم نخل من الحرب فهي تدخل إلى جانبه اعتبارات أخرى ، وتظهر  
الجانب السيء من الحرب ، فالحرب ليست كلها سعادة ونشوة وشرف فحسب ، وإنما الى جانب ذلك هي شيء  
تترتب عليه كثير من المآسي والعواقب الوخيمة . كذلك فإن علاقات المجتمعات لا يمكن أن تحكمها الوحشية التي  
يئنلها ميدان القتال فحسب ، وإنما هناك مجال للمساعى الحميدة التي تستهدف الصلح أو تحقن الدماء أو ترعى  
كرامة الموتى .

وقد ظهر هذان الاعتباران في أشعار الملحميين بشكل واضح . ولنعرض الآن بشكل سريع الى ما جاء في هذه  
الاشعار عن الاعتبار الاول الذي يتراوح بين الحرب والسلام ، وهو إظهار المآسي التي تطوي عليها الحروب . إن

النعمة التي تمثل هذا الاعتبار تظهر في بعض الاحيان بشكل عابر يصور مرحلة الاعياء من الهجرة والتدافع والقلق المستمر والرغبة في الاستقرار بعد كل ذلك - وهي المرحلة التي كان العالم اليوناني قد وصل اليها حين يقول الشاعر ، على سبيل المثال (٤٨) :

« إن الذي يتقدم الى ميدان القتال ، والذي يتخلف وراء الصفوف لها نفس المصير ، والخسир والشر يعطيها الناس في الفدر من الاحترام . فالموت هو النهاية المحققة سواء للمتقاعس الذي لا يعمل شيئا ، أو للبطل المقدام الذي ينجز الكثير » .

بل أكثر من ذلك فإننا نجد انه حتى في لحظة الانتصار ذاته حين يصرع الرجل غريبه وينتقم لشرفه ، لا ينتهي المنتصر بالفوز في كل الحالات ، وإنما يذكر شرور الحرب وحلاوة السلام ، وما يسوده من أمن ومتعة ، فحين يقتل مينيلائوس ( ملك اسبرطة وزوج هيليني التي فرت مع الأمير باريس ) مع بيسانندروس Peisandros الطروادي ، ويتمكن مينيلائوس من أن يصرع غريبه ويضع قدمه فوق جثته المجندلة نجده لا ينتشي بفرحة النصر بقدر ما ينكر على الطرواديين تعطشهم الذي لا يوتوي الى الحرب ، وما أصابوه به مسن شر وعذاب حين اخذوا منه زوجته وماله ، كما ينكر عليهم عدم خوفهم من غضب الاله ( زيوس ) الذي يرعى كرم الضيافة ( فقد كان باريس ينزل ضيفا على مينيلائوس ، حين أغرى زوجة الملك بالفراق معه ) . ثم يتجه الى الاله الذي يدبر كل شيء حتى لو كان ذلك رعاية الطرواديين ، « الذين لا يوتون من الحرب التي لا خير فيها » . ثم يجتثم كلامه قبل أن ينتزع من جنة عدوه الصريع ما عليها من سلاح ودروع بقوله (٤٩) :

« إن المرء ليسبع ويسوي من كل شيء ، من النوم ومن الحب ومن الغناء والرقص المتع من كل هذه الاشياء بفضل المرء ان يصيب ما يشبعه ويؤويه إلا هؤلاء الطرواديين فان تعطشهم الى القتال لا يطفى غلته شيء على الاطلاق » .

٤٨ - الاية ٤٠٣ - ٣٧٢

٤٩ - الاية ١٣٠٣ - ١٣٦٩



كذلك نجد هوميروس ، إذا كان قد صور في براعة فائقة الاقدام والشجاعة والمجد الذي يحصل عليه من يتحلى بها ، فإنه لم يكن أقل براعة من تصوير جانب المأساة في الحرب ، فهو يدرك كل الادراك ان الحرب تجلب العذاب للمحاربين ، فيرينا كيف يضطر المحارب الى ان يبقى بعيدا عن زوجته وولده ، وإن يبتعد عن شرب النبيذ الحلو المذاق حتى لا تتركه قوته<sup>(٥١)</sup> . كما يقدم لنا صورة تلمس القلب عن القلق الذي يقضي على اية فكرة للطمأنينة والاستقرار . فالاله أريس ( إله الحرب ) ليس لغضبه ضابط ، والرجال يعيشون أو يموتون كما يقضي الغدر ، فاله الحرب ليس لديه مقربون . والذي يقتل يقتله غيره بدوره . وهكذا تضع حياة كثيرين من أنبل الرجال لتتوارى في الظلام وتنتهي كل منجزاتهم الى لاشيء وتتركهم ارواحهم مولولة الى مملكة هاديس ( العالم الآخر ) ، أكثر الممالك بؤسا . أما الجسد فيبقى بعيدا عن أولئك الذين كانوا يحبونه ليصبح فريسة للكلاب وجوارح الطير<sup>(٥٢)</sup> .

ومأساة المحارب في ميدان القتال ليست هي كل ما يرسمه هوميروس في هذا المجال . فللمصورة جانب آخر يمثله الآباء والزوجات والابناء والاتباع الذين ينتظرون عودة المحارب ، فإذا عاد كانت هناك فرحة ، يحل مكانها الأسى الذي يتعصر القلوب إذا لم يعد المحارب الغائب . وهو وضع يصل الى قمة المأساة في حالة الهزيمة حين تسبى النساء وتشاهد الزوجة السبية زوجها والداها واخوتها وهم يذبحون أمام أعينها ، كما تشاهد ابنتها الصغير وهو يلقي مصرعه حين يقذف به العدو المنتصر من على أسوار المدينة لينتج كل ذلك شقاء لا حد له حين تقاد لتقضي في الاسر بقية حياتها تحت رحمة زوجها<sup>(٥٣)</sup> . وان ماقالته اندروماخي Andromache في رثاء زوجها هكتور Hektor ، بعد أن قتله أخيليلوس وأطلت هي من على أسوار طروادة لترى الأخيين يجرّون جثته الى حيث توجد سفنهم ليصور مدى ما يمكن أن يصل اليه الحزن في قلب زوجة قتل زوجها في ميدان المعركة<sup>(٥٤)</sup> .



هذا هو المظهر الأولي في شعر هوميروس ، الذي يرينا مدى التأرجح بين الحرب والسلام في العصر الهوميرو . أما المظهر الآخر الذي يسير الى هذا التأرجح فهو ما نلاحظه في هذا الشعر من ظهور بعض التقاليد التي يلزم بها ، الى حد ما ، الاطراف المتحاربة . حقيقة ان هذه التقاليد لم تكن قد اصبحت جزءا من المجتمع اليوناني في

٥٠ - الألياذة ٢ ، ١٣٢ - ٢٩١ ، ٢٩٨ ، ٦ ، ٢٦٤ - ٢٦٥

٥١ - الألياذة ١١ ، ٤٠٧ - ٤١٠ ، ١٦ - ٨٥٦ ، ١٨ ، ٣٠٩ ، الأوديسية ١١ ، ٤٨٨ ، ٥٣٤

٥٢ - الألياذة ٢ ، ٣٥٦ - ٣٥٩ ، ٦ ، ٤١٠ - ٤١٥ ، ٥٩٠ - ٥٩٤ ، الأوديسية ٨ ، ٥٢٢ وما بعده .

٥٣ - الألياذة ٢٢ ، ٤٧٧ - ٤١٥

هذه المرحلة من مراحل تطوره ، والافراد والجماعات كان يهاجم بعضهم بعضا ، أو يهادن بعضهم بعضا دون أي تمييز بما يتصل بهذه العلاقات عادة من رسميات أو تقاليد - فالجماعات على سبيل المثال ، تهاجم راعيا وقطيعه دون سبب ، لمجرد الاستيلاء على ما يملكه ، وهم حين يسلبون الراعي قطيعه ، يسلبون كذلك حرثته اذ يبيعونه عادة في سوق الرقيق . كذلك ، الجانب الآخر ، كانت الطريق الوحيدة التي يتبعها من يتعرض للضرر من جراء هذه الهجمات هو الانتقام ومقابلة الغارة بغارة مماثلة طالما وجد الى ذلك سبيلا<sup>(٥٤)</sup> . ولكن ، الى جانب ذلك ، فان بعض التقاليد كانت قد بدأت تظهر في ذلك العصر لكي تحكم العلاقات بين الجماعات ، وتصبح بذلك بذورا للعلاقات التي يحكمها نظام معترف به بين الدويلات اليونانية ، والتي تبلورت في عصر لاحق للعصر الذي نحن بصدد الحديث عنه :

ومن بين هذه التقاليد ، التعلد الذي يتعلق بمسألة الوفود التي ترسلها مدينة الى مدينة ، أو جماعة الى جماعة . فقد بدأ يظهر بين الجماعات اليونانية نوع من التفاهم على حصانة اعضاء هذه الوفود - وهي حصانة كان زيوس كبير آله اليونان يباركها ويرعاها . ومن بين المناظر التي تصور هذا التطور الجديد ، ذلك الذي يظهر فيه مينيلاس وأوديسيوس وقد ذهبوا الى طرواده في محاولة قدرها ألا تنتج لتفادي وقوع الحرب . لقد اجتمع مجلس الطرواديين لمناقشة المسألة واقتراح أحد المجتمعين أن يذبح مينيلاس ، وقد اعتبر هذا التصرف عارا كبيرا على الطرواديين<sup>(٥٥)</sup> .

كذلك بدأت تظهر في عصر هوميروس فكرة عقد الهدنة التي يمكن أن نصفها بالصفة الرسمية ، اذ كان يحيط بعدها عدد من الظروف والشعائر الدينية . وكانت هذه الهدنات تعقد لأسباب مختلفة ، من بينها إعطاء فرصة لدفن الموتى ( أو احرافهم ) أو ليخاطب قائد جنوده ، أو ليتقابل زعيمان من الجانبين حتى يقررا مصير النزاع حفنا للدماء .

وفد كان خرق هذه الهدنة يعتبر أمرا خطيرا ومخالفا للدين . ويؤدي الى تحلل الطرف الآخر من الالتزام بالهدنة المتفق عليها<sup>(٥٦)</sup> . كذلك تساهد نوعا من الاحترام الذي كان المحارب يظهره لعدوه ، اذا كان هذا العدو شخصا مبرزا أو على قدر من البطولة . وقد كان هذا الاحترام يؤدي في بعض الاحيان الى إيقاف النزاع لفترة ، مهما كانت قصيرة ، بل الى تبادل الهدايا في هذه الهدنة مؤقتة بصرف النظر عن استئناف القتال بعد ذلك<sup>(٥٧)</sup> . كما كان

٥٤ - الألياذة ١ ، ١٦٤ - ١٦٥ ، ١٥٦ - ١٥٧ ، ١٠٤ : ٩ ، ١٥٦ ، ١٠٤ : ٩ ، ١٠٦ : ١٠٧ ، ١٠٣ : ٣ ، الأوديسية ٢٤٢ - ٢٤٦ ، ٢٣ : ١٠٦ - ١٠٧ ، ٩ : ٢٥٢ .

٥٥ - الألياذة ١١ ، ١٣٨ - ١٤٢ .

٥٦ - الألياذة ٣ ، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٣١١ - ٣١٥ ، ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ٩ : ٣٣٨ - ٣٤١ .

٥٧ - الألياذة ٧ ، ٢٨٨ - ٣٠٢ .

للنساء ، إذا افترن بالبطولة ، احترامه لدى الأعداء . وهكذا حين سقطت طيبة ( التي يتحدث عنها هوميروس في شعره ) نجد أخيليس يعطي الفرصة لأعدائه حتى يدفنوا إيتيون Eition بالصورة التي تليق بمركزه كمحارب بارز<sup>(٥٨)</sup> . وقد كانت هذه التقاليد محترمة ومتبعة في أغلب الأحوال ، إلا إذا كانت الخصومة بين الأعداء المتحاربين من النوع الذي يفوق في مرارته كل اعتبار ، كما كان الحال مثلا بين أخيليس وهكتور ، فقد كان بين هذين العدوين دم صديق مقتول ، هو باتروكلوس صديق أخيليس .

### السلام

كانت هذه هي المظاهر التي نلمحها في شعر هوميروس والتي تحتل المنطقة الوسط بين الحرب والسلام . وهي مظاهر كانت تدل دون شك على حالة القلق التي تصاحب مرحلة الانتقال - وهي المرحلة التي كان يمر بها المجتمع اليوناني في عصر هوميروس كما أشرت في مناسبات سابقة . ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، فالى جانب اتجاه التأرجح بين الحرب والسلام والاتجاه نحو تجسيد الحرب ، كان هناك الاتجاه الذي يجلم بعالم يوناني مستقر تسوده الطمأنينة ويشيع فيه السلام .

وفي هذا المجال نجد أن منظر المدينة التي تدور حولها الحرب ، وهو احد المناظر التي تحتوي عليها درع أخيليس ، يظهر بجانبه منظر آخر لمدينة يسودها السلام ، فيها سعادة عارمة واحتفالات زواج ورقص ، ونساء يقفن عند ابواب منازلهن ورجال يتناقشون في السوق . كذلك هناك الحقل الكبير الذي رأيناه يمحرت في مناسبة سابقة وقد وقف صاحبه ، وهو الملك ، يراقب سير العمل أثناء ذلك في سرور ظاهر وقطعان الماشية والاغنام ذات الصوف الأبيض والغدير الهامس وأكواخ الرعاة ، بكل ما يوحي به ذلك من مظاهر الطمأنينة والاستقرار<sup>(٥٩)</sup> .

والمنظر الثاني الذي يشير الى هذا الاتجاه هو ما نراه في جزيرة سخيرية ، التي مر بنا ذكرها عند الفايكيين . إن هؤلاء القوم ينعمون بسلام دائم ، وقد نبذوا من حياتهم كل ما فيه قتال أو صراع . أما عن المجد والظهور في هذا المجتمع فقد كان الفايكيون يحصلون عليه في مجال المباريات الرياضية التي استبدوا منها كل ما يتصل بالملكمة أو المصارعة . وقد عللوا ذلك في صورة رمزية بقولهم<sup>(٦٠)</sup> :

« اننا لا نجيد الملكمة والمصارعة ، ولكننا

عداؤون وبحارة من الطراز الاول ، كما تهوى قلوبنا

٥٨ - اللبائنة ، ٦ ، ٤٦٦ - ٤٢٠

٥٩ - راجع اعلاه

٦٠ - الأوديسة ٨ ، سطر ٦٤٨ وما بعده ، ٢٤٦ وما بعده .

المأدبة والتبشيرة . ونعسى الرفص والملبس والحب  
والنوم . »

ومع ذلك فإن الشاعر لم يعتبرهم جبناء ، وإنما نظر إلى هذا المجتمع على أنه مجتمع مالم ، إذا كان لنا أن نأخذ  
حديث أوديسيوس إلى ملك هذه المدينة على أنه يمثل رأي الشاعر ، وقد كان أوديسيوس مع ذلك محارباً من الطراز  
الأول .

وأخيراً فلعل خير ما يصور لنا اتجاه السلام الذي كان قد بدأ يظهر بين اليونان في عصر هوميروس هو  
الآليات التي يختم بها هوميروس ملحمة الأوديسيه حين توجه الالهة أثينة نداءها إلى أوديسيوس ليوقف القتال ، بعد  
أن انتصر على أعدائه من طبقة النبلاء حتى يشبع السلام في ربوع إيتاكة ، وحتى يرضى بذلك الإله زيوس ، كبير  
الآلهة (٦٦) .



الذي يتأمل نشاط الحضارات القديمة التي تمت  
على شواطئ حوض البحر المتوسط يلمس ، من  
خلال الأدلة الأثرية ، التقاء هذه الحضارات في أكثر  
من فترة تاريخية . وقد قصدت بهذه الدراسة متابعة  
الدور الذي مارسته الحضارة المصرية القديمة في تطور  
الفنون الاغريقية في الفترة الاولى من فترات هذا  
الالتقاء . ونقصد بها مرحلة الحضارة الهلنار  
الأخيرة ، وهي مرحلة التزوج الحضاري في العصر  
البرونزي ، وتقد من حوالي ١٥٨٠ الى  
١١٠٠ ق.م.<sup>(١)</sup>

## تطور الفن الاغريقي في العصر الهلناري والتأثيرات المصرية

### أحمد حسن غزال

أسئلة الآثار اليونانية والرومانية

كلية الاداب - جامعة الرياض

من الطبيعي ان يكتشف الباحثون قطعاً أثرية  
مصرية على الارض اليونانية ، أو قطعاً أثرية إغريقية  
على الارض المصرية ، فقد كانت هناك اتصالات  
تجارية حدثت عبر البحر المتوسط بين الجانبين . ولا  
شك أن وجود هذه القطع الأثرية المصرية هناك كان  
له الفضل الأكبر في مساعدة الأثريين ، في بداية

(١) يقصد بالحضارة الهلنارية ( نسبة الى : Hellas—ades ، وتعني اليونان ) العصر الذي يمتد من حوالي ٢٨٠٠ الى ١١٠٠ ق.م . وهو العصر الذي سبق  
العصر التاريخي ، وقد استخدم فيه البرونز كإداة أساسية لصناعة متعلقات الحياة اليومية ، ولذا سمي أيضاً بالعصر البرونزي . وقد اتفق الاثريون على  
تقسيم حضارة هذا العصر الى ثلاث مراحل اساسية بعد مقارنة تطورها بالحضارة المصرية المبنية في جزيرة كريت على النحو التالي :

١ - الحضارة الهلنارية الاولى : ( ٢٨٠٠ - ١٩٠٠ ق . م )

٢ - الحضارة الهلنارية الوسطية : ( ١٩٠٠ - ١٥٨٠ ق . م )

٣ - الحضارة الهلنارية الاخيرة : ( ١٥٨٠ - ١١٠٠ ق . م ) .

وسميت الحضارة الهلنارية الأخيرة أيضاً بالحضارة الموكينية نسبة الى موكيني التي شهدت الاكتشافات الأولى لهذه الحضارة . وتنقسم هذه الفترة الحضارية  
بدورها الى الفترات التالية .

١ - الفترة الاولى للحضارة الهلنارية الأخيرة أو الموكينية الاولى ( ١٥٨٠ - ١٥٠٠ ق . م ) وهي الفترة التي كُشف عنها شيلان عام ١٨٧٦ ، والتي سأتناولها في  
هذه الدراسة .

٢ - الفترة الوسطية للحضارة الهلنارية الأخيرة أو الموكينية الوسطية ( ١٥٠٠ - ١٤٢٥ ق . م ) .

٣ - الفترة الأخيرة للحضارة الهلنارية الأخيرة أو الموكينية الأخيرة ( ١٤٢٥ - ١١٠٠ ق . م ) وهي الفترة التي حدثت فيها حرب طروادة مع بداية القرن الثامن  
عشر ق . م .

مدى التاريخ ، إلا أنه أحيط بشيء من الاحترام الديني ، فقد اعتقد الناس ولظروف غير معلومة ، أن المكان له طابع ديني ، وأدى ذلك بالتالي الى عدم العبث به ، حتى كشفت عنه الحفائر الأثرية ( شكل ١ ) .<sup>(٢)</sup>

حذلك أدت اكتشافات الجمعية الأثرية اليونانية بعد ذلك بخمس وسبعين سنة ( ١٩٥١ ) الى اكتشاف المجموعة الثانية من هذه المقابر ( Grave circle B ) . وهي تقع خارج أسوار قلعة موكناي على بعد ١٣٠ مترا الى الغرب من البوابة . ويضم السياج في هذه المرة أربعاً وعشرين مقبرة ، ولكن ما يمكن أن نسميه بالمقابر المنحوتة عموديا يصل الى أربع عشرة مقبرة ، مساحة أكبرها تصل الى ٢,٨×٣,٨ مترا . ويبلغ قطر السياج المحيط بها ٢,٨ مترا ، ومدخله أيضا نحو الغرب . وهذه المجموعة تحمل بشكل عام المظهر المعماري للمجموعة الأولى .<sup>(٣)</sup>

وقد جاءت محتويات مقابر هاتين المجموعتين لتوضح أن تحولا بارزا في تطور الحضارة الهيللرية قد حدثت فجأة وبسبب غلبة أسرة ملكية جديدة في موكناي ، حقق أفرادها تفوقا واضحا مع بداية القرن السادس عشر ق.م ، نتيجة اتصالاتهم النشطة في حوض البحر المتوسط . وربما يعني وجود مجموعتين من

الاكتشافات الأثرية على وضع الاطار التاريخي لتسلسل الحضارة الاغريقية ، من خلال هذه الأدلة المصرية التي سبق دراستها ومعرفة فتراتهما التاريخية . ولكن الذي نغنيه في هذه الدراسة بالدور الذي مارسه الحضارة المصرية ، هي تلك التأثيرات المصرية في العادات والتقاليد الاغريقية ، والتي انعكست بدورها في الفنون وأدت الى تطويرها ، لتأخذ دورها في مسطرة فنون الحضارات الأخرى في العالم القديم ، بل وتغوقت عليها في بعض مراحلها .

والحديث عن تطور الفنون في المرحلة الهيللرية الأخيرة ( ١٥٨٠ - ١٢٠٠ ق.م ) والتأثيرات المصرية يقودنا الى مناقشة الاكتشافات الأثرية التي حدثت عندما أدى شغف هاينريخ شليمان بأشعار هوميروس والتراث الاغريقي القديم الى اكتشاف مركز الحضارة الهيللرية في موكناي . فقد كشف داخل أسوار قلعة موكناي عام ١٨٧٦ في بداية حفائره على الأرض اليونانية عن المجموعة الأولى من المقابر المنحوتة عموديا ( Shaft graves ) في سطح الأرض ، داخل سياج يحيط بها ( Grave circle A ) . وهذا السياج عبارة عن سور من صفين متوازيين من اللوحات الحجرية ، يبلغ قطره ١٧,٥٠ مترا ، يقع مدخله عند الغرب ، ويضم ست مقابر . ومع أن مكان هذا السياج كان معروفا على

A.J.B. Wale. Mylenae (Prinleton 1949) pp. 5٩-60 :

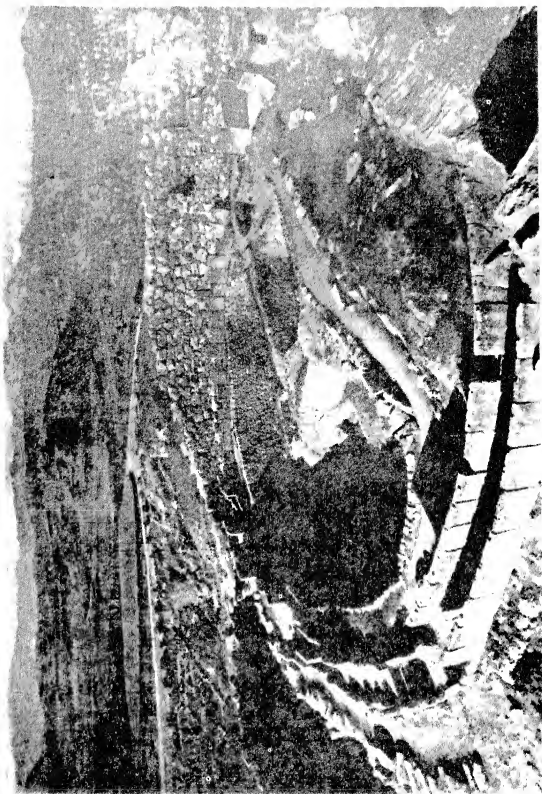
( ٢ )

Sp. Marigatos and M. Humer. Kratē Kal Mykenaike Hellas (Athens 1959) note 145 on p.

109. George E. Mylonas. Mylenae, A Guide to the Ruins and its History (Athens 1970) pp. 19-23

Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 60; George E. Mylonas, op. cit., pp. 52-56.

( ٣ )



شكل ١ - السج الدار الذي يضم مجموعة المقابر الأولى التي كشفت عنها حفريات سنجان، عا. ١٨٧٦.

لقصور جزيرة كريت وكنوزها . ولا تزال هذه التفسيرات تتردد في أيامنا هذه .<sup>(٤)</sup>

وهذه التفسيرات في الواقع مغايرة للحقيقة . فالأطار التاريخي الذي تطورت من خلاله الحضارة المينوية ، كما أثبتت سلسلة الاكتشافات الأثرية بجزيرة كريت ، يوضح أن القصور القديمة في كنسوس بدأت بحوالي ٢٠٠٠ ق.م ، وانتهت حوالي ١٧٠٠ ق.م ، وأن القصور الحديثة التي تلتها بدأت حوالي ١٧٠٠ ق.م ، وانتهت حوالي ١٤٠٠ ق.م . وأن الكارثة التي انتهت بها القصور المينوية الأولى عام ١٧٠٠ ق.م كانت بسبب ظروف طبيعية - بفعل الزلازل - وليست بسبب غزو هجومي على الأخيين الموكينيين أو غيرهم . كما أن القصور الحديثة التي تلتها بنيت بدون أسوار للدفاع عنها ، وذلك دليل على قدرة أسطول كريت البحري على حماية سواحلها .

ولو افترضنا أن الأخيين قاموا بشن غارات على كريت فيما بعد في بداية القرن السادس عشر ق.م ، ونجحوا في الاستيلاء على مراكزها ، فهناك مراكز أخرى قوية على الجزيرة كان لابد وأن تصدى لهذا الهجوم . ولو افترضنا أيضاً أن الغزو كان شاملاً على هذه الجزيرة ، فلماذا رحل الفزاة عنها وهي جزيرة غنية توافرت فيها سبل الحياة بطريقة أفضل من موكنياي ؟ لا شك أن بعض القطع الأثرية التي

المغابر أن البيت الملكي الجديد كان يضم أسرتين ، لكل منهما مدافنها الخاصة . وقد اتفق الآثاريون على أن هذا التطور غير العادي يمثل فترة تحول في تطور الحضارة الهيلارية ، وفنونها بصفة خاصة ، وهي الفترة الأولى في المرحلة الهيلارية الأخيرة ( ١٥٨٠ - ١٥٠٠ ق.م ) وليست كما اعتقد شليمان الفترة الأخيرة لهذه المرحلة ( ١٤٢٥ - ١١٠٠ ق.م ) وهي الفترة التي حدثت فيها حرب طروادة في بداية القرن الثاني عشر ق.م ، والتي حدثنا عنها الشاعر هوميروس ، والتي اعتقد شليمان أنه كشف عنها تحت تأثير العبارة التي وردت عند هوميروس « موكنياي الذهبية » ( Od. III, 304 ) عندما وجد أقنعة وحلياً وزخارف مصنوعة من الذهب في المقابر التي اكتشفها .<sup>(٥)</sup>

وقد تعددت الآراء حول طبيعة هذا التحول في تطور الفنون الهيلارية . وعندما كشف سير آرثر إيفانز عن القصور المينوية في كنسوس بجزيرة كريت عام ١٩٠٠ ، أثار اكتشافه ضجة كبيرة بسبب الانطباع الذي أعطته تخطيطات هذه القصور وبقايا مبانيها المعاصرة ، حيث اعتقد البعض أن الحضارة الهيلارية في فترة الأخيرة الناضجة انما تمت في بدايتها ، أي فترة تحولها ، تحت تأثير الحضارة المينوية . وفي رأي البعض أن محتويات المقابر الموكينية التي كشف عنها شليمان وبعثة الجمعية الأثرية اليونانية إنما جاءت نتيجة اغتصاب الأخيين - أصحاب موكنياي -

Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., pp. 55-56.

(٤) .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ٥٥



كانت الارض الوحيدة التي تمتلك الذهب ، وكان الملك في انحاء العالم القديم يطلبون الذهب من مصر<sup>(٦)</sup> ويفضل هذا الرأي الجريء بدأت من جديد ، الدراسة التفصيلية لمحتويات هذه المقابر ، ومقارنتها بالفنون المصرية ، ومتابعة الظروف التي حدثت فيها هذه التأثيرات المصرية .

ويتضح أهم هذه التأثيرات في صنع الأقنعة الذهبية ، فهي عادة مصرية ، ولم تعرفها الحضارة المينوية من قبل في جزيرة كريت . وقد غثر على سبعة أقنعة ذهبية في مقابر المجموعة الاولى ، منها ثلاثة عشر عليها في القبر الخامس ، الذي كان أكثر القبور ثراء في محتوياته الاثرية . وتبدو في أحد الأقنعة التي عثر عليها ، في القبر الخامس قوة الملامح . وقد جعل ذلك شليان يعتقد بأن قناع أجاثموني ( شكل ٢ ) ، ملك موكناي وقائد حملة الآخيين ضد طروادة<sup>(٧)</sup> . أما بالنسبة لمقابر المجموعة الثانية فقد عثر في أحدها على قناع ذهبي آخر .

وتظهر هذه الأقنعة محاولة موكنية لظهور ملامح الموتى وفي ذلك تأثر بالتقليد المصري المتبع في صناعة الأقنعة . ويلاحظ ايضا ان الملامح هنا تختلف عن ملامح المينويين . ففي أقنعة موكناي نجد أن الجبهة عريضة ، والأنف قصير ، والشفاة رقيقة ، والحواسب ثقيلة ، والأعين مستديرة ، كما تظهر أيضا اللحية والشارب . وكلها ملامح تنتمي الى عنصر آخر غير مينيوي ، استقر وعاش في موكناي ( شكل ٣ ) . كما

اكتشفت بموكناي تؤكد انها مينية الأصل ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها غنائم مينية استولى عليها الآخيون نتيجة غارات قاموا بها على الجزيرة ، بل على الأرجح أنها جاءت نتيجة اتصالات تجارية حدثت من وقت لآخر . كما أن الاعتقاد السائد بأن الفنانين الذين صاغوا الفنون الهلنستية في موكناي ، خلال هذه الفترة ، انما كان الموكينيون قد نقلوه من معهم من كريت ، يصبح رأيا غير مقبول .

ان الفنان الذي صاغ الفنون الهلنستية في فترة تحولها ، كما سنرى في هذه الدراسة ، هو فنان موكني أصيل أحس بظروف مجتمعه فعبّر عنها في فنتونه المختلفة ، وعندما وقع تحت تأثير فنون الحضارات الاخرى أخذ عنها ما يناسبه وصاغه في اسلوب هيلاري ، كما انه من الملاحظ ان الموضوعات التي اختارها لفنونه الهلنستية وصاغها في أسلوبه الخاص لم تعرف من قبل في الحضارة المينوية .

ان الدراسة التفصيلية لمحتويات مقابر المجموعتين الاولى والثانية في موكناي تشدنا للبحث عن مصدر آخر غير الحضارة المينوية ، كان له تأثير قوي ومباشر على نمو الحضارة الموكينية في فترتها الاولى . وكان البروفيسور مارينانوس من أكثر المتحمسين لفكرة التأثيرات المصرية ، وأن مصر لابد وأن تكون هذا المصدر لنمو هذه الحضارة . فكمية الذهب التي صنعت منها الأقنعة الذهبية التي اكتشفت بالمقابر الموكينية أتت من مصر . فمصر

(٦) نفس المرجع السابق ، ص ٥٦

George E. Mylonas, op. cit., p. 22.

(٧)



شكل ٢ - قناع من الذهب جاء من مقابر المجموعة الأولى - ويدعى قناع « اجامتون » .



شكل ٣ - قناع من الذهب . جاء من مقابر المسروعة الأولى .

المصنوع منها نصل الحنجبر. ولا شك ان الفنان الموكيني هنا قد استوحى فكرته من مصر. فالموضوع الذي اختاره هو موضوع مصري يعكس مشهدا يحدث عادة على شاطئ النيل أو أحد فروع او قنواته بين سيقان البردي في ربوع الريف المصري. كما ان فكرة تطعيم المعادن بأشكال مصنوعة من معادن أخرى، هي فكرة عرفت مصر أيضا ولم تعرفها الارض اليونانية من قبل.<sup>(٨)</sup>

ويتضح التأثير المصري المباشر أيضا في شواهد القبور التي اكتشفت في مجموعتي هذه المقابر بوكيناى. وهذه الشواهد قطعت من الحجر الجيري ثم نقش عليها بالنحت البارز مناظر تمثل الحياة الوبية للمتوفين في حياتهم الدنيوية. وفكرة نقش المناظر على شواهد القبور ظاهرة فنية لم تعرفها من قبل الحضارة المينوية، بل ليس لها نظير على الارض اليونانية ذاتها قبل هذه الفترة. لقد مارس المصريون هذه الفكرة من قبل فوق مقابرهم وهناك أمثلة عديدة جاءت من مصر، حيث مثل شاهد القبر بأبسا للمقبرة، وثقلت عليه مناظر من حياة المتوفي وأقاربه وما يقدمونه من مأكولات. ولكن المناظر اليومية التي اختارها الموكينيون على شواهد قبورهم اقتصرت على المعاربين المنتصرين، او المطاردين للحيوانات المفترسة من فوق عرباتهم، وهي جميعا مناظر تدل

أن شلمان عثر أيضا على احدى الجثث التي بقي فيها وجه المتوفي بحالة جيدة تحت القناع الذهبي الثقيل، رأى فيها كل من ماريناتوس وميلوناس، تقليدا للطريقة المتبعة في تخنيط المومياءات المصرية. فكان المصريون يرسمون وجوه الموتى على اللغائف الكتانية التي لفت بها المومياءات ثم يشيدون فوقها الاقنعة بالملامح المميزة للمتوفي حتى تتعرف الروح على صاحبها عند دخولها المقبرة. ومن الطبيعي أن بعض الملوك كانوا يصنعون أقنعتهم من معدن نفيس كالذهب.<sup>(٩)</sup>

وقد زودت القبور في المجموعتين بعدد غير قليل من الحناجر والسيوف البرونزية وجسدت بجسوار الجثث. وقد زينت مقابضها بزخارف هندسية حلزونية، وطعمت اتصالها بمناظر للصيد تعكس صورا للبطولة والأشكال النباتية (شكل ٤). وهذه المناظر والأشكال المطعمة قد صنعت في معظمها من الذهب والفضة. والذي يشد الانتباه هنا خنجر صنع نصله من البرونز، عثر عليه في القبر الخامس من المجموعة الاولى، ويتمثل عليه قطع بربية تطارد البط، على شاطئ نهر بين سيقان نبات البردي، وتظهر الاسماك في خلفية المنظر مع البردي لتوضح مجرى النهر المتعرج (شكل ٥)<sup>(١٠)</sup>. وهذه الأشكال صنعت جميعا من الذهب والفضة، ثم طعمت في مادة البرونز

Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 56, note 32 on p. 72;

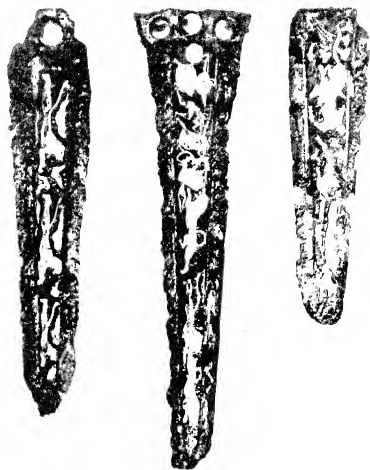
(٨)

George E. Mylonas, op. cit., p. 22.

(٩)

Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 65, note 171 on p. 118.

Cf. Frank H. Stubbings, „The Rise of Mylenaeon Crilization.) CAH, Revised ed., of (١٠) vol. II, Chap. XIV (1963) p. 9.



شكل ٤ - خناجر من البرنز طعنت أعضائها بينما ظنن أنها حياة الصيد البطولية . ومن من الذهب والفضة . مجموعة المتاحف الأولى .



شكل هـ - خنزير طعم يمتظر يستل عليه طف يرى منقش على البطانة في قبر به اسماك  
وبناك البردي ، وصفت هذه البرايق التينية من الذهب والفضة - مجموعة المقابر الأولى .

وأمام العربية يسير شخص يحمل شيتا غير معروف في يده ( شكل ٦ ) .

يوضح الشاهدان السابقان موضوعين منحوتين لأول مناظر للبريات التي لم تعرفها اليونان من قبل ، ولم تعرف ايضا في الحضارة المينوية . ولكننا نميل الى أن هذا الموضوع قد قدم من مصر التي عرفت العربية أولا تحت حكم الهكسوس ، ثم استخدمها الموكينيون بعد أن عرفوها هناك . ولكن الفنان الموكيني نحتها في أسلوبه الخاص الذي يعكس الحياة اليومية - حياة البطولة - عند الآخرين . (١٢)

يتضح من العرض السابق أن صناعة الاقنعة الذهبية التي صاحبها الموتى ومحاولة التحنيط ، وتطعيم المعادن بأشكال زخرفية من معادن أخرى ، ومنظر القفط البرية على شاطئ النهر ونبات البردي ، وشواهد القبور والعربات المنحوتة على هذه الشواهد ، انما تدل على ان الموكينيون قد تأثروا بعبادات المصريين وتقاليدهم واعتقادهم في الحياة الاخرى . وذلك على عكس المينويين الذين أحبوا حياتهم الدنيوية ولم يهتموا بحياتهم في العالم الآخر . لقد زود الموكينيون مقابرهم بما يلزمهم في حياة أخرى أكثر سعادة ، وبالتالي جاء الفن الموكيني متأثرا بهذه التقاليد المصرية . (١٣) ولكن نفذه الفنان في أسلوب موكيني

على البطولة التي كان يعكسها الفنان في معظم أعماله الفنية . (١٤)

وقد وصل عدد شواهد القبور الى سبعة عشر شاهدا في مجموعة المقابر الاولى منها أحد عشر شاهدا تمثلت عليها مناظر منحوتة ( ستة شواهد كاملة ، وخمسة أخرى مكسرة الى أجزاء ) وستة شواهد باقية لا توجد عليها أية زخرفة . أما بالنسبة لمجموعة المقابر الثانية فقد عثر ايضا على عدد من الشواهد ، منها شاهدان فقط يحملان مناظر منحوتة .

ونتناول بالوصف هنا لوحتين من ثلاث لوحات تعتبر من أحسن الشواهد التي جاءت من مجموعة المقابر الاولى ، وكانت فوق القبر الخامس ، الذي ادعى شليان أنه قبر أجاممنون .

١ - شاهد قبر من المجموعة الاولى : الطول ١,١٢ مترا ، العرض ١,٢٣ مترا . المنظر المنحوت على الجزء الاعلى يمثل محاربا يقف على عربة يجرها حصان ، وتحت أرجل هذا الحصان يرقد العدو المنافس ، وعلى الجزء الاسفل من الشاهد تتمثل حيوانات تندفع الى الامام .

٢ - شاهد قبر من المجموعة الاولى : الطول ١,٣٣ مترا ، العرض ١,٠٦ مترا . المنظر المنحوت على الشاهد يمثل عربة يقف عليها فارس يحمل سيفاً ،

A.J.B. Wale, op. cit., p. 56 - 61 : Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 56; Frank H. ( ١١ ) Stub bings, op. cit., p. 9.

( ١٢ ) نفس المرجع السابق ، ص ٩

Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 60.

( ١٣ )



شكل ٦ - شاهد قبر يمثل عليه بالبحث البارز منها فسيحة أو حارب وزخارف هندسية ، مجموعة المقابر الأولى .



بالمعادن والتقاليد والفنون المصرية . وعند عودتهم الى وطنهم كان ذلك مصدرا أساسيا في تحويلهم الحضاري المفاجيء في فترة الحضارة الهلنستية الوسيطة الى فترة الحضارة الهلنستية الأخيرة الناضجة ( ١٥٨٠ - ١١٠٠ ق.م ) بعد أن طبقوا ما تعلموه ونقلوه في ضوء تقاليدهم وعاداتهم .<sup>(١٧)</sup>

وتتفق هذه النظرية مع ما تعلمه من أن مصر قد شهدت مع بداية القرن السادس عشر ق . م . هذا الحدث الهام ، وهو طرد الهكسوس من مصر وتطهير أراضيها من المستعمرين ، ثم بداية عصر جديد من خلال حكم الملك أحس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ( ١٥٧٠ - ١٣٩٠ ق.م ) وأن حكم هذا الملك قد امتد الى أربعة وعشرين عاما قضاه في اصلاح البلاد وتوطيد نظمها ومعايها .<sup>(١٨)</sup>

والذي يعني هنا وأضيفه الى هذه الدراسة هو النص الذي ورد في لوحة الكرنك والذي يوضح ولاء أحس لأمه الملكة « إع حتب » والتي يبدو أنها لعبت دورا بارزا في الحرب ضد الهكسوس . ويقول النص : « امدحوا سيدة البلاد وجسر البحر المتوسط ( Hau-ne bu ) ، فاسمها محترم في جميع البلاد الاجنبية ، وهي التي تضع الخطط للناس ... الى آخره » . ويشير الى أهمية هذا النص ان الزخارف

محلي . وبالإضافة الى هذا التأثير المصري كان هناك ايضا بعض القطع الفنية المصرية الصنع التي وجدت مع محتويات المقابر ، منها سلطانية كريستال أخذ شكل البطة ( شكل ٧ )<sup>(١٩)</sup> ، وصندوق صنع من خشب الجوز المصري عليه أشكال عاجية تمثل حيوانات ، لصقت عليه ولبست مطعنة ( Applique ivory figures ) .<sup>(٢٠)</sup>

وبدراسة هذه الاشكال الفنية ومقارنتها بأشكال مصرية ماثلة ، أتضح أن هذه الفترة التي تمثل تحولا مفاجئا في الحضارة الهلنستية ارتبطت مباشرة ببداية الأسرة الثامنة عشرة في مصر ( ١٥٨٠ - ١٥٧٠ ق.م ) وهي أيضا فترة التحول العظيم في مصر . والنظرية التي أكدها ونادى بها البروفيسور ماريناتوس وأخذ الكثيرون بها اليوم ، هي أن المصريين في ذلك الوقت قد بدأوا نضالا مسلحا ضد الهكسوس الذين كانوا يحتلون مصر . وأنهم ، أي المصريين ، قد استعانوا بعدد من الجنود المرتزقة من سكان موكينا ، مع نهاية الفترة الهلنستية البسيطة ( ١١٠٠ - ١٥٨٠ ق.م ) . في طردهم للهكسوس من أرض وادي النيل<sup>(٢١)</sup> وبعد حرب التحرير كافأ المصريون الجنود المرتزقة بكميات من الذهب ، الذي توفر وجوده في مصر ، والهدايا الاخرى . وقد أتاحت بقاء هؤلاء الجنود في مصر فترة غير قصيرة ، ان تأثروا

George H. Myloneas, op. cit., pp. 56-57.

(١٤)

Frank H. Stubbings, op. cit., p. 9.

(١٥)

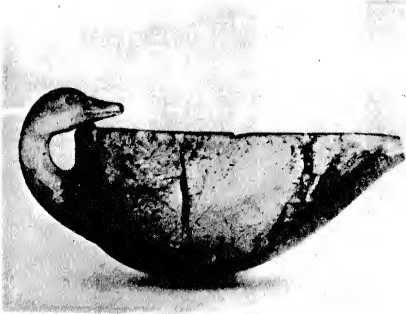
Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 55; Frank H. Stubbings, op. cit., p. 10.

(١٦)

Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 56.

(١٧)

(١٨) أحمد لغري ، مصر الفرعونية ، ( الطبعة الثالثة ١٩٧٦ ) صفحات ٣٦٠ - ٣٦١ .



شكل ٧ - سلطانية من الكريستال أخذت شكل بطة - جارت من مجموعة المفاير الثانية .

لمصر ، وهناك أدلة أثرية عديدة تؤكد هذه العلاقة المزدهرة بين البلدين . وقد عرف المصريون الكريتيين تحت اسم الكفتيين (Kephthians) (٢١) . ومن الطبيعي لوان المقصود بعبارة « جزر البحر المتوسط » في نص لوحة الكرنك « جزيرة كريت » لجاء في النص مايوحى بذلك بصراحة . وعلى هذا يبدر واضحا ان العلاقة المصرية الكريتيية قد جاءت نتيجة نشاطات تجارية فقط ، ولا يوجد ما يفيد بأن الكريتيين قد ساندوا مصر في طرد الهكسوس من أراضيها . وبذلك يصبح من الضروري أن نعتقد أن اللقب « أميرة جزر البحر المتوسط » لايد وان يعني منطقة معينة غير جزيرة كريت ، وأن هذه المنطقة من جزر البحر المتوسط كان لها علاقة وطيدة مع مصر وقت طرد الهكسوس .

والمنطقة التي تثبت آثارها أن تحولاً بارزاً في تطور حضارتها قد لازم بطريقة مباشرة قدم الأسرة الثامنة عشرة في مصر ، هي منطقة موكيناي ، مركز الحضارة الهللاية في شبه جزيرة البيلوبونيسوس ، كما أوضحنا من قبل في هذه الدراسة . والذي يتفحص بعض الحلي والأسلحة التي عثر عليها في مقبرة « إع حنب » وخاصة البلطة الحرية التي تحمل اسم ابنها أحس ، اول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، يلاحظ انها قد طعمت « بجريفيين » من الذهب ، ويتفق هذا

المنقوشة على بعض الحلي والأسلحة التي اكتشفت بمقبرة الملكة ، رغم أنها مصرية الصنع ، فهي تحمل أثر الفن الايجي في شكلها وزخارفها ، مما يوحي بأن هذه السيدة كانت لها فعلا علاقة مباشرة أو غير مباشرة بسكان بعض جزر البحر المتوسط . ويبدو أن الألقاب التي أضفها أحس على أمه كانت بسبب الدور الاساسي الذي لعبته في سياسة البلاد ، وأن لقب أميرة جزر البحر المتوسط يوحي بأن سكان هذه الجزر قدموا شيئا من المؤونة في الحصار ضد الهكسوس ، وأن هذه الملكة قد لعبت دورا فعلا في هذا الأمر. (١٩)

ويرى المؤرخ ادوارد ماير أن اللقب « أميرة جزر البحر المتوسط » يشير الى أن نجاح حرب التحرير ضد الهكسوس انما جاء بسبب المصاهرة بين البيت الملكي في طيبة وكريت ، وأن الملكة « إع حنب » ربما كانت من أصل كريتي ، أو تزوجت أحد أمراء الجزيرة ، وجمعت جيوشها بمساعدته لطرد الهكسوس من مصر . ولكن المؤرخ بندليبيوري يرى ان فكرة زواج الملكة من أمير كريتي رأي لا أساس له من الصحة ويفتقر الى أدلة تدعمه . وفي نفس الوقت يرى انه ليس من المستبعد ان الكريتيين قد قدموا المساعدة لطرد الهكسوس. (٢٠)

لا شك أن جزيرة كريت كانت معروفة جيدا

Frank H. Stubbings, op. cit., p. 10.

(١٩)

J.D.S. Pendlebury, „Egypt and the Aegean in the late Bronze Age” JEA, 16 (1930) p. 76, (٢٠) note 2.

(٢١) نفس المرجع السابق .

( Hau-ne bu ) التي تعني جزر البحر المتوسط ، يقصد بها موكتيني . وهذا دليل آخر يدعم النظرية التي تقوم أساسا على أن هذا التحول المفاجيء في الحضارة الهيلارية ، من الهيلارية الوسيطة الى المرحلة الاولى من الهيلارية الاخيرة ( الموكينية الاولى ) جاء نتيجة التأثير المصري المباشر ، وان المساعدات التي يزعم أنها جاءت من مصر ، قد جاءت من موكتيني وليست من كريت .

الطابع الى حد كبير مع أحد الحفائر التي اكتشفت في مقابر موكتيني . ولما كانت هذه البلطة وكذلك خنجر وجد معها يحمل زخرفة ايجية ، وهي ايضا مصرية الصناعة ، فان هذا التأثير الذي يرى المؤرخون بصفة عامة أنه إيجي ما هو إلا تأثير موكتيني واضح . ولهذا فان نص لوحة الكرنك والزخارف الايجية على الحلي والاسلحة التي اكتشفت بمقبرة الملكة « إع حتب » تشدنا بالضرورة الى الاعتقاد بأن الملكة



### برولوجوس : كلمة عن الأصالة

في نزوعنا الى البحث أو التفاعل مع ما هو أصيل قد نفعل حقيقة أن الابتكار ليس كل شيء ، وأن مفهوم الأصالة يحتمل تفسيرات شتى ، وأن للمحاكاة ، في الجانب الآخر ، أكثر من وجه . وفيما يخص الرومان فصحيح القول بأنهم حتى عندما وسع ادراك أدبائهم بطبيعة الابداع ، وتزايد وعيهم بموقعهم في العالم المتحضر ، ومسئولياتهم نحوه ، وتضخم لديهم الشعور بالتفوق ، لم يكفوا عن الاستمرار في الأخذ عن الأدب اليونانى : يتأثرون به ، ويستجيبون له ويدورون من حوله . ولكن يصح القول أيضا بأنهم قد راحوا ، عندئذ ، يتخذون من محاكاة الناذج العليا اليونانية محاكاة لاختبار قدراتهم ومواهبهم ، وربما طريفا للتحدى والمنافسة <sup>(١)</sup> . على اننى لست هنا في موضع عقد مقارنة بين الأصل والصورة ، إنما أعني ببيان أن الصورة تحمل في طياتها بعض ملامح الأصالة ، وأن هذه الملامح هى ، أساسا ، وليدة ما يمكن أن نسميه الطابع الرومانى أو الشخصية الرومانية التي هى ، كما نعرف ، ليست كالشخصية اليونانية .

إذا كنا نتفق على وجود خصائص مميزة للشخصية الرومانية تاريخيا ، أى في المضمار

## ميديا أو هزيمة الحضارة

يحيى عبدالله

قسم الدراسات اليونانية واللاتينية  
كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) كثيرا ما يتردد على سمعي ذلك القول لدوناتيس :

peteat qui ante nos nostra dixerunt والمعنى هو سحفا لمن سبقنا ، فأنهم قد قالوا أقوالنا - أي لم يتركوا لنا شيئا نقوله .

التاريخي ، فما الذى يمنع ان تتحدد نفس هذه الخصائص أو بعض منها في المضمار الادبي ؟ ، وما السبب في أن تؤكد ، مباشرة ، الملامح الرومانية للسياسي أو المشرع أو القائد الروماني ثم تنبأطاً في هذه الملامح للشاعر أو المفكر ؟ نحن ، في حقيقة الأمر ، لانستطيع أن نفصل بين الصلابة العسكرية عند الرومان وصلابة اللغة اللاتينية ، ولا ينبغي أن نتحدث عن وضوح الرؤية عند المشرع الروماني في الوقت الذي نتجاهل قدراً من هذا الوضوح عند الاديب .

ومع ذلك ، فإن اختلاف الشخصية الرومانية عن اليونانية لا يعنى ، بأية حال ، أن أحدها كان يسلك مسلكاً فكرياً مختلفاً تماماً عن صاحبه . فذلك الكم الهائل من التأثير باليونان يشير الى أن ثمة اتفاقاً مبدئياً ، على الأقل ، حول ما يمكن أن يكون اتجاهها عاماً ، هنا تصبح الفلسفة أو الأفكار الفلسفية عنصراً مشتركاً بين الأدبين ، وهنا يصبح العقل اليوناني مؤثراً بنفس الدرجة ، تقريباً ، التي نلاحظها في مجال تأثير قوانين أو قواعد التأليف الادبي على ما أنتجه الرومان من أفعال . هذا مع أهمية وضروية تقديرنا بأنه اذا كانت تلك الاخيرة ( أى الاعمال ) تكاد تكون معالجات للأشكال أو الاجناس الادبية ، فإن التأثير الروماني الخاص بالعقل ينعطف على الطريقة الرومانية ، الى دروب وعطفات خاصة .

#### التعليق على الحضارة :

يتفق الاديبان ، اليوناني والروماني ، على استعمال الاسطورة كأداة للتعبير عما أسميناه الاتجاه العام . فالأسطورة ، رغم ما تحويه من عنصر الخرافة : مخلوقات غريبة ، وقائع مستحيلة ، تصبح ، في مجمل الموقف الذى تعرضه ، ومن خلال شخصيات تنوء بحمل هذا الموقف ، أكثر فعالية في الكشف عن الوضع الانساني وأشد ملاسة لأغوار النفس البشرية من الأحداث الواقعية .<sup>(٢)</sup> هذه المفارقة ، لاريب ، كانت مدركة لدى كتاب العصر الكلاسيكي ، وهو ما يفسر اصرارهم على الاستعانة بالأسطورة كمادة لموضوع الشعر . وفيما يخص الشعر الدرامي ( التراجيديا ) ، فإن الاسطورة تصبح ضرورة يصعب تجاوزها ، إذ أن فن عرض المسألة ليس ، في صميمه ، الا فن تصوير مأساة الانسان . وربما يمكن القول بأن هذا الاصرار من جانب الشاعر يمثل بداية الوضع العيشي ironic الذي يصوره ، والذي لا ينفصم ، أبداً ، عن تصويره . بمعنى أنه لا يستطيع أن يتحدث إلينا بصدق ، ولأن يعرض علينا جوهر الواقع الا عن طريق مخالفته لهذا الواقع . وفي عبارة أخرى ، فإن الخيال هو أقصر الطرق التي يمكن أن تؤدي الى الحقيقة .

(٢) انظر ، على سبيل المثال ، خادون الشجرة ، « دخل الى مصطلح الاسطورة » ، المراجعة ، العدد ١٩٧ ١٩٧٨ ( ص ٨ : « الاعتراف بأن المفسرون الواقعي لاستحضارات الاسطورة ينطوي على قسبة خاصة » .

الأسطورة لاتفسر فقط حالة انسانية بعينها ، ولكن بإمكانها ، كذلك ، أن تلقى الضوء على الحالة الانسانية عموما . تفصيل ذلك أن أسطورة ما ، كأوديب مثلا ، قد تساعد على اكتشاف تركيبات نفسية أو حتى ميتافيزيقية خاصة ( تتحدد بتحديد الشخصية الأسطورية نفسها دراميا أو شعريا ) ، لكن الأمر لا ينتهي عند هذا . إذ أننا نجد أنفسنا في مواجهة البطل أو الشخصية وهي ، في النهاية ، تحمل صفات انسانية ليست خارقة للعادة ، وأننا بسقوط هذا البطل ، لانملك سوى أن نربط بين هذه الصفات وبين ذلك السقوط . فاجعة أو ديب هي فاجعة الانسان ذى القدرات أو الاستعدادات التي خص بها نفسه ، أو خصته بها الآلهة - وهي قدرات يشترك فيها معه ، بعد فصل عنصر الخرافة جانبها ، آخرون كثيرون من قبل ومن بعد وجوده المؤقت .

لايمينا ، الآن ، أن نبحث فيما إذا كان البطل المأساوى ( أوديب ) قد دفع تمنا يزيد أو يتساوى أو ينقص عما كان ينبغي أن يكون . ولكن نلاحظ ، كما يلاحظ الآخرون ، أن أوديب ينتهي الى مابدأ عليه . فهو قد بدأ شريدا طريدا وانتهى كذلك . هذه العودة الى حيث بدأ ، هي التي تعرف بالحركة الدائرة أو الشكل الدائرى ، والتي تنجز ، شكلا أو حركة ، بفعل الزمن . هذه الحركة بعينها ، لا يندفع معها ، رغبا أو طواعية ، أوديب فقط ، ولكن الانسان بصفته العادية . غير أن أوديب لم يكن بإمكانه أن يصل الى نقطة البداية ، بمعنى أن يكمل انصال الدائرة الا بعد أن يبلغ مبلغا من السعادة ، وأن يدرك شأوا من القوة : ان أوديب الذي سقط هو أوديب الملك .

الانسان ، عموما ، ينزع لأن يصبح ملكا أو مالكا لأمر كثيرة ، متحمكا ، في أسباب الحياة الراقية ، قادرا على تزجية هذه الامور وتحريك تلك الأسباب لما يحقق له الاستقرار والثبات ، ولما يكفل له الرفاهية والمتعة - لكن لوقت ، أى أن قدرته محدودة بزمان محدود . على أية حال ، فهو يبلغ ما يريد ، ويدرك ما يحتاج اليه عبر مجهود يبذله و ارادة يمارسها وذاك ينتفع به . ولا ينبغي ، في هذا الصدد ، ان يفوتنا الاختلاف بين ماهو بطولي وماهو عادى الى سوء في التقدير ، فنقول بأن مكونات عالم أياض وأجامموني وأوديسيوس ليست كالتى بألفها الرجل العادى ، وأن أفعالهم ليست كأفعاله . فمثل ذلك الاختلاف لا يمكن ان ينسب الى ماهو أكثر من مظهر مصدر الفعل . أما النتائج الذي يصل اليه الفعل فهو ماثساوى عنده الحركة الفاعضة لبنى الانسان ، وهو مانعرفه باسم الحضارة . ليس ثمة شك في أن البطل أو الملك الأمثل هو من يقود شعبه الى درجة أعلى من درجات الرقى والتقدم . وعندئذ يمكن القول بأن مايتعرض له ذلك البطل من هزيمة أو تدهور سوف يعنى ، أيضا ومباشرة ، هزيمة لشعبه وانتكاسا له ، وهبوطا من الدرك الاعلى الى الاسفل نحو استكمال الخط الدائرى . إذن ، يتحد البطولى ، والعادى في مواجهة نفس المصير .

أضف الى ماسبق أن الوضع الحضارى يستجيب أو بالأحرى يخضع لما تفرضه قوانين الطبيعة على حياة الانسان ، سواء كان بطلا ميمرا أو انسانا عاديا ، من حيث أن هذا الوضع يبدأ من طور الطفولة ، كما يبدأ الانسان ، لينتهي مثله ، مرورا بمرحلتى النضج ثم الشيخوخة ، الى الموت . هنا نلمح أول مبدأ للتعارض بين

الحضارة والطبيعة . ومن شأن هذا المبدأ أنه يحث ، تلقائياً ، على تبني نظرة تشاؤمية - تبدو أكثر المحاحا في غيبة الاعتقاد بالبعث والحياة الأخرى .

من الملاحظ ان حضارة الانسان لا يمكن ان تتحقق الا بالابتعاد عن الطبيعة أو الخروج منها . فالحضارة (cultus) هي حالة عمل بغرض تجميل ، تغيير ، تطوير لما هو موجود أصلاً في الطبيعة . ويقضى ذلك التغيير ، بطبيعة الأمر ، ان يعمل الانسان على الخوف والاضافة في معاملته لتلك العناصر الثابتة والكائنة منذ البدء في الطبيعة . وتصور الفعل الانساني المغير في مواجهة الفعل السات هو تصور لا يخلو ، بلا شك ، من فكرة الصراع . فالانسان يرفض ما تقدمه الطبيعة له ، ويسعى الى هدمها والسيطرة عليها . والطبيعة ، من جانبها ، مرغمة ، تسمح له ، بعض الوب ، أن يفعل بها ما يشاء ، ثم لاتلبث ان تناهض وتقاوم . وحتى لو اعترفنا بأن الانسان انما يقوم بتجميل الطبيعة ، أى صنع الحضارة ، مستعينا بعناصر طبيعية فان ذلك لا يمنع من حفيظة حدوث عملية التغيير . كذلك فان التحوير الذي هو بغرض الاحسن والأرثى من وجهة النظر الانسانية ، قد لا يكون كذلك من وجهة نظر الطبيعة . وعلى أية حال ، فان خروج الانسان على الطبيعة أيا كانت دوافعه ، يمثل عملاً لا أخلاقياً لما ينطوى عليه من معنى التمرد أو الرفض لما وهبته له الطبيعة الأم ، الذي دعا الى ضرورة التعليق وإبداء الرأي .

كثيراً ما أشعر بأن حاجتنا ، الآن ، الى فهم بعض فلسفات العصر الهيلينستى تفوق أى وقت مضى . ما أشير اليه هو اتجاهات الفكر اليونانى في الفرون الثلاثة الأخيرة التي سبقت ميلاد المسيح ، والتي تتمثل ، بصفة أساسية ، في مذاهب الرواقية والايبيقورية والكلبية . فلقد أولى فلاسفة ذلك العصر لمشكلة الحضارة اهتماماً بالغاً . وهم في سعيهم الى التوصل الى أفضل أنواع الاستدواء ، قد وقفوا على أهم أسباب الداء .<sup>(٣)</sup> وإذا كانت هذه الفلسفات تخالف بعضها البعض في كثير من المسائل ، فان الاتفاق بينها يكاد يكون تاماً فيما يخص الاعتراض على مبالغة الانسان في التحضر ، والنأى المتطرف عن حياة الطبيعة ، وهو رفض أو اعتراض يعبرون عنه بالفعل الى جانب القول . فهذا كراتيس الكلبي يتخلص ، عملياً ، من كل ما يزيد عن حاجته . وكلنا يعرف كيف استطاع ديوجينيس أن يضرب مثلاً فذا بطريقة الحياة التي عاشها . ومن الأحوال التي وصلت اليها عن المعلم ما يحذر من سوء العاقبة بسبب الاعتداء على الطبيعة .<sup>(٤)</sup> والرواية التي تتشدق ارتفاع الانسان عن مهوى الضعف والتردد والتأثر ، تنظر الى الحكيم أو العاقل باعتباره مالكا في ذاته وبذاته لكل مايكفيه . وتصبح الكلمة أوتاركيما ، ومعناها الاكتفاء الذاتي ، علامة مميزة للفكر الهلنستى ، وهادفا تصبو اليه تلك الفلسفات ، وان سلكت من أجله سهلاً شتى .

(٣) الاشارة الى المرس والعلاج ليست جديدة . انظر .

N Brown, Life against Death (New York, 1959), P. 141

(٤) ابيكوريدس ، الشذرة ٢١ وغيرها .



لم يكن السخوط على الحضارة ، الذي نلمحه بقوة عند هؤلاء المفكرين العظام ، الا تعليقاً معقولاً وعاقلاً على فصل الحضارة في تحقيق الطمأنينة والسعادة لأصحابها . لقد كانت هزيمة أثينا في الحرب البيلونيسية ، وانتصار اسيرطة عليها هو البرهان على ذلك الفصل من جانب الحضارة ، والرمز الواضح لغلبة الخشونة والضرارة على الرقة واللينة ؛ أو في عبارة أخرى ، ومن زاوية أخرى ، نفوق الطبيعة على خصوصها ، بل ودحرها إياهم . وبصرف النظر عن مدى تاريخية خطاب التأبين الشهير لبريكليس عند توكيديديس ، فان الشعور بالجمال ، الذي يتحدث عنه ، غالباً ما يأتي على حساب التفكير الجاد ، وأن يؤثر ، بالتالي ، على استقامة النفس البشرية ، وأن يتيح للخيال الناعم فرصة التشويه والتبديد لقوة الانسان الفعلية . وعندما انتهى الصراع مع اسيرطة ، بات واضحاً أن حديث بريكليس لقومه الاثينيين لم يكن يخلو من مبالغة في التصور ، الشيء الذي هو ، في حد ذاته ، وليد الحضارة ، وإذا كانت اسيرطة قد أفلحت في الانتصار على أثينا ، فقد أنبتت ، في نفس الوقت عدم صلاحية النظام الاثيني . والحقيقة ان الصراع بينها كان يمتد سياسياً ليتصل بنوعين متناقضين من السلوك الاجتماعي . وبالأحرى فان ذلك التباين هو ما أدى الى نسب الصراع السياسي بينها .

وجدير بالذكر أنه اذا كان الاسبرطي قد أنكر قيمة الحضارة الاثينية ، فان قدراً عالياً من التسكك تلحظه عند الروماني تجاه نفس الحضارة . ان مقاومة الرومان للحضارة اليونانية تمثل صفحة شقية من التاريخ الروماني . ولقد كان في اختلاف الشخصيتين اليونانية والرومانية ما جعل من هذه المقاومة أمراً طبيعياً ، غير أنها لم تكن لتستمر طويلاً ، فسرعان ما وقع الرومان فريسة لاغراء الفن والشعر والبلاغة . لقد بدأت المحنة ( الوقوع في براثن الحضارة ) عندما راحت روما تشعر بحنينها الى الاسترخاء بعد زمن من الحروب المتلاحقة ، وكأن ممارسة الرومان المتصلة لقواهم البدئية قد دعت الى الحاجة الى ممارسة من الوان النشاط الوجداني .

لسنا في مجال متابعة أوجه الغزو الحضاري للأرض الرومانية ، كما ان الحديث لايسمح بالكشف عن أسباب فشل الديمقراطية الاثينية . انما التعليق الرواقى على الحضارة هو ما نريد أن نلفت النظر اليه في ميديا الشاعر والفيلسوف الروماني لوكيوس انيوس سنكا . وقيل ذلك ، بمعنى أن أوضح أن ميديا يوربيديس قد قدمت نفس المبدأ الرافض للحضارة . وفيما أعتمد ، فان أسطورة ميديا ، اكثر من غيرها ، قد ساعدت على أن يأتى ذلك الرفض فاطماً لاهواءه فيه .



### أسطورة ميديا

يرتبط اسم ميديا بعبادة الالهة هيرا في كورنث . وينظر اليها الكورنثيون باعتبارها امرأة اجنبيه وفدت اليهم

من الشرق ، وأنها سليلة اله الشمس ( هليوس ) من ناحية ، وربة لاله القمر والليل والاشباح ( هيكاني )<sup>(٥)</sup> من ناحية أخرى ، وأنها بصفتها الثانية ، قد ارتبطت بأعمال السحر وفنونه . وظهور ميديا في كورنث ، أى انتقلها من الشرق الى اليونان تفسره القصة الشائعة حول رحلة السفينة أرجو البحرية الى كولخيس ( المعروفة حاليا بحورجيا ) ، والتي تحكى كيف أن قائد هذه الرحلة ياسون قد وصل مع رفاقه الى تلك الأرض طلبا للجزية الذهبية ، وكيف وقعت ميديا ابنة الملك في حبه ، مما دفعها لأن تذلل من أجله كل الصعوبات والمخاطر ، كما ينجز مهمته الشاقة ، ثم انها لم تتردد في قتل أخيها عندما أراد أن يطاردها في طريق الهروب . وكيف استطاعت ، بعد ذلك ، أن تقضى على بلياس خصم ياسون اللدود ، والذي كان قد سلب أباه عرشه في ثيساليا ( يوكولوس ) ، بأن أوحى الى بناته بقتله ، بعد اقناعهن بأنهن انما سوف يعدن اليه سيابه ، الأمر الذي أدى لأن تلوذ بالفرار مرة أخرى مع ياسون الى ان استقر بهما المقام في كورنث حتى كان من أمر زواج ياسون الجديد من ابنة كريون . هذا هو موجز وقائع الأسطورة التي تسبق الحدث الدرامى لمأساة ميديا عند كل من يوربيديس وسكنا . أما فيما بعد انتهاء الدراما والذي يتمثل في رحيل ميديا عن كورنث بعد أن أنهت مهمتها الانتقامية ، فإن المادة الأسطورية تشير الى أنها قد وصلت الى أثينا ، حيث تزوجت ملكها أجيبوس ، وأنجبت منه ولدا ، ثم اضطرت للهروب اثر مؤامرة ديرتها ضد ابن زوجها ( ميشيوس ) ، واخيرا التحجت الى كولخيس موطنها الذي بدأت منه أسفارها . وثمة تفاصيل أخرى لا أجد مايدعو الى ذكرها . ويمكن معرفتها بالرجوع الى المصادر القديمة - وتأتى مؤلفات باوسيباس ، أبو للنيسوس الرودسي ، فاليريوس فلاكوس ، أوفيدوس ، سترابو ، ويودوروس الصقلي ، كأهم تلك المصادر .

#### ميديا يوربيديس

عند مطالعة ميديا يوربيديس ، يلفت نظرننا أن الشاعر أولا : قد قصر موضوع مسرحيته على ماتم من أحداث في كورنث ، أى أنه قد تجنب عرض ماسبق ذلك ومالحق به . ويتفق هذا ، بطبيعة الامر ، مع مايقوله أرسطو عن وحدة الموضوع .<sup>(٦)</sup>

(٥) انظر :

O.Seyppert, A Dictionary of Classical Antiquities, (New York, 1960) S.V. Hecate.

(٦) « .. وبناء على ذلك يحظى الكتاب الذين يختارون لم الحياة الكاملة لبطل قام بأعمال عديدة وشهيرة مثل اعمال هيراكليس ( المرقليات ) او اعمال ثيسيس ( التيسيكات ) بمعتقدين انه ما دام البطل واحدا فان قصته بالضرورة ستكون ذات وحدة واحدة » . الترجمة للدكتور محمد حدي ابراهيم ، دراسة في نظرية الدراما الاغريقية ( القاهرة ، ١٩٧٧ ) ص ٥٧ .

ثانياً : أن يوربيديس قد نسب قتل طفلي ميديا الى ميديا نفسها ، خلافا لما ورد في الرواية الشائعة بأن الكورثيين هم الذين فعلوا ذلك الجرم، وأن الالهة هيرا، من جراء ذلك، قد غضبت غضباً شديداً، وأن طاعونا قد أصاب المدينة ... ذلك التحوير من جانب الشاعر يأتي ، بلا شك ، نتيجة ما أداده لميديا من تصوير درامي . إذ أن قتل ميديا لطفليها هو استحكال ، او تنويج لمشروع انتقامها من زوجها ، وذلك بعد أن هجرها ليتزوج بغيرها . قتل طفلي ميديا وياسون هو بغرض القضاء على ياسون قضاء كاملاً . وتدمير ياسون ، على هذا النحو ، هو العقاب الذي رآته ميديا مناسباً لحياتها . حجم العقاب على قدر الحياة . ونحن لانستطيع أن نتصور مدى هول أثر خيانة ياسون الا اذا تصورنا روعة الجريمة التي ارتكبتها ميديا . كما وأنه يتميز علينا أن نسترجع ما فعلته ميديا من أجل ياسون منذ بدء العلاقة بينها وحتى استقرارها في كورنث : لقد دفعها الحب لأن تقسو على أبيها ، وأن تفنك بأخيها ، وأن تقتل بلياس ، وأن تنجو ، من كل هذا ، بنفسها وبياسون معها . كان لابد من الإشارة الى تلك الاحداث الجسام ، حتى نقدر غضب ميديا حق قدره ، وأن نجد لهذا الغضب مبرراً كافياً . من ثم فقد استغل الشاعر ذكر الأسطورة لواقعة قتل الطفلين بيد الكورثيين ، لينسبه الى الأم ، مسوقة الى تلك القفلة الشنعاء بحالة من الغضب المشتعل والرغبة العاتية في الانتقام . وبالإضافة لذلك ، فإن قتل الطفلين يحمل بعداً درامياً آخر ، حيثاً يعمل على خلق تناقض شعوري بين عاطفة الأمومة ، وشهوة الانتقام ، وهو ما نعرفه بالصراع الداخلي . وأخيراً فإن القتل قد بنىء عن تناقض آخر يقوم بين الخصوبة ، كما يجسمها وجود الأطفال وبقاؤهم على قيد الحياة ، والعدم ، باعدائهم . ومع أن هذا التناقض يحمل صنعة بيولوجية ، الا أن مشكلة العدم أو العقم ، كما ينبغي أن تذكر ، تظهر في الفصل الثالث عند اللقاء بين آيجيوس وميديا ، كما يتكرر الحديث عنها في الفصل الخامس على لسان المجرقة ، في حديثها عن مزايا عدم الانجاب .

لكن الصراع في ميديا ليس هو ، أساساً ، الصراع الدائر في نفسها حيال قتل الطفلين ( الداخلي ) . كما وأنه ليس ذلك الصراع البيو- درامي ، والذي يمكن أن ينتهي الى مجرد التعارض بين أفكار مجردة . صراع التناقض في ميديا يدور بين ميديا التي تقتل جنس المرأة ، وياسون الرجل . انه صراع الجنس . وكما هو واضح في المسرحية ، فإنه ينتهي بغلبة المرأة وهزيمة الرجل . وقبل أن أمضى أكثر من هذا المناقضة هذا الصراع ، اطرح سؤالاً يتعلق بنهاية الحدث المأساوي . أو ليس من الممكن ان نتصور نهاية أخرى ؟ كأن تشعر ميديا بالتعاسة والندم على هول ما فعلت ، أو أن تلقى عقاباً على ما ارتكبت ؟ ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل ان يوربيديس يصور ، على التقيض ، شعورها بالزهو والانتصار على نحو قاطع قولاً وفعلاً ، لماذا ، لأن النهاية التي نتصورها قد تأتى أكثر اتفاقاً مع التحرير الذي أجراه يوربيديس ، والخاص بجريمة قتل الطفلين . ولقد كان بوسع الشاعر ، من الناحية الأخرى أن يكتفى بقتل ميديا لكريون وابنته ، خاصة وأن الأسطورة لا تلزمه بعرض ازهاق الام لروحي طفليها . كان على يوربيديس ، إذن ، اما أن توفر على ميديا وعليها مشقة قتل الطفلين البرشين ، أو أن يعكس أثر

ذلك على ميديا في نهاية المسرحية ، بحيث لا ترحل عن كورنته ، وهى على مل هذا الحال من نسوة الانتصار والتفوق .

وفيما أعتقد ، فان القول بأن ميديا كأمراة أجنبية ، بربرية وساحرية ، وأنها لما كانت لاتنتهى الى الجنس اليونانى المتحضر ، وأنها ، كذلك طيفا لمواصفات مستمدة من الاسطورة ، فهى قادرة على ان تعمل هذا الفعل الشنيع ، وقادرة أيضا ، على أن ترحل ، كما اعتادت من قبل ، عن أرض الجريمة ، غائقة كل مأرب ( الانتقام ) سالمة من كل شر - أقول أن هذا القول لا ينهض مبررا كافيا للنهائية التي أنجزها يوريديس لبطلته ولأساته . فنحن لاثمك سوى أن نقرر بأن الشاعر ، وقد اختار هذه الشخصية البربرية ، فانه ينطقها بكلمات هى في غاية الحكمة وسداد الرأى . انها لتبدى ، رغم حالتها النفسية المهتاجة ، من البفظة والنبات والنظرة الثافئة ما يجعلنا ننظر اليها في اعجاب . وهى على أية حال ، لم تكن لتقوى على تحقيق رغبتها في التآمر لو لم يتوفر لديها حظ كاف من حسن الفهم لما يحيط بها من ظروف ، ومقدرة على التعامل مع اعدائها ، وشدة ذكاء في التصرف بصفة عامة . وأحسب أن أحدا لا ينكر أن انتقام ميديا لم ينجز بوسائل السحر بأكثر مما أنجز عن طريق استعمال الحكمة والدهاء : الحفيظة أن يوريديس راح يصور انتصار ميديا كاملا ، صافيا ، متألفا دون أية شائبة من كدر أو نذير سوء أو عاقبة وخيمة أو شعور بالندم . والحفيظة أيضا أنه لا ينبغي أن يقودنا الشعور بالخرج بما فعله يوريديس الى سوء الفهم فنقول حسنا . انها امرأة متوحشة ، ولقد صنعت ما صنعت لانها انسانية غير عادية ، أو غير يونانية ، أو غير متحضرة ، أو لأنها ربما ليست انسانية على الاطلاق ، ويبقى السؤال .

لقد سبق ان ذكرنا أن الصراع في مأساة ميديا هو صراع بين الرجل والمرأة . او يمكن ان يكون في تحليلنا لذلك الصراع مخرجا للمأزق الذي أوقع الشاعر فيه نفسه - او بالأحرى مدخلا الى ادراك ما أراد لنا الشاعر ادراكه ؟ نحن لانتطيع ان نغفل حقيقة اجتماعية عرفتها انينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، ألا وهى المعاملة السيئة التي لقيتها المرأة من الرجل ، والوضع الاجتماعي المهين الذي كانت عليه ، كما قد لاحظته المؤرخون والدارسون ، الى الحد الذي حدا بهم لأن يظنوا تسمية العزلة الترهية للمرأة اليونانية ، وصفا لهذا الوضع . ويبدو ان حرية المرأة قد انحدرت مع تطور نظام الحكم ، اى بتقلص نفوذ الطبقة الارستوقراطية ، وتدهور حكم الاغليات ثم ظهور الديمقراطية . مع تلك التحولات السياسية تنوارى المرأة تدريجيا وتفقد كثيرا من أهميتها . أجد التقاد<sup>(٧)</sup> يقول انه لانيء ينير الملاحظة اكثر من زوجات وبنات القادة الهومريين ، اذا ما عورنت بحالة النساء الأقل حظا في الازمنة اللاحقة . يميل هذا الرأى معظم اتجاه الباحثين ، أو كما يقول Kitto<sup>(٨)</sup> « انه

C.E. Robinson, Everyday Life in Ancient Greece, (V)

(Oxford, 1933) P. 28.

H.D.F. Kitto, The Greeks, (Pelican Books, 1956) P. 219 (A)

الرأى الذي يقبله الجميع ولم يعارضه أحد سوى Gomme على قدر ما أعلم . « ويدعم هؤلاء رأيهم هذا بمقتطفات من المؤلفات الادبية والتاريخية والفلسفية ، وكلها تدل على ذلك الوضع المؤسف . ويؤكدون أن المرأة لم تكن رفيقا يستوجب حب الزوج ومودته ، انما كانت اداة متعة ، من واجبها ان تمتع نفسها ، وتخلو ضرورى لحفظ النوع . وبصفة عامة ، فقد كان الاتينيون يحقرن من شأن المرأة ، ويصفونها بالقصور العقل والضعف النفسي . نستطيع أن نقول أن يوربيديس قد وقف موقفا معارضا لهذه الظاهرة الاجتماعية . وقد يفسر هذا حقيقة أن معظم الادوار الاولى في مسرحياته هي أدوار نسائية .<sup>(٩)</sup> والحقيقة ، أيضا أن يوربيديس هو أول من طالع مجتمعه بجوانب نفسية في المرأة لم تطرق من قبل . وأظهر براعة فائقة في تحليل أزماتها الروحية ورسم لأحوالها الشعورية ، مما لايتأتى الا عن احساس صادق وكلف حقيقي . لقد كان حذبه على وضع المرأة في عصره موقفا فكريا ، ونقول Macurdy<sup>(١٠)</sup> « ان النساء كن يمثلن احدى القضايا التي عنى بها . » الصراع في ميديا . اذن موجه للكشف عن هذا الموقف الفكرى ، أو لعرض هذه القضية . يبدو هذا واضحا في عديد من الاشارات ، التي ترد ضمن حديث ميديا ، الى تعاسة حظ المرأة ، وأنها تضطر الى الارتباط برجل لا تعرف كنه خلقه . وأن الزواج ، على هذا النحو ، يصبح نوعا من المقامرة ، قد تدفع الزوجة ثمنا له فادحا . ومن أقوالها أيضا أن عذاب الأمهات عند الوضع ليفوق عنف مواجهة الرجال لاعدائهم عند القتال . وأن العزلة التي يفرضها مجتمع الرجل على النساء ليست الا عدوانا على حقوقهن البشرية ، ومسلكا من القسوة لا يبرره شيء . وهي تنبه المجوقة من النسوة الكورنثيات الى أن دفاعها عن حقها المشروع في الانتقام من أساء اليها وغدر بها . ان هو ، في واقع الامر الا دفاع عن جنس المرأة بصفة عامة .

كل هذا ، وغير هذا مما يؤكد أن الصراع في المسرحية ينشأ عن روح المعارضة والتمرد على مبدأ يسود به الرجل المرأة ويقهرها . وعلى ذلك ، فان ميديا تبدو وكأنها لسان حال الأمهات والزوجات الاتينيات ، وليست كما يتصورها البعض نموذجا للمرأة الغريبة الساحرة التي لاعهد للاتينيين بها . ولقد استفاد يوربيديس من قصة الحب القوي الذى جمع بين ميديا وياسون في بداية العلاقة بينهما ، ثم الاشارة الى المغامرات التي عاشتها والتضحيات التي بذلتها ، كما تبدو المفارقة بينه عندما تلقى ميديا جزاء ما قدمت خيانة وهجرا . ان خيانة ياسون ليست مجرد نزوة عابرة ، لكنها زواج رسمى وارتباط بامرأة أخرى ، آلت اليها ، ماكان ليديا ، السيادة في بيته ، وفي قلبه ، وعلى فراشه ، غير أن الشاعر اذا كان يسمى الى اثاره قضية المرأة في عصره . على نحو ما ذكرنا ، فان النهاية التي تنتهي اليها ميديا ، البطلة والمأساة ، لا تساعد على بلوغ هدفه . على العكس ، فان انتصار ميديا

(٩) من بين اعماله التي وصلت اليها تجد العناوين الاتية . الكستس ، هلمني ، اندروماخي ، الكيترا ، روهيكابي . وغيرها تنسب اما الى بطلات او الى جوقة من النساء .

G. Macurdy, The Quality of Mercy, (New York, 1940), P.36 (١٠)

الدمر والساحق ليدفع الرجل الى اتخاذ مزيد من المناورة والحذر في معاملة المرأة ، وهو مايعنى مزيدا من عزلها ورفض التعامل معها . ويبقى السؤال قائما : لماذا كانت هذه النهاية ؟

الصراع في ميديا لايتوقف عند روح أو مبدأ المعارضة أو التعارض بين الرجل والمرأة . ويمكن القول بأن صراع الجنس هو مايدور على السطح أو في الظاهرة . اما الصراع ، في حقيقته ، فانه ينشب بين نوعين من الحياة الانسانية : الطبيعية في جانب ، والحضارة في الجانب الآخر . النوع الاول تمثله ميديا لكونها اجنبية ، ولأنها وفدت من أرض يعيش أهلها هذا النوع من الحياة . والنوع الثاني يمثله ياسون ، من حيث كونه هيليني أو يوناني متحضر . وكما ينبغي أن نتوقع ، فان كل نوع يؤدي الى ما انتهت اليه الشخصية من تكوين نفسي وخلقي ، وإلى ما يصدر عن هذا التكوين من تصرف . ان ميديا لاتتسلق فقط سلوك امرأة ، لكنها تفعل ما فعلت لأنها ، أساسا تنتمي الى جنس يعيش حياة تختلف عن تلك التي يعرفها الناس في اليونان . ان مقاييسها الخاصة ، واحكامها وتقديراتها ليست الا انعكاسا طبيعيا لما تقضى به نوعية التربية والنشأة والبيئة التي هي منها . انها تحب بقوة ، وتكره بقوة . لقد ضحت بكل شيء وبأقصى ما تستطيع من أجل ياسون ، فعندما نبذها وتحول عنها،تحولت الى وحش كاسر أموج عاصف لا يبقى على زرع أوغماء . انها قادرة على أن تمنح كل الأحاسيس الرقيقة والوديعه ، لكنها تستطيع ، ايضا ان تكشف عن كل الانفعالات العنيفة والمتوحشة . انها لاتعرف الحل الوسط ، ولا الوجه المعتدل ( المعتدل ) ، ولا تؤمن بمبدأ هكذا الحياة ، او الدعوة الى ضبط النفس ، ولا تفهم كيف يمكن تفسير الشيء على غير ماهو عليه في الواقع . لقد أحببت ياسون فوهبته روحها وجسمها لكنه اذ بهجرها دمرته تدميرا كاملا . ليست هذه هي طبيعة المرأة دائما ، لكنها هي طبيعة الجنس الذي خرجت منه ميديا أولا وقبل كل شيء . انها طبيعة ميديا سليمة الشمس والقمر . وفي عيارة أخيرة ، ان هذه هي طبيعة ذاتها .

وعلى النقيض من ذلك ، ياسون . انه يؤمن بقيمة الحضارة ، ويرفض كل ماهو بدائى وهمجي . وهو يقول لميديا صراحة انها انما تدين له بفضل الانتقال من حياة همجية الى أخرى متحضرة . ان يعيش الانسان حياة بدائية يعنى ، في رأيه ، أن يعيش حياة مغمورة . وانه لينظر الى الحضارة في المحل الاول ، بهذا المفهوم .ان الحضارة هي الطريق الى المجد والشهرة . ويفهم أيضا ، ألا قيمة لحياته بدون ممارسة سلطة أو سيطرة . لذلك ، فالحضارة ، عند ياسون ، مرتبطة بالذكاء الاجتماعي ، حسن التصرف ، استغلال الفرصة ، البراعة في التعامل مع الآخرين ، الحرص على الانتساب الى ذوى القوة والبطش ، والتودد اليهم وكسب رضائهم . الحضارة عند ياسون ، تعنى القدرة على تفسير الامور لصالحه ، وبالطريقة التي تقنع السامع بوجهة نظره . وسلاحه الفعال ، في هذا ، هو صنع الكلام ، وبراعة التعبير واجادة ترتيب الافكار وعرضها . وفي كلمة واحدة اللباقة ، او يرد في النص اليوناني sophos legein ، أى ماهر في الحديث ( sophos ) أى حكيم تفيد أيضا المعنى بارع أو ماهر ) .

لمد استطاع ياسون أن يحظى بحب ميديا ، منذ اللحظة الأولى ، بواسطة اللباقة<sup>(١١٧)</sup> - ومن ثم كثرة إشاراتها الى وعوده وعهوده . ثم هو قد استطاع أن يحوز على رضا كريون ، وأعجاب ابنته بنفس الطريقة ، أو بذات السلاح . ثم هو ، أخيرا يجتهد في اقناع ميديا بأنه لم يقدم على ما أقدم عليه الا لنفعهم جميعا : هي وهو وطفليهما . غير أنه لا يفلح . وتظهر براعة الشاعر في جعل ياسون يكاد ينجح في اقناعنا بموقفه ، وفي استئلتنا الى جانبه ، لكن ميديا تهدم أساس محاولته على الفور . على طول اللقاء المتكرر بينهما في المسرحية ، ياسون يسعى دائما لأن يبني مسلكه على أساس من اللباقة ، وميديا ، في الجانب الآخر ، تقوض دوما هذا الأساس .

اللباقة ، بالنسبة لياسون كما ذكرنا ، عنصر فعال من عناصر الحضارة . وما يلفت النظر أن ميديا دائمة الصراخ والولولة . وإجمالا ، فانها تبرع عن نفسها في صدق ومباشرة الا في حالات ثلاث : أولا ، عندما تظهر ضنعها وقلة حيلتها امام كريون ، متوسلة اليه أن يمنحها مهلة يوم واحد تفارق باتنتاه كورثته كما يريد . والثانية ، اذ تسعى كما تنال من ايجيوس ملك أثينا عهدا بايوائها وحمايتها اذا ما لجأت اليه . الثالثة ، والاخرى حين تخدع ياسون نفسه ، كبير البلغاء ، وعظيم الفصحاء ، بأنها قد رجعت عن غيها ، وثابت الى رشدنا ، وانها لترجوه فقط أن يسمح لطفليها بتقديم الهدايا المسمومة الى العروس طلبا لكسب العفو عنها والسباح لها بالاقامة في كورثته . هنا ، وفي مواجهة ياسون ، فان ميديا تلجأ الى نفس السلاح الذي طالما كان ومازال ياسون يجيد استعماله . وبالنسبة للحدث الدرامي ، فقد كان لا بد لميديا أن تتبع هذه الوسيلة بغية تنفيذ انتقامها . ولكن يوربيديس أراد ، ايضا ، فيما اعتقد ان يظهر ميديا قادرة على أن تسلك مثلك ياسون ، بل وان تفوقه في مجال تخصصه . أن تلاعبه اللعبة المفضلة لديه وتنتصر عليه . ذكاء ميديا ، في هذا الخصوص شئت لياسون ولنا. ان الذين يعيشون حياة البدائية التي يستهجنها ويزدريها ، قادرون على ان يبلغوا ما يبلغه اليونان من حضارة ، لكنهم يرفضون . المسألة كما نكتشف ، ليست أن هؤلاء البرابرة لا يستطيعون وانما لا يرغبون . وإذا كان المتحضر ينظر الى البربري على أنه دونه علما وثقافة فان البربري يبادل نفس نظرة الاحتقار ، اذ هو يرفض ذلك النوع من المعرفة الذي يصل بالمرء الى الحداد والحياة ، الى التفسير المعوج والتبرير الخاطيء . ان حضارة ياسون ، في

تقدير ميديا ، بلا مبادئ وانها زائفة غير ذات قيمة ، وليس لها نفع . تقول المربية ان الموسيقى لاتؤدي وظيفتها على النحو الأمثل ، لانها لا تخفف عن آلام المنكوبين والتعساء . وتقول الجوقة ان الشعراء قد أخطأوا في اختيار الموضوعات ، كذلك تملن أن الشرف والاخلاق قد انعدما في بلاد اليونان . واليونان هو البلد الذي يقاخر به ياسون ويژهو . اليونان بالتحديد هي أثينا الديمقراطية كما يراها الشاعر .

لاشك أن الديمقراطية اللاتينية قد عرفت القدرة على تفسير الشيء وضده ، وسمحت بإمكان التبرير الصائب والخطيء . المحصافة البلاغية أو اللباقة الكلامية قد ائتمت واذهرت أكثر من أى وقت مضى . ذلك أن الديمقراطية تحمل في طياتها بذور الديمقراطية ، ويصير بناؤها الشامخ قابلاً للانهار . ان انتصار ميديا ليس الا رمزاً لما ينتج عن تلك المواجهة العنيفة بين الاساليب الحضارية والعناصر الطبيعية الصريحة ، وتعبيراً عن الرأى بضرورة اجتياح تلك القوى البدائية الشرسة لحضارة لاتتأسك الا بكلمات ، ولاتنهض الا على الخداع . خداع الآخرين وخداع النفس . انه الاجتياح الذى يعصف بكل شيء ، يدخل فى هذه الحضارة او يخرج منها . لقد قتلت ميديا أطفالها لأنهم أبناء ياسون . فانهم محكوم عليهم بالضعف والخسة والتخاذل .



### ميديا الرواقية

فاذا ما انتقلنا الى ميديا سنكا ، نجد أن الشاعر الرومانى يصدر نفس الحكم ، ويعمل على تنفيذه ، وان يكن على نحو أشد قسوة ، كما فعل يوربيديس . غير أن ثمة معالجة درامية للاسطورة يخالف بها سنكا يوربيديس . ولأننا لسنا في مجال عقد مقارنة بين الشعارين من هذه الناحية ، فاننا نتجه ، توا الى مايلفت النظر في المسألة اللاتينية فيما يتعلق بهزيمة الحضارة .

تظهر الفكرة الفلسفية الخاصة بالعودة الى الطبيعة أكثر وضوحاً عند سنكا ممثلة في عودة ميديا نفسها الى الطبيعة . ان لجوء البطلة الى السحر ليس فقط افصاحاً عن قدرات خارقة تستعين بها في صراعها مع ياسون وحلفائه ، لكنها أيضاً رده الى طبيعتها الاولى بكامل تفاصيلها ، ورجوع الى بيئة خاصة تختفى عنها معالم الحضارة . فكل تلك الادوات وخبايا السحر الأسود التي تقرها الآن كانت قد أهملت واغلق عليها منذ أمد بعيد . جميع الأبواب والمخلوقات والأرواح الهائمة في جوف الليل الحالك ، التائهة والمعذبة في المجيم ، الكامنة تحت الأرض ترتأ بما يقع عليها من عقوبات على ما قدمت فوق الأرض ، الآن تتوجه اليهم ميديا بالدعاء ، وتستغيث بهم في محنتها ، وترجو منهم مؤازرتها على الانتقام . ان أساة سنكا تبدأ بجملة من الدعوات المستطرية . فأول حديثها ، الذي هو أول المسرحية ، موجه الى تلك القوى المظلمة . وسرعان ما يتضح لنا أن من تستنصرهم ميديا يمثلون مظاهر أو ظواهر الطبيعة الهوجاء العاتية ، وأنهم ليسوا كمثل آلهة التقدم والتحضّر في شيء . وإذا كانت ميديا ترسل دعواتها ، في بادى الامر ، الى إلهة الزواج di coniugales ، وإلى من تقوم على حمايتها ( لوكينا ) ، وإلى منيرفا ربة الحكمة ، ونيتونوس سيد المحيطات ، والشمس الذي يوزع الضوء على العالم . فلأن الموقف الأساسي للمأساة يبدأ من الحياة الزوجية . وأن قبطان سفينة الارجو ( في سياق التذكّر لما حدث ) قد تلقى علماً



( أى حكمة ) في القيادة ، وأن ياسون هو صاحب تلك الرحلة المشتومة في عرض البحر ، وأنها تنتسب الى الشمس ، كما ذكرنا من قبل . الى ذلك مباشرة ذكر هيكتاسى وبرد سريينا وبلوتوس وربات الانتقام *ultrices deae* ، وباختصار الى « فوضى الليل الابدى » *noctis aeternae chaos* . واذن ، فيمكن ان تؤكد بأن ميديا ، عندما تشتعل فيها الرغبة في استعمال فنون السحر ، فانها تعود لتلقائيا الى الحالة التي كانت عليها من قبل ، الى الأجواء البدائية التي نشأت فيها . وانها لتهب روحها ، من جديد ، الى تلك المعبودات الكتيبة ، والقوى المعتمة . ومع ان صفات الذكاء والحيلة والمكر لاتنقصها ، الا أن سنكا يؤكد لنا ذلك الجانب الفطرى . ان ميديا الساحرة ، عنده تصبح بلاشك ميديا الاكثر بدائية ، والاكثر همجية مما تبدو عند الشاعر اليوناني .

رغم ارتباط ميديا باليونان المتحضرة وامتداد حياتها في كورنثة لعشر سنوات ، فانها لم تزل تحتفظ بخصالها البربرية . وعدم تأثر ميديا بالحضارة هو دليل صلابتها في مواجهة أعمال الصنعة والتكلف ، وهو تصميم ، من جانبها ، على رفض تلك الواجهة الزائفة من اللباقة والكياسة ، وهو إيمان راسخ بأن مثل هذا السلوك المتحضر ليس الا قشرة لامعة او سطحا براقا يخفى من ورائه عفنا خلقيا ونفسا مهذرة الكرامة . فاذا ما اتفقتنا على أن كشف ميديا عن بدائيتها ، في رجوعها الطبيعى الى الطبيعة ، انما يفصح عن جانب جوهرى من شخصيتها ، ألا وهو الثبات والصلابة وعدم الرغبة في التحول عن الأصل . فكل هذا مما يميز الرواقى . ثم ان سنكا يعمل من جديد على أن يجعل من ميديا بطله رواقية ، حين ينطقها بأفكار الرواقيين وعباراتهم . فيها هي تتحدى أعمال الحظ *fortuna* ، وتقلب الزمن ، وقسوة القدر . كذلك فانها لتستهين بقوة الملوك ، وطغيان الطفلة ، وتحقير روح الاستخذاء والضعف ، وترفض مشاعر العطف والشفقة . ان قوة ميديا تتوافق ، فكريا وشعوريا ، مع صلابه المبادئ الرواقية . والعنف الذي تسلكه قد لايمختلف كثيرا عن الصرامة التي يعرفها ويدعو اليها دعاة هذه الفلسفة .

صحيح أن سنكا لاينفى عن بطلته حالة الصراع الداخلى عند قتل الطفلين ، مما قد يؤثر مؤقتا على صفة الثبات التي أشرنا اليها . ولكن ، في الوجه المقابل ، نجد ان ذلك الصراع يعمل على أن تصبح ميديا ، لتعرضها له ، أما طبيعيا اكثر منها أسطورية . ( ولا أريد أن أغفل الاشارة الى أن سنكا قد استطاع ان يتجنب الميلودرامية ، التي عادة ما تلحق بتقديم من الصراع . ) ومن ناحية أخرى ، فانه بخصوص مشهد العنف الصارخ الذى يصور جريمة قتل الطفلين ، الرأى عندى ، أنه حين استقر عزم ميديا على ضرورة هذا القتل ، فان طريقة القتل نفسها تصبح غير ذات أهمية ، وهو ما يتفق مع المسلك البدائي . اذ ان الرقة في العنف هي مظهر من مظاهر التصرف المتحضر . وعلى أية حال ، فان حالة الصراع الداخلى ثم التخلص منه هو ما نألفه عند الشخصية الحاملة للفكر الرواقى . فالرواقى ، عادة يواجه صراعا بين مشاعر الحب والحدب تجاه من يألف معهم برباط من الدم أو علاقة مودة ، وبين الضرورة التي تفرض عليه أن يعاملهم في قسوة وبرود *apathia* .

هذه القوة العاطفية، التي تظهر عند الصراع الداخلي تعمل نفس العمل تقريباً، في صدر ميديا، فيما يتعلق بزواجها. ان ميديا سنكا تحمّل بالتأكيد شعوراً عاطفياً تجاه ياسون الخائن، يكاد يكون مفقوداً عند يوربيديس. وكما تنهر ميديا عاطفة الأمومة، فانها كذلك تتحرر من بقايا الشعور بالحب للزوج وفيما اعتقد، فان قلب ميديا يرق نحو ياسون، عند سنكا، من لحظة أو أكثر - لأن ياسون نفسه عند الشاعر الروماني ليس تماماً كما نجده عند يوربيديس. فبينما هو في المأساة اليونانية يمثل وجه الحضارة الهلينية، ومن ثم موضع كراهية ميديا الشديدة التي لا تقبل النقصان، فانه في المأساة الرومانية يؤدي دوراً مختلفاً الى حد ما - انه الضحية للحضارة الرومانية. الشيء الذي يدفع ميديا الى التفكير فيما اذا كان يمكن تبرير موقفه او تصديق كلماته.

الوضع الحضاري يونانيا فروماني يحتاج الى بعض التعليق: ان الديمقراطية الاثينية لم تكن تعنى، بطبيعة الحال، مظهراً من مظاهر القهر، لكنها تصل، كما أشرنا، الى حالة من حالات التدهور العقلي للجماعة: مسلك القطيع وحكم الديوجاجية، وما تقوم عليه الزعامات الشعبية من الركود الى الفصاحة والبلاغة الخطابية، والقصد الى تشويه الحقائق. ذلك هو ما تواجهه ميديا عند يوربيديس. أما الرواقى سنكا وطلته ميديا، فانها يواجهان وضعاً مختلفاً. فالامبراطور يحتل قمة السلطة في روما. وهو يمثل بذلك أعلى درجات الحكم الامبريالي، الذي يحمل بداخله امكانية ممارسة أقصى درجات البطش والقهر فاعلية. المواجهة عند سنكا، ليست كما هو الأمر عند يوربيديس، مع أساليب الخيلة والتحايل، انما هي مع قوة نظام هيرارخي، محكم راسخ، مدعم. وبالتالي، فان وجه الحضارة في كل من الوضعين او النظامين السياسيين يبين عن ملامح خاصة: ديمقراطية تستحيل، ضرورة الى ديماجوجية، وامبريالية أو مونارخية تتوفر لديها ضرورة أيضاً امكانية الفعل المستبد. ومهما يكن من اختلاف تلك الملامح، فان الحضارة، للأسف، تكشف عن وجه قبيح.

كربون، وليس ياسون، هو من يمثل قمة ذلك النظام الامبراطوري في ميديا سنكا. وعلى ذلك، فان كراهية ميديا لزواجها لا تتركز، كما هو الامر عند يوربيديس في كونه رمزاً للحضارة، وانما يتخذ شعورها نحوه خطاً آخرًا، وان يكن موازياً، تجاه ذلك الخط من الكراهية - ألا وهو الشعور بضعف الزوج في مواجهة القوة والبطش (كربون). هنا نلتمى أثرًا هاماً لما تلحقه حضارة القهر بكيان المجتمع الانساني. فلقد أدى ضعف ياسون الى هلاكه (وهلاك الطفلين). واذا كان قتل الطفلين يعنى اكتمال ضياع كل شيء بالنسبة لياسون، فان ياسون نفسه (وجه الحضارة عند يوربيديس، او ضحيتها عند سنكا) هو الذى كان سبباً في ذلك الضياع. الأمر لا يختلف في النهاية. كما وأن الخسارة كاملة والهزيمة نهائية. ان حساسية كل من الشاعرين تؤول الى ادانة الحضارة، بصرف النظر عن موقف البطل أو رسم شخصيته. انها حساسية مشتركة. ومع الاعتراف بوجود تفاصيل اختلاف بين الشاعرين، فان الموقف الفكري العام يكاد يكون متساوياً.

جدير بالملاحظة ان دافع ميديا الى قتل الطفلين ، عند سنكا ، يأتي اشد ارتباطا برغبتها في الانتقام لأخيها الذي فتكت بأوصال جسمه . وكأن الشاعر يريد أن يبحث عن ميرر آخر يضاف الى رغبة الانتقام من الزوج ، وهو في نفس الوقت ، يؤكد انهاها الى الأصل العائلي . غير أن ثمة دافع ثالث قد يفوق الرغبتين معا . ميديا تنطق بما معناه أنها ودت لو كان لها من الاطفال أضعاف ما انجبت ، فتجهز عليهم جميعا . وأخلص من ذلك أن دم الطفلين لايسفك ، فقط بغرض التكفير عن جريمة قتل الأخ ، وليس فقط كذلك ، كوسيلة انتقام من الزوج الخائن ، إنما هو بالإضافة لذلك قربان متواضع تقدمه ميديا لالهة الطبيعة طلبا للغفران عما لقيته من اساءة على يد الحضارة وصانعيها .

رفض الحضارة يأتي ، ضمن ما يأتي عند سنكا ، على لسان الجوقة حين تغلو لهجة الأسمى الشديد ، الذي لايفتا بإلحاقها ، والذي يتعلق برحلة السفينة أرجو . فان تلك الرحلة هي عنوان رئيسي في كتاب الحضارة . إذ أنها تشير الى أول محاولة انسانية ناجحة لخرق قوانين الطبيعة بهدف السيطرة عليها والتحكم فيها وكبح جماحها . ان قائد السفينة قد تلقى علما في القيادة ، والرحلة قد شارك فيها نخبة من أبطال اليونان دعاء الحضارة . غير أن عقاب الطبيعة الصارم قد حاق بكل من هؤلاء الذين ساهموا في قهر الطبيعة . وكان ثمة لعنة راحت تطاردهم أنها كانوا وحيثا ذهبوا . ومن الطبيعي أن يلقي ياسون ، صاحب الرحلة ، نفس النهاية الأليمة . وأن يحيق به العقاب على يد ميديا ، فتاة كولخيس ، البلد الذي شقت اليه السفينة طريقها . وان تصبح الجزيرة الذهبية ، الغاية التي هفت اليها نفس ياسون ومن معه ، رمزا لتلك اللعنة . وكأن بریق الحضارة مستمد من بریق ذلك الذهب ، القابع في أرض نائية ، المحفوف بالمخاطر الشديدة . ليست هذه الافكار مجرد تخیلات شاعر ، لكنها هي تفاصيل حالة من التذكر المؤلم لأسباب ونتائج ، ومحاولة لتقصي أساءة بعينها ووقائع كلها تشير الى تلك الحادثة الهامة والمثيرة في مجرى تاريخ الانسان وهي ركوب البحر .

واقعة اللقاء بين الحضارة كما تجسمها رحلة السفينة أرجو ، بالطبيعة ، كما تتمثل في عاطفة الحب المتدفقة من جانب ميديا ، يعبر عنه الشاعر بلقاء عنصرين من عناصر الطبيعة : الماء والنار . وسرعان ما يتضح لنا أن اجتماع العنصرين يكاد يكون مستحيلا . انه لقاء المتناقضين . وهولاء يتحول ، على الفور ، الى صراع . تماما كما تنبؤ عنه أسحداث الاسطورة . ويجتمع او يتفق بعض أوجه النار لتحديد طبيعة ميديا لبيب العاطفة ، توهج الوجنتين ، شموع الزفاف المشتعلة ، نار الغيرة ، التيران المنقذة في القصر الملكي بكونرته . النار تلتهم كل شيء . ( مبدأ الاحتراق الشامل هو من بين الافكار الرواقية ) والعنصر المضاد هو الماء . وعندما اذكر الجوقة للرسول ، الذي يروي كيف شبت التيران في القصر الملكي ، أنه كان من الممكن استعمال الماء لاطفائها ، يجيب بأنهم قد حاولوا ذلك بالفعل ، ولكن دون جدوى . على التقيض ، فقد كانت التيران تزداد اشتعالا حين كانت تدفع بالماء ، وهو ما يعنى ، صراحة ، غلبة النار على الماء .

وعلى مستوى الفهم السطحي، فإن ما حدث هو من عمل السحر، أى نتيجة استغلال ميديا لقدراتها كساحرة ولكن طبيعياً، وبشهادة بلوتارخوس، فإن في بعض الماء ما يزيد النار اشتعالاً. هذا بوضوح يعنى أن في الطبيعة ذاتها من المقومات ما يتفق مع قوانين الطبيعة المألوفة. وبذلك نصل إلى القضية الآتية: الحضارة تسخر قوانين الطبيعة بهدف السيطرة عليها. غير أن للطبيعة من القوى غير العادية ما تقهر به فعل الحضارة. إنها أخيراً تفلت من قبضة الإنسان. هذه القوانين الطبيعية الغير مألوفة، والتي تمثل في حد ذاتها خروجاً سافراً على قوانين الطبيعة لا يمكن أن يفرغ الإنسان من اكتشافها والتحكم فيها.<sup>(١٧)</sup> وبالتالي، فإن وعى الإنسان بوجودها هو من قبيل الإدراك المائل لقضية الحضارة. وبذا يصبح موقف الرواقي من الحضارة موقفاً عاقلاً. إنه أقرب بنى جنسه ملازمة روحية وعقلانية لما تنطوى عليه الطبيعة من قوانين غامضة يصعب الاحاطة بها. وفي مجال معالجة سنكا الدرامية للأسطورة، نلاحظ أن علاقة ميديا بالطبيعة تتأكد أكثر فأكثر. ذلك عندما يخالف سنكا الاصل اليوناني في عرض المشهد الأخير للمأساة، والخاص برحيل ميديا عن كورنث. عند يوريبديس، فإنها سوف توجه إلى أثينا. أما سنكا فهو لا يجد لها مكاناً أو مهرباً. ويمكن التعليق بأنه إذا ما كانت ميديا قد نجحت في القضاء على خصومها، فإن الرحيل عن كورنث إلى حيث لا يعلم أحد إنما يعنى أن ما همنا، درامياً هو ما حدث في كورنث (حيث تبدأ وتنتهى المأساة). سيان، إذن، أن قضى ميديا إلى أثينا أو إلى مكان آخر. غير أنه بوسعنا أن نضيف بأن الرحيل عن كورنث، في حد ذاته، يمثل رفضاً للمكان (كورنث كموقع للحضارة) أكثر مما هو الرغبة في الفرار من جريمة أو جرائم ارتكبتها، وما يلحق هذه الرغبة من تدبير مكان آخر للاستقرار (أثينا). ثالثاً وأخيراً، وهذا هو ما ألح فيه المعنى الأكثر أهمية، أن هروب ميديا بعد أن فعلت ما فعلت هو من العلامات المميزة لحياتها. إنها المرأة التي على موعد دائم مع الرحيل. الرحيل، في أسطورة ميديا، لا يمثل فقط مجرد حادثة عارضة أو نتيجة لسبب، أو سعياً إلى هدف، وإنما هو، كذلك أشبه بالليتموتيف leitmotiv الذي يتكرر خلال عمل موسيقى: سفينة الارجو ترحل إلى كورنثيس. ميديا وياسون يرحلان عن كورنثيس إلى ثيساليا. الاثنان يرحلان بعد ذلك من ثيساليا إلى كورنث. ميديا في النهاية (نهاية الحدث الدرامي عند يوريبديس وسنكا) ترحل عن كورنث إلى أثينا (عند يوريبديس). أو إلى مكان آخر غير معلوم (عند سنكا). وكأن المغامرة كحدث أسطوري (هناك مزيد من الرحيل قبل وبعد الحدث الدرامي) لا تنتم إلا بانتقال مكانى إلى حيث مغامرة جديدة وهكذا. وهو انتقال مدفوعة إليه ميديا في كل الأحوال، ويؤدى ليس فقط إلى مزيد من الحدث، ولكن، أيضاً وبطبيعة الحال، إلى استكمال الخط الحياتي. (لاحظ أن عودة ميديا، في النهاية، إلى كورنثيس حيث بدأت الرحيل تعمل على استكمال الخط أو الشكل الدائرى الذي تحدثنا عنه في أول المقال). المقصد المكانى، إذن لا هم. إنما يحرص سنكا على تأكيد مبدأ الرحيل. في أول لقاء لها مع ياسون تبدأ

(١٧) مثل هذه القوانين يمكن أن تصل بنا إلى ما نعرفه باسم «سفرة القدر».

ميديا الحوار بهذه العبارة : « اتنا نهرب ، ياياسون ، نهرب . وليس جديدا علينا تغيير الوطن . » ( ٤٤٧ ، ٤٤٨ ) .

تجتمع الفكرتان : الثانية ( والخاصة برفض ميديا للمكان ) والثالثة ( ميديا الرحيل ) لتحديدان موقفا فكريا . فميديا ، اذ ترحل عن كورنثة الى حيث نهجل ، تبدو وكأنها قد تحررت من موقع حضارة ، ومن الحضارة نفسها . لقد عادت الى الطبيعة ، مرة أخرى ، خالصة من كل الاوضاع المقيدة والصفات المحددة : الزوجة والام والعاشقة . وعلى خلاف مايحدث عند يوريديس ، فان ميديا الشاعر الروماني تركت لياسون من ورائها جثتي طفلها : *recipe iam natos, parens; ego inter auras aliti currv vehar.* ( 1024, 1025 ) .

الشيء الذي يؤكد تلك الانطلاقة الكاملة لميديا من ربة كل شيء .

ملاحظة أخرى ، الجوقة ، عند يوريديس تأخذ موقفا أقرب مايكون الى التآمر مع ميديا على التفاوض عن الجرائم التي هي بصدد ارتكابها . مؤامرة الصمت هذه تأتي أمرا طبيعيا بعدما تقتنع النسوة الكورنثيات بآلام المرأة ، ووضعها المهين ، وتحظى منهن ميديا على وعد بعدم اقتناء نوابها الانتقامية . بذلك تتحول الجوقة الى صورة جماعة مصغرة لميديا ، تحمل في قرارة نفسها كل واحدة منهن بعضا ، ولو هيئا ، من مشاعر ميديا الغاضبة . وعلى العكس ، فانتا لا تلقى مثل هذا التآلف او التشابه بين نساء كورنثة وميديا عند سنكا . ونفسه هذا ، فيما أرى ، أن سنكا لا يريد أن يثير مشكلة الزواج بصفة عامة ، أو أن يطرح الاسئلة الخاصة بمقدار المكسب والحسارة ، في تقرير المرأة ، فيما يتعلق بهذا النظام الاجتماعي . ان ميديا الزوجة ، عنده ، تنفرد بحالتها وهي لا تسعى الى أن تستخلص من تلك الحالة الخاصة مثلا أو نموذجا عاما . فالازمة او المأساة هي مأساتها ، والفعله التي أقدمت عليها - حب ياسون ، ذلك الذي دفعها لان تضحي بكل ما تملك من أجله - هي فعلتها . ليس ثمة محاولة ( شبه حضارية ) من جانبها لاقتناع الأخريات بأن دفاعها عن نفسها انما يمثل ، في نفس الوقت ، دفاعا عن قضية المرأة على وجه العموم . هذا المسلك الانفرادي هو ما يجعل ميديا سنكا تواجه الحضارة دون الاستعانة بأخريات ( الجوقة ) ، أو اللجوء الى التحايل لضمان مقصد أمن وأمان ( الفصل الثالث مع ايجيوس عند يوريديس ) ، أو أن تعرف ، مقدما الأرض التي سوف تأوى اليها ( أثينا ) . ان الوسائل الشبه حضارية التي تتبعها ميديا يوريديس للقضاء على الحضارة كما تتألق في الديمقراطية الاثينية ، تصبح بلا جدوى عند مواجهة الحضارة كما تتجسد في الحكم الامبراطوري ( روما القرن الاول الميلادي ) . ان ميديا سنكا تستلهم كل امكانيات الطبيعة في مواجهة رومانية للحضارة . وكما نعرف فان الرواقي لا يعتمد الا على مقومات ذاته . القدرة الهائلة على التحمل ، الرفض الذي لا يقبل الحل الوسط او الحالة الوسطى ، ولا يركن خارج نفسه ، الا على ما تنطوي عليه من القوى والمعاني حتى لو كانت غامضة .

ميديا سنكا : السطر الاخير

في نهاية ميديا سنكا يصرخ ياسون في عبارة أخيرة له وللأساة : *testare nullo esse, qua veheris, deos* (1027) (حيثما تذهيبين ، فاشهدى بأنه ليس ثمة آلهة ) .

لماذا يشير ياسون الى الآلهة في هذا الموضع النهائي من المسرحية ، عند يوريبديس ، أيضا تلهج الجوقة بحديث عن الآلهة - قد أرادت وديرت وحكمت وفعلت ، الى آخر هذه العبارات التي تأتي كتعليق نهائي مناسب ، والذي يمكن أن نتوقعه من مجموعة الكورس الذي شهد معنا ، أو شاهدنا معه ، كل ماجرى . وهو ما قد يمثل محاولة باطلة للتخفيف من شدة وقع ذلك الحدث العنيف على نفوسنا ، كما أنه قد يدعونا الى ملاحظة عامة ( باهتة ) لما ينطوي عليه الحدث من درس أخلاقي . ان ما تنطق به الجوقة في المسألة اليونانية هو ، على أية حال حال كليشية درامى . اما النهاية التي قصد اليها سنكا فلا يمكن ان تكون كذلك . واذا كانت العبارة الباسونية تأتي في النهاية ( السطر الأخير ) ، فان قابليتنا للتأثر بها - ( لاحظ صيغة الأمر للفعل : *testare* ) - تزيد عما لو كانت قد وردت في أى موضع آخر . انها أقرب ما تكون الى النبوءة . وسواء صدقت النبوءة أم لا ، الشيء الذي هو خارج حدود الامكانية الدرامية ، وان لم تنعزل تماما عن فاعلية التأثير الكلى للعمل ، فان فقدان أو افتقاد ميديا للآلهة هو ، فيما أرى ، نتيجة رفضها للحضارة . وهو ما يعنى أن ميديا ، بما صنعت ، أى عندما قضت على الحضارة تعنى بالضرورة هزيمة الآلهة ، الرأى الثانى ان ياسون يعبر ، بعدما رأى من هول الاحداث مارأى ، عن اعتقاده بعدم وجود آلهة أصلا . حالة من الكفران نتيجة ما حاق به من البلاء . الرأى الثالث أنه مع اعتراف الرواقين بوجود الآلهة ، فان نظرهم الى الرواقى الكامل تفوق أية اعتبارات دينية ، بحيث نجد أن الآلهة قد تهبط الى المستوى الادنى من الدرجة التي يشغلها عندهم الرواقى الحق . وفي عبارة أخرى ، فان الرواقى الذي يقف ، وحيدا ، في مواجهة عناصر البطش الحضارية ، يصبح من القوة بما لا يتنبح مكانا لوجود قوى أعلى . كل هذه الآراء أو أبعادها ، لا يؤثر في الاتفاق على أن عبارة ياسون الاخيرة تسهم في بناء التأثير الدرامى الكلى للمسألة .



ان مسلكنا تجاه الحضارة لا يجب أن يكون ، بالضرورة رواقيا . بل اننا قد نختلف مع الرواقين في بعض آرائهم . لكن علينا ان نترك مدى الجدبة التي راح الرواقيون ينظرون بها الى المشكلة الحضارية . ومن ناحية أخرى ، فان مثل هذه الجدبة لا ينبغي ان تؤخذ باعتبارها عاملا ينتقص من القيمة الدرامية ، التي اعتقد بوجودها في مسألة ميديا الرومانية .

### مقدمة :

بدأ النظام السياسي في روما بالحكم الملكي، ثم تلاه الحكم الجمهوري، فالحكم الامبراطوري. وعاشت روما في ظل النظام الجمهوري نحو خمسة قرون من الزمان ( من اواخر القرن السادس الى اواخر القرن الأول ق م ). وقد درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من حياة الجمهورية الرومانية بـ « عصر الثورة »، وهو القرن الذي يمتد من عام ١٣٣ ق م الى عام ٢٧ ق م. وترجع هذه التسمية الى ان تلك الفترة بدأت بمحاولات اصلاح نبيلة قام بها بعض ترابنة الشعب، لكنها تحولت الى صراع عنيف مرير بين كبار القادة العسكريين، ثم ما لبث هذا الصراع ان تحول الى حرب اهلية قضت على النظام الجمهوري.

وفي دراسة سابقة تناولت محاولات الاصلاح تلك<sup>(١)</sup>، وهي التي قام بها الشقيقان تيبيريوس وجايوس جراكوس بين عام ١٣٣ وعام ١٢٠ ق م.، وتمثل المرحلة الأولى من مراحل عصر الثورة.

ثم في دراسة ثانية<sup>(٢)</sup> تناولت الصراع الذي احتدم بين القائدين الكبيرين ماريوس وسلا بين عام ١٢٠ وعام ٧٨ ق م، وهو الصراع الذي يمثل المرحلة الثانية من عصر الثورة.

## الثورة الرومانية المرحلة الثالثة الصراع بين بومبي وقصرمتي الحرب الأهلية ٧٨ - ٥٠ ق م

محمد عواد حسين

أستاذ ورئيس قسم الحضارة سابقاً بجامعة الاسكندرية

أستاذ التاريخ الروماني سابقاً بجامعة الكويت

( ١ ) انظر هذه الدراسة في العدد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت - وهي بعنوان « الثورة الرومانية، المرحلة الأولى، الجراكبار ومحاولات الاصلاح » ص ١٢٣ وما بعدها.

( ٢ ) انظر هذه الدراسة في العدد الخامس عشر من مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت - وهي بعنوان « الثورة الرومانية، المرحلة الثانية، ماريوس وسلا » ص ١٧٧ وما بعدها.

وفي هذه الدراسة التي تمثل المرحلة الثالثة وتمتد بين عام ٧٨ وعام ٥٠ ق . م<sup>(٣)</sup> سوف نتناول الصراع بين قائدين آخرين ، هما بومبي وقيصر ، وهو الصراع الذي ادى في نهايته الى نشوب الحرب الأهلية التي لم تبق من النظام الجمهوري الا على اسمه فقط .

وتبقى بعد ذلك مرحلة رابعة واخيرة ، ندرس فيها - باذن الله تعالى - تلك الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط الجمهورية وقيام النظام الامبراطوري .

وقد استطاع مجلس الشيوخ الروماني ( السناتو ) ان يحتفظ بسلطاته وسيادته طوال المرحلتين الأولى والثانية ، بل انه استطاع بفضل سلا ان يسترد ما كان قد فقده من مكانة وهيبة في خلال هاتين المرحلتين ، لكن ذلك كان مؤقتا ، لأن سلا ترك روما غارقة في خضم من المشاكل التي نجمت عن سياسة العنف والبطش التي اصطنعها تجاه الديموقراطيين او الشعبيين كما يسمون احيانا ، وتجاه الايطاليين بصفة عامة .

### الأوضاع بعد سلا :

الواقع ان تاريخ روما بعد وفاة سلا أصبح عبارة عن تاريخ مجموعة صغيرة من الرجال البارزين ، الذين كانت اطماعهم ومنافساتهم هي العامل الحاسم في السياسة الرومانية ، وسبب ذلك ان السناتو ، وكذلك الجمعية القبلية ، كلاهما لم يكن يملك القوة للتحكم في تصرفات هؤلاء الرجال ، الذين اتاحت لهم احتياجات الدولة وظروفها الظفر بسلطات عسكرية مطلقة .

ولقد شهدت أيام ماريوس وسُلا - في المرحلة الثانية من مراحل عصر الثورة - ظهور الجيش المحترف الذي يتحكم في قائده وحده ، فعدا مثل هذا القائد هو صاحب السلطة الحقيقية في الدولة ، ومن ثم اصبحت الانجازات العسكرية هي الأساس الوحيد للظفر بالقوة السياسية ، وبالتالي اصبحت تولي قيادة عسكرية هامة هو الهدف الاكبر لدى كل الطموحين من اصحاب الكفايات .

وأمام خطر اندلاع الحروب الأهلية ، وكذلك خطر الحروب الخارجية ، كان السناتو يجد نفسه مضطرا لمنح السلطة العسكرية لأصحاب الكفاية ، برغم عدم اطمئنانه الى حقيقة نواياهم . لكن منح هذه السلطة أصبح بعد ذلك في يد الجمعية القبلية نتيجة للتضام الذي كان يتم بين القادة العسكريين وبعض الترابنة ، ومن هنا برزت « القيادات الاستثنائية » التي تخول صاحبها سلطة تجاوز القواعد

(٣) ان مصافوا الرئيسية عن هذه المرحلة من مراحل عصر الثورة هي ما كتبه المؤرخ فلوريان عن كل من بومبي وكراسوس وسركودوس ، وما حاه في حطب شيشيرون التي القاما لي خلال هذه الأعوام ، وما وصلنا من « تواريف » سألوس حيث سجل تفاصيل الأحداث بين عام ٧٨ ق م وعام ٦٧ ق م . وكذلك ما حاه في « التاريخ الروماني » للمؤرخ ديوكامبيوس عن أحداث عام ٦٨ ق م . وما بعده وهو يعتمد اعتمادا كبيرا على المؤرخ ليفيوس



الدستورية،<sup>(٤)</sup> وكان أول من ظفر بقيادة استثنائية من هذا القبيل هو يومي الكبير على نحو ما سوف نرى .

هبت العواصف من كل جانب على دستور سُلا عقب وفاته ، فهو لم يفعل شيئا لجعل للحقوق السياسية التي منحت للايطاليين أية قيمة فعلية ، وتحفزت المجتمعات الايطالية التي حملت السلاح ضده فحررها الحقوق الرومانية وصادر اراضيها ليحولها الى مستعمرات لجنده المسرحين ، تحفزت هذه المجتمعات لاسترداد ما فقدته ، وكذلك تطلع الرومان الذين فقدوا حقوقهم لانتمائهم بالعطف على عدوه ماريوس الى استرداد حقوقهم .

اما اشياخ ماريوس من الشعبين فكانوا يتطلعون الى تحرير وظيفة التربيونية من القيود التي فرضها سُلا عليها ، وأما القُرسان فكانوا يريدون استعادة سيطرتهم على المحاكم التي سلخها منهم سُلا وأعطاهم للسناتو .

وكانت القنصلية لعام ٧٨ ق . م قد آلت عقب اعتزال سُلا الى كل من كاتولوس وليبيدوس ، وكان هذا الأخير من أسوأ النبلاء خُلُقاً ، كما كان قديم الكفاية واسع الاطماع ، سار في ركاب سُلا حتى اعتزاله ، ثم انقلب عليه وانتهاز فرصة التذمر العام من دستوره فأخذ يهاجم الدستور وصاحبه أثناء دعايته الانتخابية .

وسرعان ما احتدم الخلاف بين القنصلين لاختلاف طباعهما<sup>(٥)</sup> ، فحاول ليبيدوس ان يجمع العناصر الساخطة على دستور سُلا حوله كي يظفر بتأييدهم له ، فتقدم بمجموعة من مشروعات القوانين لرد الاراضي المصادرة لأصحابها الايطاليين ، واستدعاء المنفيين من اشياخ ماريوس ، والعودة الى توزيع الغلال على الفقراء ، واعادة السلطة كاملة الى ترابنة الشعب بحيث تصبح كما كانت قبل ان يقبدها سُلا<sup>(٦)</sup> . لكن زميله كاتولوس عارضه فلم يوافق السناتو الا على قانون منح الغلال للفقراء .

وأدى رفض السناتو لمشروع قانون إعادة الاراضي المصادرة الى اصحابها الايطاليين الى سحق الايطاليين في شمال اتروريا ، فطردوا جنود سُلا المسرحين من مستعمراتهم ، وبدا واضحا انهم يقومون بثورة مسلحة ، فعهد السناتو الى القنصلين بمهمة معالجة الموقف ، لكن ليبيدوس انتهز الفرصة وجمع جيشا في شمال ايطاليا ، وتزعم الثوار وزحف نحو روما ، فما كان من السناتو الا ان اصدر « قراره النهائي » باعتبار ليبيدوس عدوا للوطن ، واستطاع كاتولوس - القنصل الآخر - ان يصد

(٤) A. E. R. Book, A History of Rome to A. D. 565, P. 207.

(٥) App., B. C. I., 105 — 106; Plut., Sulla, xxxv 111.

(٦) Sallust., Hist., I, 55, 22.

الثوار ، لكن السناتو ارتكب في نفس الوقت خطأً دستوريا كبيرا ، اذ قبل المساعدة التي عرض بومبي تقديمها في هذا الطرف الدقيق ، فمنحه سلطة البروبرايتور ، وخوله قيادة جيش للقضاء على ليبيدوس ، مع ان بومبي لم يكن عضوا في السناتو ، ولم يكن قد تولى منصبا عاما من قبل .

وقاد بومبي قواته وارغم مساعد ليبيدوس - على التسليم ، ثم اعدمه ، وبعد ذلك اتجه الى اتروريا حيث هزم ليبيدوس نفسه ، لكنه تمكن من الفرار الى سردينيا حيث توفي ، فالتج مساعدته الآخر بربرنا بمن بقي من قواته الى اسبانيا حيث انضم الى سرتوريوس (٧٧ ق . م .) <sup>(٧)</sup> الذي كان يقود هناك ثورة خطيرة ضد السناتو والنبلاء الارستقراطيين .

هكذا امكن القضاء على ليبيدوس ، لكن ذلك لم يتم الا بعد ان تفاضى السناتو عن مبدأ اساسي من المبادئ التي اراد بها سلا دعم سلطات هذا المجلس ، ذلك ان اعضاءه وهم يريدون انقاذ الموقف بأي شكل ، ولم يتخرجوا من اسناد قيادة عسكرية عليا الى شاب لم يسبق له ان تولى وظيفة عامة ، وهو امر عمل سلا في دستوره على تفاديه ، فكانت هذه الخطوة ذات اثر بالغ على السناتو ، بل لعلها كانت الاولى في تقويض دعائمه ، فما الذي حدث ؟

لقد تفاقم الوضع في اسبانيا واصبح واضحا انه لا بد من ارسال نجدة عاجلة الى ميتيلوس هناك ، فانتهم بومبي الفرصة ورفض تسريح قواته وطالب السناتو بارساله لنجدة ميتيلوس ، خصوصا وان قنصلي عام ٧٧ ق م كانا يفتقران الى الكفاية العسكرية ويخشيان الهزيمة فرفضوا الذهاب الى اسبانيا ، وللخروج من هذا المأزق اضطر السناتو الى الاستجابة لبومبي ، ومنحه سلطة البروقنصل ليتولى بموجبه حكم ولاية اسبانيا المدنية وقيادة القوات العسكرية فيها .

وهكذا غدا بومبي يقف على قدم المساواة مع ميتيلوس . وليس مجرد مساعد قدم لنجدة ، وهكذا ايضا ارغم السناتو على الرضوخ لمطالب بومبي المجافية للقواعد الدستورية ، وحين تساءل احد اعضاءه عما اذا كان من الضروري منح بومبي سلطة البروقنصل ، قيل له ان بومبي ذاهب للقيام بعمل القنصلين معا لا بعمل قنصل واحد <sup>(٨)</sup> . ورحل بومبي الى اسبانيا حيث واجه مهمة شاقة امام سرتوريوس الذي كان يحتل مكانة رفيعة في حزب الشعبين الديموقراطي .

شغل سرتوريوس منصب الكوايستور عام ٩١ ق . م ، وكشف عن مهارة عسكرية فائقة في حربه ضد قبائل الكلث في ايبيريا ، حتى لقد تحرف منه سلا وبدأ يحقد عليه ، وقد رشح حاكما لاسبانيا

(٧) App., B C I, 107; Sallust., His 1/2, 1, 65 — 67; Hietlandn (٧)

Roman Republic, III, pp. 4 — 5; C.A.H., ix, pp. 315 — 317.

Plut., Po.p., xii (٨)

القرية ( الدانية ) لسنة ٨٢ ق . م . ، لكن سلا اسرع بارسال حاكم آخر الى هناك ، ونجح هذا الحاكم في انزال الهزيمة بانصار الحزب الديوقراطي ، فاضطر سرتوريوس الى الفرار الى شمال افريقيا ، ثم تمكن من العودة الى اسبانيا في عام ٨٠ ق . م . ليتزعم ثورة اشتعلت فيها ضد روما ، وما لبث - في عام ٧٩ ق . م . - ان هزم ميتيلوس حاكم اسبانيا القاصية ( البعيدة ) ، الذي كان زميلا لسلّا في القنصلية . ولم ينته عام ٧٧ ق . م . حتى كان سرتوريوس قد سيطر على كل ايبيريا تقريبا ، واعتبر نفسه حاكم اسبانيا الدانية الشرعي .

وأمام هذه الأوضاع لم ير السناتو بدا من ارسال بومبي لمواجهة هذا الشائر ، فمنحه الاميريوم البروقنصلية ، ليتولى حكم ولاية اسبانيا الدانية ويقود الجيش فيها ، وقد انتصر بومبي واعاد السلام الى اسبانيا ، بينما لقي سرتوريوس مصرعه وكذلك مساعده بربرنا ، وعاد بومبي الى ايطاليا عام ٧١ ق . م . مزهوا بنصره<sup>(٩)</sup> .

وفي خلال السنوات التي قضاها بومبي في اسبانيا جرت احداث ومحاکمات اكدت بما لا يدع مجالا لأي شك فساد محلفي المحاكم وكلهم من رجال السناتو، اذ ثبت انهم يرتشون وان ضمايرهم قد ماتت تماما ، فاشتد الهجوم عليهم ، وانتزه الفرسان هذه الفرصة لانتزاع المحاكم من أيديهم ، واسترداها لانفسهم عن طريق تقريبهم الى الشعبين الديموقراطيين<sup>(١٠)</sup> .

وفي نفس الوقت بدأت محاولة جادة وقوية لتحرير ترابنة العامة من القيود الصارمة التي كبل بها سلا سلطاتهم ، واستطاع احد قنصلي عام ٧٥ ق . م ، ان يقنع السناتو باصدار قانون يسمح للترابنة بترشيح انفسهم للوظائف العامة بعد انقضاء تربيونيتهم اذا رغبوا في ذلك ، وهو الامر الذي كان سلا قد حرّمهم منه حرمانا تاما . وقد ظلت الجهود مستمرة بصورة متصلة لاعادة حقوق الترابنة اليهم كاملة غير منقوصة ، حتى حسمها بومبي بعد عودته من اسبانيا<sup>(١١)</sup> .

### حرب العبيد :

وأخطر من كل ذلك ، اشتعال ثورة العبيد في ايطاليا عام ٧٣ ق . م .<sup>(١٢)</sup> ذلك ان العبيد الذين

(٩) A E.R. Book, op. cit , pp 208—209

Plut., Caes., IV, cíc., Brutus, 92, 317 (١٠)

Sallust , Hist , III, 48. (١١)

(١٢) حاد الحديث عن هذه الثورة باستفاضة في مصاعديا القديّة التالية :

App . B.C.116—120; Plut., Crassus VIII—XI, Plin , N H , XXXIII, 49

اما المراجع الحديث فاعلمها

Rice Holmesm Rom. Rep . I, PP.386 ff; C.A.H., IX PP 329—332; Hietland, ro, Rep III, PP. 10—11, 13—14 .

كانوا يشتغلون بالزراعة في الضياع كانوا يعانون من اوضاع بالغة السوء على يد السادة اصحاب هذه الضياع ، وأسوأ منها كانت اوضاع العبيد المبارزين او المجالدين (Gladiatores) ، الذين كانوا يتعرضون للهلاك في اثناء مباريات المبارزة التي يقومون بها<sup>(١٣)</sup> .

وقد بدأ هؤلاء ثورتهم بزعماء مبارز من تراقيا يدعى سبارتاكوس ، واعتصموا بجبل فيزوف ، وانضم اليهم عبيد الاراضي الذين ضاقوا ذرعاً بما يعانون في ضياع النبلاء . ونجحت حركة الثوار واخذت اعدادهم تتزايد حتى بلغوا سبعين ألفاً ، واستطاعوا في نهاية عام ٧٣ ق . م . ان يسيطروا على كل جنوب ايطاليا .

وانقضى العام التالي (٧٢ ق . م ) والعبيد يحرزون النصر تلو النصر على القوات الرومانية الحكومية ، حتى استطاع البرايتور كراسوس<sup>(١٤)</sup> - بعد ان منحه السناتو قيادة استثنائية وسلطة بروقنصلية - ان ينزل بهم هزيمتين كبيرتين ، وان يقتل زعيمهم سبارتاكوس . وفي هذه الآونة كان بومبي قد انتهى من حربه ضد سرتوريوس وعاد الى ايطاليا ، فقام بدور في القضاء على هذه الثورة بالاجهاز على الذين فروا من العبيد شمالاً ، وادعى لنفسه بعد ذلك انه هو الذي قضى على ثورة العبيد وراح روما منها<sup>(١٥)</sup> .

هكذا انتهت ثورة سبارتاكوس ، ولكن بعد ان تمخضت عن تخريب مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية في جنوب ايطاليا ، الأمر الذي اثر تأثيراً كبيراً على الحياة الاقتصادية في ايطاليا كلها ، كما كانت بمثابة تحذير للسادة اصحاب العبيد الذين يعملون في الاراضي الزراعية ، فبدأوا يحسنون معاملتهم .

لكن النتائج السياسية لتلك الثورة كانت اخطر من ذلك بكثير ، فقد اعتقد كراسوس - بعد النصر الذي احرزه على الثوار - انه قائد عظيم له مواهبه التي ينبغي ان يفيد منها ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان تدخل بومبي في المرحلة الاخيرة من الثورة ، ومشاركته المحدودة في اخمادها ، ثم ادعاؤه بأنه هو الذي انهى ثورة العبيد ، كل ذلك ملأ صدر كراسوس حقداً عليه ، ومن ثم بدأ العداء بينها على نحو ما سوف نرى ، فضلاً عن ان السناتو - وذلك هو الاخطر - وجد نفسه بعد الثورة امام قائدين كبيرين منتصرين ، وتحتم امرة كل منهما قوات كبيرة ، وكلاهما يقف بقواته على ابواب روما .

(١٣) Hietland, Ro., Rep., II, PP.243 — 244

(١٤) ذلك هو المراتكس ماركس ليكتيوس كراسوس الذي اعان سلا على السيطرة على ايطاليا مرعها على حماية عسكرية نافذة ، ومع ذلك فان انتصاره على العبيد جاء شجاعة خلافاً لـ بـ صفرهم .

(١٥) Boak, Rom, Hist, PP.211 — 212

وفي تلك الاونة كان ملك بونتس - ميثريديس الأكبر - لا يزال يمثل خطرا كبيرا على هبة روما ومكانتها في الجناح الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، ذلك ان سلا لم يكن قد قضى عليه قضاء مبرما ، لأن الاوضاع في روما ارغمته على التعجيل بانهاء الحرب ضده والعودة اليها ليواجه اعداءه فيها . .

وتجدد خطر ميثريديس في عام ٧٤ ق . م ، فعهد السناتو الى قنصلي ذلك العام بمواجهة ذلك العدو العنيد ، واسند الى احدهما قيادة القوات البرية وحكم ولايتي كيليكيا وآسيا ، كما اسند الى الثاني قيادة القوات البحرية وحكم بيشينيا ، التي كان ملكها قد اوصى بها - قبل وفاته - للشعب الروماني ، فنفذت روما وصيته وحولتها الى ولاية ضمن ممتلكاتها<sup>(١٦)</sup> .

وفي عام ٧٤ ق . م ايضا اضطر السناتو الى منح البرايتر ماركوس انطونيوس سلطة بروقنصلية غير محدودة لمحاربة القرصان الذين عاثوا فسادا في البحر المتوسط ، وسببوا كثيرا من القلق لروما ، اذ كانوا يحولون دون وصول السفن المحملة بالغلال الى موانئ ايطاليا<sup>(١٧)</sup> وكان منح هذه السلطة الاستثنائية لانطونيوس سابقة خطيرة اتخذ منها بومبي بعد ذلك ذريعة لتحقيق اهدافه على نحو ما سوف نرى .

هكذا مضت الاحداث في روما ابان غيبة بومبي ، فكيف مضت بعد عودته ؟

### مطالب بومبي وكراسوس :

وجد السناتو نفسه امام ازمة سياسية خطيرة ، فهذان قائدان منتصران ، وكلاهما يرفض تسريح قواته ليضمن انصياع المجلس لمطالبه ، وبرغم ما كان بينهما من كراهية وما يضمّر كل منهما للآخر من حقد ، الا انها تفاهما على دفن هذا الحقد وتلك الكراهية - مؤقتا بطبيعة الحال - وقررا التعاون معا لتحقيق اطماعهما ، وهي اقامة موكب نصر لكل منهما<sup>(١٨)</sup> ، ثم ترشيحهما لمنصب القنصلية لعام ٧٠ ق . م .<sup>(١٩)</sup> .

وكان مطلب كراسوس الخاص بموكب النصر ، مطلباً مقبولا ومعقولا ، فهو قد اخذ ثورة العبيد الخطيرة ، وهو قد شغل منصب البرايترية ، اما مطلب ترشيحه للقنصلية لعام ٧٠ ق . م . فكان

(١٦) App., Mitlove, 7, B C. I, III, liv, Ept., 93; plut., Lacullus, V — VI.

(١٧) Plut., Ant., I وقد دعي هذا القائد بالمثل في الحرس الشرقي للحر الايام القريضة ، ولقي هزيمة كبرى أثناء محرومه على معقل للفرسان في كريت ومات هناك بعد قليل ، وما يذكر ما اياه الله والد ماركوس انطونيوس عشيق كلوديوس السامعة ملكة مصر الطليبية

(١٨) كان بومبي يطلب لنفسه موكب نصر كبير يفتح له دخول العاصمة في عجلة حرية ، وحول رأسه اكليل من الزمان ، سبأ طالب كراسوس بموكب صغير بحيث يدخل روما راجلا او مضطحا جواده وحول رأسه اكليل من الزمان

(١٩) Plut., Po.p., XXI — XXII, Crassus, XI — XII; App., B.C., I, 121

يتنافى مع قانون سُلا الخاص بتنظيم تولي الوظائف ، لأنه كان بريورا في عام ٧٢ ق . م . وبالتالي فلا يجوز له ان يرشح نفسه للقنصلية الا لعام ٦٩ ق . م . ولعل ادراكه لذلك هو الذي دفعه الى التفاهم مع بومبي والاحتفاظ بقواته دون تسريح كتهديد للسناتو .

اما بالنسبة لبومبي فلم يكن يحق له اقامة موكب نصر ، اذ لم يسبق له ان شغل منصب القنصلية او البراتورية ، وكذلك لم يكن يحق له ان يرشح نفسه للقنصلية ، اذ لم يشغل من قبل منصب الكرايستور والبرايتور ، كما ان عمره كان يقل ستة اعوام عن السن المقررة لتولي هذا المنصب كما تقضي بذلك القواعد الدستورية .

لكن بومبي كان قد تعود الحصول على ما يريد بصرف النظر عن القواعد الدستورية ، فقد اذن له سلا باقامة موكب نصر كبير عقب انتصاره على خصوم هذا الدكتاتور دون ان يكون له حق قانوني في ذلك ، ثم ان السناتو منحه - استثناء - سلطة بروبرايتورية للقيام بحملة في صقلية وفي افريقيا ، وسلطة بروقنصلية لمحاربة سرتوريوس ، وفي كل هذه الحملات فاز وانتصر ، فلماذا لا يسمح له بتولي القنصلية مباشرة ، وهل يقبل ان يعود - بعد كل ما وصل اليه فعلا - فيبدأ من اول السلم ويعتلي اولا وظيفة الكوايستور ؟

يضاف الى ذلك ان بومبي كان يثق بقدرته على تحقيق مطالبه بفضل شعبيته الهائلة ، واستنادا الى القوات التي لا تزال تحت امرته ، لكن السناتو كان في حالة قلق بالغ من ناحية بومبي وما يمكن ان يعمل اذا حقق له رغباته ، وهو في نفس الوقت يشعر بعجزه التام عن الوقوف في وجه هذا القائد الطموح : فالشعبيون معه قلبا وقالبا ، وكراسوس قد حالفه وتفاهم معه ، وميتيلوس لا يزال في اسبانيا ، ولوكولوس منهمك في الحرب الثالثة ضد ميثريداتيس<sup>(٢١)</sup> .

ومع كل ذلك فقد تظاهر السناتو بمظهر القوة ورفض ترشيح القائدين لمنصب القنصلية ، فما كان من بومبي - الذي استبعد استخدام القوة العسكرية حينذاك - الا ان لجأ الى العامة فألهم حماسهم واثار نفوسهم ، اذ نادى بضرورة اعادة سلطات الترابطة الشعبين اليهم كاملة غير منقوصة<sup>(٢٢)</sup> ، كما لجأ فكسب ودهم وتأبيدهم اذ وعدهم باعادة النظر في نظام تشكيل هيئات المحلفين ، وكانوا يتطلعون الى العودة لهذه الهيئات بعد ان انتزعها منهم سُلا<sup>(٢٣)</sup> .

( ٢١ ) R. Holmes, Ro., Rep., I, P.390; C.A.H., IX pp.332 ff.; Hietland, Ro., Rep, III, pp.13 ff. ( ٢٢ )

Plut., Po.p., XXI; App., B.C., I, 121 ( ٢٣ )

Cic., I, in Verr., I, 15, 45 ( ٢٤ )

هكذا ضمن بومبي تأييد عامة الشعب كما ضمن تأييد طبقة الفرسان ، وامام هذه الاوضاع ، ومع بقاء قوات هذا القائد وزميله كراسوس تحت امرتها ، رضخ السناتو لمطالبها ، فرشحوا لمنصب القنصلية لعام ٧٠ ق . م . ثم ظفروا بها<sup>(٢٣)</sup> ، فكان ذلك خرقا واضحا لدستور سلا الذي حاول منع الجيش من التدخل في الحياة السياسية الرومانية ، كما كان مثلا يمكن ان يجتذبه قادة آخرون ، وهذا يعني ان حربا اهلية يمكن ان تشتمل في اي وقت ، وان النظام الجمهوري كله بات على وشك الانهيار .

وما لبث القنصلان ان ردا الجميل للعامة وللفرسان ، فقد استدرا تشريعا يعيد الى ترابنة الشعب سلطاتهم كاملة ، وفي مقدمتها سلطة الاعتراض<sup>(٢٤)</sup> ، كما استصدرا تشريعا آخر يقضي باختيار هيئات المحلفين في المحاكم من بين رجال السناتو ورجال طبقة الفرسان وترابنة الخزنة العامة<sup>(٢٥)</sup> .

كذلك أعيد منب الرقابة (Censores) الذي كان سلا قد عطله ، فظل شاغرا من عام ٨٥ ق . م الى عام ٧١ ق . م ، وقام هؤلاء بمهمتهم على الفور ، فراجعوا قوائم اعضاء السناتو واستبعدوا منها اربعة وستين اسما ، كما قاموا بتسجيل أسماء المواطنين الجدد في جميع القبائل الرومانية ، وفي الوحدات المشوية .

وهكذا قوض بومبي - تلميذ سلا - دستور استاذة تقويضا شاملا ، ولا يعني ذلك أن الجمهورية الرومانية باتت تنعم بالديموقراطية ، وانما اخذت تمضي قدما نحو نهايتها المحتومة على نحو ما سوف نرى .

وحيث انتهى عام القنصلية بالنسبة لبومبي وزميله كراسوس أثرا التريث والانتظار حتى تحين لكل منهما فرصة مناسبة تتيح له الظفر بسلطة تناسب اطماعه .

### بومبي والقراصنة :

وقد سنحت الفرصة المرتقبة لبومبي حين تفاقم خطر القراصنة في البحر الابيض المتوسط بعد فشل الحملات التي وجهت ضدهم في اعوام ١٠٢ ق . م و ٧٧ ق . م . و ٧٤ ق . م ، وتزايد نشاطهم تزايدا كبيرا ، فأصبح وصول القمح الى روما مهددا ، فارتفعت اسعاره ارتفاعا فاحشا ، وبالتالي عم السخط واخذ الناس يطالبون بالتصدي لاعمال القرصنة والقضاء على القراصنة<sup>(٢٦)</sup> .

Plut., pom., XXII ( ٢٣ )

Plut., Pomp., loc., cit., Lib., Ept., Loc Cit., Liv., Ept., 97 ( ٢٤ )

(٢٥) Cic., ad Att., I, 16, 3, Liv., Ept., Loc. Cit. وكان ترابنة الخزنة العامة يعملون في الاصل حيازة في القوات المسلحة ، ثم أصبحوا يشكلون طبقة نيل طبقة

الفرسان من حيث العصب المالي ، وطبعي ان مصالحهم كانت متوافقة مع مصالح طبقة الفرسان اكثر منها مع طبقة السناتو .

Plut., Pomp. XXIV — XXV, 1; Dio Cass. XXXVI 20 — 23 ( ٢٦ )





وضعت تحت امرته ، الا انه استطاع ان يظهر البحر من القراصنة في مدى ثلاثة اشهر فقط . ولعل نجاح بومبي الى هذا المدى كان راجعا - ولو جزئيا - الى اعتداله في معاملة اسراه من القراصنة الى درجة ان الكثيرين منهم سلموا له تسليحا ، وارشدوه الى مخابيه اخوانهم المخطفين ، فما كان منه الا ان عفا عنهم ، ومنحهم حريتهم وسمح لهم باعمار بعض المدن التي يقل فيها عدد السكان ، وهكذا هبأ لهم سبيل العيش الشريف حتى يضمن عدم عودتهم الى القرصنة ثانية<sup>(٣١)</sup> .

### اسناد الحرب في آسيا الى بومبي :

حين انتهى بومبي من حرب القرصان لم تكن المدة التي نص عليها قانون جابينيوس قد انتهت ( ثلاثة اعوام ) ، فاستقر - وقواته كلها تحت امرته - في كيليكيا يتطلع الى خوض حرب اخرى يحرز فيها نصرا جديدا . وكان لوكولوس عاجزا عن انهاء الحرب التي كلف بقيادتها ضد ميثريديتيس ، فسعى بومبي الى تولي قيادة هذه الحرب بدلا منه ، وكان الرأي العام في روما يميل الى ذلك ، فتقدم التريبون جايوس مانيليوس في عام ٦٦ ق . م . - مستغلا فرصة السخط على لوكولوس وساعيا الى التقرب من بومبي - بمشروع قانون يقضي باسناد حكم ولايات آسيا وكيليكيا وبشينا الى بومبي ، وكذلك اسناد قيادة الحرب في آسيا اليه ، وتكليفه حل المشاكل التي تعاني منها روما في الشرق ، وذلك كله مع احتفاظه بالسلطات التي خولها اياه قانون جابينيوس . وعرض المشروع على السناتو فعارضه زعيمه كاتولوس وبعض اعضائه البارزين ، لكن المشروع عرض على الجمعية القبلية فوافقت عليه<sup>(٣٢)</sup> .

هكذا منح بومبي سلطات لم يحدث ان منحت لغيره من قبل ، ولقد كان في وسعه ان يصبح وحده سيد العالم الروماني حينذاك ، لكنه فوت الفرصة على نفسه ، وان كان قد اعطى قيصر درسا لكي لا يفوت مثلها حين تسنح له .

وتولى بومبي القيادة من لوكولوس ، وعمل منذ اللحظة الاولى على الوصول الى نتيجة حاسمة فتحالف مع ملك بارثيا ، ودخل في مفاوضات مع الملك ميثريديتيس ليشل حركته ويوقف نشاطه ، لكن هذه المفاوضات قطعت سريعا اذ تقدم بومبي بشروط لا يمكن قبولها . ودارت رحى القتال في عام ٦٦ ق . م . ، وانصر بومبي ، واضطر ميثريديتيس الى الفرار الى ارمينيا التي مالبت ان هرب منها هي

( ٣١ ) لمزيد من المعلومات عن حرب بومبي ضد القراصنة ، انظر .

App., Omith, XIV, 94 — 96; Plut., Pomp., XXVI, 3 — XXIX, Liv., Ept., 99; Dio Cass., XXXVI, 18 — 19

Cic., pro lege Manilia; Plut., Pomp., XXX; App., Mith., 97. ( ٣٢ )

وكان شيرتون يقصر من ارز ملويدي قانون مانيليوس هذا

الأخرى إلى المدن الأغريقية في القرم ، بينما التقى بومبي بملك أرمينيا - تيجرانس - الذي سلم له دون قيد أو شرط فأبقاه بومبي على عرشه كحليف لروما .

وفي ربيع عام ٦٤ ق . م . وضع بومبي تسوية مؤقتة للاوضاع في آسيا الصغرى ، واستقبل وهو في بونتس بعثة أوفدها إليه ميثريداتيس الذي كان قد تمكن من استعادة ممتلكاته الشمالية حول البحر الأسود ، وطلبت البعثة استرداد بونتس نظير الاعتراف بالسيادة الرومانية ، لكن المفاوضات لم يكتب لها النجاح ، فترك بومبي لاسطوله مهمة تشديد الحصار حول ميثريداتيس ونجح هو إلى سوريا التي قرر ضمها إلى الممتلكات الرومانية كي يستطيع تسوية اوضاع الشرق كلها ، وقد نجح في تحويلها إلى ولاية رومانية ، كما نجح في بسط السيادة الرومانية على غرب آسيا ، إذ تدخل في الصراع الذي احتدم بين المتنافسين على عرش جودايا من كبار كهنة بيت المقدس ، وبعد حملة قصيرة عين كاهنا أكبر في بيت المقدس وولاه حكم جودايا . اما ميثريداتيس فقد قتله جنده الذين ثاروا عليه بزعماء ابنه المدعو نارناكيس ( عام ٦٣ ق . م . ) وهكذا انتهت متاعب روما من هذا الملك الطموح ، وأن لها ان تستريح بعد ان لقيت منه اشد العناء<sup>(٣٣)</sup> .

ونظم بومبي الاوضاع في هذه الولايات الجديدة التي ضمها إلى ممتلكات روما في الشرق ، فوضع لها دساتير خاصة ، ونشر في أرجائها الحضارة الأغريقية بأقامة العديد من المدن الحرة ، وشجع الادارات المحلية على النهوض بأعبائها ، واستطاع ان يأتي للخزانة الرومانية بمبالغ ضخمة هائلة بفضل الضرائب التي فرضها هناك ، وتعويضات الحرب التي جمعها من المقيهورين<sup>(٣٤)</sup> .

بيد اننا ينبغي ألا ننسى ان هذه الاعجاد العريضة انما كانت لفرد واحد ، ولقد كشفت هذه الحروب التي خاضها بومبي عن عجز السناتو التام عن مواجهة رغبات القادة الكبار ، وفي نفس الوقت لم تكن الجمعيات الشعبية قادرة على القيام بدور السناتو في القبض على زمام الامور وتوجيه سياسة الدولة . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت طغيان الفرد القادر الذي يتحكم في قوات عسكرية كبيرة ، وبالتالي ذلك دعائم النظام الجمهوري ولعلنا لا نكون مسرفين اذا قلنا ان قيادة بومبي في الشرق والانتصارات التي احرزها هناك كانت نقطة التحول من النظام الجمهوري إلى نظام حكم الفرد الواحد ، او هي بداية هذا التحول .

Boak., Hist. Ro., pp 216—217 (٣٣)

(٣٤) عن تعليقات بومبي في الشرق راجع المصادر الآتية .

Plut , P omp., XXXVIII—XLII, App., Mith., 114—115; Dio Cass , XXXVII., 7.

والنظر للمراجع التالية .

C.A.H. IX, pp. 390—396; Jones, Cities East. Rom. Emp., pp. 157 ff., pp 202 ff., T. Frank, Roman Imperialism, pp. 323 ff.

وبعد ان انتهى بومبي من عملية تنظيم الاوضاع في آسيا الصغرى وسوريا وفي الممتلكات الشرقية بوجه عام ، بدأ يجهز نفسه لعودة طافرة الى ايطاليا بقواته المنتصرة ومعه غنائم الحرب التي ظفر بها من الشرق ، وينبغي ان نذكر هنا شيئا عن تطورات الاحداث في روما اثناء غيابه عنها التي طالت بضع سنين .

الواقع ان السلطات الاستثنائية الواسعة التي حولها بومبي قانون جابينيوس لحرب القراصنة وقانون مانيليوس لحرب ميثريدايس ، جعلت مصير النظام الجمهوري معلقا بما يتوهم هذا القائد ، بصرف النظر عن السناتو والجمعيات الشعبية وما يصدر عنها من قرارات ، لقد اصبح الامر كله معلقا بالقوة وحد السيف ، ونوايا الرجل الذي يملكها .

واشتد الصراع اثناء غيبة بومبي وبات الجميع في خوف من ان يرسم هذا القائد خطى استاذة سلا ، ولا سيما اعيان النظام الجمهوري ، وعلى رأسهم شيشيرون وكاتو . وكان الاخيار النبلاء يتمسكون بالنظام الجمهوري اشد التمسك ويريدون الابقاء عليه ، ولهذا فقد اتجه شيشيرون - وهو من طبقة الفرسان - الى حزب الاخيار ، وحاول ان يقيم وفاقا بينهم وبين الفرسان ( Concordia, Ordini ) مؤملا ان يكون هذا الوفاق كفيلا بالذود عن النظام الجمهوري .

#### محاولات النيل من بومبي في غيبته :

ولما كان رجال السناتو في قلق شديد من بومبي ونواياه ، فقد انتهزوا فرصة غيابه في الشرق وكالوا الاتهامات لانصاره من ترابنة العامة ، واولهم كورنيليوس احد ترابنة عام ٦٧ ق . م . الذي اتهموه بالخيانة العظمى وقدموه للمحاكمة في عام ٦٦ ق . م ، لكن شيشيرون وقف الى جانبه وتولى الدفاع عنه فظفر بالبراءة<sup>(٣٥)</sup> . وثانيهم جابينيوس صاحب القانون الذي حول بومبي سلطة القيادة ضد القراصنة ، والذي احس بما يدبره له الاخيار الارستقراطيون من اتهامات فرجل عن ايطاليا والتجأ الى بومبي في الشرق . وأما الثالث فكان مانيليوس صاحب قانون اسناد قيادة الحرب في اسيا الى بومبي بدلا من لوكولوس ، وقد حوكم هذا بتهمة الخيانة العظمى وادين فعلا في عام ٦٥ ق . م .<sup>(٣٦)</sup> .

اما اكبر نصير للديمقراطيين الشعبيين اثناء غيبة بومبي ، فكان كراسوس الذي زامله في قنصلية عام ٧٠ ق . م . كما ذكرنا ، ومع ذلك فقد امتلا كراسوس حقدا على بومبي بسبب هذه الاجاد العسكرية التي ظفر بها والمكانة الرفيعة التي وصل اليها ، فبذل كل ما في وسعه لجمع الانصار من حوله ، وبدأ

Cic , pro Corn. (٣٥)

Dio Cass., XXXVI, 44, 1—2; Plut., Cic, IX (٣٦)

يدبر الامر لتوطيد مركزه في روما مستعينا بعدد من المؤيدين الذين كانوا على استعداد للوقوف معه في وجه بومبي ، وكان على رأس هؤلاء يوليوس قيصر<sup>(٣٧)</sup> الذي كان يأمل ان يهيء له تعاونه مع كراسوس فرصة جيدة لبناء مستقبله السياسي .

وقد انتخب كراسوس لمنصب الرقيب (Censor) لعام ٦٥ ق . م . فأوعز الى احد ترابنة العامة ان يتقدم بمشروع قانون يقضي بضم مصر وتحويلها الى ولاية رومانية على ان يكلف قيصر بمهمة تنظيمها بعد ضمها<sup>(٣٨)</sup> .

ولاشك أن هدف كراسوس من ضم مصر كان اتخاذها قاعدة عسكرية ضد بومبي عند الضرورة ، ولا شك ايضا ان الفرسان رحبوا بهذا المشروع لانه يفتح امامهم سوقا يحصلون منه على ثروة طائلة ، كما ايده الشعبون لانه يضمن لهم موردا يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من الغلال ، لكن المشروع لو نفذ فانه يحرم الارستقراطيين النبلاء من رشاي ملك مصر حينذاك وهو بطليموس الزمار ، الذي لم يعترف به السناتو ملكا على مصر مع انه كان قد ارتقى عرشها في عام ٨٠ ق . م . فلجأ الى شراء ذمم اعضاءه الجشعين بالرشاي الضخمة التي كان يقترضها من الرأسماليين وهم من كبار رجال طبقة الفرسان ، واستطاع السناتو ان يقتنع كاتولوس زميل كراسوس في الكنسورية بالاعتراض على المشروع فاستجاب لهم ، وقام شيشيريون بدور كبير في المعارضة ، فألقى ضد المشروع خطبة قوية في السناتو<sup>(٣٩)</sup> . وهكذا وقف النبلاء مع الفرسان صفا واحدا ضد كراسوس ومشروعه فرفض .

لكن كراسوس - بعد ان مني بهذا الفشل - حاول ان يفيد من ناحية اخرى للوصول الى هدفه ، ذلك ان روما آنذاك كانت تعاني كثيرا من الذين صودرت ممتلكاتهم باوامر الدكتاتور سلا - بوصفهم من انصار غريمه ماريوس ، ومن الذين استبعد الكنسوران في عام ٧٠ ق . م . أسماهم من قوائم مجلس السناتو ، وكان المدعو كاتيلينا ابرز هؤلاء على الاطلاق ، وهو سليل اسرة شريفة لكنه اشتهر بفساد اخلاقه واساليه المعوجة ، وبرغم ذلك فقد وصل الى منصب البرايتر عام ٦٨ ق . م . ثم عين حاكما

(٣٧) لم يكن قيصر قد برز كشخصية سياسية لما قدرها بعد ، لكنه احدث بطرقته الى مسرح السياسة بحط سرعة ثائت . ولد حوالي عام ١٠٠ ق . م . من اسرة شريفة ، وكان ماريوس قد تزوج من عمته ، نينا تروخ هو نفسه من كورنيليا امة ركانا ، دفعه ذلك الى الانحياز لحزب الشعبين ، وقد امره سلا بالانفصال عن زوجته فأبى وعاد روما . وقد وقع اسيرا في قصة الفرسان وهو في الطرق بر عامي ٨٠ و ٧٨ ق . م . فالتقى نفسه بعدة ضحمة . وبعد وفاة سلا عاد الى روما وانتخب لنصب الكوايسور عام ٦٩ ق . م . وانضم الى كراسوس ليقف معه في وجه بومبي . وفي عام ٦٥ ق . م . تولى منصب الاديبي واحتل العامة اليه سلحه الشديد والثأب القاتلة التي كان يبعثها لهم ، وقد اصطر بسبب اسراره الشديد الى الاستقالة من كراسوس الذي حاله . وحاول الخيلان بعد ذلك تعيين قيصر في منصب يقضي بفضله ثروة كبيرة تعينه على سداد ديونه

Cf. Oxford Class Diction., pp 153 — 154., Cix , de Leg., II, 22,26;Plut., Caes., V,6

Plut., Cress., XIII. (٣٨)

Cic., De Tege Alexandrino (٣٩)

على ولاية افريقيا عام ٦٧ ق . م . وفي عام ٦٥ رشح نفسه لمنصب القنصلية غير انه اتهم بابتزاز الاموال من اهالي ولايته<sup>(٤١)</sup> فاستبعد من قائمة المرشحين للمنصب ، فامتألت نفسه بأشد الحقد واكبر الغيظ وقرر الانتقام لنفسه .

واتفق كاتيلينا مع القنصلين اللذين ظفروا بالمنصب ، ثم استبعدا لادانتهم بالرشوة على اغتيال القنصلين اللذين اختيرا بدلا منها ، ثم الاستيلاء على مقاليد الحكم في اليوم الاول من شهر يناير عام ٦٥<sup>(٤٢)</sup> لكن السناتو احس بهذه المؤامرة واستطاع ان يحيطها قبل تنفيذها<sup>(٤٣)</sup> .

واذا كان كراسوس لم يشترك في هذه المؤامرة ، الا انه عمل على الافادة منها بحماية المتآمرين من المحاكمة ، ثم بتسخيرهم لخدمته نظير ذلك ، فلم تجر اية محاكمة او تحقيق مع المتآمرين ، بل ان احدهم - وهو بيسو - عين حاكما على ولاية اسبانيا الدانية بمرتبة بروبراتور ، وذلك من باب اتخاذ الخطة ضد نوابا بومبي حين عودته ، اذ يمكن اتخاذ هذه الولايات قاعدة عسكرية خارجية للافادة منها عند الضرورة ، لكن احد الاسبان ما لبث ان اغتال بيسو لسوء خلقه وسوء تصرفاته<sup>(٤٤)</sup> .

وبعد حصول كاتيليا على البراءة من تهمة ابتزاز الاموال التي وجهت اليه ، عاد فرشح نفسه لقنصلية عام ٦٣ ق . ، وقام كراسوس بتمويل حملته الانتخابية وكذلك حملة زميله المرشح الآخر وهو جايوس أنطونيوس ، وقام قيصر بلور كبير في تأييد كلا المرشحين ، لانه لاهو ولا كراسوس كانا يستطيعان ترشيح نفسيهما للقنصلية حينذاك ، فهذا الاخير لم يكن قد قضى السنوات العشر التي ينبغي ان تنقضي على توليه القنصلية الاولى في عام ٧٠ ق . م ، واما قيصر فلم يكن قد تولى بعد وظيفة البراياتور التي تؤهله للترشيح لوظيفة القنصلية ، ثم انها كانا - حينذاك أيضا - لا يملكان القوة العسكرية التي يستندان اليها اذا فكرا في خرق حرمة القانون ، فمن الأفضل لهما في هذه المرحلة ان يعينا كاتيلينا وزميله أنطونيوس على الظفر بالقنصلية ليصبحا من بعد أداة في قبضتهما ، تعينها على تسخير كل امكانيات الدولة للوقوف في وجه بومبي .

أما المرشح الثالث فكان شيشرون الذي أثبت كفايته حين كان كوانستورا ثم بريورا ، وكانت تؤيده طبقة الفرسان التي ينتمي اليها ، ولم يكن يعيبه - في نظر الرومان - الا أنه كان « رجلا جديدا » لم يسبق لأحد من رجال عشيرته ان تولى منصب القنصلية .

(٤٠) حصل كاتيلينا على البراءة من هذه التهمة لكن بعد فوات الاوان

(٤١) Sallust., B. C., XVII—XVIII

(٤٢) تعرف هذه المؤامرة باسم مؤامرة كاتيليا الأولى

(٤٣) Xallust., Loc. cit., XIX, 3

وقد أسرف كاتيلينا في توزيع الرشاوي السخية للظفر بالمنصب ، بل انه تبجح فكان يوزعها علانية في غير حياء ، وادي مسلكه هذا الى عزوف الكثيرين من أعضاء السناتو عن تأييده ، فضلا عن احساسهم بان كراسوس وقيصير يؤيدانه ، وكلاهما يمثل خطرا جسديا على النظام الجمهوري لايقل عن خطر بومبي ، وانتهاز شيشيرون هذه الفرصة فاستغلها لصالحه وألقى خطبة من خطبه النارية ضد كاتيلينا الذي ارتكب أبشع الجرائم ايام الدكتاتور سُلا . (٤٤)

وأجريت الانتخابات ففاز كل من شيشيرون وانطونيوس بمنصب القنصلية بينما فشل كاتيلينا ، وبرغم ان نجاح انطونيوس نجاء نتيجة للمساعدة التي بذلها له كراسوس وقيصير ، الا ان شيشيرون استطاع ان يجذب زميله الى صفه ويبعده عن أن يتحول الى أداة في يد كراسوس وقيصير ، اذ وعده بالتنازل له عن ولايته ( مقدونيا ) في نهاية عام قنصليتها ، وأن يأخذ هو ولاية بلاد الغال جنوب الالب التي جاءت من نصب انطونيوس ، وهي ولاية فقيرة لا تعود على حاكمها بنفع يذكر ، وذلك شريطة الامتناع عن المشاكسة والسير في ركاب المعارضة .

وهكذا ذهبت محاولات كراسوس وقيصير في السيطرة على القنصلين هباء ، برغم كل مابذلاه من جهد ، وكل ما أنفق كراسوس من اموال .

ولم يئأس كراسوس وزميله قيصير ، وانما فكرا في أمر آخر يرفع قدرهما ويعلي مكانتهما في روما ويعينهما على الوقوف في وجه بومبي ، ذلك ان كراسوس لجأ الى أحد ترابنة عام ٦٣ ق . م وهو المدعو سرقليوس روللوس ، واقنعه بالتقدم بمشروع قانون يقضي بتوزيع اقطاعات من الاراضي الزراعية في ايطاليا على فقراء الرومان مع منحهم الحق في توريثها لأبنائهم دون الحق في بيعها للغير ، وفعلتقدم روللوس بهذا المشروع في الايام الأخيرة من ديسمبر عام ٦٤ ق . م ( عقب اعتلائه المنصب في العاشر من ديسمبر ) قبل ان يعتلي شيشيرون وزميله منصبيهما في الأول من يناير عام ٦٣ ق . م .

والمشروع في ظاهره لاغبار عليه اطلاقا ، بل هو يؤدي الى اصلاح اقتصادي واجتماعي كبير . فليسوف يخفف عبء الحياة عن الذين صودرت ممتلكاتهم ايام سُلا ، ولسوف يزدهر الريف بالنازحين اليه ، ولسوف تتخلص روما - جزئيا على الاقل - من ازدحامها الشديد . . . . . ولكن من أين الاراضي التي توزعها الدولة على الفقراء ؟ ان ما تبقى من الاراضي العامة يقل كثيرا عن المساحات اللازمة ، ولهذا فقد رأى مقدم المشروع النص فيه على ان تقوم الدولة بشراء ما تحتاج اليه من الاراضي الخاصة

( ٤٤ ) Cic., Oratio in Toga Candida .

وسمعا خطبة بالتوجا البيضاء ، وذلك لأن شيشيرون الفاعل وهو يرتدي التوجا ( الرداء الغربي الروماني ) البيضاء التي يرتديها المرشحون للوظائف العامة ، والواقع ان ما وصلنا من هذه الخطبة لا يمدد بعض شذرات قليلة .

لتقسيمها الى اقطاعات ثم توزيعها ، كما نص فيه ايضا على وسائل تمويل عملية الشراء هذه وعلى أسلوب التنفيذ . فقد جاء فيه ان تقوم الدولة بشراء كل الاراضي التي آلت اليها في الخارج منذ كان سُلًا قنصلا في عام ٨٨ ق . م ، وخول المشروع القائمين على تنفيذه - اذا تعذر بيع كل الممتلكات الخارجية - فرض ضرائب أو إيجارات على الاراضي التي لاتباع ، ثم اقترح صاحب المشروع فوق ذلك كله أن تضاف الى ميزانيته كل الأموال التي غنمها بومبي من فتوحاته .

واوكلت مهمة التنفيذ الى لجنة مؤلفة من عشرة افراد ، على أن يتمتعوا طوال خمس سنوات بسلطة بروبريتورية لفرض أي نزاع يثار حول ملكية الاراضي .

وبعد ، فان كل هذا الذي تضمنه القانون ، يكشف بوضوح حقيقة نوايا مقدمه ، أو الذين دفعوه الى تقديمه : فقد أريد له ان يصبح نافذا في شهر يناير عام ٦٣ ق . م . فلماذا هذه العجلة الشديدة التي لا مبرر لها ؟ ثم لماذا تمتح اللجنة التنفيذية العشرية هذه السلطات الواسعة طيلة أعوام خمسة مع منحها هذه الموارد الهائلة ؟

لسوف يعود بومبي من الشرق عما قريب ومعه قرابة اربعة آلاف جندي ، ولن يجد بعد تنفيذ المشروع أية مساحات من الاراضي لتوزيعها عليهم ، فواضح إذا أن تقديم هذا المشروع ومحاوله تنفيذه بهذه السرعة ، كان محاولة جديدة من كراسوس وقيصر للظفر بجزيد من التأييد والقوة داخل روما قبل أن يعود اليها بومبي ووضعه في موقف حرج أمام جنده العائدين معه .

وأدرك شيشيرون الأهداف الحقيقية للمشروع فانبرى ومعه الفرسان والنبلاء لمعارضته ، وقد بقي في هذا الصدد اربع خطب لم تصلنا منها سوى ثلاث <sup>(٤٥)</sup> ، اما الأولى فقد القاها على مسامع رجال السناتو في اليوم الاول من شهر يناير ، واما الثانية والثالثة فقد القاها في الجمعية القبلية ، وكانت أولى هاتين الخطبتين الأخيرتين هي التي أثارت العامة إثارة بالغة ، وجعلتهم يقفون ضد المشروع وقفه عنيفة الى درجة ان روللوس اضطر لسحبه قبل التصويت عليه <sup>(٤٦)</sup> ، فقد أفهمهم شيشيرون ان روللوس ليس الا أداة في يد أعداء بومبي ، وأن هذه السلطات والموارد التي منحت للجنة العشرة ، انما منحت لهم ليملاؤا اجوبهم بالاموال ، ولعلهم يشترون اراضي مجدبة غير صالحة للزراعة من المحقرين اليهم ثم يوزعونها على الفقراء فيعجز هؤلاء عن زراعتها واستثمارها . <sup>(٤٧)</sup>

(٤٥) تعرف هذه الخطب الأربع باسم (De lege Agraria) ، راجع عنها : 87—86 pp. Hietland, Rom. Rep. III.

(٤٦) E.G. Hardy, Some Problems of Roman History, pp. 68 ff.

(٤٧) استطاع شيشيرون أن يؤثر على الضمين ، وان يشمل حاسمهم لرخص المشروع إذ أفهمهم ان صاحبه ليس الا أداة يحرّكها عبيره عن بريدون الكيد لومبي ، فضلا عن كره الموافقة عليه التي خرج العامة من روما التي يعيشون فيها حياة سهلة راعدة ، ويتعمدون حمامهم حذلاتهم ودمجحاتهم المائعة ومركباتهم الخفيفة ، ويحصلون بها على القمح بلا ثمن ، يعمرون من كل ذلك ويتولون الى حياة الريف حيث الكد والعصب في فلاة الأرض التي ربما تكون من النوع اللجبد الذي لاخير فيه .

هكذا فشل كراسوس وقيصر مرة أخرى في تحقيق أهدافهما ، وكانت تلك آخر محاولتهما للكيد لبومبي أثناء غيابه عن روما ، فقد باتت عودته وشيكة ، ومن الحكمة ان يكفيا عن القيام بأي عمل يوغر صدره ويدفعه الى استعمال القوة ضدما .

### قيصر برايتورا وكاهنا اعظم :

ومع ذلك فان قيصر - رغم هذه الهزيمة التي مني بها مع زميله كراسوس - لم يكف عن التفكير في توطيد مركزه في روما قبل ان يصل اليها بومبي ، فانتهاز فرصة وفاة الكاهن الاعظم - ميتيللوس ليوس - في شتاء عام ٦٤ - ٦٣ ق . م . ، وعقد العزم على الظفر بهذا المنصب الذي يتمتع به شاغله مدى حياته مع اختصاصات واسعة تهيء له مكانة بارزة في الحياة العامة . لكن احد تشريعات سلا كان يقضي بأن الجماعات الدينية وحدها هي التي تختار اعضاءها ، فلا بد اذا من ان يصبح قيصر اولاً عضواً في جماعة الكهنة حتى يمكن ترشيحه لمنصب الكاهن الاعظم ، وذلك امر مستبعد ، ولهذا فقد اتفق قيصر مع احد ترابنة العامة - وهوتيتوس اتيوس لايبينوس كي يتقدم بمشروع قانون ينسخ تشريع سلا ، ويقضي بالعودة الى طريقة الانتخاب الشعبي العام لاختيار اعضاء الجماعات الدينية ، وقد تم ذلك فعلاً ، وصدر القانون المطلوب ، ويتم اختيار قيصر عضواً في جماعة الكهنة ، وبذلك اصبح مؤهلاً لترشيح نفسه لمنصب الكاهن الاعظم .

ورشح قيصر نفسه ، وكان ينافسه قنصلان سابقان ، لكنه اكتسحهما في عملية الانتخاب وظفر بالمنصب بفضل الرشاوي الكبيرة التي وزعها في سخاء ، وما لبث بعد ذلك ان رشح نفسه لوظيفة البرايتورية لعام ٦٢ ق . م . وظفر بها هي الاخرى ، وهكذا اصبح قيصر كاهناً اعظم وبرائتورا<sup>(٤٨)</sup> .

### مؤامرة كاتيلينا<sup>(٤٩)</sup> :

هدأ قيصر بعد هذا النصر الذي احرزه ، لكن كاتيلينا لم يهدأ منذ فشل في انتخابات القنصلية لعام ٦٣ ق . م . فقد تراكت عليه الديون ، وتحلى عنه كراسوس تحسباً لعودة بومبي الوشيكة . لذلك رشح نفسه لقنصلية عام ٦٢ ق . م . وعلن في دعايته الانتخابية انه اذا فاز بالمنصب فسوف يلغي كافة

Dio Cass, XXXVII, 37; Plut., Caes., VII (٤٨)

Cic., Im Cat., I—IV, Dio Cass., XXXVII, 30—42; (٤٩)

Sallust., XX ff., Plut., Cic., XI V—XXII; Caes., VII—VIII;

Hietland, Rom Rep., III, pp. 93ff.; Holmes, Rom. Rep., I pp. 455ff.



الديون ، وهدفه هو اجتذاب اصوات النبلاء المفلسين ، وكذلك اصوات الفلاحين الذين رحمنوا اراضيهم .

لكن شيشيرون فنصل عام ٦٣ ق . م قام بدعاية مضادة ، وحذر جماهير الغاضبين من اساليب العنف التي اشتهر بها كاتيلينا ، ومن سياسة التطرف الشديد التي يمارسها . وانضم الى شيشيرون في موقف المعارضة الكثيرون من رجال السناتو الذين اعتبروا كاتيلينا خطرا كبيرا على النظام الجمهوري ، فاذا به يفشل في الانتخابات مرة اخرى<sup>(٥٠)</sup> ، ففقد صوابه واخذ يدبر مؤامرة للاستيلاء على مقاليد الحكم في روما بالقوة<sup>(٥١)</sup> .

وكان شيشيرون بخطبه النارية هو السبب الرئيسي في سقوط كاتيلينا في الانتخابات ، ولهذا فقد قرر كاتيلينا قتله ، وقتل اعضاء السناتو الذين اعربوا عن تأييدهم له . لكن الشكوك بدأت تساور شيشيرون حين علم ان كاتيلينا يكثر من عقد اجتماعات سرية مع اعوانه ، وما لبثت هذه الشكوك ان اصبحت يقينا حين ضعف احد المتآمرين - وهو المدعو كوينتوس كوريوس ( امام محظيته فولفيا ( Fulvia ) ، فافضى اليها بتفاصيل المؤامرة ، فانزعجت غاية الانزعاج ، وهالها الامر ، وما كان منها الا ان اتصلت بشيشيرون وابلغته كل شيء عرفته ، فكافأها مكافأة سخية وطلب اليها مداومة الاتصال به وابلاغه كل جديد يصل الى علمها عن المؤامرة والمتآمرين .

وعرف شيشيرون منها ان المتآمرين كانوا اخلاطا من العبيد المحررين ، وبعض اعضاء السناتو ، وعددا من الفرسان ، وكذلك بعض ضباط سلا القدماء ، وعلى رأسهم مانليوس الذي كلف بتجهيز جند سلا القدامى الذين منحوا اقطاعات في اثوريا ، على ان يتجمع هؤلاء في براينستي في السابع والعشرين من اكتوبر للزحف على روما ليلا ومفاجأة سكانها في صباح اليوم التالي ، ومن ثم القبض على اعداء كاتيلينا واعدامهم وتسلم زمام الحكم في الدولة .

وبعد ، فنلك معلومات بالغة الدقة وقف عليها شيشيرون ، لكنه كان لا يستطيع ان يقرر بأي اجراء ايجابي دون الحصول من السناتو على « قراره النهائي » ، وهذا لا يصدره السناتو الا بعد الحصول على ادلة قوية دامغة . . وسرعان ما جاء الدليل القاطع حين ايقظ كراسوس شيشيرون في احدى ليالي النصف الثاني من شهر اكتوبر واعطاه مجموعة من الرسائل سلمها اليه شخص مجهول ، فاذا بها كلها موجهة الى بعض اعضاء السناتو ، ومتضمنة تحذيرا من مذبحة توشك ان تقع في العاصمة ، ثم تنصحهم بالفرار من روما طلبا للنجاة .

Plut , Cic., XiV, Dio Cass., XXXVII, 29, Sallust.,

B C., XXIV — XXVI; C.A.H., IX, pp. 491 — 494

(٥٠)

Cf L. Hutchinson, The Conspiracy of Cataline, 1967 (٥١)

وأيا كانت الحقيقة في هذا كله ، فقد استند إليها شيشيرون ودعا السناتو للانعقاد في اليوم التالي ، وافضى الى اعضائه بكل ما لديه من معلومات ، قائلا ان المذبحة المشار إليها في الرسائل سوف تنفذ في اليوم الثامن والعشرين من شهر اكتوبر . وقد طلب اليه السناتو القيام بمزيد من التحريات لتقصي الحقيقة .

وبعد يومين آخرين ، ابلغ شيشيرون مجلس السناتو ان مانليوس - وهو احد الضالعين في المؤامرة - بدأ يتحرك بقواته في اتروريا استعدادا للهجوم على روما في اليوم السابع والعشرين من اكتوبر ، وقد ايده في ذلك احد اعضاء السناتو بناء على معلومات وصلته هو الآخر عن تلك المؤامرة .

وبعد ان استمع المجلس الى تلك الاقوال اصدر « قراره النهائي » الى شيشيرون لمواجهة الكارثة وحماية الدولة ، وعلى الفور بدأ هذا يحشد قواته العسكرية للتصدي للمتآمرين ، وشكل حرسا خاصا لحماية روما وبرابنسي ، وهكذا خيب شيشيرون آمال كاتيلينا الذي آثر التريث ، لكنه لم يستطع القبض عليه لانفقاؤه الى الادلة التي تدلته وتثبت انه المدير لهذه المؤامرة . وانقضى الثامن والعشرون من اكتوبر في هدوء .

لكن شيشيرون عاد فجمع السناتو في الثامن من نوفمبر من نفس العام (٦٣ ق . م ) اي بعد عشرة ايام فقط من اليوم الذي كان محمدا لتنفيذ المؤامرة ، وادلى للاعضاء بمعلومات جديدة تجمعت لديه ، ذلك ان فولفيا ابلاغته بنبا خطية جديدة رسمها كاتيلينا مع اعوانه بعد فشل خطتهم الاولى ، وذلك في اجتماع عقده هؤلاء الاعوان مع زعيمهم في اليوم السادس من شهر نوفمبر ، وكانت الخطة هذه المرة تقضي باشعال ثورة جامحة في العاصمة تبدأ بقتل شيشيرون في منزله ، ثم اضرار النيران في انحاء متفرقة من روما في وقت واحد ، ثم اطلاق العبيد للقيام باعمال السلب والنهب ، وبعد ذلك يقود كاتيلينا القوات الموجودة في شمال اتروريا ويزحف بها على روما .

وحين اجتمع السناتو الى شيشيرون على اعضائه خطبته الشهيرة التي عرفت باسم « الخطبة الاولى ضد كاتيلينا » ، والغريب ان كاتيلينا شهد الاجتماع واستمع الى شيشيرون وهو يشرح خطة المتآمرين ، ويهاجم كاتيلينا بأعنف العبارات ، ثم توجه اليه في اخر الخطبة طالبا منه ان يريجه هو شخصيا وان يريح روما كلها ويرحل الى جيشه الثائر في افروريا !! والغريب ايضا ان كاتيلينا استجاب لهذا المطلب وسافر فعلا الى اتروريا لتنظيم قواته الثائرة هناك ، وهي القوات التي كان يقودها مانليوس ، وحين علم السناتو بذلك اصدر قراره باعتبار الرجلين عدوين للدولة .

وقبل ذلك كان شيشيرون قد القى « الخطبة الثانية ضد كاتيلينا » في اجتماع عام للمواطنين بهدف

بت الطمأنينة في نفوسهم معلنا للمتآمرين انه سوف ينزل اشد انواع العقاب بكل من تحدته نفسه بالقيام بأي عمل من اعمال العنف والشغب .

وطال الانتظار برجال كاتيلينا في العاصمة ، اذ طالعت غيبته في انزوريا ، فأروا البدء بتنفيذ المؤامرة دون انتظار لعودة زعيمهم ، وذلك بأشعال النيران في انحاء العاصمة ، واطلاق العبيد للقيام باعمال السلب والنهب وقتل شيشيرون وعدد من مؤيديه من رجال السناتو ، ثم فتح ابواب العاصمة ليدخلها كاتيلينا بقواته دون عناء .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، ذلك ان بعض سكان ولاية بلاد الغال عبر الالب ، ارسلوا سفراءهم الى السناتو يشكون مما ينزله بهم المرابون الرومان ، لكن احدا لم يستمع اليهم ، فيسوا وهوا بالرجوع الى بلدهم ، وهنا انتهز المتآمرون الفرصة ، فاتصلوا بهم ووعدوهم بحل مشكلتهم اذا هم زودوا جيش كاتيلينا بفرقة من فرسانهم ، فما كان منهم الا ان اتصلوا بشيشيرون وابلغوه بما كان من المتآمرين ، فطلب هذا اليهم التظاهر بالموافقة شريطة ان يعطيهم المتآمرون وثيقة مكتوبة وعليها اختام زعمائهم وكاتيلينا نفسه . . . ووقع المتآمرون في الشرك فحرروا الوثيقة المطلوبة وعليها اختام كاتيلينا وزعماء المؤامرة ، فما كان من شيشيرون الا ان قبض على الموقعين على الوثيقة .

وفي اوائل ديسمبر اجتمع السناتو واستمع اعضاؤه الى القصة كاملة من افواه السفراء ، واعترف المتآمرون امامهم بصحة اختتامهم التي على الوثيقة ، فقرر السناتو تحديد اقامتهم في منازل بعض الشخصيات البارزة ، كان قيصر واحدا منهم - ثم القى شيشيرون الخطبة الثالثة ضد كاتيلينا ليهمم العامة انه بالعمل الذي قام به قد انتقد فقراء العامة من حرق منازلهم وان العناية الالهية هي التي وفقته في كل ما قام به .

وفي الخامس من ديسمبر اجتمع السناتو مرة اخرى لاتخاذ قرار في شأن المحتجزين من المتآمرين ، وبعد مناقشة حامية - شارك فيها قيصر - صدر القرار باعدامهم ، وكان ذلك هو الرأي الذي تحمس له ونادى به الترييون ماركوس كاتو ، ونفذ شيشيرون القرار على الفور ، ووجد قيصر نفسه في موقف لا يحسد عليه ، لانه خطب خطبة طويلة في السناتو تحذر من اعدامهم وتكتفي بنفيهم ومصادرة ممتلكاتهم مراعاة للقواعد الدستورية وهكذا وقعت الخصومة بينه وبين الترييون كاتو ، وهي خصومة سوف نرى لها اثرا كبيرا في السياسة الرومانية عما قليل - وكان هذا هو ابن حفيد كاتو الكبير الذي شهد الحرب البونية الثانية وصاحب العبارة الشهيرة - لا بد من تدمير قرطاجنة - وقد ورث عن جده الاكبر الكثير من صفاته - اما شيشيرون فقد اغدق عليه السناتو لقب « ابو الوطن » ( Pater Patriae ) .

وبعد ذلك ، وعندما تولى الترابنة الجدد مناصبهم في العاشر من شهر ديسمبر عام ٦٣ ق . م . ندد واحد منهم - وهو المدعو نيبوس - بمسلك شيشيرون المجاني للدستور ، وتقدم بمشروع قانون لاستدعاء بومبي وتكليفه مهمة القضاء على كاتيلينا الذي كان لا يزال مع قواته في اتورريا بل وانفاذ الدستور من استبداد شيشيرون ( الذي كانت لا تزال امامه فترة تزيد على اسبوعين حتى تنتهي مدة قنصلتيه ) .  
وانتهز قيصر هذه الفرصة للتقرب من بومبي وكسب وده ، فأيد المشروع ، لكن احد زملاء نيبوس عارضه بشدة ، وثار شغب شديد في العاصمة فأصدر السناتو « قراره النهائي » لحماية الدولة ، وهنا اضطر نيبوس الى الفرار من روما فغادرها ولجأ الى بومبي في الشرق ، وفي خلال هذه الازمة انتهت قنصلية شيشيرون (٥٢) .

ودب اليأس في قلوب اعوان كاتيلينا فاحذوا ينفضون من حوله ، ولما فقد كل امل في دخول روما حاول شق طريقه الى ولاية بلاد الغال عبر الالب ، لكن القوات الحكومية تصدت له وسدت عليه كل السبل واخيرا اكراه على خوض معركة يائسة مع هذه القوات عند بيسطوريا ( بالقرب من فلورنسا ) حيث لقي مصرعه في اوائل يناير من عام ٦٢ ق . م . (٥٣) .

#### الوفاق بين النبلاء والفرسان :

وهكذا خلصت روما من شر مستطير بالقضاء على كاتيلينا ومؤامراته ، وادرك ان ضربا من التفاهم . والوفاق قد تم بين طبقتي الفرسان والنبلاء ، اذ دفن رجال الطبقتين ما بينهما من حقد وبغضاء ، وتعاوننا معا لدفع اخطار المؤامرة ، فرأى ان استمرار هذا الوفاق يكفل دون ريب قيام حكومة قادرة على حماية النظام الجمهوري ، وعلى نشر الهدوء والاستقرار ، وتوفير الحياة الآمنة الكريمة للرومان (٥٤) .

ولتحقيق هذا الهدف ، رأى شيشيرون انه بحاجة الى كسب ود قائد كبير ليتعاون معه في هذا الصدد ، فيحمي مثل هذه الحكومة بعد تشكيلها ولواستخدام القوة اذا لزم الامر . ولم يكن هناك من يفضل بومبي للقيام بهذه المهمة ومن ثم حاول كسبه الى جانبه لاقامة الوفاق المنشود ، لكن بومبي لم يكن صافي النية تجاه شيشيرون لانه انفرذ بالقضاء على مؤامرة كاتيلينا دون ان يستعين بالقائد المظفر 'بومبي' ، ولانه بالغ في التحدث عن نفسه كمنقذ لروما من خطر ماحق كان يتهدهدها ، كأنما يريد ان يجعل من نفسه ندا لبومبي .

Dio Cass., XXXVII, 43; Plu., Cic., XXIII (٥٢)

Sallust., B.C., LVI—LXI, Dio Cass., XXXVII, 39—41 (٥٣)

J.R.S., 1954, pp 1H ; Class. Quart., 1960, pp 46 ff. (٥٤)

لذلك جاء رد بومبي على الرسالة التي بعث بها اليه شيشيرون بشأن الوفاق ، غيبيا تماما لكل آمال هذا الاخير الذي لاذ بالصمت ، ثم قضى النبلاء بعد ذلك على كل ذرة أمل في نجاح الفكرة بالموقف المتعنت الذي اتخذوه لانفسهم تجاه بومبي حين عاد من الشرق على نحو ما سوف نرى .

### بومبي يعود من الشرق :

عاد بومبي من الشرق في اواخر عام ٦٢ ق . م . فأذهل الجميع بمسلكه ، ذلك أنه حين نزل بميناء برنديزي سرح قواته كلها ولم يستبق منها غير حرس قليل العدد احتفظ به الى حين الاحتفال بانتصاراته ، وكان النبلاء بخاصة يعتقدون انه سوف يحتفظ باكمل قواته لعله - استنادا اليها - يفعل ما فعله من قبل - استاذة سلا باعدائه .

ويبدو ان بومبي لم يكن يتطلع حينذاك الى انتهاء نظام الحكم الجمهوري واقامة حكم فردي ، فتلك مغامرة محفوفة بالمخاطر غير مأمونة العواقب ، إنما كان يعتقد أنه أصبح الرجل الوحيد الذي يستطيع انقاذ روما من اي مخاطر او ازمات تتعرض لها وان مقاليد الأمور في الدولة سوف تؤول اليه بطريقة شرعية ودون عناء بعد كل الانتصارات التي حققها وبعد المكانة التي وصل اليها . وحين وصل الى العاصمة واجتمع مجلس السناتو ، التقى على اعضائه خطابا ابرز فيه احترامه الشديد للنبلاء ورغبته في استرضائهم والتفاهم معهم بل انه حاول ان يرتبط مع كاتو الصغير برباط المصاهرة<sup>(٥٥)</sup> ، وضرب صفحا عن كل ما قام به كراسوس ضده اثناء غيبته فادخل الاطمئنان في قلبه الى درجة انه عاد بأسرته الى روما وكان قد غادرها خوفا من الانتقام الذي توقع ان ينزله به بومبي .

لقد كان بومبي لا يريد من السناتو اكثر من التصديق على القرارات التي اتخذها لتنظيم الاوضاع في الشرق ومنع جنده الذين عاد بهم وسرحهم فور وصوله الى ميناء برنديزي اقطاعات زراعية وفق القواعد المتبعة ، والحق انه لم يكن في كلا المطلبين اي اسراف ، خصوصا اذا اخذنا في الاعتبار انه اودع خزانة الدولة بمبالغ ضخمة من الاموال اثر عودته ، وان فتوحاته ضاعفت او كادت مقدار الجزية السنوية التي تحصل عليها الدولة .

لقد كان حريا برجال السناتو - لو انهم اتوا شيئا من بعد النظر - ان ينتهزوا هذه الفرصة التي أتاحتها لهم بومبي على غير توقع منهم فيستجيبوا لمطالبه المعقولة وبالتالي يكسبونه كحليف قوي ومن ثم يصبح سنداً لهم يدفعون به اي شر يراد بالنظام الجمهوري لكنهم كانوا قصيري النظر الى حد بعيد ويبدو انهم

لم يستطيعوا نسيان ما فعله بهم يومي من قبل ، حين أرغمهم على السماح له بتولي القنصلية في عام ٧٠ ق . م ، وحين استغل سلطاته كقنصل وقوض دعائم دستور سلا ، وحين سخر اثنين من ترابنه العامة في عامي ٦٧ ، ٦٦ ق . م ، ليظفر بسلطات هائلة لم يسبق ان منحت لأحد من قبل ، بينما تناسوا تماما انه سرح قواته فور عودته من الشرق ووصله الى شواطئ ايطاليا مع انه كان يستطيع الاحتفاظ بهم واملاء ارادته عليهم .

لذلك صمم رجال السناتو على مناقشة كل التنظيمات التي اجراها في الشرق مناقشة تفصيلية وماتطلوا في منح جنده المسرحين الاقطاعات الزراعية التي طلبها لهم حتى لقد انتهى عام ٦١ ق . م . دون تحقيق شيء من مطالب يومي ، وهكذا ظن النبلاء انهم قد انتصروا عليه وظهره بمظهر العجز امام جنده لكنهم كانوا واهمين !

#### عودة قيصر من اسبانيا :

ذكروا من قبل ان قيصر شغل منصب البرايكتور في عام ٦٢ ق . م . وبعد ذلك تولى حكم ولاية اسبانيا القاصية بوصفه برايتورا سابقا - في عام ٦١ ق . م . واستطاع وهو يجارس الحكم هناك ان يقوم ببعض الحملات الناجحة على حدود الولاية فتهيات له فرصة جمع الاموال اللازمة لتسديد الديون التي تراكمت عليه .

وعاد بعد ذلك الى روما في شهر يونيه عام ٦٠ ق . م . فوجد النزاع محتدما بين يومي والنبلاء ، وتقدم للسناتو قبل ان يدخل العاصمة بمطليين هما اقامة موكب للانتصارات التي احرزها ، وترشيح نفسه لمنصب القنصلية لعام ٥٩ ق . م . لكن السناتو ماطل في الاستجابة لمطلب دخوله العاصمة في موكب رسمي ، ولم يوافق على ترشيحه للقنصلية وهو غائب عن العاصمة فما كان منه الا ان تنازل عن اقامة الموكب وتحظى سجاج مدينة روما وقدم ترشيحه لمنصب القنصلية بنفسه فلما اجريت الانتخابات فاز فوزا كبيرا بفضل التأييد الذي لقيه من كراسوس ويومي وانصارهما وفاز معه بالمنصب الثاني مرشح الحزب الارستقراطي وهو بيبولوس (M.Bibulus) زوج ابنة كاتو .

ولقد كان في وسع السناتو في هذه الظروف الحرجة - لو اصطنع رجاله قدرا من الحكمة واتبعوا سياسة عملية - ان يستجيبوا لرغبة قيصر في ترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب خارج العاصمة ( In Absentia ) ، فلذلك سوابق معروفة ، لكنهم ركبوا رؤوسهم فرفضوا بهدف اضاعة فرصة الترشيح عليه !

وهكذا جر النبلاء على انفسهم كل البلاء فقد اغضبوا بحمقهم ونزقهم كلا من بومبي وقيصر اذ رفضوا مطالبهم ، كما اغضبوا من قبل كراسوس ومعه طبقة الفرسان على نحو ما اوضحنا ، واعتقدوا انهم انتصروا على اعدائهم جميعا وان الامور قد استتب لهم .

### التحالف الثلاثي وبداية انهيار النظام الجمهوري (٥٦) :

كان طبيعيا ان يدفع موقف النبلاء المتعنت كلا من بومبي وقيصر وكراسوس الى الارتقاء في احضان العامة ، ولقد شكل هؤلاء الثلاثة تحالفا ( غير رسمي ) يجمع بينهم ، وهو التحالف الذي يطلق عليه بعض الباحثين اسم « الحكومة الثلاثية الاولى » تميزا له عن التحالف الرسمي الذي ابرم في عام ٤٣ ق . م ، بين اوكتافيوس وانطونيوس وليبيدوس ، والذي صدر بتشكيله قانون خاص ، وتألفت بموجبه « الحكومة الثلاثية الثانية » .

ويطلق الكتاب القدامى على التحالف الذي بدأ سريا بين بومبي وزميله اسم « تحالف القوة » احيانا ، كما يطلقون عليه اسم « المؤامرة » او « الطغیان » احيانا اخرى ، وسبب ذلك ان المتحالفين الثلاثة سرعان ما لجأوا الى القوة المسلحة او الى التهديد باستخدامها لتحقيق اهدافهم وفرض ارادتهم على الدولة ، بل ولتحظيم السناتو وارهاب الجمعيات الشعبية وتسخير الترابنة لتنفيذ ما يريدون .

لقد بات كل شيء في الدولة رهنا بمشيئتهم ولذلك تعتبر قيام هذا التحالف بمثابة البداية الفعلية لانهيار النظام الجمهوري .

وأغلب الظن ان صاحب فكرة قيام هذا التحالف كان قيصر الذي لم يجد صعوبة في التفاهم مع كل من بومبي وكراسوس ، فبفضل التحالف بينهم سوف يستطيع الاول تحقيق مطلبه للذين رفضها السناتو على نحو ما اوضحنا وسوف يتمكن الثاني من اعادة النظر في عقد شركة جباة الضرائب الذين التزموا بجبايتهم من ولاية اسيا . اما قيصر - صاحب الفكرة - فلسوف يفيد من مكانة بومبي الرفيعة ومن كراسوس العريض لتحقيق الاهداف الخاصة التي رسمها لنفسه . واذا كان قيصر هو صاحب الفكرة ، الا انه ارضاء لغرور بومبي ، اوهمه بانه هو صاحب الكلمة الاولى والاخيرة في التحالف ، بينما كان قيصر في واقع الامر هو العقل المدبر في التحالف ورئيسه الفعلي . ولقد حاول قيصر اعانعا في توطيد اركان التحالف ان يضم اليه شيشيرون للافادة من مواهبه الخطابة العالية ومن مكانته السامية

( ٥٦ ) م هذا التحالف السري الذي يسمى احيانا الحكومة الثلاثية الاولى ، راجع .

Hietland, Rom. Rep., III, pp 123 — 124, J. Balsdon, J.R.S., 1939, pp. 180ff., C.A H., IX, pp. 512 — 515

بين الايطاليين عموما ، لكنه عجز عن تحقيق ذلك لتمسك شيشيرون الشديد بالقواعد الدستورية ولولائه واخلاصه الكاملين للنظام الجمهوري<sup>(٥٧)</sup> .

### قانون قيصر للاراضي بنفذ بالقوة :

وما ان تولى قيصر منصب القنصلية في عام ٥٩ ق . م حتى تقدم بمشروع قانون للاراضي ( Lex Julia Agraria ) ، يقضي بتوزيع اقطاعات من الاراضي الصالحة للزراعة على جند يوميي المسرحين والمواطنين المعلمين ، على ان يتفق جانب من الاموال التي عاد بها يوميي من الشرق لشراء مساحات من الاراضي الخاصة ، تكفي لتنفيذ المشروع الذي انيط بهيئة مكونة من عشرين شخصا ليس بينهم قيصر<sup>(٥٨)</sup> .

لكن كاتوعارض المشروع بكل قوته ، وأيده النبلاء في السناتو ، فما كان من قيصر الا ان تقدم بمشروعه للجمعية القبلية ، ولم يتقدم بعد ذلك بأي مشروع من مشروعاته الى السناتو على الاطلاق ، واصاف للمشروع بندا يقضي بنفي اي عضو من اعضاء السناتو لا يقسم - خلال فترة معينة - على احترام المشروع بعد ان يصبح قانونا نافذا في حالة موافقة الجمعية القبلية عليه .

وهنا انبرى بيبولوس - زميل قيصر في القنصلية - وكذلك كاتو ومعها بعض الترابنة ، لمعارضة المشروع بكل عنف ، فما كان من قيصر الا أن اتفق مع يوميي على ان يحشد جنده المسرحين يوم التصويت على المشروع لطرد المعارضين بالقوة من السوق العامة حيث كان الاجتماع ، وامام هذه القوة العسكرية ذابت المعارضة ، واخذت الاصوات فتحت الموافقة على المشروع واصبح قانونا نافذا رغم انف السناتو والمعارضين جميعا ، ولم يجرؤ احد من اعضاء السناتو على عدم حلف اليمين المنصوص عليه في القانون<sup>(٥٩)</sup> .

وقد تبينت اللجنة المكلفة بتنفيذ القانون ان الاراضي المنصوص عليها فيه لا تفي بالحاجة ، فاقترح قيصر في شهر مايو من نفس عام قنصليته ، مشروعا تكميليا يقضي بتوزيع الاراضي العامة في كمبانيا على فقراء المواطنين ، وقد صودق على هذا المشروع واصبح قانونا ( Lex Julia & Campana ) ، ووزعت الاراضي على الاسر التي بها ثلاثة ابناء على قيد الحياة<sup>(٦٠)</sup> ويحدثنا سوتونيوس ان هذه الاسر

Cic., ad Att., II, 18,3; Plut., Cic., XXX,9 — 12 (٥٧)

Plut., Caes., XIV, 5; Cato, inor, XXXII; Dio Cass. XXXVIII. (٥٨)

Dio Cadd., XXXVIII, 7,3. (٦٠)



بلغت عشرين ألف اسيرة<sup>(٦١)</sup> . اما المؤرخ بلوتارخوس<sup>(٦٢)</sup> . فيقول ان اراضي كامبانيا قد وزعت بمقتضى هذا القانون على الجنود ، بينما يقول شيشرون<sup>(٦٣)</sup> - الذي عاصر صدور القانون - ان جانباً من هذه الاراضي قد اعطى لجند بومبي المسرحين ، مما يوحي بان جميع جند بومبي المسرحين لم يظفروا بالاراضي بناء على القانون الاول .

### قوانين اخرى يوحي بها قيصر :

لقد تحقق بفضل هذين القانونين المكملين لبعضهما المطلب الاول لبومبي ، وهو منح اقطاعات لجند المسرحين ، وبقي المطلب الثاني ، وهو التصديق على القرارات التي اصدرها لتنظيم الشئون في الشرق ، وكذلك بقي مطلب كراسوس الخاص بتخفيض قيمة الضرائب التي التزم بها الذين رسا عليهم مزاد الجباية في ولاية اسيا . وقد اوصى قيصر الى زميله في التريبونية - وكان من اكبر مؤيديه - بوبيليوس فاتينيوس باستصدار القوانين التي تحقق هذه المطالب كلها ، واستجاب بوبيليوس فاستصدر مجموعة من القوانين كان احدها خاصا بالتصديق على التنظيمات التي اجراها بومبي في الشرق ، وقضى قانون اخر بتخفيض المبالغ التي تعاقدت عليها شركة جباية ضرائب ولاية اسيا بمقدار الثلث<sup>(٦٤)</sup> ، اما القانون الثالث فكان يقضي بالاعتراف بببليوس الثاني عشر (الزمار) ملكا على مصر<sup>(٦٥)</sup> ، ويقال ان الزمار دفع لقيصر وبومبي رشوة هائلة لقاء هذا الاعتراف ، وانه عجز عن سداها كاملة قبل وفاته<sup>(٦٦)</sup> .

وهكذا ارضى قيصر حليفه تمام الرضى ، وخدم مصالح كل من طبقتي الفرسان والشعبين ، ولم يبق الا ان يفكر في نفسه ومصالحه هو ، وهكذا انكشف تماما امر التحالف الثلاثي الذي عقد بين اعضائه سرا ، واصبح امره معروفا واضحا .

واوصى قيصر الى زميله بوبيليوس باستصدار قانون من الجمعية القبلية يقضي باسناد حكم ولاية بلاد الغال جنوب الالب ( Galia Cisalpina ) الى قيصر لمدة خمسة اعوام تبدأ من شهر مارس عام

(٦١) Suer., Div. Jul., XX, 3.

Plut., Cic., XXVI, 3. (٦٢)

Cic., ad Att., XVI, 8, 1. (٦٣)

Dio Cass., XXXVIII, 7; App., B. C., II, 13. (٦٤)

(٦٥) كان الزمار قد اعلن عرش مصر بعد ابيه في عام ٨٠ ق م واضع حينذاك ان ذلك الال ( بطليموس الحادي عشر ) قد اوردت مصر لروما بموجب وصية لم تلت صحتها ولم يثبت بعلابا ، وامعن السناتورى التسوفى في الاعتراف بالزمار ليشع اعضاء جشهم من رشاية ، اد اراه مسرفا في التكاليف على ارضائهم بشئ السبل في سبل الحصول على الاعتراف به ملكا على مصر ولا سيما بعد ان تقدم واحد من القرابة - بايعاز من كراسوس - بمشروع لنصم مصر الى المستلكات الرومانية .

Suer., Dio. Jul., LIV, 3. (٦٦)

٥٩ ق . م . ( اي بعد شهرين اثنين فقط من بدء قنصليته !! ) وبأن توضع تحت امرته ثلاث فرق عسكرية ، وتطلق يده في اختيار مساعديه دون الرجوع الى السناتو ، وان يكون له الحق في انشاء ما يرى من مستعمرات . وتم ذلك فعلا ، وصدر القانون من الجمعية القبلية لا من السناتو ، ثم انه كان يعطي قيصر حكم الولاية وهو لا يزال قنصلا لا بعد انتهاء عام القنصلية ، ولمدة خمس سنوات متصلة لا لمدة عام واحد يجوز تجديده كما كانت القواعد المتبعة ، وتلك كلها امور تنطوي على خرق فاضح للدستور .

وليس من شك في ان قيصر قد فكر مليا في امر الولاية التي يتطلع الى حكمها بعد انتهاء قنصليته ، وان اختياره وقع على ولاية بلاد الغال جنوب الالب ، فهي ولاية غنية ، وهي اصلح الممتلكات الرومانية لتجنيد القوات العسكرية ، وهي غير بعيدة عن روما . وهكذا كان الظفر بحكم هذه الولاية يتيح لقيصر فرصة تجنيد القوات التي يريدونها دون عناء ، كما يتيح له تولي قيادة عسكرية كبيرة على مقربة من العاصمة بحيث يستطيع ان يصل اليها بسرعة ودون اصابة وقت طويل اذا لزم الامر .

وبعد فترة قصيرة اوعز بومبي الى السناتو اصدار قرار يقضي باسناد حكم ولاية بلاد الغال عبر الالب ايضا الى قيصر التي توفي حاكمها ، على ان يزداد عدد الفرق العسكرية الى اربع ( بدلا من ثلاث كما ذكرنا ) ، وصدر القرار فعلا ، فاتسع نطاق المهمة التي اوكلت لقيصر ، واعتقد السناتو انه قد يعجز عن ادائها ، فبنتهي امره دون عناء<sup>(٦٧)</sup> . لكن اعتقادهم كان خاطئا ، ولسوف نرى ان اسناد حكم هذه الولاية ( غاله عبر الالب ) الى قيصر هو الذي هيا له فرصة بناء جيش قوي عالي التدريب ، ثم هيا له - تبعا لذلك - بناء مجد عسكري هائل يتضاهل الى جواره المجد الذي حققه بومبي نفسه .

واذا كان قيصر قد استصدر من القوانين ما يحقق امال اعضاء التحالف الثلاثي ، وما يخدم مصالح طبقي الفرسان والشعبيين ، فمن الانصاف ان نذكر له في هذا الصدد انه استصدر قانونا اخر لم يكن له من ورائه اي هدف غير خدمة المصلحة العامة ، ذلك هو القانون الذي صدر للحيلولة دون ابتزاز الاموال من اهالي الولايات ، وفيه جمع قيصر كل ما صدر قبله في هذا الصدد ، وسد كل ما كان هناك من ثغرات في القوانين السابقة ، فوضع قواعد محددة لمنع التزويد في الحسابات الحكومية الرسمية ، وفرض عقوبات صارمة رادعة على المخالفين ، وهو القانون الذي عرف باسم ( Lex Julia de Repetundis )<sup>(٦٨)</sup> .

Dio Cass., XXXVIII, 5., Plut., Caes., XIV, 6. (٦٧)

Hierland, Rom. Rep., III, p. 144 (٦٨)

وكذلك قام قيصر بعمل جليل آخر ، وهو ذلك القرار الذي اصدره وكان يقضي بأن تنشر على الشعب يوميا نسخ من القرارات التي يصدرها السناتو او تصدرها الجمعيات الشعبية الاخرى<sup>(٧٩)</sup> . وواضح ان الهدف كان نشر قرارات السناتو على افراد الشعب ، لأن قرارات الجمعيات الشعبية الاخرى كانت تصدر عن الشعب نفسه ، فهو يعرفها تمام المعرفة ، اما السناتو فكانت قراراته تصدر بتوقيع رئيسه وشهادة بعض اعضائه ، ثم ترسل بعد ذلك الى دار المحفوظات لايداعها هناك دون ان يطلع عليها احد ، الامر الذي جعل اجراء اي تحريف او تزيف فيها امرا ميسورا . فقرار قيصر اذا كان يعني ايجاد سجل رسمي علني لقرارات السناتو ، او ايجاد ما يمكن ان نسميه بتعريفنا الحديث « جريدة رسمية » . ولاشك ان هذا القرار قد سبب ضيقا بالغالاعضاء السناتو ووضعهم امام الشعب في قيد شديد لا يستطيعون معه ممارسة اي تزيف او تغيير في قرارات مجلسهم لما كانوا يفعلون وقد ظل قرار قيصر هذا معمولا به حتى ايام اوغسطس الذي حاول استرضاء رجال السناتو بعد ان ولى الحكم ، فأعفاهم من نشر قراراتهم على الشعب<sup>(٨٠)</sup> .

وبعد - فلقد غدا قيصر قوة هائلة في روما في اواخر عام قنصلتيه (٥٩ ق . م ) فهو يتمتع بسلطة القنصل وسلطة البروقنصل معا ، وذلك وضع يسمح له بالاحتفاظ بقواته العسكرية في اي مكان من شبه الجزيرة الايطالية ما دام خارج سور العاصمة ، وبالتالي يتيح له السيطرة الكاملة على مجريات الامور السياسية في الدولة ، فضلا عن ان منحه السلطة البروقنصلية طيلة اعوام خسة جعله في مأمن من التعرض للمحاسبة على اي تصرفات غير دستورية قد يقوم بها في خلال عام قنصلتيه .

والحق ان هذا التحالف الثلاثي قد جعل من اطرافه الثلاثة قوة تعلو على اية هيئة حكومية ، فقد اصبحت الامبراطورية ومقدراتها كلها في قبضتهم ، بل ان هذا التحالف يعتبر - كما رأى شيشيرون وكاتو- السبب الرئيسي لاشتعال نيران الحرب الاهلية في روما ، ومن ثم انتهاء النظام الجمهوري : فهؤلاء ثلاثة رجال يستندون الى قوة السلاح التي وضعت في قبضة واحد منهم ، هو قيصر ، كما يستندون الى تأييد كاسح من جانب الشعبين وكثير من الفرسان ، فاستطاعوا ان يحطموا السناتو ، وان يجرموا اصحاب الرأي حرية الكلمة ، بل ويسلبوهم كرامتهم .

### قيصر يرتب الأمور قبل ان يبرح روما :

كانت أساليب الحلفاء الثلاثة في البطش بمعارضهم كفيلة باثارة الكثيرين ، فبدأوا بتهامسون عنهم

Suer , Div, Jul , XX, I, (٧٩)

Suer , Div Aug., XXXVI (٨٠)

وعن تصرفاتهم ، بل ان البعض لم يتحرج من ابداء معارضته علانية في المسرح اثناء العروض ، فاذا بالنظارة من شعبين وفرسان يصفقون ويهللون لهذه المعارضة<sup>(٧١)</sup> ، - بعد ان كانوا من المؤيدين للحلفاء - مما دفع هؤلاء الى تهديد الفرسان بحرمانهم من المقاعد الممتازة المخصصة لهم في المسرح ، كما هدّدوا الشعبين بحرمانهم من شراء القمح بالاسعار الحكومية الزهيدة ، فلزم هؤلاء وهؤلاء الصمت واثروا المنافع العاجلة التي كانوا يحصلون عليها<sup>(٧٢)</sup> .

هكذا كان القلق الشديد هو السمة البارزة للاوضاع في روما ، ويبدو ان مظاهر الاحتجاج هذه قد شغلت بال بومبي ، خصوصا وقد ابدى شيشيرون وكانو - وهما اكبر اعداء التحالف ورجاله الثلاثة - اسفهم الشديد على المدى الذي انحدرت اليه الاوضاع في عاصمة الجمهورية<sup>(٧٣)</sup> .

ورأى قيصر - امام هذه الحال - ان يتخذ من الخطوات ما يكفل اطمئنانا على الاوضاع اثناء غيابه عن روما ، فزوج ابنته الوحيدة - يوليا Julia - من بومبي بعد ان فسخ خطبتها التي تمت قبل ذلك الى رجل آخر ، فكان ذلك الزواج سببا في استمرار علاقات الود والتحالف بين قيصر وبومبي الى حين وفاة يوليا في عام ٥٤ ق . م .

وكان الحلفاء الثلاثة قد اتفقوا على ان يتولى القنصلية في عام ٥٨ ق . م كل من جابينيوس ، وهو احد صنائع بومبي الكبار ، وكالپورنيوس بيسو الذي رأى كقيصر ان يربطه اليه برباط وثيق حتى يضمن اخلاصه له فتزوج من ابنته كالپورنيا بعد ان فسخ خطبتها المعقودة لرجل آخر<sup>(٧٤)</sup> .

وبعد ذلك فكر قيصر في خليفة للثريون فاتيبيوس ، معاونه الكبير ، كي يقوم بنفس دور سلفه في تنفيذ اهداف الحلفاء الثلاثة ، فوقع اختياره على شاب عابث يدعى كلوديوس ،<sup>(٧٥)</sup> كان يضمّر حقدًا شديدًا وكراهية بالغة لشيثيرون الذي يتمنى الحلفاء ان يتخلصوا منه ومن معارضته الشديدة .

وجرت انتخابات القنصلية ففاز مرشحا الحلفاء ، جابينيوس وبيسو ، وكذلك فاز معظم من رشحوهم لمناصب الثريونية وعلى رأسهم كلوديوس الذي رسم له قيصر الخطة التي ينبغي ان يتبعها ،

(٧١) Cic., ad Att., II, 18; 19; 20. (٧٢)

C.A.H., IX, p. 520, Cic., ad Att., II, 19 (٧٣)

Dio Cass., XXXVIII, 10, 4—11. (٧٤)

Suer., Div. Jul., XXI; Plu., Caes. XIV, 4—5; Po.p., XLVII, 6. (٧٥)

(٧٥) كان كلوديوس هذا من اشد اعداء شيثيرون لأن هذا شهد غنمه في لفظة اثم معها بارتكاب فعل فاضح وابتهاك الشعائر الدينية ، وكان ينتمي الى طبقة البلاء ، ولا بد لتفريجه للثريونية ان يكون متفها الى العامة ، لذا سعى قيصر حتى اتق احد رجال العامة بنيه ، فاستجاب لذلك ، وهكذا امكن ترشيح كلوديوس للثريونية وهار بها ، والغريب ان الذي تآمر كان اصغر منه سنا ( Cf. Hietland, Rom. Tep. III, p.133. )

وافهمه ان الفصلين سوف يكونان عوناً له على ان يخصص لهما ولايتي سوريا ( لجابينوس ) ومقدونيا ( لبيسو ) بدلا من الولايتين التافهتين اللتين خصصهما لهما السنا٧٦٠ ) .

وما ان اعلى كلوديوس منصب التريبونية حتى استصدر في شهر يناير من عام ٥٨ ق . م . اربعة قوانين كانت كلها تستهدف خدمة مصالح الخلفاء الثلاثة ، وقد حاول شيشيرون ان يعطل صدورها مستعينا بتريون آخر كان صديقا حميلا له ، وهو المدعو كوادراتوس ، لكن هذا سرعان ما تخلى عن التصدي لمشروعات كلوديوس الذي استماله الى جانبه بوعده كاذب بألا يمس شيشيرون بأي سوء<sup>(٧٧)</sup> .

### قوانين كلوديوس :

وكان اول هذه القوانين يقضي بان تتنازل الحكومة عن المبلغ الضئيل الذي كان لابد من دفعه نظير الحصول على الحصة المقررة من الغلال شهريا ، وكان طبيعيا ان يهمل الشعبون لهذا القانون ، وان يكنوا اعظم العرفان والحب لكلوديوس ، وبالتالي تثبيت مكانته في نفوسهم ، كي تتاح له السيطرة على الموقف في روما ابان غيبة قيصر .

واما القانون الثاني فكان يهدف الى خلق اداة سياسية فعالة يمكن ان يستند اليها كلوديوس للوقوف في وجه معارضيه ، وتفصيل ذلك ان السنا٧٦٠ كان قد اصدر في عام ٦٤ ق . م . قرارا يقضي بحل الجمعيات التي شكلها المتعطلون في روما ووضعوها في خدمة السياسيين الراغبين في اثاره الشغب ، فتسببت هذه الجمعيات بممارساتها الفوضوية في اضطراب شديد في جبل الامن بالعاصمة ، ولذلك تقرر الغاؤها .

وجاء كلوديوس بقانونه الثاني هذا فاباح تكوينها من جديد ، وعلى الفور تشكل عدد كبير منها ، وكلها لا تضم سوى الدماء والبيد واسوأ العناصر التي تميل الى اثاره الشغب واحلال الفوضى ، وغدت هذه الجمعيات اداة طيبة في قبضة كلوديوس بحركتها كيف يشاء لمصلحته الخاصة ، بل لعلنا نقول انها كانت اداة ارباب في يده اخضع بها العاصمة لارادته .

وكان القانون الثالث يحرم طرد اي عضو من السنا٧٦٠ الا بعد اجراء فحص دقيق لحالته ، يقوم به الرقيبان ( الكنسوران ) ، وبعد محاكمته وصدور الحكم عليه بالادانة ، وهدف كلوديوس من هذا القانون كان دون شك ان يضمن لنفسه الاحتفاظ بعضوية السنا٧٦٠ .

Plut , Cic., XXX, 1; Caes., XIV, 9; Heitland, Rom. Rep., III, pp. 140 ff. (٧٦)

Dio Cass., XXXVIII, 13 (٧٧)

وأما القانون الرابع فكان يقضي بقصر حق فض جلسات الجمعية القبلية او الجمعية المثوية بحجة ظهور طالع نحس ، على الترابنة والعرافين فقط دون بقية الحكام كما كان الحال ولا ريب ان هدف كلوديوس من استصدار هذا القانون كان الحيلولة دون اللجوء الى هذه الحجة لتعطيل مشروع القانون الذي تقدم به بعد ذلك في شهر فبراير ( وربما في شهر مارس ) من عام ٥٨ ق . م . لنفي كل من اعدم او يعدم مواطنا رومانيا دون محاكمة قانونية ، ولا شك انه كان يقصد نفي شيشيرون عدو قيصر اللدود ، الذي فشلت معه كل محاولات هذا الاخير لكسبه الى جانبه يوم عرض عليه عضوية لجنة الاراضي فرفضها<sup>(٧٨)</sup> كما فشل في إبعاده عن روما يوم عرض عليه تعيينه مساعدا له يصبح له الحارح ، فرفض أيضا<sup>(٧٩)</sup> .

وقد بذل شيشيرون كل ما في وسعه لمنع الموافقة على هذا القانون لادراكه التام انه هو المقصود بالذات لنفيه خارج روما ، والحق انه لقي عطفا واضحا من النبلاء والفرسان والايطاليين عموما ، لكن احدا لم يجرؤ على القيام بعمل ايجابي لانقاذه ، فقيصر بقواته المسلحة لا يزال على مقربة من روما ، وكلوديوس موجود في قلبها ، وتحت امرته الجمعيات الفوضوية التي كانت كالعصابات المسلحة ، هذا الى جانب ان كراسوس كان يمتق شيشيرون مقنا عميقا .

اما بومبي - وهو صديق لشيشيرون - فقد احس بالحرج البالغ تجاه صديقه لعجزه عن مساعدته في هذا المأزق الذي وضع فيه ، لدرجة انه تهرب من مقابلته ، واما قيصر فقد نصحه بمغادرة ايطاليا كلها ابقاء على حياته ، وحتى القنصلان لم يقوما بأي عمل على الاطلاق خوفا من قيصر وكلوديوس .

### شيشيرون يغادر روما :

واحس شيشيرون بان القانون سوف يصدر لا محالة ، فاستجاب لنصيحة صديقه كاتو وعدد اخر من احبائه المخلصين وخرج من روما بليل ، وفي الصباح التالي لخروجه ، ووفق على المشروع واصبح قانونا واجب النفاذ . . وبعد ايام معدودات استصدر كلوديوس قانونا اخر يجرم على شيشيرون الإقامة في اي مكان لا يبعد عن روما بمسافة تقل عن ثمانمائة كيلومترا<sup>(٨٠)</sup> .

وهكذا خرج « ابو الوطن » من الوطن منفيا ، وصودرت ممتلكاته ودمرت بيوته ، وبقي في منفا حتى صيف عام ٥٧ ق . م . ثم استدعي للعودة على نحو ما سوف نرى .

Cic., ad Att., IX, 2 a. (٧٨)

Plut., Cic., XXX, 2 — 3.; Cic., ad Att., II, 18, 3. (٧٩)

Dio Cass., XXXVIII, 13, 3 — 17; Plut., Cic. XXX — XXXII; Po.p., XLVI; Cato, Inor., XXXV; App., B.C., II, 15; (٨٠)

Cic., ad Att., II, 18 — 25; III, 15, 2.

اما كاتو - صديق شيشيرون وعدو الحلفاء الثلاثة - فكان قد انتخب لوظيفة الكوايستورية ، وانيطت به مهمة اقناع بطله بيوس حاكم قبرص - وهو اخو الزمار ملك مصر - بالتنازل عن الجزيرة للشعب الروماني بعد ان استصدر كلوديوس قانونا يقضي بضمها الى الممتلكات الرومانية ، وقد صدر هذا التكليف بقرار من الجمعية القبلية ، فلم يجد كاتو مفرا من الاستجابة لقرار الشعب وقام بالمهمة ، وبذل عناية كبيرة في حصر كنوز الجزيرة ، ولم يعد الى روما قبل عام ٥٦ ق . م (٨١) .

هكذا استصدر كلوديوس ما شاء من قرارات ، وهكذا ايضا اكراه شيشيرون على الخروج من روما ، كما افلح في ابعاد كاتو عنها ، فخلا له الجو تماما . و اراد بعد ذلك ان يكافئ القنصلين نظير مساعدتهما له ، وتنفيدا لاتفاقه مع قيصر كما ذكرنا ، فاستصدر قانونا باسناد حكم ولاية سوريا الى جابينيوس ، وحكم ولاية مقدونيا الى بيسو بعد انتهاء قنصليتهما ( عام ٥٧ ق . م ) والحق انه اصبح صاحب الكلمة العليا في الدولة بعد رحيل قيصر بقواته .

وحدث ان شعر بومبي بندم شديد لتخليه عن صديقه شيشيرون وهو في محنته التي تحدتثنا عنها ، فبدأ يفكر في استدعائه من منفاه ، ولكن كلوريوس احس بذلك ، فبا كان منه الا ان دبس هروب تيجرانيس الصغير ابن ملك ارمينيا الذي كان بومبي قد اودعه رهينة لدى البرايور فلامينيوس ، وقد اثار ذلك التدبير جابينيوس اشد الاثارة واعتبره تحديا صارخا لبومبي ، واخذ كلوديوس عليه مؤاخذه عنيفة فاذا يكيل الاهانات للقنصل ويحطم اشاراته الرسمية ، بل انه لم يتورع عن توجيه الاهانات الى بومبي نفسه على الملأ ، فأثر هذا الاعتكاف في منزله حتى تنتهي تريبونية كلوديوس (٨٢) .

وشهد عام ٥٧ ق . م . بعد انتهاء تريبونية كلوديوس - صراعا دمويا عنيفا بين كلوديوس وواحد من الترابنة الجدد ، وهو ميلو ، الذي لم يكن يقل عن سلفه جرأة وتبجحا ، فانتهم بومبي هذه الفرصة وشجعه على مواجهة عنف كلوديوس بعنف مثله ، فاذا بالدماء تسيل ، بين انصار التريبون الحالي والتريبون السابق ، في شوارع العاصمة وسوقها العامة (٨٣) .

### عودة شيشيرون :

كذلك شهد نفس العام استدعاء شيشيرون من منفاه ، فقد كان احد القنصلين - وهو لينتولوس

(٨١) كان هدف كلوديوس هو ابعاد كاتو عن روما ، بعد ان رأى شيشيرون حازمها ، ولهذا كلف هو كاتو القيام بالمهمة ، لكن كاتو رفض ، واستصدر كلوديوس من الجمعية القبلية قرارا بتكليفه ، وما لم يستطع كاتو الا ان يستصحب لربعة الشعب المنحلة في قرار الجمعية القبلية

Cf. Plut., Cat. minor. XXXIV—XL; Dio Cass., XXXIX, 22—23; C A H IX, p. 527, Hietland, Rom. Rep., III, pp. 150 ff

Plut., Pomp., XLVIII—XLIX; Dio Cass., XXXVIII, 30 (٨٢)

Dio Cass., XXXIX, 6—8. (٨٣)

سينثر - واحد الترابنة الجدد - وهوسستوس - صديقين حميمين لشيشيرون ، وكان بومبي يريد ان يعود صديقه شيشيرون من المنفى ، ولذلك زار جنده المسرحين في كابوا ، ودعاهم لمساعدته اذا لزم الامر ، ثم تقدم سينثر الى السناتو بمشروع قانون يقضي بالسماح لشيشيرون بالعودة من المنفى ، فوافق اعضاؤه بالاجماع باستثناء كلوديوس وحده بطبيعة الحال ، وبرغم كل التهديدات التي اطلقها كلوديوس ، وبرغم كل اعمال العنف والشغب التي دبرها ، فقد عاد شيشيرون الى روما واستقبل فيها استقبالا حافلا<sup>(٨٤)</sup> .

واثر عودته ببضعة ايام ، نزلت بروما ازمة غلال شديدة ، دفعت الجموع الى التظاهر حول السناتو وتهديد اعضائه بالقتل واحراق المباني العامة ، فتقدم شيشيرون الى المجلس بمشروع قانون يقضي بتعين بومبي مشرفا على التموين لسنوات خمس ، مع منحه سلطة بروتقصلية تعطيه حق الرقابة على الاسواق وعلى تجارة القمح في جميع ارجاء الامبراطورية وكذلك سلطة شراء اي كميات من الغلال ، مع توفير السفن اللازمة لنقلها الى روما ، وقد وافق السناتو على المشروع وصدر به قانون من الجمعية الثوية<sup>(٨٥)</sup> ، وعلى اثر ذلك زار بومبي بنفسه صقلية وسردينيا وولاية افريقيا ، وجمع كميات هائلة من القمح ، ثم نقلها الى روما ففضى على الازمة سريعا<sup>(٨٦)</sup> .

#### مؤتمر لوكا :

الواقع ان التحالف الثلاثي بدأ يتصدع بعد خروج قيصر الى ولايته ، ذلك ان كراسوس كان يتطلع الى الظفر لنفسه بمجد عسكري كالذي ظفر به قيصر في بلاد الغال ، كما ملأت نفسه الغيرة من السلطات التي منحت لبومبي لتخليص روما من ازمة الغلال ، فأحس بانه الطرف المهضوم في التحالف ، وناقش بومبي منافسة شديدة للفوز بمهمة اعادة بطليموس الزمار الى عرشه في الاسكندرية بعد ان لجأ الى روما هاربا من شعبه الذي سخط عليه اشد السخط لتنازله عن جزيرة قبرص للرومان . وهكذا بدأت الهوة تتسع بين كراسوس وبومبي ، كذلك كان بومبي غير مرتاح لقيصر وتصرفاته ولا سببا بعد ان ورطه معه في عملية ابعاد شيشيرون عن روما .

على هذا النحو بدأت نذر الاخطار تتجمع في العاصمة ، واحس قيصر بأن التحالف بينه وبين زميله يوشك ان ينهار ، فدعاهما للاجتماع به في مدينة لوكا الواقعة في شمال انزوريا على الحدود الجنوبية لولاية بلاد الغال القريبة ( جنوب الالب ) وقد استجاب كلاهما له وسافرا اليه يصحبهما عدد كبير من اعضاء مجلس السناتو ، وكان ذلك في شهر ابريل عام ٥٦ ق . م .

(٨٤) & Plut., Cic., XXXIII: Cic., ad Att., IV; Liv., Ept., CIV.

(٨٥) Cic., ad Att., IV, 1; Dio Cass., XXXIX.

(٨٦) Plut., Pl.p., L.



وفي هذا المؤتمر الذي جمع الرجال الثلاثة تم التفاهم بينهم على رآب الصدع الذي اصاب تحالفهم ، واتفقوا على ان يرشح بومبي وكراسوس نفسيهما لقنصلية عام ٥٥ ق . م وبعد انتهاء عام القنصلية يتولى بومبي حكم ولايتي اسبانيا ( القاصية والدانية ) خمسة اعوام ، ويتولى كراسوس حكم ولاية سوريا لخمس اعوام كذلك ، اما بالنسبة لقيصر فقد اتفقوا على ان يمدد له حكمه في بلاد الغال خمس سنوات ايضاً<sup>(٨٧)</sup> .

#### بومبي يحتوي شيشيرون :

كان شقيق شيشيرون - وهو المدعو كوينتوس ، يعمل مساعدا لبومبي في مهمة انقاذ روما من ازمة الفصح التي نزلت بها ، وقد شهد معه مؤتمر لوكا ، وفي اثناء عودتها الى روما قال بومبي لكوينتوس انه تعهد لخليفه باقناع شيشيرون بالكف عن المعارضة الشديدة التي يمارسها ضد سياسة الحلف ، وطلب اليه ان يحذر اخاه من مغبة الاستمرار في مسلكه هذا ، وان يفهمه ان اعادته من المنفى لم تتم الا بعد الحصول على موافقة قيصر الذي اشترط الا يهاجم شيشيرون تشريعاته<sup>(٨٨)</sup> .

وابلغ كوينتوس اخاه كل ما دار بينه وبين بومبي من حديث ، فأدرك شيشيرون ان هذا الحديث كان بمثابة تحذير له ، كما اصبحت واضحة له ان سياسة المعارضة التي يسلكها سوف تعيده الى المنفى مرة اخرى ، فاذا به يتحول الى نصير للحلف بل يصبح من اقوى انصاره ، واذا هوبل في السناتو ( في شهر يونيه من عام ٥٦ ق . م ) خطبة بالغة القوة ضد محاولة ارسال قائد آخر يتولى بدل قيصر قيادة القوات الرومانية في محاربة الغال<sup>(٨٩)</sup> . وعندما قدم للمحاكمة كل من فاتينيوس صنيعة قيصر وجانييوس صنيعة بومبي في عام ٥٤ ق . م انبرى شيشيرون للدفاع عنها .

هكذا انقلب شيشيرون على عقبيه ، واعطى ظهره للنبلاء الذين طالما شاركهم الدفاع عن النظام الجمهوري ، وتلك كانت نقطة الضعف في اخلاق شيشيرون ، لكنه برر مسلكه البغيض هذا في بعض رسائله التي تنطق بالحزن والمرارة والاسى على تردي الاوضاع السياسية في الدولة ، وتفيض بالتنديد بالنبلاء الذين يبتهجون اشد الابتهاج لاضطراره مع رجال الحلف الثلاثي ، ثم لا يحركون ساكناً لمساعدته حين تنزل به النوازل على ايدي هؤلاء الرجال<sup>(٩٠)</sup> .

App , V.C., II, 17, Dol Cass XXXIX, 27, Plut , Caes , XXI, Po,p , L1, Cato , inor, XLI; Crass , XIV, (٨٧)

Cic., ad Fam , I,9,8—12 (٨٨)

Cic , ad Q. frat , II, 6,2 (٨٩)

Cic , ad Fam., I,9,10, ad Att , IV,3,2 (٩٠)

وقد كافأ قيصر شيشيرون على مسلكه الجديد هذا ، فأبدى تقديره لمواهبه النادرة العظيمة ، واستجاب لكل طلباته وتوصياته وفي مقدمتها تعيين شقيقه كوينتوس مساعدا له<sup>(٩١)</sup> .

### بومبي وكراسوس قنصلان للمرة الثانية :

وصل بومبي وكراسوس الى روما بعد انقضاء موعد الترشيح للقنصلية ، لكنها دبرا الامر لصالحهما ولم يعدما الوسيلة فقد استطاعا اقناع بعض الترابنة بتأجيل عملية الانتخابات وعدم اجرائها في موعدها لظهور طالع نحس ، وتم ذلك فعلا وبدأ عام ٥٥ ق . م . دون انتخاب القنصلين الجديدين ، وتم تعيين حاكم مؤقت لاجراء الانتخابات ، وبناء على ذلك اصبح في وسع بومبي وكراسوس ان يرشحا نفسيهما للمنصب واجريت الانتخابات فظفر كلاهما بمنصب القنصلية ولكن بعد اعمال العنف التي براها ضد مرشح ثالث من اعدائها حتى لقد اضطر الى الانسحاب من المعركة وما ان اعتلى كل منهما منصبه حتى عملا معا على شغل معظم المناصب الاخرى في الدولة بانصارهما ونجحا في ذلك اللهم الا اذا استثنينا اثنين من الترابنة فقط<sup>(٩٢)</sup> .

وبعد ذلك تقدم احد الترابنة الموالين لها وهو المدعو تريونيوس بمشروع قانون ينص على اسناد الولايات التي اتفق عليها في مؤتمر لوكا لكل من بومبي وكراسوس ووفق عليه ثم استصدرا مجموعة اخرى من القوانين التي تهدف في ظاهرها الى اصلاح العام ، وفي حقيقتها الى كسر شوكة الارستقراطيين والسناتو<sup>(٩٣)</sup> .

وبانتهاء عام ٥٥ ق . م . انتهت قنصلية بومبي وكراسوس الثانية ، وكان المفروض بعد ذلك ان تبدأ مدة كل منهما بوفسه بروقنصلا ، ويتجه مباشرة الى ولايته غير ان بومبي لم يغادر روما واناب عنه اثنين من مساعديه في الذهاب الى ولايته - وهي اسبانيا كلها ، وبقي هورابضا على ابواب العاصمة ليرقب سير الامور .

ويعتبر هذا التصرف تمحديا صارخا للمعرف السائد ، لم يحدث ان قام بمثله اي قنصل سابق حتى هذه اللحظة ، ومع ذلك فان بومبي استطاع تبريره بانه مكلف بالاشراف على تموين روما بالقمح ، ولم تنته بعد المدة المعطاة له للقيام بهذه المهمة ، ثم انه ايضا لم يستكمل حشد القوات اللازمة لاسبانيا . . .

Cic., ad Q. Frat., II, 10, 4, 5. (٩١)

Dio Cass., XXXIX, 27 — 32; App., B. C., II, 17; Plut., Cato, inor, XLI — XLII, Crass., XV. (٩٢)

Plut., Pomp., LI; Crass., XV, 5, App., B. C., II, 18, Cic., ad Att., VII, 716 (٩٣)

C A H. IX, p. 615, p. 618 (٩٤)

بيد ان هذه الامور التي تعلق بها لم تكن خافية على النبلاء ، والذي حدث هو ان بومبي لم ينتقل اطلاقا الى ولايته واكتفى بوجود مساعديه هناك . . . لقد سلك مسلكا بالغ الخطورة نستطيع ان نرى فيه انتقالا من النظام الجمهوري الى نظام حكم الفرد الذي يقيم في العاصمة بينما يقوم نوابه ومساعدوه بحكم الولايات باسمه .

وشهد العام التالي (٥٤ ق . م ) احداثا اخرى شديدة الخطورة فقد انتشرت الفوضى بصورة تفوق كل الحدود واضطربت شئون العاصمة اضطرابا هائلا لدرجة ان العام انتهى ايضا دون انتخاب قنصلين جديدين للعام الذي يليه واشيع حينذاك ان بومبي هو الذي دبر ذلك كله لانه يريد ان يعلن نفسه دكتاتورا<sup>(٩٥)</sup> .

وفي نفس العام توفيت يوليا ابنة قيصر وزوجة حليفه بومبي فكانت تلك الوفاة ايذانا بانتهاء رابطة الود بين الحليفين المتنافسين اللذين كان ذلك منها يرقب تصرفات زميله بمنتهى الحذر والشك وسرعان ما احتدم النزاع بين انصار الرجلين<sup>(٩٦)</sup> . وقد حاول قيصر من جانبه ان يصل من حبل الود الذي كان يربط بينهما ، وذلك بالاصهار اليه من جديد ، لكن بومبي رفض عرض الزواج من حفيدة اخت قيصر<sup>(٩٧)</sup> . وتزوج في العام التالي مباشرة (٥٣ ق . م ) من سيدة تنتمي الى اسرة نبيلة<sup>(٩٨)</sup> .

وهكذا اتضح تماما احساس بومبي تجاه قيصر ، واستبانت رغبته في الاعراض عنه والتقرب من النبلاء لعلهم يدعمون موقفه تجاه حليفه الخطير .

وبعد - فقد كان عام ٥٤ ق . م عام مناورات سياسية واضحة الاتجاه ، وعام اضطراب شديد ادى الى انتهائه دون انتخاب حكام جدد لعام ٥٣ ق . م باستثناء ترابنة العامة . واخذ الاضطراب يتزايد والشغب يتفاقم مع مرور الايام والشهور حتى لقد اقبل شهر يوليوس من عام ٥٣ ق . م دون ان تتاح الفرصة لانتخاب الحكام ، وامام هذا الموقف لم يجد السناتوفرا من استدعاء بومبي الذي كان واقفا على ابواب روما بقواته العسكرية ، والسماح له بدخول العاصمة ، ومنحه سلطة استثنائية لانقاذ الموقف ورد الامور الى نصابها .

Cic , ad Q. Frat., III, 8, 4—6 (٩٥)

Plut , Pomp., LIII (٩٦)

Suet, Div Jul., XXVII, 1 (٩٧)

Dio Cass., XL, 51, 3. (٩٨)

فات هذه السيلة هي كورنيليا انة ميللوس سكيور .

وقد استجاب بومبي على الفور ، وقام بالمهمة على خير وجه ، فأجريت عملية الانتخابات لفصلين جديدين ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لانتخاب الحكام الآخرين للمدة الباقية من عام ٥٣ ق . م<sup>(٩٩)</sup> .

وهكذا تغير مسلك بومبي تغييرا جذريا ، وبدا كمنقذ للسناتو والنبله ، وكان ذلك يعني هز دعائم تحالفه مع قيصر هزا عنيفا فضلا عما سبق ذكره من اصفار بومبي الى احدى الاسر النبيلة ورفضه الاصهار الى حليفه قيصر .

اما الحليف الثالث ، ونعني به كراسوس - فقد لقي مصرعه في منتصف عام ٥٣ ق . م اثناء قتاله مع الباردين (١٠٠) ، فكان ذلك هو القضاء المبرم على التحالف الثلاثي ، واصبح وقوع الصراع السافر بين بومبي وقيصر امرا لا مفر منه .

وانتهى عام ٥٣ ق . م . ايضا دون ان يتم انتخاب الحكام الجدد للعام التالي ، واخذت الفوضى تستشري في كافة انحاء المدينة حتى غدت كالحمي الخبيثة التي لا يهدأ لها اوار ، وحوالي منتصف يناير من عام ٥٢ ق . م وقع اشتباك دموي عنيف بين عصابات كلوديوس وعصابات ميلو المسلحة ، ولقي كلوديوس مصرعه فاذا باتباعه ورجال عصاباته يعيشون في العاصمة فسادا ، ويشعلون النيران في دار السناتو ، فما كان من رجاله الا ان اجتمعوا على الفور ، واصدروا « قرارهم النهائي » ( S.C.II ) للحاكم المؤقت وللترابنة وليومبي بالعمل على حماية الدولة ، مع منح هذا الاخير الحق في حشد قوات جديدة يضيفها الى قواته التي بامرته<sup>(١٠١)</sup> .

### بومبي قنصلا منفردا :

هكذا اصبح بومبي سيد الموقف وصاحب الكلمة العليا ، وكانت روما لا تزال بغير حكام<sup>(١٠٢)</sup> ، ومع ذلك فان بومبي لم يحاول اتخاذ اية خطوات لاجراء ، الانتخابات ، وبدأ الناس يتحدثون عن اقامته دكتاتورا او انتخابه هو وقيصر قنصلين ، وكلا الامرين لا يريح النبله ، واخيرا استقر الرأي على

(٩٩) Plut , Pomp., Liv, App , B.C. II, 19 — 20

(١٠٠) كان كراسوس - مخلص قانون تريبيوس الذي صدر في اوائل عام ٥٥ ق . م - قد اعطى القنصلين بعد انتهاء عام تفصيلتيهما ، حق اعلان الحرب وازراء السلم وجمع القوات العسكرية من ايطاليا والس الولايات ، وانه على ذلك مع ما استطاع جمعه من مرق عسكرية وتوجه بها الى سوريا وقد عقد الحرم على ان يفرزوا دارنيا ليطهر لفسه محمد عسكري ، لكنه مي هزيمة قاسية وقتل ومعظم رجال جيشه

(١٠١) Dio Cass , 49 — 50, I, App , B.C.II, 21

(١٠٢) لم تجر انتخابات الحكام لعام ٥٢ ق . م بسبب تجدد اعمال العنف والشغب وسعت الفداء بين عصابات العفويين اللدويين كلوديوس وميلو ، فلما انتهى عام ٥٣ ق . م دون اجراء الانتخابات عبروا حاكما مؤقتا ( Interrex )

الآخذ باقتراح بيبولوس وكاتو باختيار بومبي قنضلا منفردا ( Cinsul Sobus ) ، فذلك أهون الشرور من وجهة نظر النبلاء الذين يرون في قيصر أكبر خطر عليهم وعلى النظام الجمهوري كله ، والذين يعرفون تماما ان بومبي اذا كان يجب لنفسه المجد الا انه لم يحاول ان يستند الى السلطات الاستثنائية التي منحت له كي يقيم نفسه دكتورا .

وانتخب بومبي قنصلا منفردا ، وهو امر لم يسبق ان حدث على الاطلاق ، ويعتبر خرقا فاضحا للدستور الجمهوري الذي يقرر مبدأ الازدواج لا في وظيفة القنصلية وحدها ، وانما في جميع الوظائف العامة الكبيرة ، فضلا عن ان بومبي لم يكن قد امضى فترة السنوات العشر التي ينبغي ان تنقضي على شغله لوظيفة القنصلية في عام ٥٥ ق . م .

” هكذا غدا بومبي حاكم روما المطلق دون منازع ، وبموافقة النبلاء ورضاهم ، لكنه لم يلبث ان اشرك معه في القنصلية والد زوجته سكيبيو<sup>(١٠٣)</sup> .

وعلم قيصر وهو في غاله ان انصاره من الترابنة يدعون الى اقامته زميلا لبومبي في القنصلية فطلب اليهم الكف عن ذلك حتى ينتهي من فتح بلاد الغال ، لكنه اوصاهم بالعمل على استصدار قانون يسمح له بترشيح نفسه للقنصلية بعد انتهاء بروقنصليته وهولا يزال غائبا عن روما . . . وبذلك ينهي فتح بلاد الغال كلها ، وتنقضي ايضا مدة السنوات العشر التي لا بد من انقضاءها على قنصليته السابقة . وقد استجاب له الترابنة فقدموا مشروع قانون يحقق له رغباته ووافق بومبي عليه ، وايدته شيشيرون<sup>(١٠٤)</sup> ، فوافق عليه نهائيا واصبح قانونا نافذا<sup>(١٠٥)</sup> .

#### بومبي يضع العراقيل لقيصر :

أصدر بومبي قانونين هامين لوقف اعمال العنف والشغب التي لقيت منها روما اشد البلاء ، ولكفاحه داء الرشوة في الانتخابات<sup>(١٠٦)</sup> ، كما اصدر قانونا خاصا بتنظيم تولي الحكم في الولايات<sup>(١٠٧)</sup> ، وكان هذا القانون يقضي بالآ يتولى القناصل حكم الولايات الا بعد انقضاء خمس سنوات على انتهاء عام قنصليتهم ، وتطبيقا لهذا القانون يصبح في وسع السناتو تعيين من يشاء حاكما على ولايتي قيصر بمجرد انتهاء حكمه فيهما في اول شهر مارس عام ٤٩ ق . م ، بينما كان القانون

Plut., Pomp., LIV — LV, App., B.C., II, 23; Doi Cass., XL, 50, 3 — 51. (١٠٣)

Cic., ad Fam., VI, 6, 5; ad Att., VII, 1, 4 (١٠٤)

App., B.C., II, 25; Liv., Epit., 107 (١٠٥)

Dio Cass., XL, 52; Plut., Pomp., LV. (١٠٦)

dio Cass., XL, 56. 1. (١٠٧)

القديم<sup>(١٠٨)</sup> لا يسمح بأن يخلفه أحد في الولايتين إلا بعد انقضاء عام ٤٩ ق . م بتمامه حين يكون قد ظفر بالقتلية وفقا للخطة التي رسمها لنفسه ، وبالتالي يصبح في مأمن من تعريض نفسه للمحاكمة . اما اذا طبق القانون الجديد الذي اصدره بومبي فإن قيصر يصبح في مأزق شديد ، فاما ان ينفي نفسه بنفسه بحيث لا يذهب الى العاصمة ويتعرض للمحاكمة ، واما ان يحمل سلاحه ويزحف على روما بقواته .

ونحن لا نستبعد ان يكون بومبي قد استصدر هذا القانون ليوقع قيصر في اشد الحرج ولسوف نرى خصوم قيصر يستخدمون هذا القانون صده ولسوف نرى ان بومبي كان راضيا مرتاحا لذلك .

والغريب ان السناتور قرر ان يسند الى بومبي حكم ولايتي اسبانيا لخمسة اعوام عقب انتهاء قنصلتيه مباشرة ، ولم ينجح بومبي من قبول هذا القرار مع انه يهدم القانون الذي استصدره هو بنفسه<sup>(١٠٩)</sup> . وظل بومبي يمارس حكم اسبانيا دون ان ينتقل اليها ، وانما ظل مقبلا في ايطاليا واكتفى بانابة مساعديه عنه كما فعل في بروقنصليته السابقة .

ونحن نلاحظ هنا ان السناتور قد منح بومبي سلطة بروقنصلية لخمسة سنوات ابتداء من عام ٥٢ ق . م . بينما لم يمدد بروقنصلية قيصر لمدة مماثلة وهذا يعني ان توازن القوى بين الرجلين سوف يختل ، وهو توازن اتفقا على الحفاظ عليه في لوكا . وتصرف السناتور على هذا التحويل دلالة قاطعة على مدى التقارب الشديد الذي حدث بين بومبي والسناتور ، وهو تقارب يعني حدوث تباعد شديد بين بومبي وقيصر ، مع ان هذا الاخير كان في مسيس الحاجة لتعاون بومبي معه كي يطيل له مدة بروقنصليته في احدى ولايتيه ولو لبضعة اشهر فقط حتى يتم انتخابه قنصلا في غيبته كما كان يريد .

وعلى اية حال ، فان الهدوء الذي ساد روما في خلال عام ٥٢ ق . م ، سمح باجراء الانتخابات لحكام عام ٥١ ق . م . فظفر بالقتلية روفوس الفقيه القانوني البارز ، الذي عمل على تفادي الازمة التي توشك ان تنزل بروما ، وزميل له يدعى ماركيللوس ، وكان رجلا نبيلًا خلوقًا ، يتمسك بالنظام الجمهوري الى اقصى الحدود ، لكنه كان في نفس الوقت متحمسا الى درجة الاندفاع ، تنقصه الايجابية في التصرف<sup>(١١٠)</sup> .

وقبل ان غضي في تحليل الاحداث التي شهدتها روما في خلال عامي ٥١ ، ٥٠ ق . م ، وانتهت

(١٠٨) كان القانون القديم هو ذلك الذي استصدره جايوس حراكوس ، وكان يقضي بأن يعلن السناتور سوبيا اسمى الولايتين اللتين سيؤول حكمهما الى القنصلين الجديدين ، وذلك قبل انتخابهما ومعرفة شخصيتيهما ، وكذلك كان يجرم على الترافعة استخدام الفيتو ضد قرار السناتور بعد صدوره في هذا العدد .

Dio Cass., XL,56,2; Tacit., Ann., III,28,1 (١٠٩)

Liv., Epit., 108; Dio Cass., XL,58 (١١٠)

بانهيار التحالف الثلاثي تماما ثم اشتعال نيران الحرب الاهلية ينبغي ان نتناول - في ايجاز - الاجساد العسكرية التي حققها قيصر في حروبه ، والتي اوغرت عليه صدر بومبي ، كما اوغرت صدور النبلاء الارستقراطيين وجعلتهم يرتعدون خوفا مما يحتمل ان يعمله عند عودته الى روما ، فباتوا يديرون امورهم لتجريده من كل سلطان ومن اية قوة عسكرية .

### فتح بلاد الغال ( ١١١ ) :

ذكرنا ان قانون فاتينيوس الذي صدر في خلال قنصلية قيصر عام ٥٩ ق . م . كان يقضي بمنحه حكم ولاية غالة القرية ( جنوب الألب ) والليريا ، وان السناتو اضاف اليه حكم ولاية غالة البعيدة ( عبر الألب ) ايضا ، وقد اختار قيصر ولاية غالة القرية ليكون وهو فيها قريبا من روما ، فضلا عن كونها مليئة بالرجال الاشداء الصالحين للتجنيد ، اما غالة البعيدة فكانت تقع وراء جبال الألب وتشمل المنطقة الساحلية حتى جبال البرانس ، وكذلك المنطقة الواقعة بين الألب ونهر الرون حتى بحيرة جنيف شمالا ، ومن هذه المنطقة شق قيصر حملاته على بقية بلاد الغال التي نعرفها اليوم باسم فرنسا .

### الهلفتي :

فلما انتهى عام قنصلية قيصر لم يبرح روما الى ولاياته ، وانما بقي بها ليحشد القوات اللازمة له كما قال ، والواقع انه كان يريد البقاء في العاصمة حتى يستصدر كلوديوس الانشريحات التي اتفق معه عليها ، لكنه اضطر الى التحرك حوالي منتصف شهر مارس عام ٥٨ ق . م حين وصل الى علمه ان بعض قبائل الغال قد احتشدت على الضفة اليمنى من نهر الرون تجاه جنيف الحديثة ، فأسرع الى مكان بالقرب من هذه المدينة ، وعرف ان هذه القبائل - وعلى رأسها الهلفتي - قد خربت ديارها واحرقت منازلها ، تريد ان تهجر موطنها نتيجة لضغط قبائل الجرمان عليها ، وأنها لا تطلب اكثر من السماح لها بالمرور عبر الولاية الرومانية ، لكن قيصر رفض ذلك لأن استقرار هذه القبائل في بلاد الغال سوف

( ١١١ ) ان المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن هذا الموضوع هو ما كتبه قيصر نفسه عن الحرب المألفة واسمها « مذكرات عن حرب الغال » ( Gallico Commentarii de Dello ) وتقع هذه المذكرات في سبعة اجزاء ، ثم قام احد صياغة - وهو اللدهو اولويس هرتويس - فاضاف لها جزءا ثامنا ، ويشترك قيصر في كل جزء من اجزاء مذكراته السبعة احدثت عام واحد من احوال الغال ، بينها يتناول الجزء الثامن الذي اضافته هرتويس احداث عامي ٥١ ، ٥٠ ق . م . وهناك اجماع على ان المذكرات جاءت مستندة الى التظهير السنوية التي كان قيصر يرسلها كل عام الى السناتو . وقد استخدم قيصر في مذكراته اسلوبا ادبيا ريعيا ووصفيا يدل على انه كان صاحب كفاية ادبية عالية كما كان صاحب كفاية عسكرية رفيعة ، وقد ألهم جانب الامانة في سرد الوقائع ، لكنه كان دون شك يبرز تصرفاته مدوخلع لتجاذل الى التحصن ، والتفريق ، كما يبدو انه كان يبالغ في اعداد القوات المعادية .

اما اهم المراجع في موضوع حرب الغال فهي :

T. Rice Holmes, Caesar's Conquest of Gaul, 1911; C.A.H. , IX, pp. 550 — 573, O. Dorgan, Roman Gaul. (1953).

يؤدي الى اضطرابات وقلق شديدة تهدد مركز روما في المنطقة كلها ، وامام هذا الرفض لجأ الهلفيتي الى قبائل السيكوني - وهم شعب مستقل - فسمحوا لهم بالمرور ، غير ان قيصر عزم على منعهم بالقوة وساعده على ذلك انهم كانوا قد عبروا نهر السامون ، ودخلوا اراضي قبائل ( الايدي ) المواليين للرومان ، وقد استنجد هؤلاء بقيصر فأسرع اليهم بجيشه واشتبك مع جيش قبائل الهلفيتي وانزل بهم هزيمة قاسية اضطروا معها الى الفرار من وجهه ، لكنه اتصل بمن بقي منهم على قيد الحياة وسمح لبعضهم بالعودة الى موطنهم الاصلي كما سمح للبعض الآخر بالاقامة في بلاد الايدي .

#### الجرمان :

وقد انتهجت قبائل الغال الوسطى لهذا النصر الذي احرزته قيصر ، وأرسلت اليه وفودها لتنهته ، ولتطلب منه المساعدة ضد زعيم قبائل الجرمان المقيمين عبر الراين - وهو المدعو أريوفيسنوس ( Ariovistus ) - الذي اعان قبيلة السيكوني على التخلص من سيادة الايدي عليهم ، وكان ازدياد قوة هذا الزعيم الجرمان قد بدأ يقلق قيصر ويثير الذعر في بلاد الغال كلها .

لهذا قرر قيصر معالجة الموقف بحزم ، ولما لم يكن يستطيع محاربته لأن السناتوكان قد اعترف به ملكا وصديقا للرومان في عام ٥٩ ق . م . بايعاز من قيصر نفسه ، فإنه لجأ الى مفاوضته وطلب منه وقف هجرة الجرمان من وراء الراين ، والكف عن سوء معاملته جيرانه . ولكن اريوفيسنوس رفض هذه المطالب واعتبرها انذارا له ، فقرر قيصر الهجوم بقواته على الفور ، وقد فزع جنوده فزعا شديدا من مواجهة الجرمان ، لكنه سيطر عليهم سريعا وبث في قلوبهم السكينة ، ثم دارت المعركة في شهر سبتمبر عام ٥٨ ق . م . فنزلت بالجرمان هزيمة منكرة ، وتمكن زعيمهم من الفرار مع بعض رجاله الى وطنهم شرقي الراين ، ومع ذلك فقد ظل حتى وفاته في اوائل عام ٥٣ ق . م مضطربا لقيصر<sup>(١١٢)</sup> .

#### البلجيك :

أثار تدخل قيصر في بلاد الغال الوسطى تدمر زعماء القبائل الاخرى ، فعدوا العزم على مقاومته ، وكان اكثر هذه القبائل تدمرا هم البلجيك الذين قرروا الوقوف في وجهه وصده . وكان هو قد امضى الشتاء في ولاية غاله القريبة ، فلما سمع بما يتنويه البلجيك ، عزز جيشه بفرقتين جديدتين وزحف به شمالا قبل ان يستكمل البلجيك استعدادهم ، فاستسلمت له احدى قبائلهم بل وامدته بالمساعدة . وبعد ذلك عهد الى حلفائه الايدي بتخريب اراضي الاعداء ، فقاموا بذلك خير قيام حتى تمزقت



قوات هؤلاء الاعداء ولاذوا بالفرار ، وما لبثت القبائل الاخرى ان استسلمت ، وبما يذكر هنا ان كراسوس الصغير ابن كراسوس عضو التحالف الثلاثي قد قام بدور بارز في هذه الحروب (١١٣) ، واعتقد الجميع ان بلاد الغال الشمالية والوسطى قد خضعت تماما لقيصر ، لكن قيصر نفسه كان يدرك تماما ان السيادة الرومانية الكاملة على بلاد الغال لم ترتكز بعد على قواعد واسس مكينة .

### الفينيقي :

وجاء عام ٥٦ ق . م . فذهب قيصر للاجتماع بحليفه في مؤتمر لوكا على نحو ما اوضحنا ، وبعد انتهاء المؤتمر قفل راجعا ، وعبر الألب من جديد لمواجهة اول ثورة اشعلها الغال ضد الرومان : فقد تقص البريتاني والنورماندي تحالفهم معه وبدأوا يؤججون نيران الثورة ضد روما وقيصرها . وتزعمت هذه الثورة قبائل الفينيقي ( Veneti ) (١١٤) وهي قبائل بحرية كانت تسيطر على التجارة مع بريطانيا ، فاحسوا بان الرومان ينافسونهم في هذا المجال ، وأثار غناؤهم الشديدة قيام كراسوس الصغير برحلة استطلاعية الى شواطئ بريطانيا الجنوبية ، فاذا بهم يلقون القبض على بعض الضباط الرومان ، وانضم اليهم في هذه الثورة بعد ذلك النورماندي والبريتاني .

وتولى قيصر بنفسه امر الفينيقي والبريتاني ، بينما اوكل الى مساعديه مهمة اخضاع البريتاني والنورماندي وصد الغزوة التي يعتزم الجرمان القيام بها ، ولكي يضمن لنفسه النصر ، ويقضي على القوة البحرية للفينيقي ، فانه امضى شتاء عام ٥٧/٥٦ ق . م . في بناء اسطول يقف امام اسطول اعدائه ، وبمجرد وصول هذا الاسطول الى ساحة المعركة ونجاحه في تحطيم بعض سفن العدو ، استسلم الفينيقي والبريتاني ، وسيطر الرومان على البحر من خليج بسكاي الى القنال الانجليزي ، ثم أنزل قيصر عقابه الصارم بأعدائه ، فأعدم زعماءهم ، وباع الاهالي في سوق النخاسة ، ثم توجه الى غاله القريبة ليقضي شتاء عام ٥٥/٥٦ ق . م .

### الجرمان مرة أخرى :

وفي نفس هذا الشتاء عبرت قبيلتان من قبائل الجرمان نهر الراين الادنى في اعداد هائلة ، قدراها قيصر في مذكراته عن حرب الغال بنحو ٤٣٠٠٠٠ نسمة ، ثم تقدم فريق من هؤلاء حتى اصبح على مقربة من مدينة ليج الحديثة ، فخشي قيصر ان تنضم هذه الجموع الحاشدة الى الغال الناقمين عليه

( ١١٣ ) استسلمت لكراسوس الصغير قبائل النورماندي والبريتاني

( ١١٤ ) كانت هذه القبائل قد استسلمت له بعد انتصاره على البيلجيك

وعلى روما ، فأسرع في عام ٥٥ ق . م الى غاليا كوماتا (١١٥) واجتمع بزعماؤها وحصل منهم على مساعدات كثيرة ، ثم بدأ زحفه نحو هذه الآلاف المؤلفة من الجرمان ، وفي الطريق جاءه سفراء هم يطلبون السماح لهم بالبقاء في بلاد الغال ، لكنه رفض ذلك واقترح ان يعطيهم موطنًا خاصًا شرقي نهر الراين ، وانتهت المفاوضات في ذلك الموضوع بهدنة قصيرة لدراسة اقتراح قيصر .

وفي اثناء الهدنة واصل قيصر زحفه شمالا نحو قواته الرئيسية ، وفجأة تعرض بعض فرسانه المتقدمين لهجمات بعض الوحدات الجرمانية ، فبادر زعماء الجرمان في اليوم التالي مباشرة بالذهاب الى قيصر والاعتذار له عما حدث ، لكن قيصر لم يطمئن اليهم ، فالتقى القبض عليهم ثم اسرع الى قواتهم التي كانت تنتظر عودتهم ، فأخذها على غرة وبدد شملها ، فولت الادبار وجد هو في اثرها حتى لحق بها ، ودارت مجزة مروعة ، اهلك فيها قيصر ٤٠٠٠٠ من هؤلاء الجرمان الفارين ، بينما لم يتكبد هو غير عدد قليل من الجرحى كما يقول في مذكراته (١١٦) . وبعد ذلك عبر الراين الى قبائل الجرمان الاخرى ليلقي في قلوب رجالها الرعب حتى لا يفكروا في غزو بلاد الغال ، فأفلز بهم الهزيمة ، ثم قفل راجعا الى غاله بعد ان حطم الجسر الذي كان قد شيده ليعبر عليه الراين .

#### غزو بريطانيا: (١١٧)

بعد عودة قيصر كان صيف عام ٥٥ ق م قد انتهى تقريبا ، وهو موسم القتال ، لكنه برغم ذلك جهز حملة صغيرة للاستطلاع في بريطانيا تمهيدا لغزوة كبيرة يقوم بها في العام التالي .

والواقع ان غزو بريطانيا بحجة منع اهلها من معاونة الغال الناقمين على الرومان ، لم يكن ضروريا : فبعد هزيمة الغالينتي أصبح الرومان اصحاب السيادة على البحر من خليج بسكاي الى القتال الانجليزي ، ثم ان مد الحدود الرومانية الى ما وراء ارض القارة الاوروبية كان يلقي على روما تبعات جسام دون ان تفيد شيئا سياسيا او عسكريا . لكن الذي لاشك فيه هو ان غزو بريطانيا كان يخدم اهداف قيصر الشخصية ، فقد بولغ كثيرا فيها محتويه من ثروات ، ولم تكن حتى ذلك الوقت معروفة للرومان ، وبالتالي فان غزوها سوف يكون له وقع اكبر من وقع فتوحاته في بلاد الغال ، بل ان هذا الغزو سوف يغطي على الانتصارات التي احرزها بومبي في الشرق .

( ١١٥ ) اي بلاد الغال التي يسكنها اصحاب الشعوب الغالية ، وهي منطقة مسيجة تشمل على ريمه بالقرب فرنسا وسويسرا وبلجيكا .

( ١١٦ ) لقد ارتكب قيصر جريمة وحشية مروعة يقتله كل هذه الآلاف المؤلفة دون داع ولا سببا بعد ان اعطاهم له زعماءهم ، وقد حاول ان يبرر فعلته هذه في مذكراته فقال انه كان يريد تهجير الرومان عاظم هذه الجبرم الماشد من المهاجرين . لكن ما اترفه كان دون شك عملا غير انساني يخالي كل الاعراف . وقد انتهز حسمه كاتو هذه الفرصة لمهاجمة مهاجرة نالة العنف والقسوة ، غير ان السناتور لم يباله لما قاله كاتو واصدر قرارا بالتملة الشكر لثلاثة طيلة عشرين يوما .

( ١١٧ ) مع مراجع فتح بلاد الغال انظر ايضا :

T. Rice Holmes, Ancient Britain and the Invasion of Caesar, 1935.

لهذا نرجح ان السبب الحقيقي لغزو بريطانيا كان رغبة قيصر الشخصية في الطفر بانتصارات تفوق انتصارات بومبي ، وبالتالي تكسبه هالة من المجد والجلال لم يكتسب مثلها احد قبله ، وتعطيه في نفوس الرومان مكانة اسمى وارفع من مكانة كل منافسيه وحساده .

وفي اغسطس من عام ٥٥ ق . م حشد اسطوله وعبر به مضيق دوفر ، ونزل على ساحل كنت بعد مقاومة لقيها من البريطانيين ، لكن زعماء المنطقة اتوه مستسلمين ، فرأى الاكتفاء بذلك لضالة قواته وسوء الاحوال الجوية وعاد الى القارة في شهر سبتمبر واخذ يستعد لغزوة ثانية تحقق له اهدافه اذ ان غزوته الاولى هذه لم تحقق شيئا يذكر .

تدل الاستعدادات التي قام بها قيصر في شتاء عام ٥٥ / ٥٤ ق . م على انه كان يريد فتح كل الجزيرة البريطانية<sup>(١١٨)</sup> ، فلما اتهمها ابهر بقوة ضخمة من المشاة والفرسان<sup>(١١٩)</sup> ونزل على ساحل كنت دون مقاومة هذه المرة ، ثم زحف غربا والتقى بقوات كنت عند كانتربروري ( Canterbury ) وأنزل بها هزيمة قاسية ، لكن عاصفة هبت على الساحل ودمرت عددا كبيرا من سفن اسطوله فأثر العودة لانقاذ السفن الباقية بسحبها الى البر ، وقد استغرقت هذه العملية وقتا اتاح للبريطانيين تنظيم صفوفهم .

وبعد عودته من هذه المهمة التقى بالقائد البريطاني الذي امره اهل الجزيرة على جيشهم ، فأنزل به هزيمة فادحة وفرض عليه تسليم عدد من الرهائن ودفع الجزية للرومان ، ثم قفل راجعا الى بلاد الغال دون ان يترك وراءه حاميات في بريطانيا ويبدو ان السبب في ذلك كان ما بلغ مسامعه من انباء عن تجدد الاضطرابات في بلاد الغال .

والواقع ان بلاد الغال بدأت تموج بالثورة في خريف عام ٥٤ ق . م ، نتيجة لضيقهم بالسيطرة الرومانية ، ولعملليات السلب والاستنزاف والاستعباد التي نزلت بهم لكن قيصر افلح في القضاء على هذه الثورة التي استمرت مشتتة الاوار حتى اغسطس من عام ٥١ ق . م .

وقضى قيصر بعد ذلك بقية هذا العام ثم صيف العام الذي يليه في تنظيم فتوحاته ومحاولة استرضاء الغال ليدعروا للحكم الروماني ويتقبلوه غير ناقلين ولا سناخطين ، فوفق في ذلك توفيقا كبيرا ، وساد السلام في بلاد الغال ستين عديدة .

وبعد فليس من شك في ان غزو بلاد الغال كان امرا بالغ الاهمية بالنسبة لروما وقيصر ولتلك البلاد نفسها . . . فقد انقذها من القبائل الجرمانية المتوحشة ، فنعمت بالهدوء ، وانتشرت في انحاءها

( ١١٨ ) ما تجدر الاشارة اليه هنا ان كراسوس كان في نفس الوقت بعد العودة لغزو ماريا دورا دي ميرور ، اللهم الا رغبته في الحصول على جند عسكري يعاونه في جند قيصر .

( ١١٩ ) كانت الحملة تضم حوالي ثلاثين الف مقاتل من المشاة والقيص من فرسان الغال .

الحضارة الرومانية . ولقد اضاف قيصر - بفتحته بلاد الغال - للممتلكات الرومانية ارضا فسيحة خصبة هي التي نعرفها اليوم باسم فرنسا ، والتي اعتبرت جوهرة غالية بل اعلى جوهرة في تاج الامبراطورية الرومانية ، وأدت الى مضاعفة موارد الدولة وازدياد قوتها ، وإن كان الدفاع عن حدود الراين قد فرض على روما اعباء ضخمة .

أما بالنسبة لقيصر فإن فتح بلاد الغال اتاح له تنمية مواهبه العسكرية ، كما اتاح له بناء جيش كبير حسن التدريب يدين له وحده بالولاء ، هذا فضلا عن الاموال الطائلة التي حصل عليها من الاسلاب والغنائم والتي مكنته فيما بعد من كسب الانصار والمؤيدين في روما في النضال السياسي والعسكري الذي سوف يخوضه .

ولقد امضى قيصر تسع سنوات في هذه الحروب - مع انه لم يكن يتمتع بصحة جيدة - لتحقيق الاهداف التي رسمها لنفسه ، وهي السيطرة الكاملة على شئون الدولة ومن ثم اقامة حكومة حازمة رشيدة تقبض على ناصية الامور تستطيع ان تحقق المصالح الوطنية العليا ، وإذا كان سلا قد واثته الفرصة فأخفق في اقتناصها لعنفه وبطشه الشديدين وإذا كان بومبي قد اخفق ايضا لقلة خبرته السياسية فاذا هو يسرح قواته العسكرية عقب عودته من فتوحاته فان يوليوس قيصر لم يدع الفرصة تغفل من قبضته وانما اغتتمها على الفور .

وعاد قيصر الى غاله القريبة في صيف عام ٥٠ ق . م بعد ان استقرت الامور تماما في بلاد الغال كلها ليكون على مقربة من مجريات الأحداث في روما . . .

#### احداث عام ٥١ ق . م .

ونعود الان - بعد الفراغ من الحديث عن فتوحات قيصر - الى مواصلة تحليل الاحداث التي شهدتها روما في عام ٥١ ق . م ، وهو العام الذي ظفر به بالقتضالية كل من رونوس وماركيلوس كما ذكرنا ، ثم شهد التحول الواضح في موقف بومبي من قيصر .

لقد طلب قيصر في بداية عام ٥١ ق . م ، تمديد فترة بروتقنصليته في ولايته او في احدهما كي يتم انتخابه قصلا في غيبته ، ولكن السناتور رفض هذا الطلب ، ولم يحاول بومبي ان يتدخل في هذا الموضوع<sup>(١٢٠)</sup> مع ان قيصر كان يتوقع منه المعاونة - كما ذكرنا - لتحقيق هذا الهدف . وكان موقف بومبي السلبي هذا بمثابة ذريعة تذرعه بها النبلاء لمواصلة العمل على كسر شوكة قيصر ، حتى اذا عاد الى روما لم يستطع ان يقف في وجههم .

وتقدم القنصل ماركيللوس للسناتو باقتراح يقضي بانهاء بروفنصلية قيصر قبل موعد انتهائها الرسمي ، وهو اواس مارس من عام ٤٩ ق . م . متذعرا بأن الحرب في بلاد الغال قد انتهت ، ومن حق رجال جيشه ان يسرحوا ، وباقتراح آخر يقضي بعدم السماح له بترشيح نفسه للقتنصلية الا اذا حضر هو شخصيا ، لأن القانون المعمول به والذي استصدره بومبي في هذا الصدد قد نسخ قانون الترابنة العشرة الذي تحدثنا عنه . ولكن بعض ترابنة عام ٥١ ق . م . عارضوا هذا الاقتراح كما عارضه زميل ماركيللوس في القنصلية - وهوروفوس - مستندا الى عدم جواز استدعاء اي حاكم من ولايته قبل انتهاء مدة حكمه منها طالما لم يرتكب اي عمل يستدعي هذا الاستدعاء<sup>(١٢١)</sup> . بل لقد عارض الاقتراح بومبي نفسه<sup>(١٢٢)</sup> لاحبا في قيصر كما قد يبدو ، وانما لأن اقتراح ماركيللوس كان يعني الغاء القانون الذي استصدره بومبي وكراسوس بتمديد بروفنصلية قيصر خمس سنوات اخرى ، وربما ايضا لأن رأي بومبي لم يكن قد استقر بعد على ما ينبغي عمله تجاه قيصر .

وفي اواخر سبتمبر من عام ٥١ ق . م . اصدر السناتو قرارا بتكليف قنصلي عام ٥٠ ق . م . بأن يعرضا عليه موضوع الولايات القنصلية في اول مارس من عام قنصليتها ، على ان يصدر المجلس فيه قرارا سريعا ، وقد ووفق على هذا القرار دون اعتراض الترابنة .

لكن بعض هؤلاء الترابنة اعترضوا في آخر شهر سبتمبر على ثلاثة قرارات اصدارها السناتو بناء على اقتراحات ماركيللوس ، وكان احدها يلزم السناتو بالنظر في حق جند قيصر في التسريح والمكافأة ، والثاني يقضي بأن استخدام حق الفيتو ضد اي قرار للسناتو يعتبر امرا ضد مصالح الدولة ، والثالث يقضي بجعل كيليكيا ( وهي الولاية القنصلية التي كان يحكمها شيشرون مع قبرص ) ولاية برايتورية ( لا قنصلية ) مع ثمانى ولايات اخرى<sup>(١٢٣)</sup> .

ولا شك ان القرار الاول كان يهدف الى احداث وقعة بين قيصر وجنوده اذ يغريهم بالمطالبة بالتسريح والمكافأة ، وقيصر يريدهم بسلاحهم تحت امرته ، اما الثاني فكان هدفه حرمان الترابنة من حقهم في الفيتو وبذلك يستطيع خصوم قيصر ان يفعلوا به ما يشاؤون دون خوف من اي اعتراض ، واما الثالث فكان يعطي السناتو الحق في مناقشة حكم قيصر في ولايته لأن ولايات روما كلها كانت اربع عشرة ولاية وقد اصبحت تسع منها برايتورية وبقيت خمس فقط قنصلية وهي غالاه بقسميها واسبانيا بقسميها وسوريا ، وقد اسندت اسبانيا منذ وقت قريب لبومبي فلم يعد باقيا الا غالاه بقسميها ( وهذه

(١٢١) Dio Cass., XL, 59, 1 — 2; Liv., Epit., 108; Hirt., B.G., VIII, 53.

(١٢٢) Cic., ad Att., VIII, 3, 3.

(١٢٣) كانت هذه الولايات هي : صقلية وسردييا ومها كورسيكا ومقدونيا ومها آجاليا وآسيا وافريقيا وكريت وبيتينيا وقبرص .

يحكمها قيصر) وسوريا ، وطبقا للقرار ينبغي ان تثار مسألة هذه الولايات الثلاث في اول مارس عام ٥٠ ق . م . والمهدف بطبيعة الحال هو تعيين خلف لقيصر في ولايته وبالتالي يصبح ملزما بالتخلي عنها بمجرد انتهاء مدة بروفنصليته وقبل ان يتم انتخابه قنصلا وحينذاك يصبح امام خيارين لا ثالث لهما فاما ان يعود الى روما مواطنا عاديا بلا قوات عسكرية فتتاح الفرصة لخصومه من النبلاء كي يقدمونه للمحاكمة وبالتالي لا يتولى منصب القنصلية الذي يتطلع اليه واما ان يذهب بنفسه الى المنفى ليتجنب هذا الموقف .

هكذا وضحت الاتهامات السياسية في روما من جانب النبلاء وجانب بومبي ايضا ضد قيصر ، افهل فات هؤلاء ان رجلا من طرزه وهو السياسي الداهية ، والقائد المظفر الذي يتحكم في جيش ضخم مدرب ، يمكن ان يسلم نفسه الى خصومه بهذه السهولة ليقضوا على مستقبله السياسي قضاء مبرما وهل فاتهم ايضا انه لن يتردد - دفاعا عن النفس - في ان يسلك المسلك ، الذي سبقه اليه سلا ١١٩

وأراد السناتون ان يقرر على الفور تعيين خليفة لقيصر ، لكن بومبي احجم عن المشاركة في هذه المسألة قبل ان تنتهي بروفنصلية قيصر في اول مارس ، وعندئذ - كما قال - يكون في حل من التصرف<sup>(١٢٤)</sup> . ولعله اراد بهذا الموقف ان يبدو منصفيا فيحافظ على وعده لقيصر بأن يظل في ولايته حتى تنتهي مدة بروفنصليته تطبيقا للقانون الذي استصدره هو وحليفه كراسوس في هذا الصدد ، لكنه في نفس الوقت كان على استعداد للتصرف بعد ذلك وفق ما عليه المصلحة العامة ، وهذا يوحى - دون شك - بأنه لن يسمح لقيصر بتولي القنصلية مرة اخرى . . . لقد كشف بومبي عن نيته دون ادنى مواربة وافهم النبلاء - ضمنا - انهم يستطيعون الاعتماد عليه في وقفهم ضد قيصر .

#### احداث عام ٥٠ ق . م .

جرت انتخابات التريبونية لعام ٥٠ ق . م . فاذا بمعظم الفائزين من انصار قيصر ، لكن تبين ان واحدا منهم كان مرتشيا ، فالغى انتخابه ، وظفر بمكانه شاب يدعى كوريو (Curio)<sup>(١٢٥)</sup> ، وكان هذا الشاب متلافا غارقا في الديون لاخلق له ، ومعروفا بعدائه الشديد لقيصر - كما كان والده قبله - وتشيعه الواضح للنبلاء ، وقد دخل المعركة الانتخابية معلنا انه من انصار الحزب الارستقراطي ، لكن قيصر استطاع ان يشتريه ويحتجبه الى صفه حين سدد عنه كل ديونه<sup>(١٢٦)</sup> .

(١٢٤) App., B.C., II, 26, Hirt., B.G., VIII, 53

(١٢٥) كان والد هذا الشاب عدوا لدودا لقيصر ، وكان من حطاه روما الموريس ، وكذلك كان كوريو نفسه .

(١٢٦) Dio Cass., XL, 60; App., B.C., II, 26, Plut., Pomp., LVIII, 1.

ولم يكشف كوريو عن تحوله هذا دفعة واحدة<sup>(١٢٧)</sup>. بل انه ظل يخالط النبلاء ويشاركهم السخط على قيصر ومهاجمته بعنف شديد، حتى اذا ولى منصبه رسمياً، تقدم بعدد من مشروعات القوانين<sup>(١٢٨)</sup>، وهو على يقين تام من ان السناتو وبومبي لن يوافقوا عليها، لما حدث ذلك اعلن عن غضبه من النبلاء والجمهوريين، وجاهر بتأييده لقيصر واعتراضه على القرارات التي اصدرها السناتو ضده.

وانتخب للمقتضلية لعام ٥٠ ق. م. كل من جايوس ماركيلولس (ابن عم قتصل سنة ٥١ ق. م) ولوكيوس باوللوس، وكانا من الد خصوم قيصر، لكنه استطاع ان يستقطب هذا الاخير - كما فعل مع كوريو من قبل - وان يشتري ذمته<sup>(١٢٩)</sup>.

وفي اول مارس اصدر السناتو قرارا بانهاء بروتقنصلية قيصر اعتبارا من اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر، لكن كوريو استخدم الفيتو ضد هذا القرار لما ينطوي عليه من عسف ظاهر، ولأنه يكشف عن رغبة النبلاء الجاعحة في ان يترك قيصر ولايته قبل اول مارس عام ٤٩ ق. م.

وأمام هذا الاعتراض، اعاد السناتو النظر في الموضوع مرة ثانية في شهر ابريل، فقام كوريو بمناورة سياسية بارعة ليوهم النبلاء بأنه من اقوى انصار الجمهورية، وان كل هدفه هو تحرير السناتو من الشعور بالخوف من القوة العسكرية، فأعلن ان خير سبيل للخروج من هذه الازمة التي تهدد سلامة الدولة من جراء تنافس البروتقنصلين - بومبي وقيصر - مع وجود قوات عسكرية كبيرة تحت امرة كل منها، هو ان يقوموا في وقت واحد بالتخلي عن بروتقنصليتها وتسريح قواتها.

وقبول اقتراح كوريو هذا بتحليل كبير من الجماهير التي احست من صاحبه الاخلاص الشديد للجمهورية والعمل على ما فيه مصلحتها غير مبال بما سوف يجره عليه موقفه هذا من نقمة بومبي وقيصر معا، بل ان الكثيرين من النبلاء فرحوا بالاقتراح ورحبوا به اشد الترحيب لأنهم رأوا فيه ما يجب الدولة شرو اندلاع حرب اهلية بين بومبي وقيصر.

ولقد حاول بومبي ان يحبط هذا الاقتراح بينما مضى كوريو الى حد المطالبة باصدار قرار باعتبار بومبي وقيصر عدوين للدولة اذا امتنعا عن تنفيذ قرار تخليهما عن سلطتهما وتسريح جيشيهما، ومع ذلك

(١٢٧) Dio Cass., XL, 16 - 62

(١٢٨) كانت مشروعات القوانين التي تقدم بها تهدف الى اظهاره معطره للرقيم الشعبي، منها ما كان يقضي بتوزيع القطاعات زراعية على الفقراء، ومنها ما كان يقضي ببيع الفصح لهم بأسعار زهيدة جدا.

(١٢٩) Cael., in Cic., ad Fam., VIII, 11, 3 (١٢٩) كان كاليبوس من اصدقاء شيشرون، وقد وصلنا مجموعة من الرسائل التي بعث بها لصدفه شيشرون.

فان اعضاء السناتو ، وهم يتوقعون كل الشر من قيصر ، لم يوافقوا على اقتراح كوريو ، الذي قد ينفذه بومبي بعد الموافقة عليه ، بينما يرفض قيصر تنفيذه<sup>(١٣٠)</sup> ، فيصبح صاحب القوة الوحيد في الدولة .

وكانت مدة تريبونية كوريو - صديق قيصر والساھر على رعاية مصالحه وتحقيق اهدافه - تنتهي في التاسع من شهر ديسمبر عام ٥٠ ق . م ، واجريت انتخابات القنصلية لعام ٤٩ ق . م ، فظفر بها عدوان من اعداء قيصر ، هما لوكيوس لتولوس ، وجايوس ماركيللوس ( ابن عم قنصل عام ٥٠ ق . م . وسميه ) ، وبدا ان الموقف كله يتحول ضد قيصر ، لكن كان له صديق حميم ، هو الكوايستور ماركوس انطونيوس ، وفي وسع هذا الصديق اذا واثته الفرصة ان يقوم بنفس دور كوريو ، ولذلك عمل قيصر كل ما في وسعه ليظفر انطونيوس بأحد مناصب التريبونية لعام ٤٩ ق . م .<sup>(١٣١)</sup>

وكان قيصر قد ارسل فرقتين من جيشه الى روما في خريف عام ٥٠ ق . م . استجابة لطلب السناتو الذي قرر ارسالها الى بيبولوس حاكم سوريا ، الذي كان يتوقع غزو البارثيين لولايتيه . لكن خطر هؤلاء زال واستبقى السناتو الفرقتين في كابوا طوال الشتاء ، واذا بضباط هاتين الفرقتين يروجون الشائعات بان جنود قيصر قد ضاقوا بتصرفاته ذرعا ، وانهم ينجشون ان يعلن نفسه ملكا على روما ، وانهم يودون الانضمام الى جيش بومبي والعمل تحت قيادته .

وصدق بومبي هذه الشائعات ، بل انها ملأته غرورا ، فأهمل تجنيد المزيد من القوات<sup>(١٣٢)</sup> ، بل لعلها ايضا كانت السبب في عزوفه عن الوصول الى حل وسط مع قيصر وتفضيله الدخول معه في حرب اهلية . هذا بينما كان قيصر يعمل جاهدا على تنظيم قواته في ولايتيه ، وتوزيع وحداتها بين قادته<sup>(١٣٣)</sup> .

ووصل شيشيريون الى ايطاليا في اواخر شهر نوفمبر من عام ٥٠ ق . م ، ولم يدخل روما انتظارا لقرار السناتو بمنحه حق اقامة موكب نصر لنفسه ، لكنه عرف تماما دقائق الموقف بين قيصر وبومبي كما يتضح من مجموعة الرسائل التي بعث بها الى صديقه اتيكوس ، وهي تدل على انه توقع الا يقبل قيصر الا الحل الذي يرضيه ، والا فلا مفر من نشوب حرب اهلية يجب تفادها بكل السبل<sup>(١٣٤)</sup> . ويقول المؤرخ بلوتارخوس في هذا الصدد ان شيشيريون حاول بكل جهده الاصلاح والتوفيق بين القائدين

App., B.C., II, 27 — 29; Plut., Pomp., LVIII. (١٣٠)

Plut., Anton., V, 1 — 2; Hirt., B.G., VIII, 50 (١٣١)

App., B.C., II, 29; Dio Cass., XL, 65 — 66; Plut., Caes., XXIX, 3 — 5; Pomp., LVII, 4 — 5. (١٣٢)

Hirt., B.G., VIII, 51 — 55. (١٣٣)

Cic., ad Att., VII, 2 — 9 (١٣٤)



حتى لا يشعل نيران حرب أهلية مدمرة تكتوي روما بنيرانها ، ثم ينصب المنتصر فيها نفسه طاغية على الدولة (١٣٥) .

وبعد - فإن الطلبات التي تقدم بها قيصر يريد موافقة السناتو عليها ، لم تكن تجافي العرف أو تجافي الدستور : فبقاؤه في ولايته حتى آخر عام ٤٩ ق . م كان متفقا مع قانون جايوس جراكوس الذي كان لا يزال ساريا حين منح قيصر البروقنصلية ، وحين مددت هذه البروقنصلية خمس سنوات أخرى . وانتخابه قنصلا وهو غائب عن روما لم يكن أمرا جديدا ولا غريبا ، فقد سبق أن انتخب ماريوس للقنصلية غيابيا عدة مرات ، كما صدر قانون خاص باعفاء قيصر من ترشيح نفسه حضوريا وقد وافق بومبي نفسه على هذا القانون ، فلما صدر قانون جديد يحتم حضور المرشح كي يقدم ترشيحه بنفسه ، وافق بومبي على استثناء قيصر من ذلك .

هذا فضلا عن ان قيصر قد تولى الوظائف العامة جميعا طبقا للقانون الذي ينظم تولي هذه الوظائف ، ورغبته في تولي القنصلية ثانية كانت رغبة متفقة مع هذا القانون لأنه في عام ٤٨ ق . م . تكون قد انقضت عشر سنوات على انتهاء قنصلتيه الأولى في عام ٥٩ ق . م .

هكذا يتبين لنا ان الاوضاع كلها كانت سليمة ولا غبار عليها من الناحية القانونية بالنسبة لمطالب قيصر . اما بالنسبة لبومبي - عضو التحالف الثلاثي مع قيصر ثم خصمه الأكبر الآن - فنحن نعرف انه تولى قنصلتيه الأولى في ام ٧٠ ق . م . دون ان يكون قد تولى قبل ذلك الكوايستورية والبرايتورية ، وتلك مخالفة صريحة لقانون تنظيم تولي الوظائف العامة . وحين تولى القنصلية لثالث مرة في عام ٥٢ ق . م لم تكن قد انتهت السنوات العشر التي لابد من انقضائها على قنصلتيه الثانية التي تولاهها في عام ٥٥ ق . م .

اما النبلاء والسناتو فاذا كانوا قد منحوا بومبي قنصلية عام ٧٠ ق . م . مرغمين كارهين ، فان السناتو هو الذي خرق القواعد الدستورية ، وهو الذي قوض دعائم النظام الجمهوري حين اقام بومبي قنصلا وحيدا في عام ٥٢ ق . م . كما ولاه في نفس هذا العام حكم ولايتي اسبانيا قبل انقضاء السنوات الخمس التي فرضها قانون اصداره بومبي نفسه .

فأي فرق شاسع بين الرجلين !؟ وان طلب قيصر لبيدوا لنا غاية في التواضع اذا هو قورن بما منح لبومبي من استثناءات كانت كلها خروجاً صارخاً على الدستور والتقاليد معا .

من هنا يتضح ان معارضة بومبي والمهوريين لقيصر لم تكن بدافع من الحفاظ على القواعد الدستورية او الروح الجمهورية ، وانما كان الدافع هو الخوف والفرع من عودة قيصر الى روما قنصلا ، الامر الذي يتيح له السيطرة الكاملة على كل مقدرات الدولة ، وبالتالي تتلاشى كل سلطة لبومبي ، وكل سيطرة للسناتو . . . فالصراع كله كان دائرا حول السلطة ومن يظفر بها .

وبذل قيصر كل جهد ممكن للحصول على اكبر تأييد لمطلبه برغم غيابه عن روما ، فانفق الاموال عن سعة لتقديم الهدايا والقروض ، ونجحت جهوده الى حد كبير في اجتذاب الكثيرين من رجال السياسة ومن اعضاء السناتو بل حتى من انصار بومبي . ويقول شيشيرون في احد خطباته ان كل المجرمين والشبان الفاسدين ودهماء المدينة قد وقفوا جميعا الى جانب قيصر ، وكذلك كل ترابنة العامة وكل المفلسين .

ولم يهمل قيصر الجانب المعنوي في دعايته فبث عملاءه في صفوف عامة الشعب يفهمونهم استعدادهم للتفاهم ورغبته الاكيدة ف يتفادي وقوع حرب اهلية ، ولعله - كما سئرى - كان صادقا في ذلك .  
وأصبح الشعب يعتبر قيصر بظله المنتظر ، يتوقع عودته ليرد الحياة الى الجمعيات الشعبية التي وأدها بومبي حين كان قنصلا منفردا<sup>(١٣٦)</sup> .

واجتمع السناتو في اول ديسمبر من عام ٥٠ ق . م .<sup>(١٣٧)</sup> . ووقف القنصل ماركيلولس يكيل التهم للقيصر ، ويصفه بأنه قاطع طريق ، ويطلب الى السناتو اعتباره عدوا للدولة اذا لم يتخل عن ولايته وجيشه ، لكن كوريو تدخل وقال ان الحل العادل الوحيد هو ان يتخل كل من بومبي وقيصر عن بروقنصليتهما ويسرحا جيشيهما ، وتقدم فعلا باقتراح رسمي بذلك وطلب التصويب عليه ، وكانت المفاجأة حين وافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٣٧٠ صوتا ضد ٢٢ صوتا فقط<sup>(١٣٨)</sup> . وهنا لم يجد تريبون العامة فورنيوس - الموالي لبومبي - الا ان يعترض على القرار فأبطله .

وراجت شائعات كاذبة تقول ان قيصر بدأ زحفه على روما ، فانتهر ماركيلولس الفرصة ، وقام بمحاولة اخيرة ليرغم السناتو ، على الوقوف في وجهه وقفة حازمة ، فاقترح اسناد قيادة الفرقتين المرابطين في كابوا الى بومبي ليتولى الدفاع عن روما وايطاليا ، لكن كوريو اعترض على هذا الاقتراح<sup>\*</sup> وابطله . وهنا اعلن ماركيلولس انه سوف يتصدى بنفسه لهذا الخطر الذي يهدد الدولة بوصفه

Plut., Caes., XXIX., 2 — 3 ; Pomp., LVIII; Cic., ad Att., 3,3; App., B.C., II, 30 ( ١٣٦ )

C.A.H., IX, p. 635 ( ١٣٧ )

App., B.C., II, 30; Plut., Pomp., LVIII, 3 — 5 ( ١٣٨ )

قنصلا<sup>(١٣٩)</sup>، وذهب مع القنصلين المرشحين للعام التالي لمقابلة بومبي خارج روما، وفوضوه مهمة الدفاع عن الجمهورية ضد قيصر.

وبرغم ان السناتو لم يوافق على منحه هذا التفويض غير الدستوري الا ان بومبي قبله واستجاب لاداء المهمة<sup>(١٤٠)</sup>، وهكذا بدا كأنه هو الباديء بالعدوان، واثاح لقيصر فرصة اللقاء تبعة اشتعال نيران الحرب الاهلية على كاهله، ولاسيما حين اعلن انه على استعداد للتفاهم، وقبول اي حل وسط، وانه لا يمانع في تسريح جيشه اذا سرح بومبي جيشه. لكن قوات بومبي كانت عند ذاك قد طوقت اسوار العاصمة فشلت يد السناتو، ولم يستمع رجاله الى ما ابداه قيصر من رغبة في التفاهم والقاء السلاح.

#### قيصر يبري نفسه قبل الزحف على روما :

حين زار شيشيرون بومبي في العاشر من شهر ديسمبر، اكد له هذا ان الحرب واقعة لا محالة<sup>(١٤١)</sup>. وفي خطاب من شيشيرون لصديقه اتيكوس يقول ان بومبي ادرك ان فئات الشعب الروماني لن تنهب للدفاع عن الدستور، فالسناتو لم يجزؤ على اتخاذ قرار حاسم، والفرسان لا تعنيهم غير مصالحهم المالية، وكلهم يؤيدون قيصر، اما المزارعون فكل همهم هو تجنب نشوب حرب اهلية بأي ثمن، وموقفهم هذا هو موقف شيشيرون نفسه<sup>(١٤٢)</sup>.

وفي اواخر ديسمبر ذهب كوريو الى قيصر واطلعه على مجريات الاحداث في روما، واستحثه على الزحف بقواته نحوها على الفور، لكن قيصر آثر التمهّل وحمل كوريو رسالة الى السناتو يعرض فيها حلا وسطا للأزمة، لكن السناتو كان قد وقع تحت تأثير المتطرفين من رجاله الذين اعتقدوا ان عرض قيصر انما دفعه اليه شعوره بضعف مركزه<sup>(١٤٣)</sup>، وكذلك اعتقد بومبي ايضا، اذ صدق - كما قلنا - الشائعات التي روجها بعض ضباط قيصر في كابوا، ومن ثم اصبح واضحا انه لا يريد التفاهم مع خصمه وأنه يصير على محاربه<sup>(١٤٤)</sup>.

Plut., Pomp., LXIII, 6; App., B.C., II, 31. (١٣٩)

App., Loc. cit.; Plut., Pomp., LVIII, 6—LIX; Dio Cass., XL, 64, 2; 66. (١٤٠)

Cic., ad Att., VII, 4. (١٤١)

Cic., loc. cit., 5, 4; 715. (١٤٢)

App., B.C., II, 32; Plut., Caes., XXXI, 1; Caes., B.C., I, 7—8. (١٤٣)

Cic., Ad Att., VII, 8. (١٤٤)

وكانت رسالة قيصر التي حلها كوريو الى السناتو تتضمن دفاعه عن نفسه وعن حقوق الشعب الروماني ، وقد اسهب في الحديث عن الخدمات التي اداها للدولة ، ثم عرض في نهايتها استعداداته للتخلي عن بروقنصليته وان يسرح جيشه شريطة ان يفعل بومبي نفس الشيء وفي نفس الوقت ، والا فانه سوف يجد نفسه مضطرا للدفاع عن حقوقه وحقوق الشعب<sup>(١٤٥)</sup> .

واجتمع السناتو في اول يناير من عام ٤٩ ق . م ، وتليت على اعضائه رسالة قيصر ، ولكن دون جدوى ، واخيرا قدم اقتراحا بانهاء بروقنصلية قيصر قبل يوم محدد ، فاذا رفض تنفيذ ذلك اعتبر عدوا للدولة ، لكن التريبونين انطونيوس ولونجينوس اعترضوا على هذا الاقتراح ، فغضب المتطرفون من رجال السناتو اشد الغضب وطردوا التريبونين من المجلس .

واخيرا وفي اليوم السابع من يناير اصدر السناتو « قراره النهائي » ( S.C.V ) الذي ينص على تحويل القنصلين والبرايترس والبروقنصلين الموجودين في ايطاليا ( يقصد القرار بومبي وشيشرون ) ، تحويل هؤلاء جميعا للتصديق للخطر وحماية الدولة من الخطر الذي يوشك ان ينزل بها ، وهنا انسحب انطونيوس ولونجينوس واسرعا ومعهما كوريو الى مقابلة قيصر لاختباره بكل ما حدث .

وهكذا وقع المحظور واندلعت نيران الحرب الاهلية بين بومبي وقيصر الذي الهب مشاعر جنده اذ قدم اليهم الوفد الثلاثي الذي جاءه من روما فقصوا على الجنود ما حدث ، ثم اختل هو بنفسه فترة قصيرة ليتخذ قراره وكان القرار هو اصدار اوامره للفرقة الثالثة عشرة بعبور نهر روبيكون الذي يفصل بين ولاية غاله الغربية واطاليا<sup>(١٤٦)</sup> .

وعلى هذا النحو بدأت الحرب الاهلية ، فهل كان قيصر هو المسئول عن اشعال نيرانها ؟ ام ان بومبي هو الذي يعتبر مسئولا عن ذلك ؟

لقد تعاقبت الازمات السياسية بسرعة مذهلة خلال عام ٥١ ، ٥٠ ق . م . ثم انتهت كما رأينا بذلك الموقف المتطرف الذي اتخذته رجال السناتو كما اتخذته طبقة النبلاء الجمهوريين تجاه قيصر ، فلم يجد هذا بدا من اصدار اوامره الى احدى فرقته العسكرية بعبور نهر روبيكون والزحف نحو روما :

واذا فان قيصر هو الذي بدأ الحرب ، لكنه اضطر الى ذلك اضطرارا واکره عليه اكرها ، وهؤلاء الذين اكروهو على بدء الحرب لا بد ان يشاركوه المسئولية ويتحملوها معه .

App., B.C II, 32; Plut., Caes., XXX, Pomp., LIX; Caes., B.C., I, 9ff. (١٤٥)  
Dio Cass., XLI, 3—4; Ppp., XXXI — XXXIII; Po., LIX; Anton., V — VI (١٤٦)

لقد ادعوا انهم انما اتخذوا موقفهم دفاعا عن النظم الدستورية وحفاظا على النظام الجمهوري ، لكننا نراهم في ادعائهم هذا غير صادقين : لقد رفضوا باصرار كل الحلول الوسط التي عرضها قيصر كما ذكرنا ، واصرروا كل الاصرار على استدعائه من ولايته قبل انتخابه قنصلا ، وكانت استجابته لهم تعني انهم وضعوه امام خيارين لا ثالث لهما ، فاما ان يضحى بمستقبله السياسي او على قوله هو بكرامته (dignitas) لانه فور عودته كمواطن عادي لا سلطة له سوف يصبح هدفا لاتهماتهم ، وبالتالي يقدم للمحاكمة ، واما الا يستجيب ويحافظ على كرامته ، وهذا يعني ان يمتشق الحسام ليحقق اهدافه بالقوة .

وقيصر بعد كل الامجاد التي حققها بانتصاراته في بلاد الغال وفي بريطانيا ، وبعد كل السوابق التي شهدتها الدولة يوم استولى سلا على روما بالقوة ، ويوم فعل ركننا نفس الشيء ، نقول ان قيصر لم يكن من السداجة بحيث يسلم نفسه لاعدائه دون عناء .

ولقد شرحنا من قبل كيف كانت مطالب قيصر متواضعة ولها سوابق عديدة ، بل وتستند احيانا على القوانين التي استصدرها مؤيدوه لصالحه ، بينما ظفر بومبي بمعظم ما ظفر به خرقا للدستور وعلى يد رجال السناتو انفسهم .

لكل ذلك نرى ان فئة النبلاء ، ومعها بومبي ، لم تكن في اصرارها على استدعاء قيصر من ولايته قبل انتهاء مدة بروبرانيوريته ، وفي تمسكها بالآلا يرشح نفسه للقنصلية الا حضوريا ، لم تكن في الحقيقة تدافع عن الدستور او عن النظام الجمهوري بقدر ما كانت تنفذ أحقادها ضده ، وبقدر ما كانت تعمل على اصطياده مجردا من كل قوة وسلطان لتفعل به ما تشاء .

ان السناتو نفسه هو الذي اقام بومبي قنصلا منفردا وذلك - دون شك - اعتداء صارخ على الدستور بقدر ما هو قتل لروح النظام الجمهوري ، والسناتو هو الذي اتخذ « قراره النهائي » ضد قيصر بحجة اعتدائه على الدستور ، وكان هذا القرار النهائي هو الذي اشعل هيب الحرب الاهلية .

ان مطالب قيصر لم تكن غريبة ولا كانت شاذة بالقياس الى مطالب بومبي ، وحسبنا في هذا الصدد ان نشير الى القرار الذي صدر بتمديد مدة قيادة هذا الاخير في اسبانيا خمس سنوات اخرى .

واذا كان قيصر قد عبر نهر الروبيكون على رأس جيشه زاحفا نحو روما ، فقد كان ذلك الزحف - كما يقول هو - ضد السناتو الذي حالف بومبي ضده ، وضد جماعة الارستقراطيين المنقلبين الذين اتحدت كلمتهم مرة ضد بومبي ومرة اخرى ضده هو وضد بومبي معا ، واخيرا ضده وحده بهدف القضاء عليه والتخلص منه .

لقد وضعوا قيصر في مركز بالغ الحرج ، تماماً كما وضعوا سلا قبله في عام ٨٣ ق . م ، فاما ان يدافع عن نفسه ويحتمي مستقبله ، واما ان يستسلم لجلاديه ، وليس من المعقول ان يسعى الى حتفه بظلفه ، وكان عليه ان يحرق نفسه ويحرق الشعب ايضاً ، - كما قال هو - من نطغيان الاقلية<sup>(١٤٧)</sup> .

ولوان السناتوا استجاب لداعي العقل ، ووافق على عرض قيصر بتبني الحل الوسط - الذي ذكرناه - حين عرضه قيصر ، لجنب روما ويلات الحرب الاهلية . . لقد كانت خصومتهم مع قيصر ورغبتهم في القضاء عليه نهائياً هي هدفهم الاسمي الذي يعلو على مصلحة الدولة .

من ذلك يتبين لنا ان قيصر لا يمكن ان يكون مسئولاً عن اشعال نيران الحرب الاهلية بقدر ما كان اعداؤه مسئولين عنها .

لقد كانت التطورات السياسية التي حدثت في خلال الاعوام القليلة التي سبقت الحرب الاهلية ، ارهاصاً قوياً يقرب نهاية النظام الجمهوري ، كما كانت مقدمات واضحة لنتائج حتمية لابد ان تعقبها . ولكن الطبقة الارستقراطية عميت عن هذه الارهاصات وغفلت تلك المقدمات عن النتائج التي لابد ان تأتي في اثرها ، ولم تر الا عداؤها لقيصر ووجوب الخلاص منه . ولو انها كانت اوسع افقا ، واحسن تقديراً للموقف ، واكثر شجاعة ، لكان في الوسع تجنب هذه الحرب الاهلية التي اتسع نطاقها فشملت كل حوض البحر الابيض المتوسط تقريباً ، والتي انتهت بمصرع بومبي غدرا في مصر ، ومن ثم انقراض قيصر بالسلطة المطلقة في الدولة الرومانية .

والواقع انه لم يعد باقياً من النظام الجمهوري الا اسمه فقط ، ولسوف ينمحي هذا الاسم ايضاً حين ينجح اوغسطس في اقامة نظام حكم المواطن الاول .



لا تزال علاقة الشاعر الانجليزي الكبير وليم شكسبير ( ١٥٦٤ - ١٦١٦ ) بمصادره الكلاسيكية مسألة خلافية تثير الكثير من الجدل بين العلماء المتخصصين . على أن ذلك الجدل لا يبذر الشكوك حول حقيقة تأثير شكسبير بالتراث الاغريقي الروماني ، فهذه حقيقة لا ترقى اليها الظنون ولا يمارى فيها أحد . وإنما يدور الجدل بين الدارسين المدققين والعلماء المحققين حول مدى هذا التأثير وكيفية وقوعه . فأى المؤلفين الكلاسيكيين قرأ شكسبير ؟ وهل كان المأه بالغة الاغريقية واللاتينية يمكنه من الاتصال المباشر مع نصوص هاتين اللغتين ؟ أم تراه إكتفى بقراءة المترجمات ؟ ثم يأتي السؤال الأهم وهو : مادور الثقافة الكلاسيكية في تكوين شكسبير ، تلك العبقرية الدرامية النادرة ؟

وبإدء ذى بدء نعرف بأن محاولتنا للإجابة على تلك الأسئلة المطروحة مغامرة محفوفة بالمخاطر والمخاطر . فحتى لو استطعنا أن نتعقب النصوص الاغريقية واللاتينية التى ترجمت أو أعيد طبعها قبل عصر شكسبير وأثناء حياته - وتلك مهمة شاقة للغاية - فاننا لا نستطيع تحديد موقف شكسبير بالضبط من تلك الطباعات والترجمات ، ذلك أننا لا نملك من وثائق حياته الشخصية والتعليمية ما يمكننا من الإجابة على كل تساؤلنا المطروحة بطريقة قاطعة مانعة لكل الشكوك . إذ سيبقى الباب مفتوحاً - والحال هكذا - أمام التخمينات التوفيقية والحلول النصفية . ومع ذلك فان الدراسات الأدبية الجادة لا تستسلم . أمام الصعوبات وتشق طريقها مهما كان الأمر .

## المصادر الكلاسيكية لمسرح شكسبير "دائرة في مقومات الكتابة الدرامية" إبان العصر الاليزابيثي

### أحمد عتمان

أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة  
والعهد العالي للفنون المسرحية بالكويت

ويكفي بالنسبة لموضوعنا أننا نملك وثيقة تفوق في قيمتها آلاف الوثائق ، ونعني نصوص شكسبير نفسها إذ لا بد أن تكون مرجعنا الأول والأخير . أن التوفر على تلك النصوص وتحليلها تحليلًا دقيقًا ، ونقدًا بأسلوب أكاديمي ، فيه الكثير من التأني والوعي ، سيضع أيدينا على دلائل داخلية لا حصر لها ، وأقل ما يقال عنها أنها أقرب إلى الصحة من الدلائل الخارجية حول ثقافة شكسبير الكلاسيكية . وسواء قلنا أن نشاط حركة إحياء التراث الإغريقي الروماني قد جعل الزاد الثقافي لعصر شكسبير زائدًا كلاسيكيًا بالدرجة الأولى وأن ذلك أثر على كل إنتاج ذلك العصر ، أو قلنا أن شكسبير نفسه كان مغرمًا بالحضارة الكلاسيكية فنتعمق في دراستها - وهو أمر لا يمكن التدليل على صحته من خارج نصوص المؤلف كما رأينا - فأننا سنصل إلى نفس النتيجة ، ألا وهي أن مسرحيات شكسبير مثقلة بشمار الثقافة الكلاسيكية الشائعة في عصر النهضة الأوروبية .



#### ١ - لاتينية قليلة وإغريقية أقل :

وينبغي أن لا ننسى - ونحن نشرع في دراسة مصادر شكسبير الكلاسيكية - حقيقة أن الجزيرة البريطانية كانت يومًا ما جزءًا من الامبراطورية الرومانية ، مما يعطيها الحق في اقتسام التركة الكلاسيكية مع بقية القارة الأوروبية . ففي عام ٥٥ ق . م . قام يوليوس قيصر بغزو بريطانيا ، في العام التالي تمكنت حملة رومانية قوامها خمس فرق بقيادة نفس القائد المشهور من التمرکز في مكان يقع بين دوفر وسأندوينش ، ثم عبرت فيما بعد نهر التيمز . ولكن يوليوس قيصر اضطر للعودة إلى بلاد الغال ( تقابل فرنسا الحالية تقريبًا ) للاحقاد بعض الاضطرابات التي وقعت فيها أثناء غيابه . ولم تتكرر هذه المحاولة الجريئة لضم الجزيرة البريطانية إلى الامبراطورية الرومانية منذ ذلك التاريخ إلا في عصر الامبراطور كلاوديوس وبالتحديد عام ٤٣ م . إذ قاد أولوس بلاتونيوس أربع فرق رومانية وقوات أخرى مساعدة واستطاع أن يتمركز في روتوبياي Rutu — piae وتقابل الآن Richborough) وأن يجرز نصرا حاسما في موقعة ميدي ( Medway ) . ثم جاء الامبراطور كلاوديوس نفسه بعد ذلك على رأس امدادات عسكرية ضخمة تقدم بها في أراضي الجزيرة حتى كولشيستر ( Colchester ) فأُسِّرت كثير من القبائل لتقسم بين الطاعة والولاء له . وبعد عودة الامبراطور كلاوديوس إلى روما صار أولوس بلاتونيوس سالف الذكر أول حاكم على الولايات الرومانية التي أنشئت فوق الجزيرة البريطانية ، التي تكونت من الأراضي التي تم فتحها حتى ذلك الحين . وكانت مهمة هذا الوالي الروماني الأساسية أن يواصل غزو بقية الأراضي البريطانية . وتوالى الحكام الرومان على بريطانيا وتوالى أحداث الحروب التوسعية على حساب القبائل المحلية واستمر الحكم الروماني لبريطانيا حتى عام ٤٢٩ م . ولا تزال توجد بعض



الآثار الرومانية في بريطانيا إلى يومنا هذا . وأهم تلك الآثار بقايا سور هادريان - الامبراطور الروماني من ١١٧ - ١٣٨ م - وكذلك الطرق الرومانية التي يربح في شقتها وتعيدها الرومان . كما تزال كثير من المدن البريطانية تحمل نفس الأسماء اللاتينية - كما هي أو معدلة بعض الشيء - التي اتخذتها منذ تأسيسها في عصر الرومان . وأهم من ذلك أن الجزيرة البريطانية تدين للاحتلال الروماني بفكرة تأسيس المدن التي لم يسبق لها عهد بها من قبل ، حيث اقتصرت المجتمعات فيها على قرى بيوتها لا تتعدى الأكواخ البدائية . فلما جاء الرومان وأقاموا فيها كان لا بد من تخطيط المدن الكبيرة وإقامتها مع توفير شبكات الطرق الطويلة والمستقيمة ، فتلك ملامح أساسية في الحضارة الرومانية التي يغلب عليها الطابع العملي والعمراني .

وحتى القرن الأول الميلادي كان الرومان قد أنشأوا على أرض الجزيرة البريطانية عدة مدن هي بمثابة عواصم للقبائل المحلية التي كانت من قبل متفرقة . ومن بين هذه المدن نذكر فينتا بلجاروم ( Venta Belgarum ) وتقاليل الآن وينشستر ( Winchester ) ونوفيوماجوس ( Noviomagus ) وتقف مكانها الآن مدينة تشيشستر ( Chichester ) وكورنيوم ( Corinium ) ومكانها الآن سيرنيسستر ( Cirencester ) ودورنوفاريا ( Durnovaria ) وتحمل الآن اسم دورشستر ( Dorchester ) . وأقام الرومان كذلك بعض المستعمرات ( coloniae ) مل كامولودونوم ( Camulodunum ) وتقاليل الآن مدينة كولشيستر ( Colchester ) وليندوم ( Lindum ) وهي الآن لينكولن ( Lincoln ) . أما لوندينوم ( Londinium ) فهي المستعمرة التي أصبح اسمها الآن لندن ( London )<sup>(١)</sup> . ولقد صارت العاصمة في تاريخ لا يمكن تحديده بدقة تامة ولكن يمكن القول بصفة عامة أن ذلك وقع إبان عصر الأباطرة الأنطونيين نسبة إلى أولهم أنطونينوس بيوس ( Antoninus Pius ) ( ١٣٨ - ١٦١ م ) أما آخرهم فكان كومودوس الذي حكم من ١٨٠ - ١٩٢ م حيث قتل .

كانت المدن والمستعمرات الرومانية في الجزيرة البريطانية اذن مراكز حضارية متقدمة ضمت المنازل الكبيرة والشوارع المستقيمة والسوق الرومانية المعروفة ( Forum ) وكذلك الحمامات العامة والمسارح . وفي ظل الحكم الروماني راجت التجارة وتقدمت الصناعة نتيجة لاستتباب الأمن والاستقرار بفضل شبكة الطرق المعبدة . وأدخل البلجيكيون المهاجرون فن سك العملات إلى الجزيرة البريطانية . وعلى أيدي الرومان دخلت العبادات الشرقية مثل عبادة ميثراس ( Mithras ) وإيزيس وسيرايس وغيرهم . وهكذا احتضنت بريطانيا أبان العصر الروماني العبادات الكلتية والشرقية جنبا إلى جنب مع العبادات الاغريقية والرومانية . ومن المرجح أن المسيحية لم تدخل الجزيرة البريطانية الا حوالى القرن الثاني الميلادي ، ولكنها لم تصح الديانة الرئيسية الا في القرن الرابع .

(١) عن تفسير آخر لأصل اسم العاصمة البريطانية راجع حاشية رقم ٥٩

وبما قدما يستفاد أن بريطانيا مرتبطة تاريخيا وحضاريا بالرومان ولغتهم السلاتينية أكثر من ارتباطها بالاغريقية . فلا غرو أن تكون اللغة اللاتينية هي اللغة الأكثر شيوعا بين الانجليز أبان عصر النهضة . أضف الى ذلك أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية التي كانت انجلترا تتبعها الى أن حدث الانقسام بينها وبين البابا في عهد هنري الثامن ( ١٥٠٩ - ١٥٤٧ ) وهو والد الملكة إليزابيث ( ١٥٥٨ - ١٦٠٣ ) . ولا يعنى هذا أن اللغة الاغريقية كانت مهملة أو مجهولة تماما آنذاك في انجلترا . فلقد توسع الانسانيون أصحاب حركة احياء التراث الكلاسيكى في دراسة هذه اللغة وأدائها بالجامعات ، ان علي القوم كانوا ينظرون الى اللغة الاغريقية - لا اللاتينية - على انها سمة من سمات الرفعة والجاه . ولكن هذه الحقيقة في حد ذاتها تشهد ضمنا بغلبة اللغة اللاتينية وانتشارها والتي أصبحت في الواقع منذ نهايات القرن الخامس عشر لغة العلم والثقافة والدين ، ليس فقط في انجلترا بل في سائر أنحاء القارة الأوروبية أيضا .

هذا بالنسبة لبريطانيا عصر النهضة . أما بالنسبة لشكسبير فيرى بعض العلماء أن محصوله من اللغتين الاغريقية واللاتينية ضئيل هزيل لا يمكنه من قراءة نصوصها . ويرى هذا الفريق من العلماء أن من يقرأ مسرحيات شكسبير لا يواجه مواطن كثيرة أو قليلة تستوجب معرفة المؤلف بهاتين اللغتين معرفة واسعة . والجدير بالذكر أن مثل هؤلاء العلماء لا يشكون في معرفة شكسبير بالاطالية والاسبانية وفرنسية العصور الوسطى قدر شكهم بالنسبة للاغريقية واللاتينية . وهم يرجعون أن يكون شكسبير قد قرأ بوكاشيو ( ١٣١٣ - ١٣٧٥ ) مترجما الى الفرنسية ولكنهم في نفس الوقت يؤكدون أنه قرأ أجزاء من مؤلف جيرالدى ( G. Giraldi ) الملقب بالشينثيو ( IlCinthio ١٥٠٤ - ١٥٧٣ ) « المائة اسطورة » ( Hecatomithi ) . ويؤكد هؤلاء العلماء أيضا أن شكسبير قرأ مسرحيات ايطالية كثيرة . ويستضغ من الصفحات التالية في دراستنا أن لنا تحفظات على مثل تلك الآراء ، فنحن نرى أن شكسبير قد عاد كثيرا الى الأصول الكلاسيكية بلغتها الأصلية ، ولا سيما بالطبع اللاتينية منها ، وان كان ذلك لا ينفي أنه اعتمد في أغلب الأحيان على الترجمات .

ولقد حاول بولدين T. W. Baldwin في كتابه القيم بعنوان « لاتينية وليام شكسبير القليلة وإغربيته الأقل » ( William Shakespeare's Small Latine and Lesse Greeke ) أن يحلل النظام التعليمي السائد أيام طفولة وصبي شكسبير ، وقرن ذلك بمسرحياته ، وحاول أن يصل الى الكتب التي من المحتمل أن يكون الشاعر الانجليزى قد قرأها . وتوصل بولدين الى أن شكسبير قد قرأ كتاب القواعد اللاتينية ذا المستوى العالى ، والذي ألفه أثنان من أبرز معلمى عصر النهضة ، أحدهما جون كولييت John Colet ( ١٤٦٧ - ١٥١٩ ) وهو من أبرز رجالات الحركة الانسانية ، حتى أنه عندما ألقى محاضراته عن « العهد الجديد » في جامعة اكسفورد من ١٤٩٦ - ١٥٠٤ كان ارازموس أكثر علماء السكلاسيكيات تأثيرا في أوروبا ( ١٤٦٦ - ١٥٣٦ ) من بين مستمعيه . اما الثانى فهو ويليام ليلي William Lily ( ١٤٦٨ - ١٥٢٢ ) وهو

أيضا من مشاهير علماء الكلاسيكيات في عصره . ويقتطف شكسبير من كتاب القواعد اللاتينية سالف الذكر ويقلده أكثر من موضع ، إذ أن هذا الكتاب تضمن مقتطفات كثيرة من المؤلفين الكلاسيكيين ، فعل سبيل المثال يقول الخادم بارمينو لسيدة في مسرحية تروتيوس ( ١٩٥ / ١٨٥ - ١٥٩ ق . م ) « الحصى » ( Eunuchus ) أنه وقد وقع في الحب أسيرا فلا مفر من أن يغدو نفسه بأقل ثمن ممكن . ولقد أورد كوليت وليل بيتا من هذه المسرحية في كتابها يوجز هذا المعنى ويوضح طريقة استخدام الأداة اللاتينية quam مع صيغة أفضل التفضيل للتعبير عن معنى « أقصى بما يمكن » . وها هو البيت :

« quid agas ? nisi ut te redimas captum quam queas / minumo ».

« ماذا عليك أن تفعل ؟ لأنيء اللهم إلا اذا استطعت أن تفتدي نفسك أيها الأسير ( في الحب ) بأقل ثمن ممكن » ( ف ١ م ١ ب ٢٩ )<sup>(٢)</sup> . وفي مسرحية « ترويض النمرة »<sup>(٣)</sup> يقتطف الخادم ترانيو هذا البيت وهو يتحدث إلى سيده فيقول ( ف ١ م ١ ب ١٦٦ ) :

If love have touched you ; nought remains but so  
redime te captum ; quam queas minimo

« ان كان الحب قد مسك قلم يعد أمامك حل سوى مايلي :

« اقتد نفسك أيها الأسير ( في الحب ) بأقل ثمن ممكن » .

وفي مسرحية « نيتوس أندرونيكوس » ( ف ٤ م ٢ ب ٢٠ ) توجد أسلحة عليها نقش لاتيني يقول :

**Integer vitae scelerisque purus**

**Non eget Mauris iaculis neque arcu**

« ان المستقيم في حياته ، البرىء من كل جريمة لا يحتاج الى السهام المغربية ولا الى القوس » . وعندما يقرأ

أحد شخصيات المسرحية هذا النقش اللاتيني بصوت عال يرد عليه الآخر بقوله :

O ! 'tis a verse in Horace ; I know it well ;

I read it in the grammar long ago

« أهو ! ... انه بيت من هوراس ( أى هوراتيوس ) انني أعرفه جيدا .

(٢) ف = فصل ، م = مشهد ، ب = بيت

وبالنسبة لنص تروتيوس المشار اليه فقد راحناه في الطبعة التالية :

S.G. Ashmore, The Comedies of Terence (Oxford University Press 1908) p.105.

(٣) لما يخلص نصوص مسرحيات شكسبير اعتمدنا على طبعة آردين :

The Arden Shakespeare Paperbacks (Methuen)

لقد قرأته في كتاب القواعد ( اللاتينية ) منذ أمد طويل .

فهنا يتحدث شكسبير على لسان أحد شخصياته عن دروس اللاتينية التي تلقاها في المدارس وكيف أفادته  
لانه قرأ فيها هوراتيوس . وجدير بالذكر أن البيتين المذكورين يردان بالفعل عند الشاعر السلاتيني  
المذكور ( Odés i,22,1—2 )<sup>(٤)</sup>

ويمكننا الآن أن نفسر بعض الفقرات الشكسبيرية التي كان من العسير تفسيرها في السابق . فمثلا أثبت  
بولدوين أن شكسبير قد قرأ - بين النصوص اللاتينية الأخرى - مجموعة قصائد رعوية كان قد جمعها بابتيسنا  
سبانيولي Baptista Spagnuoli والمعروف باسم مانتوان أو مانتوانوس ( Mantuan us ١٤٤٨ -  
١٥١٦ ) . فتجد هذه القراءة في تلك القصائد الرعوية اللاتينية صداها في بيت يقتطفه ناظر المدرسة هولوفيرنيس  
في مسرحية « خاب سعى العشاق » ( ف ٤ م ٢ ب ٩٦ وما يليه ) اذ ينتهز الشاعر هذه الفرصة ليثني على صاحب  
تلك القصائد . وفي مسرحية « هاملت » ( ف ٥ ب ٢٣٨ وما يليه ) ينطق لا ارتيس بكلمات رائعة هي بمثابة  
شاهد قبر لأوفيليا اذ يقول :

Lay her i' the earth

And from her fair and unpolluted flesh

May violets spring !

« ادفنوها في الأرض ومن جسدها الجميل غير المدنس لتنبث أزهار البنفسج » . ولا بد من أن تذكرنا هذه الفقرة  
بأخرى مماثلة لها عند الشاعر اللاتيني الهجاء بيرسيوس Persius ( ٢٤ - ٦٢ م ) يقول فيها ( 9—i 38 ) :

nunc non e tumulo fortunataque favilla

nascentur violae ?

وتقول ترجمتها الانجليزية :

Now from his tomb and beatifice ashes

won' t violets grow ?

« والآن ان تولد من قبره وجمرات حرقه ( أى السرماد المتبقى من حرق الميت ) المحظوظة زهرات  
البنفسج ؟ » .

(٤) بالنسبة للنصوص الاغريقية واللاتينية المشار اليها في هذه الدراسة اعتمدنا في الغالب على طبعة لوب The Loeb Classical Library  
ولي حالات الرجوع الى طبعات اخرى سترفع ذلك في الحواشي .

ويستبعد النقاد أن يكون شكسبير قد قرأ وفهم نص هذا الشاعر الشاب صعب الأسلوب ، ولكن بولدوين أثبت أن هذه الفقرة مقتطفة من نصه ووارده فعلاً في الحواشي الشارحة لمجموعة قصائد مانتوانوس الرعوية التي من المؤكد أن شكسبير قد قرأها وعضها .<sup>(٥)</sup>

لقد كانت المدارس المعروفة باسم مدارس الآجرومية ( Grammer School ) كتلك التي تعلم فيها شكسبير بقرنته ستراتفورد تحرس على أن تزود طلابها بتدريب لا بأس به من اللغة اللاتينية لغة الدين في الكنائس الغربية في مقابل اللغة الاغريقية التي كانت تستخدمها الكنائس الشرقية . وهذا يعنى أن الاهتمام باللغة اللاتينية في المدارس الانجليزية كان يفوق الاهتمام باللغة الاغريقية . والجدير بالذكر أن مدرسي اللاتينية من رجال الدين ظلوا على تشدهم في تدريسها بمدارسهم الى ما بعد قيام حركة الاصلاح الديني على يد مارتن لوتر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ) بزم طويل . لقد كان برنامج الدراسة في مدارس الآجرومية يتضمن طرفاً من اللغة اللاتينية ، مع قراءة مقتطفات من شيشرون وفرجيليوس وهوراتيوس وأوفيدوس وغيرهم . وكان التلاميذ يقومون بتمثيل بعض المشاهد من مسرحيات بلاوتوس وترنتيوس وسينيكا ، الا انهم لا يدرسون من الاغريقية سوى ما يعينهم في قضاء الأغراض الدينية الضيقة .

ومن المعروف أن الأديب العالم بن جونسون ( ١٥٧٣ - ١٦٣٧ ) معاصر شكسبير هو الذي قال بأن المام الأخير باللاتينية كان بسيطاً متواضعاً ، أما معرفته بالاغريقية فهي أقل من ذلك ولكنه - أى شكسبير كان موفور الحظ من لغة الطبيعة .<sup>(٦)</sup> وشهادة بن جونسون هذه لا يستهان بها لانه قد عرف شكسبير عن قرب ، ولأنه ، من ناحية أخرى ، عالم وناقد دقيق الملاحظة . ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون بن جونسون قد عنى أن يفيس معرفة شكسبير باللغتين الاغريقية واللاتينية الى علمه هو وأقرانه من الفقهاء المتوفرين عليها . وهنا تجدر الإشارة الى أن معرفة بن جونسون باللغة اللاتينية بلغت حد الاتقان التام ، حتى أنه كان يترجم أعمال اللورد فرنسيس بيكون ( ١٥٦١ - ١٦٢٦ ) المكتوبة باللاتينية الى اللغة الانجليزية ، والأعمال المكتوبة بالانجليزية كان أيضا ينقلها الى اللغة اللاتينية . ومن ثم فإن شهادة بن جونسون عن ضآلة وضحالة معرفة شكسبير باللغة اللاتينية والاغريقية يمكن أن تؤخذ لصالح شكسبير وثقافته الكلاسيكية كمؤلف مسرحي مبدع لا كدارس وباحث متفقه .

(٥) T.W. Baldwin, *William Shakespeare's Small Latine and Lesse Greeke* (Urbanna, Ill. 1944) i p.649;cf.G. (٥) Highet, *The Classical Tradition. Greek and Roman Influences on Western Literature*(Oxford at the Clarendon Press 1949) p.626n. 96,cf.K. Muir, *Shakespeare's Sources, I Comedies and Tragedies* (Methuen&Co., Ltd. London 1957 repr. 1965) p. 1—7.

(٦) جاءت عبارة بن جونسون عن لاتينية شكسبير القليلة واغربيته الاقل في ثانيا قصيدة ثناء وردت في الفوليو الاول (First Folio) ويقول سينجلاردن ان بن جونسون اطلق هذه العبارة من كتاب « فن الشعر » لمينتورنو (Minturno, *Arte Poetica*, p.158) حيث وردت العبارة كما يلي :  
poco del latino pochicissimo del greco

J.E. Spingarn, *Literary Criticism in the Renaissance* (New York 1899) p.89n.

علينا إذن أن نفعل ما فعله هييجيت ( G. Highet ) أى أن نقبل حكم بن جونسون ونعتبره صحيحا . فشكله لم يكن ضليعا في اللغة اللاتينية أما الاغريقية فكانت معرفته بها يسيرة جدا . بل أن الدراسة المتأنية للفقرات اللاتينية المقطعة من المؤلفات الكلاسيكية في مسرحيات شكسبير تثبت ذلك . لأنه يتعامل مع تلك المقطعات لا تعامل العالم المتكبر وإنما بأحاساس المؤلف الخلاق والشاعر الفنان<sup>(٧)</sup>، كان على بن جونسون فقط - أن اراد أن ينصف شكسبير - أن يضيف القول بأن الشاعر الانجليزي الفذ كان مغرما بالأدب الاغريقي اللاتيني منذ بدأ ينتصف بعض مؤلفاته في المدرسة . وظل يتذكر النصوص اللاتينية - وربما الاغريقية - التي قرأها في المدرسة ويستزيد منها بالاطلاع على الترجمات المختلفة ، دون أن يكون هناك ما يمنع الاعتقاد بأنه قد أعاد قراءة بعضها في نصوصها الأصلية اذا اقتضى الأمر . المهم أنه استغل كل تلك القراءات الكلاسيكية أروع الاستغلال .

ومع أننا سنعود الى موضوع المسرحيات الاغريقية والرومانية لشكسبير الا أننا سنتعرض لها الآن للإشارة بأن شكسبير يعرف ويحس بكل ما هو روماني لا تبنى أكثر من معرفته واحساسه بما هو اغريقي . ومن ثم نلاحظ أن مسرحيات شكسبير الرومانية تقترب من الروح الرومانية بدرجة تفوق اقتراب مسرحياته الاغريقية من الروح الاغريقية . وهذا أمر واضح جدا في تعامل شكسبير مع بلوتارخوس الذي أخذ من « سيره المقارنة لكبار الشخصيات الرومانية » مادة لبعض مسرحياته . فالذي حدث هو أن شكسبير لم يحفل الا بالشخصيات الرومانية وتجاهل الشخصيات الاغريقية المقابلة ، فنجده لا يكاد يعرف منها سوى الكيباديس وتيمون .

ومن العجيب ان شكسبير في مسرحية « تيمون الاثيني » الاغريقية في موضوعها كما هو بين حتى من عنايتها يستخدم اسمين أو ثلاثة فقط من أصل اغريقي أما بقية الأسماء فهي لا تينية مثل فارو Varro وإيسيدور Isidore وهي أسماء لا تتناسب بأصلها اللاتيني مع ملابسات موضوع المسرحية . وفي هذا الصدد نلاحظ اهمالا واضحا من جانب شكسبير في مواءمة المادة المأخوذة من بلوتارخوس ، ومثال ذلك المشهد الختامي في المسرحية التي نتحدث عنها ( ف ٥ م ٤ ب ٧٠ وما يليه ) فهنا نرى الكيباديس يقرأ ما هو مفترض أن يكون شاهد قبر تيمون الاثيني الذي كتبه بنفسه ليوضع على قبره . ولكن الحقيقة هي أن شكسبير يدمج شاهد قبر مختلفين ومكتوبين في زمنين متباعدين . فأحدها كتبه تيمون نفسه ، والثاني نظمته كاليارخوس زعيم الشعر السكندري ( ٣٠٥ - ٢٤٠ ق . م تقريبا ) . هذا ما ينقله لنا بلوتارخوس ولكن شكسبير لم يهتم بالتحقق من مصدره وأدمج قصيدتين - لا يمكن أصلا الجمع بينهما - في قصيدة واحدة .

(٧) ..... Highet, op.cit., p.200-201

ولفرن : عباس محمد الفلاح : التعريف بشكسبير ( دار المعارف بمصر . الطبعة الثالثة ١٩٧٦ ) ص ١٢٥ - ١٢٦ و ص ١٩٩ .

د . لويس عوض : البحث عن شكسبير ( دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ) ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

وللتدليل على احتفال شكسبير بكل ما هو روماني على حساب التراث الاغريقي نذكر بأن شكسبير في المسرحية نفسها يتحدث عن أثينا الدولة فينسب إليها « أعضاء مجلس الشيوخ » ( senators ) مما يوحي بأنه يتصور دولة أثينا جمهورية رومانية ( respublica ) لها « مجلس شيوخ » ( senatus ) وليست دولة - مدينة ( polis ) تتمتع بمجلس الشعب ( ecclesia ) . ولا يخفى أن تلك التفرقة الاولى التي افترضها شكسبير هي قوام الفهم الصحيح للحضارة الاغريقية في مقابل الحضارة الرومانية .

وفي مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » الاغريقية الموضوع أيضا يستعير شكسبير بعض الشيء من « الباذة » هوميروس مثال ذلك المباراة بين هيكتور وأياس وحديث أوديسيوس ( ف ١ م ٣ ب ٧٨ ومايليه ) وكذلك شخصية ثيرستيس ( Thersites ) التي لم تظهر في الروايات الشائعة للحرب الطروادية أبان العصور الوسطى ، وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في حينه . ههنا الآن أن نشير الى أن كل الدلائل تثبت أن شكسبير قد قرأ ترجمة تشابان. للالبازة ولا سيما الكتاب الأول والثاني ، والكتب من السابع الى الحادي عشر حيث ظهرت عام ١٥٩٨ ومع ذلك نجد مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » ليست فقط منافية لروح البطولة الاغريقية ، ولكنها تقتل كاريكاتيرا غير مقنع لبلاد الاغريق وحضارتهم .

أما المسرحيات الرومانية فتظهر تفاصيل أكثر دقة واقعية في مقابل المسرحيات الاغريقية التي تخطئ. حتى في المسائل الثانوية البسيطة مثل الملابس والأثاث ويظهر فيها الخلط الزمني anachronism كعيب واضح لا تخطئه العين الفاحصة . فهيكتر مثلاً في مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » ( ف ٢ م ٢ ب ١٦٦ ) يقتطف من أرسطو . وهيكتر هذا هو أحد أبطال الحرب الطروادية ومن الفروض أنه عاش حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وتفصله عن ارسطو ( ٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م ) حوالى ثمانية قرون ! ويتحدث باندروس في نفس مسرحية شكسبير ( ف ١ م ١ ب ٨١ ) عن « الجمعة » و « الأحد » ! والاخوان أنتيغولوس في « كوميديا الأخطاء » هما ابنان تاتهان منذ أمد طويل من أبيهما « القسيس » ( abbeys ف ٥ م ١ ) ففى ذلك خلط زمنى واضح بين جو المسرحية الاغريقية الوثنى والمعتقدات المسيحية السارية في عصر شكسبير .

ومعروف أن شكسبير يقدم انطونيوس في مسرحية « انطوني وكليوباترا » في صورة أفضل مما هي عليه في بولتارخوس وغيره من المصادر القديمة . لقد استخدم شكسبير حقه كمؤلف درامى في اعادة خلق الشخصية التاريخية فجعله بطلا عظيماً لا يخلو من بعض الأخطاء والعيوب . وبذلك حقق الشاعر الانجليزى نجاحاً ملموساً في رسم شخصية هذا البطل الرومانى . ولكنه عندما تناول الكيبيداس الاغريقى في « تيمون الأثينى » وهو ما هو في المصادر الكلاسيكية شخصية مركبة ذات امكانات درامية هائلة ، تعثر ولم يحقق نفس النجاح الذى حققه مع انطونيوس . ان شكسبير لم يفهم الاغريق بالدرجة التى نتيج له تصوير الشخصيات الاغريقية بالصورة

المتناسبة . في حين انه يتمتع بهيمنة ظاهرة على الموضوعات الرومانية . ونحن نرجع السبب الى عاملين متصلين الأول أن عصر النهضة في إنجلترا وبقية الدول الأوروبية كان في بدايته رومانيا لاتينيا أكثر منه اغريقيا . أما العامل الثاني في هذا التفاوت بين رومانيات واغريقيات شكسبير فهو أنه اتصل مباشرة ببعض المؤلفات اللاتينية في نصوصها الأصلية ، في حين أنه لم يكن قادرا على أن يفعل ذلك بالنسبة للمؤلفات الاغريقية على الأرجح .

يستخدم شكسبير ثلاث أو أربع كلمات فقط من الاغريقية مثل *cacodemon* ( شيطان أو روح شريرة من *kakodaimon* ) في مسرحية « ريتشارد الثالث » ( ف ١ م ٣ ب ١٤٤ ) وكلمة « *anthropophagi* » ( = أكل لحم البشر ) في مسرحية « عطيل » ( ف ١ م ٣ ب ١٤٤ ) وكلمة « *misanthropos* » ( = كاره البشر ) في « تيمون الأثيني » ( ف ٤ م ٣ ب ٥٣ ) . وجاءت الكلمة الأخيرة من حاشية في ترجمة نورث لسير بلوتارخوس<sup>(٨)</sup> . ويورد شكسبير كلمات وعبارات لاتينية في مسرحياته أكثر من الكلمات والعبارات الاغريقية ، ولكنها أقل من الكلمات والعبارات والمقتطفات التي يوردها معاصروه في مؤلفاتهم . لا شك أن ذلك يرجع الى أن اطمنان شكسبير الى اللغتين الاغريقية واللاتينية كان أقل من اطمنان أقرانه ، بل ان اطمنانه للغة اللاتينية التي يعرفها أكثر من الاغريقية لم يكن على نفس مستوى اطمنانه للغات أخرى مثل الايطالية والفرنسية .

كثيرة هي المقتطفات اللاتينية التي ترد في مؤلفات ميلتون ( ١٦٠٨ - ١٦٧٤ ) وبين جونسون ورونسار ( ١٥٢٤ - ١٥٨٥ ) وغيرهم من شعراء عصر النهضة الأوروبية . وقليلة تلك الكلمات والعبارات اللاتينية التي يستخدمها شكسبير والتي ترد في مسرحياته المبكرة . ففي مسرحية « خاب سعى العشاق » يوجد مدرس مثير للضحك يتحدث باللاتينية لكنه ، مثل بقية المتحدثين باللاتينية في مسرح شكسبير ، ليس ضليعا في هذه اللغة . ومع ذلك فمن الملاحظ أن شكسبير كثيرا ما يفضل الكلمات الانجليزية المشتقة من اللغة اللاتينية ، وكأنه حريص على أن يحيطنا علما بمدى معرفته بهذه اللغة ومشتقاتها . فهو يستخدم كلمة *juvenal* ( من الكلمة اللاتينية *iuvēnis* ) بدلا من *youngster* بمعنى « شاب » . ولكن هذا كله لا يهم ما دام شكسبير أساسا شاعرا انجليزيا يكتب بالانجليزية لا اللاتينية . ويقول موير ( K. Muir ) أن غياب المقتطفات اللاتينية في مسرحيات شكسبير المتأخرة قد يدل على أن الشاعر اكتشف في النهاية أن جزءا من جمهوره قد لا يقدّر قيمة هذه المقتطفات أو لا يفهمها ، كما أنها قد تكون بلا فائدة درامية تخدم أهدافه<sup>(٩)</sup> .

وفي الحقيقة كان اقتطاف مقتطفات من الشعر اللاتيني بلغته الأصلية أو مترجما أمرا شائعا تماما كتقليد هذه المقتطفات أو إعادة صياغتها ، ولم يكن ذلك بالنسبة لأدباء وشعراء عصر النهضة ضربا من التحذلق ، بل

(٨) انظر اسفله

(٩) ..... p.5, op.elt., Muir



وسيلة لاضفاء شيء من الجبال والأهمية على مؤلفاتهم . ولا ينفي شيوع هذه الظاهرة أن ذوق وثقافة كل شاعر على حدة هي التي حددت أسلوبه في استغلال هذه المقطوعات وكيفية إعادة صياغتها بعد هضمها . ولا يوجد من ينازع أو يضارع ميلتون في ذلك فلقد زين مؤلفاته بجواهر ثمينة أخذها من الآخرين . وبعد بن جونسون أكثر مؤلفي عصر النهضة الدراميين ثقافة وعلمًا ، فهو المترجم الماهر والمقتطف بفزارة من المصادر الكلاسيكية ، حتى أن أجزاء هامة من الحوار في مسرحياته تعد ترجمات حصرية لفقرات من المؤرخين الرومان الذين نهل منهم موضوعاته وحيكاته . فإذا قارنا شكسبير بميلتون وبين جونسون وجدناه نادرا ما يقتطف من الأدب اللاتيني . أما إذا وضعناه الى جانب راسين ( ١٦٣٩ - ١٦٩٩ ) مثلا وجدناه يقتطف بكثرة وحرية .

على أية حال هناك أدلة كثيرة في مسرحيات شكسبير تشير الى أن الشاعر الانجليزي قد عاد بالفعل الى النص اللاتيني<sup>(١٠)</sup> في بعض الأحيان . فمثلا يرد في الكتاب الثاني من « إينبادة » فرجيليوس البيت ( رقم ٩٨ ) التالي :

constitut atque oculis Phrygia agmina circumspectit

« عندما وقف ساكنا وأدار ناظره حول الحشود الفروجية ( أى الطروادية ) »<sup>(١١)</sup> . وفي قصيدة « اغتصاب لوكريس » بيت ١٥٠٢ يستخدم شكسبير لفظة Phrygian بمعنى « الطروادي » . فإذا علمنا أن فاير ( Phaer ) قد حذف هذه اللفظة في ترجمته للأينبادة لتبيننا أن شكسبير قد عاد بالفعل للنص اللاتيني .

وهناك بعض العلماء ممن يستدلون على عمق معرفة شكسبير باللاتينية من قدرته الفائقة على نحت كلمات انجليزية جديدة من اشتقاق لا تينى . فهو مثلا يستخدم orifix بدلا من orifice بمعنى « فتحة أو فوهة أو ثقب » . ومثل هذه القدرة لم يتمتع بها شخص آخر في العصر الاليزابيثي سوى تشابان نفسه . ولقد منح شكسبير لنفسه حرية واسعة في هجاء الأسماء الكلاسيكية ، ولا سيما الاعلام ، فهو مثلا يستخدم Collatium بدلا من Collatia وهي مدينة تقع في سهل لا تيم . ولكن مثل هذه الحرية لم ينفرد بها شكسبير دون بقية كتاب العصر الاليزابيثي الذين لا يشك في لا تيتيتهم أحد ، وعلى رأسهم جولدنج A. Golding ( ١٥٣٦ ؟ - ١٦٠٥ ؟ ) الذي يستخدم أشكالا غريبة في بعض الأحيان لأسماء الاعلام في مترجماته عن اللاتينية . ومن ثم فإن استخدام شكسبير لللفظة triumpherate بدلا من triumvir بمعنى « حكومة الائتلاف الثلاثي » في روما لا يدل بالضرورة على جهله بالكلمة اللاتينية واشتقاقها . ولو أن هذه الكلمة الشكسبيرية بالذات تخلق لنا مشكلة محيرة ، لأننا غير قادرين على تفسير استخدامه لها . والجدير بالذكر أن معظم كتاب ذلك العصر قد تمتعوا بحرية

(١٠) Thomas Baynes, What Shakespeare Learned at School (Fraser Magazine, New Series vol.21) 1903 passim.

(١١) فرجيليوس « إينبادة » الجزء الاول ( الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ ) الكتاب الثاني ترجمة الدكتور عبد المعطي شعراوي .

واسعة في الهجاء حتى أن مارستون J. Marston (١٥٧٥ - ١٦٣٤) الذي كان بمقدوره أن يؤلف باللاتينية يستخدم scilence بدلا من silence بمعنى «السكوت» أو «الصمت».

وإذا تجاوزنا عن الأخطاء اللغوية في لاتينية شكسبير بحجة أن أهل ذلك العصر قد تمتعوا بحرية كبيرة في الهجاء وجدنا في شكسبير أخطاء اسطورية أخرى ولو أنها قليلة نسبيا . فهو مثلا جعل انطونيوس يتحدث عن أينياس وديدو كمشتبهين في العالم الآخر ، بينما الكتاب السادس من إينيادة فرجيليوس يجعل ديدو تتجنب الحديث مع حبيبها السابق وتؤتبه تأنيبا عنيقا .<sup>(١٢)</sup> ومع ذلك فمن الخطأ أن نجزم بناء على ما تقدم أن شكسبير لم يقرأ الكتاب السادس من الإينيادة ، أو أنه كان قد نسبه وهو ينظم « انطوني وكليوباترا » المسرحية التي وردت فيها تلك الإشارة الاسطورية . وينبغي أن نتذكر أن استعمال شكسبير للأساطير استعمال خلاق فيه إضافة . كما يجب أن نضع في اعتابنا وجود مصادر أخرى لأساطير جاءت من العصور الوسطى جنباً الى جنب مع المصادر الكلاسيكية . الا أننا على أية حال نجد شكسبير يخلط في « ترويلوس وكريسيدا » ( ف ٥ م ٢ ب ١٥٢ ) بين كل من أرأخني ( Arachne ) التي تحدد الربة أثينة في النسيج وكانت تسج على مناولها غراميات الآلهة وأريادني ( Ariadne ) التي أنقذت عشيقها ثيسيوس وأخرجته من قصور التيه في كنوسوس بواسطة خيط يقود طريقه عبر متاهات القصور التي فيها كان أبوها قد حبسه . ومن الممكن أن لاعتبر الاسم الذي يستخدمه شكسبير وهو أريأخني ( Ariachne ) خطأ<sup>(١٣)</sup> فلربما أراد الشاعر أن يذكرنا بالشخصيتين والاسطورتين معا باستخدام اسم يجمع بينهما .

لقد عرف شكسبير إذن من اللاتينية القدر الذي يمكنه لا أن يكون عالماً فقيها ولا حتى أن يقرأ كل نصوص هذه اللغة بسهولة ويسر ، بل بالقدر الذي حبه في التراث اللاتيني ، ولكنه من تذوق آدابه وأشعاره وتوارثه ، وجعله يعايش بعض مؤلفيه ويعقد معهم صلة مباشرة . كما أن شكسبير قد عاش في جو ثقافي عام مفعم بالكلاسيكية فتعلم من المناقشات الدائرة حوله والدراسات المنشورة تباعا . ومما لا شك فيه أنه ظل طوال حياته

(١٢) نفس المرجع الكتاب السادس ترجمة الدكتور احمد عتار .

(١٣) ومن الأخطاء الاسطورية الاخرى بمرحيات شكسبير نذكر حل سبيل المثال الاثنياله الراضح في اشارته الى االثايا (Althaea) ام مليامروس في مسرحية « هنري الرابع ، الجزء الثاني » (٢٠٢٢ ب ٩٥) . كذلك يذكر شكسبير في مسرحية « طاب سمي العشاق » (٢٠٢٢ ب ٥٩٣) ان هرقل قتل - لا اسر او جلب - الكلب كيربوس حارس العالم السفلي . ومعروف اسطوريا ان الحبس يدعى (Hesperides) هن « بنات الليل » اللاتي يهرسن شجرة اوراقها تحمل « التفاحات الذهبية » اما شكسبير فيحدث عنهن كما لو كن هن القسطن الحديثة ؛ وكذلك يقول ان هرقل هو الذي جمع التفاحات الذهبية بنفسه في حين ان الاسطورة الاغريقية تروي حل ان هرقل حل (السبا بدلا من اطلس وطلب من الاخير ان يجمع له التفاحات الذهبية ( راجع « طاب سمي العشاق » ف٢٠٢٢ ب ٣٤١ ) و بيريكليس امير صور « ف٢٧ ب ١٦١ » و « كوربولانوس » ف٢٠٢٢ ب ٩٩٠) . انظر « هرقل فوق جبل أربنتا » لسبيتكا ترجمة د . احمد عتار ( من المسرح العالمي . الكويت مارس ١٩٨١ ) ص ٣٣ - ٣٦ - ٢٥٦ - ٢٥٧ . والمجدد بالذكر ان شكسبير يشير في مسرحية « كما تهبها » (ف٢٠٢٢ ب ٧٧٧) الى « اوزبونو موينو هذه هي عينا زبونة رب الارباب جويستر ( اي زيوس ) . وهذه الآلة لا ترتبط بالاوز في الاساطير مطلقا وإنما الذي له علاقة وثيقة بالازهر زوبها رب الارباب نفسه الذي تنكر في صورة الازر ليصل الى مشرفته ليدا ؛ والمثير هنا ان شكسبير في مسرحية « قصة الشتاء » ( ف٢٠٢٢ ب ٢ ) يتحدث عن دلفي كما لو كانت جزيرة ؛

الأدبية يقرأ ويستخدم مترجمات عن الاغريقية واللاتينية . وإذا كان الأدب الاغريقى اللاتينى قد أمد كتاب عصر النهضة بالزاد الثقافي والخيال الابداعي فان احدا منهم لم يتفوق في الهضم والتأثر بها ببراعة وعبقرية على ذلك الشاعر الفذ الذى كانت لا تبنية قليلة واغربيته أقل ! وفى النهاية يمكنى كواحد من المتخصصين فى الدراسات اليونانية واللاتينية أن أحمس فى اذن زملائى وأساتذتى وغيرهم بأنه لا يعيب شكسبير أن يكون قد قرأ النصوص اللاتينية والاغريقية مترجمة دون أن يرجع الى الأصول - أحيانا - لأن علماء هذه الدراسات فى وقتنا الحاضر يستخدمون طبعة لوب ( Loeb Classical Library ) وطبعة جمعية بيديه G. Bude (Societe d'edition Les Belles Lettres) اللتين توردان النص الاغريقى أو اللاتينى على صفحة ، والترجمة الانجليزية أو الفرنسية على الصفحة الأخرى . ولا يتحرج جهابذة الكلاسيكيات فى أيامنا هذه من النظر فى الصفحة التى تحمل الترجمة للاستشارة أو للاستشارة بها فى فهم ما هو على الصفحة الأخرى . وبالطبع فانا نعيب على أولئك الذين يقفون عند النظر فى صفحة الترجمة فقط ويعتمدون عليها كلية حتى وهم يترجمون تلك النصوص الى اللغة العربية مثلا !



## ٢ - جولة عامة فى كلاسيكيات شكسبير :

قد يكون من المفيد أن نميز بين الكتاب الكلاسيكيين الذين عرفهم شكسبير حق المعرفة وهضم كتاباتهم هضما مجديا ومثمرا وبين أولئك الذين ألم ببعض مؤلفاتهم وتوسط اليهم بوسائط مختلفة ولم يعقد معهم صلة مباشرة . على أنه ليس من السهل تحقيق محاولة التمييز هذه التى ندعو اليها . فأى مؤلف مثقف يهضم ما يقرأ ويمثله غذاء روحيا يصبح جزءا لا يتجزء من تركيبته الفكرية والشخصية ويتعذر علينا نحن الدارسين أن نفصل ما بين أفكاره الخاصة والأفكار التى نقلها عن غيره . فما بالنا بشكسبير الشاعر العبقري والمبدع الكبير وقد عاش فى عصر تعددت فيه روافد الثقافة ، ونعنى العصر الاليزابيثى ، العصر الذهبي للأدب الانجليزى . علاوة على ذلك ينبغى أن نتسلح بكثير من الحرص والحيلة منذ البداية فعندما نجد عند شكسبير فقرة ما أو فكرة معينة تتشابه مع مثيلة لها عند أى مؤلف كلاسيكى لا يصح أن نهتف فرحين بما وجدنا قائلين : ها قد عثرنا على شيء ماغوذ من هذا المؤلف أوذاك لا تبنيا كان أم اغريقيا . فنحن مثلا نعرف تمام المعرفة تقريبا أن شكسبير لم يقرأ أيسخولوس خالق التراجيديات الاغريقية ، فهاذا نحن قائلون عندما نجد أفكارا أيسخولية عند شكسبير ؟ هناك أكثر من تفسير بالطبع فقد تكون هذه الأفكار وصلت الى عصر شكسبير عن طريق غير مباشر من مؤلفات كاتب مثل سينيكا أو غيره . كما أن النقاد قد لا حظوا بصفة عامة أن الكتاب العظام وإن عاشوا فى أمكنة متفرقة أو أزمئة متباعدة غالبا ما يفكرون نفس التفكير تقريبا ، فتنشابه كتاباتهم دون أن تتطابق على أية حال .

ومن ثم فإنه عندما تتشابه بعض الفقرات بين كاتبين معينين ينبغي أن نتحقق عن طريق الدلائل الخارجية على أن أحدهما قد قرأ الآخر كما أنه ينبغي أساسا التدقيق في عملية اثبات شبات التشابه بين هذه الفقرات ، فبعد التدقيق والتحقق قد لا نجد تشابها جوهريا بالمعنى الصحيح ، وقد لا يعدو الأمر مجرد توارد أفكار وخواطر أو تشابه ظاهري ليس الا . وبعبارة أخرى يجب أن نضع في الاعتبار ترتيب الأفكار وتركيب الجملة ووضع الكلمات . وجدير بالملاحظة أيضا أن الدراسة المقارنة بين كاتبين هي أيضا في بعض جوانبها دراسة مقارنة لعصريهما . إذ ينبغي أن نلم بلباسات الجو الثقافي المحيط بكل منهما ، ولا سيما الكاتب المتأخر والمتلقى منها . ففي حالة شكسبير بالذات لا يمكن أن نهمل المناقشات التي دارت في عصره ، ولا حركة أحياء التراث الكلاسيكي التي نشطت في أيامه ، ولا يمكن أن ننفل صلتة الوثيقة بكاتب وعالم قدير مثل بن جونسون ، فمن المرجح أن تكون بعض التأثيرات الكلاسيكية قد وصلت الى مسرحيات شكسبير عبر هذه القنوات غير المباشرة .

ولقد انتقد فولتير ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ ) شكسبير مرارا في « رسائله الفلسفة » *Lettres philosophiques* التي نشرت عام ١٧٣٤ وناقش فيها مختلف أوجه الحياة الانجليزية وقارنها بنظيرتها الفرنسية . وكان نقده لشكسبير أكثر وضوحا في « رسالة الى الأكاديمية » *Lettre à l'Académie* المنشورة عام ١٧٧٦ ففيها يأخذ على الشاعر الانجليزي الفقر في التدقيق الأدبي والجهل بأصول الدراما الكلاسيكية . وقال فولتير عن شكسبير أيضا أنه عديم الفن والنسق ولكنه لم يستطع أن ينكر عليه العبقريّة الدفاقة ، والدراية بكل ما هو طبيعي وجليل . لقد عاب فولتير اذن على شكسبير نقص الالتزام بالقواعد الكلاسيكية للكتابة الدرامية بما أدى - في رأيه - الى خلط الضمة والخسة بالعظمة والفخامة ومزج الهزل الساخر بالتراجيدي الجاد . وحكم فولتير هذا يعكس نظريات اتباع الدراما الكلاسيكية الجديدة في فرنسا ، والتي لم تر غضاضة في أن يأخذ المؤلف الحديث موضوع مسرحياته وشخصها أو حوادنها من النماذج الكلاسيكية القديمة أو حتى مقلديها<sup>(١٤)</sup> . وجدير بالذكر أن أصحاب هذا الاتجاه كانوا يقلدون شعراء المسرح الاغريقي ابان القرن الخامس قبل الميلاد في تبنيهم هذا المسلك . نريد أن نقول أنهم كانوا يعالجون موضوعات وأحداثا عاجلها من قبلهم مؤلفون محدثون تماما ، كما فعل ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس إذ كتبوا في موضوعات مشتركة وأحداث أو أساطير واحدة ، ولكن نتاج كل منهم التراجيدي جاء متفردا متميزا عن نتاج الآخر بما خلع عليه المؤلف من شخصيته وعبقريته . وما لا شك فيه أن هذا المفهوم للاصالة في الكتابة الدرامية ابان القرن الخامس قبل الميلاد وفي عصر النهضة الأوروبية كان له أكبر الأثر في تدعيم استقلالية التأليف المسرحي وكفاية هذا الفن بذاته ، بمعنى أن يكون العمل المسرحي المعروض معتمدا على أسلوب عرضه وأدائه فقط ولا يستمد أهميته وحيويته من مصدره التاريخي أو الاسطوري ، وإنما من كيانه الجديد . ولكن هذا الاتجاه نفسه هو الذي قاد مؤلفي

(١٤) د . علي درويش ، دراسات في الادب الفرنسي ( الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ) ص ٣٢٩ ، ص ٣٥١ ، شكسبير والفرنسيون .

عصر النهضة الى الخروج على القواعد الكلاسيكية في الكتابة الدرامية وهي القواعد التي استعبدت عقول وأقلام معظم كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكانت أبرز هذه القواعد الوحدات الثلاث وحدة الزمان والمكان والحادث الدرامي . لقد أدرك المؤلفون فيما بعد أن ما صلح للعرض المسرحي واستولى على لب النظارة ليس بحاجة الى أن يلتزم بهذه الوحدات ، ولا حرج في أن تكسر وحدة الزمان ووحدة المكان ، فلتتفرق مواقع الأحداث وأوقاتها ما دام من الممكن جمعها في الاطار المسرحي المعقول بحيلة من الحيل التي لم تكن ميسورة في تمثيل المسرحيات الاغريقية اللاتينية . وكان لكفاية الفن المسرحي بذاته أكبر الأثر أيضا في اباحة التصرف بترتيب الحوادث التاريخية وترتيب أماكنها وأوقاتها أو بعبارة أخرى في اخضاع التاريخ للمسرح ومقتضيات التمثيل .<sup>(١٥)</sup> وهذا أجاز شكسبير وغيره من المؤلفين لأنفسهم مخالفة التاريخ مع علمهم بحقائقه ودقائقه في كثير من الحالات وفعلوا ما يفعله المصور الفنان الذي يختار الموقع الذي يلتقط منه ما أم من يصوره .

والعصر الذي عاش فيه شكسبير هو عصر اليقظة الوطنية في الجزر البريطانية حيث انتقدت الهامة الوطنية واتجهت الى مطاولة أجداد الامبراطورية الرومانية القديمة في السيادة واتساع السلطان . ونادى الناس باستقلال الكنيسة الوطنية عن السلطة الدينية المطلقة لرجال الدين في روما ، وكان مارتن لوتر قد أحدث صدعا في بنيان البابوية الرومانية الشامخ منذ مطلع القرن السادس عشر . كما اصبح الاستقلال فخرا وطنيا أيضا ، ونزعة نفسية تمزج بالأنفة وحب المعرفة ، فتصنف بعقبات التقاليد والعرف بعنف شديد كلما اعترضت سبيلها . وظهر في تلك الفترة الناقد التابه فرنسيس ميريز ( ١٥٦٥ - ١٦٤٧ ) مؤلف كتاب « كنز العبقري » ( *Wit's Treasury* ) ( *Palladis Tamia* ) الصادر عام ١٥٩٨ م وفيه استعرض ميريز كل النتاج الأدبي منذ عصر تشوسر ( ١٣٤٥ - ١٤٠٠ ) حتى أيامه مقارنا كل كاتب انجليزي بقرينه من الأدب الاغريقي أو اللاتيني أو الايطالي . وضم هذا الكتاب ١٢٥ مؤلفا انجليزيا كان شكسبير من بينهم وقال عنه « اذا كان بلاوتوس ومينيكا أبرع الكتاب اللاتينيين في الكوميديا والتراجيديا فان شكسبير هو أبرع من كتب للمسرح في هذين الفنين » . وهذه الشهادة من ناقد معاصر تدل على استحسان النزعة الاستقلالية في التأليف الدرامي وعدم التقيد تماما بأصول المسرح الكلاسيكي القديم ، أو بعبارة أخرى أكثر تحديدا اهمال القواعد الأرسطية ولا سيما الوحدات الثلاث . وجدير بالذكر أن الكاتب الدرامي والناقد الالماني التابه ليسينج ( ١٧٢٩ - ١٧٨١ ) اعتبر أن شكسبير أقرب الى المؤلفين الاغريق والرومان من كورني ( ١٦٠٦ - ١٦٨٤ ) الذي التزم التزاما متزمتا بالشكل الكلاسيكي . على

(١٥) عن المفهوم السائد إبان عصر النهضة عن التاريخ وعلاقته بلن المسرح راجع :

Lily B. Campbell, *Shakespeare's Histories: Mirror of Elizabethan Policy* (Methuen 3rd ed. 1963 repr. 1968) pp. 23—27, 28, 33—41, 85 ff.

Tom F. Driver, *The sense of History in Greek and Shakespearean Drama* (Columbia University press 1960 repr.

1967), passim .

أية حال فلقد بلغ هذا الاتجاه الاستقلال ذروته في الجيل التالي لشكسبير والذي ظهر فيه درايدن ( ١٦٣١ )  
 ( ١٧٠٠ ) والذي قال ما معناه أن أرسطو لم يشاهد من التمثيل غير مسرح بلاده ، ولأنه شاهد مسرحياتنا لغير  
 وعدل في آرائه .

ولعل فكرة الصلة الوثيقة بين النظام في الكون والسلام الاجتماعي هي من أهم القضايا التي شغلت مفكرى  
 وأدباء العصر الاليزابيثي . فلقد اعتقدوا بوجود علائق وشيجة بين قوانين الكون الفسيح والهيئة الاجتماعية من  
 ناحية ، وبين الاثنين والانسان نفسه من ناحية أخرى بحيث أنه اذا اختل النظام في أحد هذه الكيانات الثلاث ؛  
 الكون والمجتمع والفرد قسد الحال في الكيانتين الآخرين . ويرجع هذا الاعتقاد الى الايمان الراسخ بأن كل ما في  
 الكون من أحياء وأشياء يندرج في سلسلة واحدة ضخمة عديدة الحلقات تبدأ من تحت عتبات العرش الالهى  
 هابطة حتى أدنى المهادات . وفكرة النظام الكونى هذه كانت تستمد أسباب الوجود والقوة من عقيدة لها ما يشبه  
 الهامسة الدينية ولكنها تقوم على مقومات اجتماعية وتنطوى على إيماءات سياسية . فقد كان لفكرة الترابط والتناسك  
 في المجتمع من الضرورة الملحة والمليزة ما كان لفكرة تدرج جميع المخلوقات الكونية في سلسلة الخلق الضخمة .  
 وساد الاعتقاد بناء على ذلك بأن أى اضطراب في نظام الحكم أو في السلام الاجتماعى لم يكن لينحصر في اطار  
 الدولة وحدها ، بل كان ليتمد بتأثيراته المباشرة والفورية الى النظام الكونى نفسه . فآية خلخلة في تركيبة المجتمع  
 كانت تعنى اذن الارتداد بالكون كله الى نوع من الفوضى الشاملة على شاكلة الفوضى الكبرى  
 ( Chaos ) التي سبقت عملية الخلق . والأمثلة كثيرة في أدب العصر الاليزابيثي بصفة عامة (١٧) ومسرحيات  
 شكسبير بصفة خاصة ولكننا فقط سنكتفى بالإشارة الى ما قاله قيصر في مسرحية « انطوني وكليوبترا » فور  
 سماعه لنبأ موت انطونيوس ، ففي كلماته ربط واضح بين حدث انساني مقجع واضطراب كونى موازله . قال قيصر  
 « ان وقوع مثل هذا الحادث الجلل كان كفيلا بأن يحدث هزة أعنف ، فكان على الكون أن يقذف بالأسود الى  
 شوارع المدينة ، وبالمواطنين الى عرائن الأسود ، فليس موت انطونيوس كارثة واحدة اذ يحمل اسمه نصف  
 العالم » ( ف ٥ م ١ ب ١٤ - ١٩ ) . وتتمثل الفوضى الكونية هنا في هزة أرضية عنيفة وفي تبادل السكتى  
 واسلوب الحياة بين الوحوش الضارية والبشر المسالمين الأمنين . ومرد هذه الفوضى الكونية أن من يحمل اسمه  
 نصف العالم - أى من يحكم نصف الامبراطورية الرومانية الشرقى - قد اختفى وترك فراغا هائلا في النظام  
 الاجتماعى والكونى على حد سواء .

وبشئ من البحث والتأمل سنرى أن فكرة ربط الأحداث الآدمية بالظواهر الكونية تعود الى المعتقدات  
 الاغريقية الاسطورية التي انعكست في نصوص الأدب ولا سيما المسرح . فما الطاعون والوباء الذى سقم الهواء  
 وحرم الأرض من الحضرة وأحالتها جديا لا زرع فيها ولا ضرع ، وأتى على كل مظاهر الحياة في مدينة طيبة ، الا

(١٧) انظر : أ . م . تيليار . الأدب في عصر شكسبير . ترجمة نبيل طلي ( دار المعارف بمصر ١٩٧٦ ) ص ٦٣ - ١٦٩ .

نتيجة لخطأ في السلوك الأسمى ترتب عليه وقوع خلخلة في تركيبة المجتمع ونظام الحكم . نعم فلقد قتل الملك لاويوس على يد ابنه أوديب ، وحتى وقوع الطاعون لم تكن حقيقة القاتل قد اكتشفت بعد ، ولم يسمع أحد إلى معرفتها ، وبالتالي لم يكن ليتم الانتقام لمقتل الملك لاويوس لولا حدوث الطاعون الذي جاء استجابة للخلخلة التي أصابت مجتمع طيبة من ناحية ، وليصحيح الأوضاع المرتبكة ويتدارك تدهورها المستمر من ناحية أخرى . هذا أمر واضح في مسرحية سوفوكليس « أوديب ملكا » . لقد حدث نفس الشيء في مسرحيته الأخرى « أنتيجوني » فوقع طاعون مماثل عندما رفض الملك كرون أن يدفن بولينيكيس ، لأنه هاجم موطنه ومدينته ، أي طيبة . والأمثلة على هذه الفكرة في المسرح الاغريقي كثيرة ولا حصر لها ، ولكننا نكتفي بهذه الإشارة البسيطة ليستثنى لنا الانتقال إلى الشاعر الفيلسوف الروماني سينيكا الذي يربط دائما في كتاباته الثرية ومسرحياته الشعرية ما بين الحالة النفسية للإنسان وعواطفه وأحداث حياته من جهة ، والظواهر الطبيعية والأجرام السماوية من جهة أخرى . فهو مثلا ، ويوحى من آرائه الرواقية ، يؤمن بأن فساد الحاكم لا يستتبع خلافا في بنية المجتمع فحسب بل في الطبيعة ذاتها ، التي غالبا ما تتجانب مع الأحداث الأدبية العنيفة ، وذلك بالأعاصير المدمرة أو الفيضانات الجارفة أو الزلازل والبراكين الحارقة التي لا تبقى ولا تذر . فعلى سبيل المثال بعد أن أرتدى هرقل ( هيراكليس ) الرداء المسعوم واقتربت نهايته نفى الجوقة في مسرحية « هرقل فوق جبل أوبتا » فنقول « توا سيحل على العالم يوم تدفن فيه القوانين وستهوى فيه السماء الجنوبية على كل ما يقع عبر ليبيا ويملكه الجارماتنتيون . أما السماء الشمالية فسوف تدمر كل ما يقع تحت قطبها وكل ما تهب عليه الرياح الجنوبية الجارفة . ومن السماء المفقودة ستزوغ الشمس خائفة فتطرد النهار . وسيجر سقوط مملكة السماء معه إلى الهاوية الشرق والغرب وسيعم نوع من الموت والفوضى كل الآلهة على حد سواء ... فأى مكان عندئذ سيستقبل الدنيا » ( أبيات ١١٠٠ - ١١١٨ ) . ومن ثم فانتا لا نجانب الصواب ولا نبالغ حين نقول بأن ما ساد في العصر الاليزابيثي وانعكس في مسرحيات شكسبير من أفكار تربط بين الاضطراب في الكيان الانساني أو البنيان الاجتماعي من جهة ، والفوضى في النظام الكوني من جهة أخرى ، هي أفكار كلاسيكية الأصل ظهرت في كتابات المؤلفين الاغريق ولكنها تبلورت في مؤلفات سينيكا الشعرية ومسرحياته الشعرية ذات الصيغة الرواقية .<sup>(١٧)</sup>

ومن الجدير بالذكر أن شكسبير قد أغرم بصورة الشمس الغاربة أو المختفية أثناء ساعات النهار ، ويحلوه الحديث كثيرا عن « انطفاء مصباح السماء » . وليس الأمر مقتصر على مجرد صورة شعرية جذابة فلها مغزى أعمق وأعرض من ذلك . فاذا كان الملك هوسيد المجتمع فان الشمس هي مليكة السماء وسيدة الكواكب . ومن

Ahmed M. Etman, The Problem of Heracles' Apotheosis in the

(١٧)

'Trachiniae' of Sophocles and in 'Hercules Oetaeus' of

Seneca. A Comparative Study of the Tragic and Stoic

Meaning of the Myth (A Thesis for the Ph. D. degree, Athens

1974, in Greek with Summary in English) p.289—302

الديهي، وفقا لتواعد الصلة الوثيقة بين الكون والهيئة الاجتماعية، أن يشحب وجه الشمس حين يغرب أو يفيب نظيرها على سطح الأرض. وسرى أن فكرة الشمس الحاكمة التي تقوم ما انحرف من أوضاع الكواكب الأخرى من رعايا وتنظم علاقاتها مع الانسان وتأمّر وتنتهي كالمملك فكره كلاسيكية أيضا. ولكنها بلغت ذروة الرسوخ والنضوج في كتابات الفلاسفة الرواقيين وأبان العصر الامبراطوري الروماني حيث اعتبرت الشمس الها لا يقهر (Sol Invictus) محررا (Helios Eleutherotes) خالقها ومنقذا للأرواح (Demiourgos kai Soter ton Psychon) مهيمنا على كل شيء (Pantokrator) حاكما للكون (Kosmokrator) وسيد الأرباب (rector deum). واستتبع شيوخ هذه الفكرة بين الرومان آنذاك أن حرص كل امبراطور روماني على أن يربط نفسه بالشمس وعبادتها لكي يتسنى له بعد الموت أن يضمّن تأليها شمسيا. فقبل مثلا أنه عند موت يوليوس قيصر وبعد تأليهه ظهرت هالة (halo, corona) حول قرص الشمس ثم ظهر يوليوس قيصر المؤله نفسه بعد ذلك كنجم (Iulium sidus, Caesaris astrum). وأبان القرن الثالث الميلادي اعتبر الناس امبراطورهم سليل الشمس التي بدورها أعلنت عام ٢٧٤م سيدة الامبراطورية الرومانية المتربة على عرشها (Sol Dominus Imperil Romani)<sup>(١٨)</sup>. والجدير بالذكر أننا نلمس صدى لهذه الأفكار والمعتقدات في الأدب اللاتيني بصفة عامة وفي كتابات سينيكا الفيلسوف بصفة خاصة. كما أنها تجد لنفسها مكانا في سير بلوتارخوس التي كانت شائعة ومحبوبة أبان عصر النهضة الأوروبية. وهكذا تسربت هذه الأفكار والمعتقدات الكلاسيكية الى مسرحيات شكسبير عبر روافد عديدة.

ومن بين الأفكار الأخرى التي ورثها عصر الزباييت في انجلترا عن الحضارة الكلاسيكية فاستمسك بها وأفاد منها الأدباء فكرة العناصر التي يتألف منها جسم الانسان. وفي البداية عبر هيسودوس (حوالي القرن الثامن ق. م) عن اعتقاده بأن العالم يتكون من قوى إلهية تنتمي الى أسرة واحدة جاءت جزئيا من الفوضى (Chaos) وأساسا من الأرض (Gaia) ثم جاء فلاسفة الطبيعة (أو الكوزمولوجيا) الايونيون ورأى بعضهم مثل تاليس أو طاليس (ولد حوالي ٦٢٤ ق. م) - أحد الحكماء السبعة - أناكسيمينيس (حوالي القرن السادس ق. م) وهيراكليتوس (ازدهر حوالي عام ٥٠٠ ق. م) أن العالم مكون من مادة إلهية واحدة لا يمكن توليدها ولكنها خالدة واعتبر تاليس أن هذه المادة الأولية هي الماء. أما أناكسيمينيس فرأى أنها الهواء، أما هيراكليتوس فقد اعتقد بأن النار أصل كل شيء، كما أنه آمن بمبدأ هام كان له أكبر الأثر في الفكر الاغريقي وهو أن كل الأشياء تتحرك أو تتغير pantarei. واعتبر بارمينيديس من ايليا (ولد حوالي ٥١٠ ق. م) أن العالم الحقيقي شيء واحد لا يرى ولكنه خالد ولا يتغير وهو الهدف الأرحم للمعرفة، أما التفسير والمالكة والظواهر المختلفة مثل الحركة فهي أوهام لا يمكن معرفتها الا عن طريق التخمين. ورأى بارمينيديس أن الطبيعة نتاج



المزج بنسب متفاوتة بين شكلين ( morphai ) متطابقين هما الضوء والليل أو النور والظلام ، وهذا المنصران موجودان مثل الطبيعة الحقيقية في الاعتقاد فقط ، ولكنها يتحولان الى مادة إلهية مسيطرة هي البداية ( arche ) . وكان امبيدوكليس فيلسوف وعالم أكراجاس الصقلية ( ولد في الربع الأول من القرن الخامس ق . م ) هو الذي تبلورت على يديه فكرة العناصر الأربعة rhizomata أى الأرض والماء والنار والهواء وقال أنها عناصر لا تتغير ، وباتحادها وانفصالها تتشكل الأشياء المتغيرة في هذا العالم . ويتم هذا الاتحاد أو الانفصال بفعل قوتين متضابتين هما الحب والكراهية . فهي دائما أبدا يبتنان الأشياء ثم يدمرانا ليعيدا بناءها من جديد وهكذا دواليك . ولن نغنى أكثر من ذلك في تتبع هذه الفكرة في التراث الاغريقي الروماني ونكتفى فقط بالإشارة الى أنها تركت بصماتها على كتابات الفلاسفة الرواقيين والأيقوريين على حد سواء .

ولقد ساد الاعتقاد أبان العصور الوسطى بأن بنية الانسان تتشكل من عناصر أربعة هي التراب والماء والنار والهواء ، وهي ذاتها مكونات الكون الأولية . كذلك شاعت فكرة قيام جسم الانسان بأفراز أخلاط أربعة توازي وتقارب العناصر الأربعة التي تتشكل منها بنيتة . كذلك كان الناس عموما يعرفون بأن الصعود الى أعلى في خط مستقيم من خواص النار والهواء ، أما التراب والماء فكانت سمتهما المشتركة المبطو الى أسفل . وكانت النار - في نظر أهل العصر الايلزابيثي كما كان الحال عند الرواقيين - هي أسمى العناصر وأخفها وأرقها . وكانوا يعتقدون أن عنصر النار كان يتخذ له موقعا هاما أسفل مدار القمر فيغلف اطار الهواء الدائري الذي يحيط بالماء والتراب . وكانت النار في اعتقادهم عنصرا ساخنا جافا مصفى من الشوائب خفيا عن عيون البشر ، فضلا عن أنه يمثل مرحلة ملائمة للانتقال الى الممالك الأبدية في عالم الكواكب . وبعبارة أخرى فإن التحول الى النار بعد الموت يمثل ضربا من ضروب التأليه . وهذه فكرة وثنية كلاسيكية بصفة عامة ورواقية رومانية بصفة خاصة . فلقد تم حرق هرقل فوق جبل أوبتا لكي يصعد بعد ذلك الى السماء . وكانت طقوس تأليه الأباطرة الرومان تقوم أساسا على حرقهم فوق محرقة هرمية الشكل ( pyra ) تطير بعدها أرواحهم الى السماء<sup>(١٩)</sup> . وبناء على كل ما أسلفنا عن فكرة العناصر وارتباطها بعقيدة التأليه يمكن أن نفهم عبارة كليوباترا في مسرحية « أنطونى وكليوباترا » لشكسبير ، ونعني انها عندما أشرفت على الموت قالت « ها أنذا من نار وهواء أما بقية عناصرى فأهبها للحياة السفلى » ( ف ٥ م ٢ ب ٢٨٨ - ٢٨٩ ) . فهي تعنى انها استحوالت هواء ونارا ، صفاء وروحا خالصة من أثقال الجسد وأدران المادة ، وبعبارة أخرى تأملت بفضل التفانى في الحب .

وفى ظل هذا الاطار الكوني تألفت المتناقضات فيجتمع الساخن بالبارد ، والجاف بالرطب ، والثقيل بالخفيف ، والعظيم بالصغير ، والسامى النبيل بالسافل الوضع . وتتألف الأشياء والأحياء من العناصر الأربعة ، وتختلف بعضها عن بعض بتفاوت النسب بين العناصر المكونة . وفى ظل هذا النظام الكوني أيضا تندرج سلسلة

المخلوقات لا في مملكة السموات فحسب بل وعلى ظهر الأرض أيضا ، فكما تندرج سلسلة الملائكة يرتقى الانسان على الانسان ، ويستبد حيوان على حيوان ، وطير على طير . وهكذا لا يوجد مخلوق واحد إلا وكان أرقى أو أدنى من مخلوق آخر ، ولا يوجد كائن قط لا تضمه سلسلة المخلوق . ولكن أرقى الكائنات الأرضية تحتاج الى أحطها شأنًا ، ومن ثم نجد جيوش السهام الملائكية تتولى بنفسها خدمة أحقر الكائنات التي خلت من كل حس . وهكذا ترتبط الكائنات ببعضها البعض ارتباطا وثيقا يجعل بقاءها مستحيلا دون تعاونها المستمر وتعايشها جنبًا الى جنب . وبالتالي صارت الأسرة الملكية في العصر الإليزابيثي جزءا لا يتجزء من نظام الكون نفسه ، وأصبح وجودها أمرا حيويا لا يمكن الاستغناء عنه ، والا وقع خلل في هذا النظام الاجتماعي قد يترتب عليه اضطراب كوني . وهذه فكرة وثيقة الصلة بعقد علاقة وطيدة بين الملك والشمس سيدة الأفلاك المهيمنة . فذلك يعنى أنه لا يمكن للبشر أن يستغنوا عن ملكهم ، كما لا يمكن للطبيعة ونظامها الكوني أن تستغنى عن الشمس . وهكذا شاركت السياسة الإليزابيثية أدب ذلك العصر في الافادة من التراث الأسطوري الكلاسيكي . (٢٠)

وتتطلب منا مسرحيات شكسبير باستمرار أن نتذكر الحكمة الاغريقية الشهيرة « اعرف نفسك » . فليس لنا أن ننسى أبدا حقيقة أن مفكرى العصر الإليزابيثي بصفة عامة قد أدبوا على الربط بين عدم القدرة على الفهم وسقوط الانسان في هاوية الشقاء . ومن ثم نجد أبطال شكسبير يتسمون بظما طبيعى الى المعرفة وتحرق ظاهرا للفهم ، ولكنهم يعدمون الوسائل السليمة لبلوغها . وغالبا ما يضلون السبيل الى الحكمة أو تحيط القوى إلى المعاكسة مساعهم الحثيثة فتقع المأساة . ولكن القصور في الادراك يبلغ ذروته في مسرحيات شكسبير - كما هو الحال في المسرح الاغريقى بصفة عامة و« أوديب ملكا » لسوفوكليس بصفة خاصة (٢١) - عندما تكون المعرفة المطلوبة هى معرفة النفس . فالانسان مهمل أوتى من قوة وقدرة ، ذكاء وفطنة لا يستطيع الوصول الى كنه ذاته وهنا يكمن سر مأساته .

وأوديب سوفوكليس هو أوضح مثل على ذلك ، فلقد عرف أشياء كثيرة وبلغ به الذكاء الى حد حل الالغاز المستعصية التى عجز بقية البشر عن فك طلاسمها ، ومع ذلك فقد كان يجهل نسبه ولم يعرف من قتل في طريقه الى طيبة ، بل لم يعرف حقيقة من تزوج ، نعم لقد جهل أوديب أنه قاتل الأب وزوج الأم والرجس الذى ينشئ أن تظهر منه طيبة . ذلكم هو أوديب أكثر الناس ذكاء وفطنة وقوة وقدرة ! فإذا انتقلنا الى شكسبير وجدناه في مسرحية « الملك لير » على سبيل المثال يشير كثيرا الى القصور في الفهم والادراك ، حتى أنه عندما قسم الملك لير مملكته تحاوره ابنه جونيول وريجال فتشير الاولى الى « ملكة التمييز الضعيفة » في شخصية أبيها وتضيف الثانية قائلة بأنه « في حياته لم يعرف نفسه الا أقل المعرفة » . هكذا كان موقف البنيتين الكبيرتين للملك ، أما

Lily B. Campbell, Shakespeare's Tragic Heroes, Slaves of

(٢٠)

Passion (Methuen 1961 repr. 1977) pp.51 ff.

(٢١) راجع د . احمد عثمان . المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم . دراسة مقارنة ( الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ ) ص ٤٥ - ص ٩١ .

البت الصغرى كورديليا فلقد لا حظ النقاد تشابها واضحا في موقفها أزاء أبيها مع موقف انتيجونى من أبيها الملك أوديب الأعمى المنفى من بلده والهائم على وجهه . ففى كلتا الحالتين نجد ابنة صغيرة رزينة وجادة تتفانى فى خدمة أبيها والبر به فى حالته اليائسة كما تصدقه القول دون مبالغة أو تفانى . ومع ذلك فنحن لا نملك دليلا خارجيا قاطعا على أن شكسبير يقلد سوفوكليس فى مسرحية « الملك لير » أو حتى أنه قرأ مسرحية « أوديب فى كولونوس » . يضاف الى ذلك أن ثنائى الأب البائس والابنة البارة موضوع شائع فى كل الآداب ولا يقتصر على الأدب الاغريقى بل وقد يكون من الأمور التى تحدث كل يوم فى حياتنا - أو حياة شكسبير - ومن ثم فليس من الضرورى أن يكون موروثا أدبيا . ولكن هناك حقيقة أخرى كفيفة بأن نجعلنا نراجع موقفنا هذا ونعنى أن شكسبير قد قرأ ترجمة مسرحيات سينيكا ومن بينها مسرحية « أوديب ملكا » ومن ثم كان على علم تام بتفاصيل قصة أوديب وهو ينظم مسرحية « الملك لير » .

ويتردد فى أدب العصر الاليزابيثى بصفة عامة وفى مسرحيات شكسبير بصفة خاصة ذكر « عجلة الحظ » *Wheel of fortune* فلسمع للممثل الأول فى التمثيلية الداخلية مسرحية « هاملت » وهو يقول « أينها البغى فورتونا (Fortuna = ربة الحظ) سحقا لك ! أينها الآلهة جميعا ليقر قراكم بالاجماع على حرمانها من سلطانها ، حطموها كل برامق عجلتها وهشموا اطارها ، وطرحوا مركزها المستدير من أعلى السماء الى أسفل سافلين » ( ٢ م ٢ - ٥٠١ - ٥٠٥ ) . أما كليوباترا فتخاطب أنطونيوس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فى « أنطونى وكليوباترا » قائلة : « دعنى أسب ربة الحظ تلك البغى الخنون علها تستشيط غضبا فتحطم عجلتها » ( ٤ م ١٥ - ٤٣ - ٤٥ ) . وما لا شك فيه أن صورة عجلة الحظ الدوارة هى احياء لعجلة الحظ الاغريقية ( *trochos tes tuches* ) التى تولدت عن مبدأ أن « كل الأشياء تتحرك » المشار اليه سابقا . ويذكر سوفوكليس « عجلة الحظ » هذه فى احدى شذراته ( رقم ٥٧٥ Pearson ) اذ يقول بالحرف أن الحظ يدور كمجلة ( *kuklei tuche* ) وفى شذرة أخرى ( ٨٧١ ) يربط نفس الشاعر بين عجلة الحظ ودورات القمر ومراحل نموه . وفى أغنية دخول الجوقة ( البارودوس ) مسرحيته « بنات تراخيس » ( أبيات ٩٤ - ١٤٠ ) تربط الجوقة « عجلة الحظ » ودورانها بتعاقب الليل والنهار ، العسر واليسر ، الحزن والفرح ، الألم والراحة . ويجدير بالذكر أن هذه الفكرة لم تغلت من يرأس سينيكا الفيلسوف فهو يشير الى عجلة الحظ فى احدى رسائله ( ٢٤ ، ٢٦ ) قائلا : « لانهاية لأى شيء ، فجميع الأشياء متصلة بعجلة تلف بها فى دوراتها فالحليل يساقب النهار ، والنهار يلاحق الليل ، والصيف ينتهى بالخريف الذى تنبعه الشتاء ، والأخيرة تستسلم بدورها للربيع ، كل الأشياء هكذا تذهب لتعود ، انى لا أصنع شيئا جديدا ، ولا أرى شيئا جديدا ، فأجلا أو عاجلا سيصاب المرء نفسه بالدوران أيضا » . وفضلا عن ذلك فإن ابطال تراجيديات سينيكا الرواقيون فى صراع حتمى مع ربة الحظ بصفتهم يصارعون أقدارهم ويصنعون العاطفة فى نفوسهم بقوة العقل والمنطق .

وهكذا يلاحظ أن شكسبير يذكرنا بالكثير من المؤلفين الكلاسيكيين في مسرحياته دون أن يقتطف منهم أو يقلدهم تقليداً أعمى . ففى حين نجد بن جونسون وغيره من معاصرى شكسبير قد أقنعوا مؤلفاتهم بالكثير من المقطعات والعديد من علامات التنصيص نجد شكسبير الشاعر المبدع يتميز بحب عميق للكلاسيكيات ، وأذن حساسة وذاكرة قوية وقدرة فائقة على الهضم ، وهو يخلق لنا مما يقتبس شيئاً جديداً ولذلك نجد شخصياته المسرحية تتحدث في سلاسة ، يبطا شخصيات الآخرين من معاصريه تتمتع بسبب كثرة ما تستشهد به من فقرات كلاسيكية . إن كل شخصيات شكسبير - فيما عدا الحمقى منهم - يذكروننا في أحاديثهم بالجمال والرشاقة الاغريقيين ومع ذلك فإن شكسبير لم يكن سجين الكتب الصفراء ولكنه انطلق الى الأرض والسماء ، الى الحياة والطبيعة ، الى الحيوانات وسائر المخلوقات يستمد منها تشبيهاته وصوره الشعرية وبعد ذلك تأتى الثقافة فتلوننا وتصقلها . وهكذا تحتل تشبيهاته وصوره الشعرية المأخوذة من مصادر ثقافية المرتبة الثانية بعد تلك المستوحاة من التجربة العملية والحياة اليومية . كان شكسبير يعرف الأساطير الكلاسيكية أكثر من التاريخ ، بل أكثر من الانجيل ، ولكن رموزه الاسطورية أقل عدداً من رموز مارلو ، فالثقافة بالنسبة لشكسبير لا تعنى شيئاً إن لم تكن قابلة للحياة وقادرة على العيش في عالم الدفء والتفاعل المستمر . وهكذا لم تعق كلاسيكيات شكسبير تدفقه الشعرى بل أصبحت رافداً من روافده وجزءاً من تجربته الابداعية حتى أن أحب وأرق العشيقات في مسرحه ونعتى جوليت ترى الشمس مندفة ناحية الغروب فتحثها على الاسراع حتى ولو كان ذلك على حساب تدمير العالم وتقول « كما قد يسوقك فايثون بالسوط ناحية الغرب هيا أحضري في الحال ليلة غائمة ! » ( روميو وجوليت » ٣ ٢ ٣ - ٤ ) فهي بذلك تشير الى اسطورة فايثون بن أبولو الذى قاد عربة الشمس بأسرع مما ينبغي فاحترق . وهى اسطورة وردت عند أفيدوس وسينيكا <sup>(٢٢)</sup> المعروفين لشكسبير . المهم أن هذه الاشارة الاسطورية جاءت طبيعية ولم تفسد الصورة الشعرية الرائعة في حديث جوليت .

ولقد تكررت أساء بعض المؤلفين الكلاسيكيين في ثنائيا دراستنا حتى الآن مما يثير سؤالاً منطقياً حول كلاسيكيات شكسبير ، وبالتحديد أى المؤلفين الكلاسيكيين عرف شكسبير ؟ وفي محاولتنا الاجابة على هذا السؤال ينبغي أن نميز بين المؤلفين الكلاسيكيين الذين عرفهم الشاعر الانجليزى معرفة جيدة واتصل بهم صلة مباشرة وأولئك الذين عرف بعض كتاباتهم وآخرين لم يعرف عنهم إلا بعض المقطعات أو سمع عنهم فقط . فشكسبير لم يعرف بلاتونس إلا بصفة جزئية ولكنه استمد منه موضوع احدى كوميدياته وتعلم على يديه فن التأليف الدرامى . وبالمثل لم تكن معرفة شكسبير بفرجيليوس كاملة ، ولكنه نقل عنه الكثير من الاساطير والأفكار والتشبيهات والصور الشعرية وهذا شأن شكسبير مع مؤلفين كلاسيكيين آخرين كثيرى العدد ، لم يلم بكتاباتهم المما كافيًا ولكنه يأخذ منهم الكثير لأنه كان يعنى كل ما يسمع من حوله ويهضم كل ما يقرأ ، وكان

Ovidius, *Metamph.* 1748&11, 238; cf. Seneca, *Hercules*

(٢٢)

Oetaeus 677ff., *Hipolytus* 1090

عصره - كما رأينا - عصر إحياء للكلاسيكيات : إلا أن شكسبير النصف النصفنا مؤلفين ثلاثة عرفهم حق المعرفة وترسم خطاهم في كل ما يكتب ، انهم أوفيدوس ، وسينيك ، وبلوتارخوس .

وقبل أن نعرض للحديث عن صلة شكسبير هؤلاء الكتاب الثلاثة دعنا نظرف به مع المؤلفين الآخرين الذين عرفهم لماما . ولنبداً بشاعر الكوميديا العبرى الرومانى بلاوتوس ( حوالى ٢٥٤ - ١٨٤ ق . م ) فلقد استمد منه شكسبير موضوع مسرحية « كوميديا الأخطاء » ونلاحظ من البداية أن لا تبنية شكسبير ، وإن كانت بالفعل تمكته من قراءة مسرحيات بلاوتوس واستيعابها ، لم تكن على المستوى الذى يسمح للشاعر الانجليزى بتذوق لغة بلاوتوس الدرامية . فبلاوتوس شاعر مطبوع وحواره يتدفق مليئا بالتلميحات مفعبا باللمزات والغمزات ، وهو مغرم باللب بالكمالات على نحو رشيق ومقبول ويتميز كذلك بقدرته الفائقة على اثاره الضحك أوما يسمونه القوة الكوميديّة vis comica . وبلاوتوس لا يباريه أحد في ذلك ولا يمكن أن يجاريه منافس أو مقلد ويستطيع أى امرئ أوتى القدرة على مطالعة مسرحياته في يسر أن يتذوق موسيقى الكلمة الكوميديّة وعذوبة التعبير المثير للضحك والتفكير في آن واحد . أما شكسبير الذى لم يستطع حتى أن يأخذ اسم الميانه أيدامنوس Epidamnus الوارد في مسرحية بلاوتوس « التوأمان مينايخموس Menæchmi » بطريقة صحيحة فقد فشل في أن ينقل المهارة اللفظية البلاوتية الى مسرحيته « كوميديا الأخطاء » . ولكننا مع ذلك نتعرف لشكسبير بالهيمنة الكاملة على حيكته الدرامية وتفوقه على بلاوتوس في فن رسم الشخصيات . كما أن لشكسبير بلاغة الدرامية الخاصة وليس لنا أن نأسف لافتقاده قدرة بلاوتوس اللغوية . لقد غير شكسبير في أساء الشخصيات وغير المكان من ميناء غير مشهور بعض الشيء الى مدينة معروفة وجعل الآخرين التوأم يمتلكان خادمين توأم ، مما ضاعف من فرص وقوع الأخطاء وحدوث الارتباك . وجعل شكسبير الأخ - الغريب الوافد - يقع في حب اخت زوجة شقيقه التوأم المقيم . ومن المرجح أن يكون شكسبير مخترع معظم هذه التغيرات دون أن يكون من المستبعد أنه أخذ بعضها من أعمال أدبية أخرى سبقته الى تقليد هذه الكوميديا البلاوتية . ومن المؤكد كذلك أن شكسبير استفاد من مسرحية بلاوتوس الأخرى « أمفيتريون » فمزج المسرحيتين في وحدة عضوية ليخلق منها مسرحية جديدة أكثر ثراء من كل منها على حدة . ولم تلك مسرحية « أمفيتريون » قد ترجمت بعد الى الانجليزية ولن تترجم قبل موت شكسبير . وبعبارة أخرى نريد القول بأنه حتى عام ١٥٩٥ - أى بعد بضع سنين من التاريخ المقبول لمسرحية « كوميديا الأخطاء » وهو ما بين ١٥٨٩ و ١٥٩٣ - لم تكن هناك أية ترجمة لمسرحيات بلاوتوس فيما عدا « التوأمان مينايخموس » مما يجعلنا نقطع في شبه اليقين بأن شكسبير قد عاد الى الأصل اللاتينى للمسرحيات الأخرى . اللهم الا اذا أخذنا بالرأى القائل بأن بعض مسرحيات بلاوتوس كانت قد ترجمت الى الانجليزية دون أن تنشر . فمسرحية « التوأمان مينايخموس » التى نشرها كريد Creede تنسب الى من لا نعرفه الا بالحروف الأولى أى و . و . ( W. W. ) والذى قد يكون وليام وارنر William Warner الذى قيل أنه ترجم مسرحيات أخرى لبلاوتوس خصيصا من أجل دائرة أصدقائه الذين تبادلوها فيما بينهم ، ومن المحتمل أن يكون شكسبير

واحدا منهم . وتزداد الظنون حول طبيعة العلاقة بين شكسبير وبلاوتوس من حقيقة أخرى وهى أن شكسبير قد عرف مسرحية ثالثة من مسرحيات بلاوتوس هى « الأشباح » ( Mostellaria ) لأن أسماء الخدم ترانيو Tranio وجروميو Grumio فى مسرحية « ترويض النمرة » تذكرنا بها كما أن هناك حوادث أخرى يرجع أنها مأخوذة من كوميديا بلاوتوس المذكورة . ولكن شكسبير كمعادته يخلق مما يستعير شيئا جديدا متميزا حتى أن مسرحيته « كوميديا الأخطاء » تفوق فى بعض النواحي النموذج اللاتينى .

ولقد قرأ شكسبير بعض المقطوعات المنتخبة من أعمال فرجيليوس ( ٧٠ - ١٩ ق . م ) فى المدرسة ولا يزال التلاميذ فى بعض المدارس بأوروبا يفعلون ذلك . فوصف سقوط طروادة الذى يرد فى قصيدة « اغتصاب لوكريس » ( ب ١٣٦٦ وما يليه ) وفى مسرحية « هاملت » ( ف ٢ م ٢ ب ٤٨١ وما يليه ) مأخوذ من الوصف الذى يرد على لسان اينياس فى الكتاب الثانى من ملحمة « الاينيادة » مع شيء من التغيير نحو المبالغة والتهويل . ومن ناحية أخرى فإن البيت الذى يبدأ به اينياس وصفه المذكور فى « الاينيادة » ( الكتاب الثانى ب ٣ ) يقول :

Infandum , regina , iubes renovare dolorem

« انك أينها الملكة تأمرين بتجديد ألم لا يمكن التحدث عنه ( أو ينبغى أن لا أتحدث عنه ) » فيجد هذا البيت صدق له فى بداية « كوميديا الأخطاء » ( ف ١ م ١ ب ٣١ ) حيث يرد البيتان التاليان :

A heavier task could not have been imposed

than I to speak my griefs unspeakable

« ما من عمل يمكن أن يفرض على أشق من أن أتحدث عن آلامى التى لا يمكن التحدث عنها »

ومن الشعراء الرومان الذين عرفهم شكسبير بروبترتيوس ( حوالى ٥٠ - ١٦ ق . م ) شاعر الاليجيات المشهور . لأن حديث هيلينا فى مسرحية « حلم منتصف ليلة صيف » ( ف ١ م ١ ب ٢٣٤ وما يليه ) يذكرنا بأحدى قصائده ( 8 - 12 , 11 ) ولا شك أن شكسبير عرف كذلك الشاعر الغنائى هوراتيوس ( ٦٥ - ٨ ق . م ) لأن شابلوك يقول لجيسيكيا « تاجر البندقية » ( ف ٢ م ٢ ب ٢٩ وما يليه ) :

when you heare the drum.

and the vile squealing the wry — neckte fife ,

Clamber not yot up to the casements then ,

nor thrust your head into the publique streete

« فإذا سمعت الطبايين والزمارين ذوى الرقاب الملتوية فلا تتسلى إلى النافذة ولا تطل برأسك على الشارع العام »\*

(odes III,7,29-30) فهذه كلمات تذكرنا مباشرة بما يقوله هوراثيوس لاحدى الفتيات

*Prima nocte domum claude neque in vias*

*Sub cantu querulae despicie tibiae*

« أغلقى ( باب ) المنزل فى أول الليل ( حرفيا فى الليل الأول ) ولا تطل من عل إلى الطرقات تحت تأثير نعم الفلوت ( الزمار ) الشجى ». وبالمثل يأمر الملك الفرنسى شارل السادس فى « هنرى الخامس » النبلاء قائلا ( ف ٣ م ٥ ب ٥٠ - ٥٢ )

*Rush on his hoast, as doth the melted snow  
upon the valleyes, whose low vassal seat,  
the Alpes does spit, and void his rhewme upon,,*

« انفضوا على جيشه ، كما ينفض الثلج الذائب على الأودية المنخفضة التى تبصق عليها جبال الالب سيوها فتفجرها »\* \* فيذكرنا بقول هوراثيوس (Sat. ii,5) عن ماركوس فوريوس منقذ روما ومخلصها من الغزاة :

*Furius hibernas cana nive conspuat Alpes*

« وبصق فوريوس على جبال الالب الشتوية بثلجها الأبيض » .

وعندما يسأل بولونيوس هاملت فى المسرحية المسماة باسم الأخير عن الكتاب الذى يقرأ يجيب هاملت بالقول  
النالى ( ف ٢ م ٢ ب ١٩٦ - ٢٠٠ )

*Slanders, sir: for the satirical rogue says here that old men have grey beards,  
that their faces are wrinkled, their eyes purging thick amber and plum-tre  
gum, and that they have a plentiful lack of wit, together with most weak hams*

« فضائح يا سيدى اللورد فان هذا « الوغد الساخر » يقول هنا أن الشيخوخ لهم لحى وأن وجوههم مفسنة وعيونهم تفرز صمغا كثيفا أصفر كصمغ الشجرة وأنهم يفتقرون افتقارا شديدا إلى الذكاء وأن أفخاذهم فى غاية الضعف » ، فاهلجاء الوغد أو « الوغد الهجائى » - كما يمكن أن نترجمها - الوحيد المعروف لنا ولشكسبير من التراث الكلاسيكى هو جوفيناليس ( ولد فى بين ٦٠ و ٧٠ م ، ولا نعرف تاريخ مماته بالضبط وان ظل يكتب حتى

\* ترجمة د . مختار الركيل . مسرحيات شكسبير المجلد السابع دار المعارف / جامعة الدول العربية .

\* \* \* ترجمة . محمد عوض محمد ، مسرحيات شكسبير المجلد التاسع - دار المعارف جامعة الدول العربية .

\* \* \* ترجمة د . عبد الغفار القط . سلسلة من المسرح العالمى . وزارة الاعلام - الكويت

عام ١٢٧ م ) . وتحتوي هجائتيه العاشرة على وصف مخيف لمتاعب الشيخوخة ومساوىء هذه الفترة المزدولة من الحياة الآدمية - ومع أننا لا نملك الدليل القاطع على شكسبير قد قرأ هذه الهجائية في أصلها اللاتيني أو في ترجمة انجليزية ، إلا أنه ينبغي أن نتذكر أن هذه الهجائية أثارت إعجاب تشوسر وظهرت لها أصداء واضحة في قصيدته « ترويلوس وكريسيدي » ( 197 — IV ) . ومن المحتمل أن يكون جوفيناليس مقرؤا محبوبا بين أهل العصر الاليزابيثي . على أية حال فإن الفقرة المتقطعة من « هاملت » والتي تذكرنا بهجائية جوفيناليس العاشرة ضمت اضافات أدخلها شكسبير - كما دته في تعامله مع الكلاسيكيات - ولكن هذه الاضافات نفسها جاءت مفعمة بروح جوفيناليس نفسه فهي أيضا مستوحاة من هديه ولا شك ان « الهجاء الوغد » أو « الوغد الهجائي » كان سيسر كثيرا لو أتاحت له فرصة قراءة مقطوعة شكسبير !

وإذا أردنا أن نتحسس الدلائل على معرفة شكسبير ببعض المؤرخين الرومان فالتنا نشرير الى ما يقوله بروتوس عندما تحين ساعة النهاية في مسرحية « يوليوس قيصر » ( ف ٥ م ٣ ب ٩٤ وما يليه ) :

o Julius Caesar, thou art mighty yet !

Thy spirit walks abroad, and turns our swords

In our own proper entrails

« أي يوليوس قيصر ! أنت مازلت شديد البأس !

ان روحك طلق يتجول ويرد سيفونا الى صميم أحشائنا (❖)»

ففي هذه الأبيات تتجلى فكرة أن الميت يقتل الحى وهي فكرة اغريقية كلاسيكية نجدها عند إيسخولوس مثلا في ثلاثيته الرائعة « الاوريسستيا » (٢٣) ، ولكن ليس هذا ما يشغلنا الآن . ولما الذى نود الاشارة اليه أن هذه الابيات تردد معنى وصدى الابيات الاولى من ملحمة الشاعر الرومانى لوكانوس ( ٣٩ - ٦٥ م ) عن الحروب الرومانية الاهلية وعنوانها الأكثر شهرة هو « فرساليا » ( Pharsalia ) نسبة الى فرسالوس ( أو فرساليا ) وهي المدينة ( أو المنطقة ) التي كانت مسرح الحرب بين يوليوس قيصر وبومبي الأكبر عام ٤٨ ق . م . وجدير بالذكر أن العنوان الأصل للملحمة كما يرد في المخطوطات هو « عن الحرب الأهلية » ( De Bello Civili ) . أما مطلع الملحمة الذى تأثر به شكسبير فهو كما يلي :

... populumque potentem

in sua victrici conversum viscera dextra

« ( انى أروى كيف أن ) شعبا قادرا قد ادار يمينه المنتصرة ضد أحشائه هو نفسه » .

.(De Bello Civili I, 2-3)

❖ ( ترجمة عبد الحى فاضل - مصطفى طه حبيب - مسرحيات شكسبير - المجلد العاشر - دار المعارف بمصر ، جامعة الدول العربية ) .  
( ٢٣ ) د . أحمد حنان : المصادر الكلاسيكية ص ٢٢٨ - ص ٢٤٩ .



ومن المؤرخين الرومان عرف شكبير تيتوس ليفيوس ( ٥٩ ق . م - ١٧ م ) فعل أقل تقدير قرأ شكبير الكتاب الأول من تاريخه وفيه وجد قصة تاركوينيوس ولوكريس . ولا يشك أحد في أن شكبير قرأ مقتطفات من « الحرب الغالية » ( Bellum Gallicum ) ليوليوس قيصر ( ١٠٢ ق . م - ٤٤ ق . م ) ولا سيما الجزء الخاص بغزوة البريطانية . فاسلوب يوليوس قيصر اللاتيني - مثل اسلوب افلاطون في الاغريقية - هو أبسط وانقى أساليب المؤلفين وبالتالي فهو الأسهل والأنسب شكلا ومضمونا ليتصدر مقررات الدراسة في المدارس الانجليزية وقراءات المبتدئين في اللغة اللاتينية بصفة عامة . والجدير بالذكر أن احدى شخصيات مسرحية « هنرى السادس » ( ف ٤ م ٧ ب ٦٥ ) تقتطف القول التالي :

Kent , in the <sup>(٢٤)</sup> Commentaries , Caesar writ  
is termed the civil ' st place of all this isle

« توصف كنت في « التعليقات » ( أو « المذكرات » ) التي كتبها قيصر بأنها أكثر الأماكن قدنا في هذه الجزيرة قاطبة »

وبالفعل يرد عند يوليوس قيصر في « الحرب الغالية » ( ١٤ . 1 , ٧ ) مايلي :

ex eis omnibus longe humanissimi qui  
Cantium incolunt

« ومن بين أولئك الناس جميعا فإن من يسكنون كانتيم ( = كنت ) هم الأكثر انسانية ( قدنا ) بمراحل » .

أما عن المؤلفين الاغريق فقد عرف شكبير عددا أقل مما عرف من المؤلفين الرومان كما أنه لم يتصل بهم مباشرة عن طريق النصوص الاصلية وإنما عن طريق ما تيسر من المترجمات . ومن ثم فيمكن القول بصفة عامة أن معرفة شكبير بالتراث الاغريقي أقل عمقا وأصغر حجما من معرفته بالتراث اللاتيني . ومع ذلك كان يهضم كل ما كان يقع تحت يديه من التراث الاغريقي المترجم . فما لا شك فيه أنه قرأ ترجمة تشابمان ( George Chapman ١٥٥٩ - ١٦٣٤ ؟ ) هوميروس ونستدل على ذلك من أن شكبير يؤيد أحداثا من الحرب الطروادية - مثل حادثة ثيرسيستس - لا ترد عند سابقيه مثل تشوسر وليد جيت وكاكستون وهذا ما سنتحدث عنه عند تناولنا لمصادر « ترويلوس وكريسيدا » . وقد ألم شكبير بشيء ما عن أيسخولوس وكذلك افلاطون صاحب فكرة الموسيقى الكونية ، التي غالبا ما يتحدث عنها شكبير في مسرحياته ، ولكننا لا نزعم بأن شكبير قرأ هذين الكائنين . وفيما عدا ذلك لا تظهر من نصوص شكبير أية معرفة بالكتاب الاغريق الآخرين وإن كان بعض الدارسين يحاولون اثبات اطلاع شكبير على نصوص مؤلفي الدراما الاغريقية في ترجمات

(٢٤) كتب يوليوس قيصر « مذكرات عن الحرب الغالية » ( Commentarii de bello Gallico ) تعرف عادة باسم « الحرب الغالية » و « مذكرات عن الحرب الاهلية » ( Commentarii de bello Civili ) تعرف عادة باسم « الحرب الاهلية » . والمؤلف الاول يتناول حملات قيصر في الفترة من ٤٨ - ٥٢ ق . م . والثاني يعلل بالحرب الاهلية حتى موقعة فراوس عام ٤٨ ق . م .

لاتينية . والجدير بالملاحظة أن شكسبير في اشاراته الاسطورية لا يشير الى نسب الآلهة وعلائق القرى بينهم وهو أمر بارز في أشعار سينسر وويلتون وفي ذلك ما يدل على أن شكسبير لم يعرف هيسيدوس ( القرن الثامن ق . م ) وقصيدته « أنساب الآلهة » ( Theogonia ) .



### ٣ - أوفيد يوس ... ينبوع الأساطير :

لا زالت ترجمة جولدننج ( Arthur Golding ١٥٣٦ ؟ - ١٦٠٥ ؟ ) للقصائد المعروفة باسم « التناسخات » Metamorphoses للشاعر أوفيد يوس ( ٤٣ ق . م - ١٨ م ) التي ظهرت فيها بين ١٥٦٥ و ١٥٦٧ تقرأ الى يومنا هذا والفضل في ذلك يرجع الى الاعتقاد المسلم به أي أنها كانت من القراءات المفضلة لدى شكسبير . ولا يعيب الشاعر الانجليزي أن يكون قد قرأ « التناسخات » مترجمة لأن ذلك لا يمنع أنه ربما عاد الى النص الأصلي اللاتيني . بل أنه من المؤكد الذي لا يرقى اليه الشك الآن أنه قد اطلع على الأصل اللاتيني في المدرسة التي تعلم فيها ، فهناك نسخة من « التناسخات » تتشرف بحمل توقيع شكسبير عليها ولا تزال موجودة حتى الآن . أضف الى ذلك أن أصدقاء شكسبير ومعاصريه قد عرفوا عنه حبه وتفضيله لأوفيد يوس ، ولا حظوا تقليده له في كل مؤلفاته المبكرة والمتأخرة . ها هو فرنسيس ميريز يكتب عام ١٥٩٨ في عرضه للادب الانجليزي أبان عصره قائلا « وكما كان يعتقد بأن روح يوفوربوس ( Euphorbus ) قد تقمصت ببشاجوراس <sup>(٢٥)</sup> فان روح أوفيد يوس العذبة والمليحة تعيش في شكسبير المعسول في انسيابه ( mellifluous ) ولسانه ( honey — tongued ) والدليل على ذلك « فينوس وأدونيس » و « لوكريس » و « سوتياتة » الحلوة <sup>(٢٦)</sup> . بل ان شكسبير صدر أول ما نظم ونشر أي « فينوس وأدونيس » بمقتطف اغنذه لنفسه شعارا وأخذ من « غراميات » ( Amores, 15. 35 — 6 ) أوفيد يوس وهما البيتان التاليان :

Vilia miretur vulgus ; mihi flavus Apollo

pocula Castalia plena ministret aqua

(٢٥) جاء في الأساطير ان يوفوربوس هو الذي جرح بآثروكلوس صديق بطل الابطال الاغريق اخيلايوس ( راجع « الالهة » الكتاب ١٦ ٨٠٦ وما يليه ) . وان مينيلاس قتله فيها بعد ( نفس المرجع الكتاب ١٧ ٤٥ وما يليه ) . وعرف عن ببشاجوراس ( Pythagoras ) أو - كما نسميه في العادة - فيثاغورس ( ٥٨٠ - ٥٠٠ ق . م تقريبا ) انه آمن بتناسخ الارواح وثاقها في صورة الانسان وأحيوان والنبات . وقيل انه هو نفسه تعرف على التجسيدات التي اغلظها رومعه من قبل ان يحط في جسده فاعتقد بأن رومعه هذه كانت متجسدة في يوفوربوس سالف الذكر ويبلغ الامر ببشاجوراس انه تعرف على درع صاصب رومعه الاسبق هذا ( راجع Horatius, Odes, 28. 9ff ) .

F. Meres, Palladis Tamia : Wit's Treasury, p. 280.

(٢٦)

« دع الأشياء الرخيصة تذهل عامة الناس أما أنا فدع أبولو الوضاء يقدم لي كنوسا مترعة من نبع كاستاليا » (٢٧)

وكان الطابع الدرامي لقصائد أوفيدوس رسائل « البطلات » ( *Heroides* ) هو الذي أغرى شكبير بقرائتها والاغتراف منها . ولا شك ان اشارته الى أريادنى وليدا وحلم هيكوبا الذى رأت فيه أنها تلد جمة تدل على أنه كان على دراية بهذه القصائد . بل أن شكبير يورد مقتطفات لاتينية في مسرحيته « ترويض النمرة » ( ف ٣ م ١ ب ٢٨ ) مأخوذاً من القصيدة الأولى في رسائل « البطلات » ( ٤ — ١٣٣ ) . وبات في حكم المؤكد أن شكبير استمد من قصيدة « الأعياد » أو « التقويم » ( *Fasti* ) الكثير من مادة « اغتصاب لوكريس » . وإلى نفس المصدر ( *Fasti* , ii . 83 ff . ) تعود الإشارة الى « أريون » ( *Arion* ) يمتطى ظهر الدلفين « في مسرحيته « الليلة الثانية عشر » ( ١ م ٢ ب ١٥ ) . ولعل عبارة جوليت « يقولون أن جوبيتر يسخر ضاحكا من إيمان العشاق غير المرعية » ( « روميو وجوليت » ف ٢ م ٢ ب ٩٢ - ٩٣ ) هى خير دليل على اطلاع شكبير على قصيدة « فن الهوى » *Ars Amatoria* . أما دليلنا الوحيد على معرفة شكبير بقصيدة « الحزان » ( *Tristia* ) فهى الإشارة الى ميديا وأبسيرتوس ( *Absyrtus* ) في الجزء الثانى من « هنرى السادس » ( ٥ م ٢ ب ٥٩ ) .

ولعله من المفيد هنا أن نلقى نظرة مقارنة على علاقة شكبير بكل من فرجيليوس وأوفيدوس لنوضح أنه كان أكثر تعلقا بالآخر . فمن الملاحظ أن الاشارات الاسطورية المأخوذة من فرجيليوس قليلة وضيقة الأفق في مقابل الكثرة والاتساع في تلك المأخوذة من أوفيدوس . وربما يرجع السبب في تلك الظاهرة الى أن أحكام ودقة فن فرجيليوس لم يتناسبا مع العصر الاليزابيثى . ويبدو أن هناك ثلاثة أحداث فقط من « الاينبيدة » هى التى فرضت نفسها فرضا على شكبير - وهى وصف سقوط طروادة بحيلة « حصان طروادة » المشهورة ، وخدعة سينون المكلمة وهى الحادثة التى وردت في أول الكتاب الثانى من « لاينبيدة » ( قارن هوميروس « الأوديسيا » الكتاب الرابع بيت ٢٧١ والكتاب الثامن بيت ٤٩٢ والكتاب الحادى عشر بيت ٥٢٣ ) . أما الحادث الثانى فهو موت برياموس ملك طروادة ( قارن « هاملت » ف ٢ م ٢ ب ٤٦٩ - ٤٦١ « الاينبيدة » الكتاب الثانى بيت ٤٣٨ - ٥٥٨ ) . أما الحادث الثالث فهو حزن ديدو بعد أن هجرها حبيبها اينياس . ويمكن أن نضيف وصف العالم الآخر في الكتاب السادس من « الاينبيدة » الى الأشياء التى أعجب بها شكبير بصفه خاصة من بين مؤلفات فرجيليوس . ولكن شكبير لا يكتفى بالإشارة الاسطورية بل يستغلها بما يتلام مع

(٢٧) يستطيع أي سائح ان يرى نبع كاستاليا الذى يقع عند سفح التل الذى اقيم عليه معبد أبولو في دلفي . فهناك تتدفق المياه المنبثقة من النبع صافية عذبة من بطن الصخرة المقدسة لدى الاغريق . أما الاساطير فنقول ان كاستاليا كانت عروس البحر التى هام بعشها الاله أبولو فأخذ بلاحقها حتى ألفت بنفسها في نبع فوق جبل البرانسوس الى الشمال من دلفي ( ارتفاعه ٨ آلاف قدما ) . على أية حال فإن نبع كاستاليا مقدس لدى أبولو وريات الفنون ( *Mousai* ) ويرمز الى الآلهام في الفن بصفة عامة .

أهدافه الدرامية ويخلق مما يشير إليه من أساطير شيئا جديدا . فعلى الرغم من أنه أخذ قصة ديدو من فرجيليوس إلا أننا نجد في « الانبياء » ما يقابل ذلك المنظر الرائع الذي يحدثنا عنه شكسبير في « تاجر البندقية » ( ف ٥ م ١ ب ٩٢-٩٣ ) حيث يقول لورتزو : « القمر يضيء اضاءة ساطعة ... في مثل هذه الليلة كانت ديدو ويدها غصن صفصاف واقفة على شاطئ البحر تنادى عشيقها ( أنياس ) وتشير إليه أن يعود إل قرطاجة » . ويقول روت ( R. K. Root ) ان هذه الصورة التي يظن أنها من « الانبياء » غير فرجيلية الطابع لأنها في الواقع منقولة من الرسالة العاشرة من « بطلات » أوفيدويوس حيث اكتشفت أريادنى هروب تيسبيوس فذهبت في ضوهِ القمر إلى الشاطئ الصخري وبعد أن ناجت حبيبها عبثا ربطت وشاحها الأبيض إلى غصن طويل « ولوح به من فوق رأسها إذ رجا يراها يعينها على الأقل ما دام أنه لم يعد يسمعا » (٢٨) ولقد وادم تشوسر هذه الايات الأوفيدية في ثنايا روايته لاسطورة أريادنى (٢٩) ومن المحتمل أن يكون شكسبير قد اطلع على الاسطورة عنده ومع ذلك فإن تبنيه لهذه الصورة الشعرية الرائعة ينهض دليلا على اعجابه الشديد بأوفيدويوس وتفضيله على فرجيليوس .

« أما التناسخات » الأوفيدية فكانت بالنسبة لشكسبير وسائر مؤلفي عصر النهضة بصفة عامة الينوع الحقيقي للأساطير ، فكلما نهلوا منه ازدادوا شغفا به . وكانت ترجمة جولدنج للتناسخات جافة لا تتفق مع رشاقة وعذوبة الأصل اللاتيني ، ولكن كان يوسع شكسبير أن يعود إلى ذلك الأصل كلما شعر بضرورة ذلك . ومن ناحية أخرى فإن شكسبير قد تمتع بموهبة لم يتمتع بها غيره وهي كما يقول ت . س . البوت ، القدرة على أن يستخلص أقصى ما يمكن استخلاصه من الترجمة (٣٠) . ومن ثم فهناك فقرات شكسبيرية عديدة رائعة الجمال كان النقاد يعتبرونها من نبات أفكاره ولكن الدراسات المقارنة أثبتت أنها مستعارة أو على الأقل مستوحاة من ترجمة جولدنج للتناسخات . مثال ذلك الفقرة التالية من السونية رقم ٦ .

“ Like as the waves make towards the pebbled shore  
So do our minutes hasten to their end ;  
Each changing place with that which goes before  
In sequent toil all forwards to contend ”

R.K.Root, Classical Mythology in Shakespeare, (PH.D.

(٢٨)

Thesis, Yale Studies in English, New York Henry Holt  
&Company 1903) pp.56—58

Chaucer, Legend of Good Women, 2189ff.,cf. Root, op.cit.  
pp.56—58 & cf.pp.40—41

(٢٩)

T.S.Eliot, The Classics and the Man of Letters  
(London & New York 1943) passim

(٣٠)

« ان دقائق حياتنا تسرع الى نهايتها كما تفعل الأمواج تجاه الشاطئ. ذى الحصى  
كل واحدة منها تأخذ مكان الأخرى التى سبقتها وكلها تتسابق فى جهد متصل للسير نحو الأمام » .  
ولقد جاءت هذه الفقرة الشكسبيرية من وحى ترجمة جولدنج التالية :

“ As every wave drives others forth, and that which comes behind  
Both thrusteth and is thrust himself; even so the times by kind  
Do fly and follow both at once, and evermore renew ”

والأصل اللاتينى يرد عند أوفيدوس ( Metamph. xv 181 ff. ) كما يلى :

ut unda impellitur unda  
urgeturque prior veniente urtgeque priorem  
tempora sic fugiunt pariter pariterque sequuntur  
et nova sunt semper

ونترجم هذه الفقرة الى العربية كما يلى :

« كما تساق الموجة بالموجة  
وتدفع الموجة السابقة بالموجة الآتية ولكنها بدورها تدفع الأسبق  
هكذا الأزمان تمضى هاربة فى وقت واحد ومتتابعة بالتساوى  
وهى دوماً متجددة »

ولعل استخدام شكسبير للصفة sequent يدل على أنه قد عاد للأصل اللاتينى ( sequuntur ) لأن  
جولدنج يستخدم الفعل follow . كما يلاحظ أن الموجات عند أوفيدوس هى موجات النهر المتدفقة والمتغيرة وهى  
الصورة التى تحدث عنها الفلاسفة الاغريق وهم يشرحون مبدأ أن كل الأشياء تتغير  
وتتحرك ( panta rhei ) اذ قالوا القولة المشهورة وهى أنك عندما تنزل النهر مرتين فانك فى المرة الثانية لا  
تنزل نفس النهر الذى نزلته فى المرة الأولى . أما شكسبير فيتحدث عن أمواج البحر والشاطئ ذى الحصى  
والسبب فى ذلك هو أن أنهار انجلترا لا تعرف الأمواج الهائجة المائجة . على أية حال فان هذه الفكرة تدخل فى  
نطاق الفكرة الأكبر وهى أن كل شئ يتحرك ومع ذلك فلا شئ يتدمر وهى فكرة وردت كثير ا فى أشعار كل من  
أوفيدوس وشكسبير .<sup>(٣١)</sup>

ومن حديث بروسبيرو في « العاصفة » لشكسبير عن السحر ( ف م ٥ م ١ ب ٣٣ - ٥٠ ) يمكن أن نثبت أنه عاد للنص اللاتيني لحديث ميديا عن قوة السحر في « تناسخات » أوفيدوس ( Metamph. vii 197 ff. ) . ولم يكتف بقراءة ترجمة جولدنج له (٣٢) . هذا بالرغم من أن شكسبير يستخدم نفس الكلمات التي وجدها في

(٣٢) نكتفي بذكر الإبيات التالية من الاصل اللاتيني عند أوفيدوس :

Auraeque et venti, montesque, amnesque, lacusque  
Vivaque saxa, sua convulsaque roborâ terra,  
Et silvas moveo, iubeoque tremescere montes,.....etc.

ولكننا رأينا أن نورد ترجمة جولدنج لهذه الفقرة كاملة ، نقول ميديا الساحرة .

"Ye Ayres and windes, ye Elves of Hilles, of brookes, of woods alone,  
of standing Lakes, and of the Night approche ye every One  
Through helpe of whom (the crooked banks much wondering at the thing)  
I have compelled streames to run cleave backward to their spring  
By charmes I make the calme seas rough, and make ye rough seas plaine.  
And cover all the Skie with Cloudes, and chase them thence againe.  
By charmes I rayse and lay the windes, and burst the Vipers Jaw,  
And from the bowels of the Earth both stones and trees doe drawe  
Whole Woods and Forestes I remove:I make the Mountains shake,  
And even the earth it selfe to grone and fearfully to quake  
I call up dead men from their graves, and thee O light some Moone  
I darken oft, though beaten brasse abate thy perill soone  
Our Sorcerie dimmes the Morning faire, and darkes ye Sun at Noone"

ولنضع إلى جانب ترجمة جولدنج هذه للاصل الإنجليزي « العاصفة » ( ف م ٥ م ١ ب ٣٣ - ٥٠ ) حيث يقول شكسبير على لسان بطله عن قوة السحر :

Ye elves of hills, brookes, standing lakes, and groves  
And ye, that on the sands with printless foot  
Do chase the ebbing Neptune and do fly him  
When he comes back, you demi—puppets, that  
By moonshine do the green sour ringlets make  
Whereof the ewe not bites, and you, whose pastime  
Is to make midnight mushrooms, that rejoice  
To hear the solemn curfew, by whose aid —  
Weak masters though ye be — I have bedimmed  
The moontide sun, called forth the mutinous winds  
And, twixt the green sea and the azured vault  
Set roaring war: to the dread — rattling thunder  
Have I given fire, and rifted Jove's stout oak  
With his own bolt, the strong—based promontory  
Have I made shake, and by the spurs plucked up

ترجمة جولدنج كلها وجد ذلك مناسباً . والدليل على أنه عاد للنص اللاتيني أنه يستخدم « pluck'd up » التي تعطي معنى الكلمة اللاتينية convulsa الواردة في نص أوفيدوس على نحو أكثر أمانة بدقة من ترجمة جولدنج لها بـ doe drawe . وبالمثل يستخدم شكسبير الصفة stout التي تشير إلى معنى آخر للكلمة اللاتينية robora غير الذي يورده جولدنج فالأخير اكتفى بذكر trees ( الأشجار ) في حين أن الكلمة اللاتينية قد تعني « أشجار البلوط المثينة » المقدسة لدى جوبيتر ومن هنا جاء كلام شكسبير ( Jove's stout oak ) .  
ومناسبة الحديث عن السحر والسحرة فإن بعض مكونات اناء الساحرات في « ماكيب » ( ف ٤ م ١ ب ١ وما يليه ) جاء من منظر تحضير المواد السحرية ( pharmakopoeia ) في « تاسخسات » أوفيدوس ( Metamph. vii 262 ff. ) ( وان كانت له مصادر كلاسيكية أخرى .<sup>(٣٣)</sup>

وهناك مقتطفات من أوفيدوس نثرها شكسبير كما تنثر الورد في ثنايا مسرحياته ففي « ترويض النمرة » على سبيل المثال يقف لوستنوس بمدرس اللغة اللاتينية معلناً الحب على بيانكا غيدور بينهما الحوار التالي ( ف ٣ م ١ ب ٢٦ وما يليه ) :

Bianca : Where left we last ?

Lucentio : Here, madam'

Hac ibat Simois haec, est Sigeia tellus,

Hic steterat Priami regia

The pine and cedar, graves at my Command

Have waked their sleepers, oped, and let them forth

By my so potent art ..... etc.

ونترجم الاستاذ محمد عوض إبراهيم هذه الفقرة الشكسبيرية كما يلي ( في طبعة دار المعارف مصر ) : « ابتها الجنيات اللواتي تسكن التلال والجواري المائية ، والحيويات الراكدة والأجاث . ويا ابتها اللواتي تنظن الرمال ولا توترن فيها بأفئامكن . ومحدثن المد والجزر في البحار ، ويا ابتها اللواتي تنقصن أشباه الضخام « الفرغوز » وتعملن حلقات كريمة على المراعي فتعاف الغذاء فيها الانعام . ويا ابتها اللواتي تصنعن القطر « عش الغراب » في منتصف الليل واللواتي يصرعن سماع جرس الغروب ، بمعارنتكن جميعاً اطلعت شمس النهار ( الغهر ) واثرت الرياح العاتية واقت حرباً شعواء بين البحر والسماء ، وبعجت الرعد ذا الصوت المزعج ، وشقلت شجرة بلوط جوبيتر بصاعقة وزلزلت اركان الأرض المستقرة واتقلعت اشجار الصنوبر والأرز من جذورها وبطلت القبور بأمرى جنتها وتفتحت وأخرجتها بسحري القوي في تأثيره .. الخ » ونترجم لفظة أوفيدوس اللاتينية - في هذه ترجمة جولدنج الإنجليزية - كما يلي : « ياها التسيم ويا ابتها الرياح ، ابتها الجبال والنهيرات ويا ابتها الحيويات يا كل ألفة الأجام . يا كل ألفة الليل ، قلوا بجانيي انتم يا من بعزتمكم وبهتسيت عادات مياد النهيرات أدرأجها إلى الوراء ، إلى مئامعها الأصلية بينا الشيطان في دعول ! فأتا بتومونيي السحرية أوقف البحار المانجة وأقلب تلك الساكنة رأساً على عقب . أبعد السحاب أو اجعلها وأطره الرياح أو استدعها . بكلماتي وأغنيني السحرية أحطم لك التماثيل وأحرك الأحجار الحية وأقتلع الشجار البلوط والغابات من جذورها في الأرض . إذا امرت الجبال اهتزت وإذا امرت الأرض زعجت والاشباح أمرها فتخرج من قبورها . وأنت ايها القمر يا ألفة القمر اي القمر ) ألم اسجد رغم أن الرفعات على قطع النحاس التيمسي ( نسبة إلى مدينة تيميسا المشهورة بالنحاس ) تحاول أن تخلف من متاعها ( الاشارة هنا إلى عادة أحداث خسوف القمر على النحاس أو الطبول لازعاج وطرد الأرواح الشريرة التي تسببت في وقوع الخسوف القمري وهي عادة لا تزال قائمة حتى يومنا هذا ) . وحتى عربة جدي الشمس ( هيلوس هو الجند الاسطوري لمياد التي جاءت هذه الابهات على لسانها ) سحب لوتيا بفعل اغتيبي السحرية وكذلك امتنع لورن اورورا ( ألفة القمر ) اي القمر ) من اثر سومي السحرية .»

Cf. Muir, op.cit., pp. 3ff, Highest, op.cit., p.206

(٣٣)

Bianca : construe them

Lucentio : Hac ibat, as I told you before, Simois,

I am Lucentio, hic est, so unto Vicentio.  
of Pisa. Sigeia tellus, disguised thus to get  
your love ; Hic steterat, and that Lucentio  
that comes a — wooing Priami, is my man  
Tranio, regia, bearing support, celsa  
senis, that we might beguile the old pantaloon »



« بيانكا : أين وقفنا آخر مرة ؟

لوسنشيو : هنا يا سيدتي : ( باللاتينية مامعاه ) « هنا كان يتسرب سيمويس ، وهذه تكون الأرض  
السيجية<sup>(٢٤)</sup> ، وهنا كان قد وقف شاخا قصر برياموس العجوز »

بيانكا : وما معنى هذه الالفاظ :

لوسنشيو : هنا كان يتسرب : أى كما قلت لك من قبل

سيمويس : إني لوسنشيو

وهذه تكون : بن فنشيو من بيزا

الأرض السيجية : قد تنكرت هكذا لأظفر بهبك

وهنا كان قد وقف شاخا : وهذا المدعى لوسنشيو الذى أتاك خاطبا

برياموس : هو خادمى ترانيو

قصر : تزيابزى ويمثل دورى

(٢٤) سيمويس هو بحري مائي صغير يصب في بحر سكماندروس بمنطقة طروادة . اما الأرض السيجية فالمقصود بها رأس الأرض والبناء بطروادة وهناك كان يقع قبر ارحميليوس



العجوز: حتى خدع العجوز السخيف» (٣٥)

وان بحث في أدب عصر النهضة كله لن تجد مقتبسا يتقن فن الاقتباس واستغلال المقتطفات مثل شكبير في هذه الفقرة. فهو هنا يوظف اللفظة اللاتينية لخدمة الموقف الدرامي وسير أغوار الشخصية. والمقتطف الذي انتخبه لوستنتيو مدرسو اللاتينية مأخوذ من رسائل «البطلات» أو على وجه التحديد رسالة بينيلوبي (4 — 33 i Heroides). وهناك مقتطف آخر من قصائد أوفيدوس هذه أتى رسائل «البطلات» يرد في «هنري السادس» (ف ١ م ٣ ب ٤٨ وقارن Heroides II. 66) أما المقتطفات من «التناسخات» فهي كثيرة ونشر منها إلى مايرد في «تيتوس أندرونيكوس» (ف ٤ م ٣ ب ٤ وقارن Metamorph I, 150).

والجدير بالذكر أن أوفيدوس، البعيد بطبعه عن التفلسف، يعد شاعر الحب والجنس المفضل لدى أهل عصر النهضة. كما أن شكبير قد شغل كثيرا بموضوع الحب والجنس في أشعاره ومسرحياته. فقصيدته «فينوس وأوديس» مستوحاة من «تناسخات» أوفيدوس وموضوعها الرئيسي هو الحب الذي لا يقاوم. وان كان شكبير قد صور أوديس — على غير ما وجدته عند أوفيدوس — باردا يعرض عن الحب ويصد المحب بما يدل على أن شكبير قد أخذ هذا العنصر من قصة أخرى هي بدورها أوفيدية أيضا وفي «التناسخات»، ولكن في مكان آخر (388 — 285 iv) غير مكان القصة الرئيسية التي استوحيت منها القصيدة ككل (739 — 705 & 559 — 519 x). نريد أن نقول بأن عنصر العزوف عن الحب في شخصية أوديس سكبير متصل بقصة هيرما أفروديتوس وسليماكيس. فالأول هو ابن الإله هيرميس من أفروديتي وقد عشقته

(٣٥) ترجم الدكتور سهر القلادي (في سلسلة مسرحيات شكبير. دار المعارف بمصر - جامعة الدول العربية) هذه الفقرة كما يلي -

«بيابكا... ابن وقتنا أحرمة؟

لوستنتيو: هنا يا سيدتي،

«هيك آيات سيموس (والصحيح سيموس) هيك است سيجيا تلوس هيك ستيرات بريامي ريجيا سلسا (والصحيح كلسا) سيبس» وهذه الكلمات هي نقل البيتين اللاتينين كما هما إلى الحرف العربي (

بيابكا: ترجم هذه الالفاظ

لوستنتيو: هيك آيات = كما قلت لك من قبل

سيموس = اني لوستنتيو

هيك است = ابن فتنتيو من بيذا

سيجيا تلوس = قد تنكرت هكذا لافتر بهيك

هيك ستيرات: وهذا المدعي لوستنتيو الذي اتاك خاطبا

بريامي = هو خادمي تريبو

ريجيا = تزيبا بري ويثل دوري

سلباسيس = حتى خدع العجوز السخيف»

وقد رأينا ان نترجمها كما اسلفنا في الثن في محاولة للوصول الى معنى ما من المقتطف اللاتيني المنشور في هذه الفقرة الشكسبيرية صعبة الترجمة لأن ترجمة الدكتور سهر القلادي لا تغطي معنى على الاطلاق وقد يكون من الأفضل وضع المقتطف اللاتيني كما هو بلغته.

عروس التبع الذي كان يسبح فيه ، فلما صدها تضرعت الى الآلهة أن تصنع منها جسا واحدا ، فاستجاب الآلهة لدعائها ( ومن هنا جاءت الكلمة الانجليزية hermaphrodite بمعنى الشخص الذي يجمع جسده بين العنصر الذكري والانثوي ) . وجدير بالذكر أن هناك قصيدة انجليزية بعنوان « سلماتيس وهيرما أفريدوتوس » نشرت عام ١٦٠٢ وهي مجهولة المؤلف وإن كانت تنسب أحيانا الى فرنسيس بومونت ( Francis Beaumont ١٥٨٤ - ١٦١٦ ) .

وعندما رسم شكسبير شخصية كليوباترا العاشقة في « انطوني وكليوباترا » نجده يتأثر بصورة الملكة الفرطاجية ديلو عند أوفيدوس ولا سيما رسالتها الى عسيقها اينياس ( Heroides VII ) حيث يرد البيت البالغ التالي ( رقم ١٣٩ ) :

” Sed iubet ire deus, vellem vetuisset adire ! “

« ولكن الاله يأمرك بالذهاب، باليته كان قد منعك من الحضور ! »

ف نجد هذا البيت صدى مسموعا في حديث كليوباترا التي تؤنب عسيقها أنطونيوس وتسخر منه قائلة ( ف ١ م ٣ ب ٢١ ) :

” Would she had never given you leave to come ! “

فهى تتحدث عن فولفيا زوجة انطونيوس الرومانية الشرعية المعروفة بتسلطها وقوة شخصيتها وتقول « ليتها ما سمحت لك بالهجرة الى هنا ! » وهو ما يستفز أنطونيوس بالطبع .

يقول الباحث روت أن من قرأ أوفيدوس ( وفرجيليوس ) يستطيع أن يخرج بكل الاشارات الأسطورية الواردة عند شكسبير ، أو على الأقل بغالبيتها العظمى . ويقول نفس الباحث أن تأثيرات أوفيدوس على شكسبير تبلغ أربعة أضعاف تأثير فرجيليوس ، بحيث يمكن القول بصفة عامة أن أساطير شكسبير أوفيدية الطابع . ولكن روت يوصي دارسي شكسبير بالتفريق بين الاشارات الاسطورية العابرة في مسرحيات شكسبير والتي لا تدل على معرفة عميقة بالاسطورة المشار اليها ، وبين الاشارات الاسطورية التفصيلية الدالة على الاستيعاب التام والتعمق بالدراسة المتأنية للأسطورة ومثلها . فمثل هذه الأساطير المدروسة قد أصبحت جزءا أساسيا من المكونات الثقافية للمؤلف . ويضرب روت المثل على هذه الاشارات الاسطورية المتعمقة بتلك التي ترد في مسرحيات شكسبير عن اسطورة هرقل . فما لاشك فيه أن الشاعر الانجليزي قد اطلع على تفاصيل هذه الاسطورة عند أوفيدوس ( وسينيكا ) . ومن الملاحظ أن بعض شخصيات شكسبير قد أصبحت هرقلية الأبعاد في النهاية ، ومثال ذلك يوليوس قيصر ذلك البطل العملاق الذي تضاءلت الى جواره بقية الشخصيات في المسرحية التي تحمل اسمه عنوانا . على أية حال فإن روت نفسه يعترف بأن الاشارات الاسطورية المتعمقة في

مسرح شكسبير قليلة العدد نسبياً إذا فُيَسب بالأساطير العابرة ولكن هذه الاشارات القليلة هي التي تضع أيدينا على المصادر الحقيقية لفكر وخيال الشاعر الانجليزي. (٣٦) هذا ونعتقد أن دراسة الاشارات الاسطورية الشكسبيرية دراسة أكاديمية دقيقة تضع في الاعتبار تطور طريقة المؤلف الانجليزي في استخدام هذه الاشارات من مسرحية الى اخرى وتربط هذه الاشارات بمصدرها الكلاسيكي الصحيح ستساعد كثيراً في حل بعض المشكلات القائمة حول نسبة بعض المسرحيات الى شكسبير. فلو تفهمنا اسلوب الشاعر الانجليزي في استغلال هذه الأساطير وتطور هذا الاسلوب على مدى فترة انتاجه المسرحي واستطعنا أن نحدد بدقة علاقته بكل من المؤلفين الكلاسيكيين لتكننا من التمييز بين ما هو شكسبيرى أو غير شكسبيرى من الاشارات الاسطورية وبالتالي من المسرحيات التي تضمها .



#### ٤ - سينيكا ... وبصائته المساوية

كان شكسبير يرى أن الحياة معركة ملحمية بين قوى الخير وجيوش الشر ، بين النظام والفساد . وهي معركة تدور رحاها كل يوم حول الانسان في كل مكان ولكنها تحدث داخل نفسه أيضاً . فيروتوس يتحدث عن نفسه في مطلع مسرحية « يوليوس قيصر » فيقول « ان يروتوس المسكين وهو في حرب مع نفسه ... » ( ف ١ م ٢ ب ٤٦ ) . وكان النصر عموماً في هذا المعركة ينقذ لقوى الخير على قوى الشر التي من طبيعتها أن تتطوى على عوامل هزيمتها . لكن انتصار الخير لم يكن لينم بغير دفع الثمن الذي قد يصل في بعض الحالات الى ضريبة الموت . وبالتالي فإن الميت المنتصر يحقق انتصاراً أخلاقياً ومعنوياً لا مادياً على الشر الذي قد يظل حياً . والمعركة التي تدور رحاها داخل النفس الانسانية لا يستطيع المروء أن يتجاوزها بنجاح أو يصيب فيها فوزاً أن لم يتسلح بسلاح الوعى الكامل والتعقل الشديد ، فهي في الحقيقة معركة بين الارادة والعقل من جهة والعاطفة والأهواء من جهة أخرى . وهكذا تتضح معالم الصراع التراجيدى في مسرح شكسبير كعراك ساخن وصدام عنيف بين العقل والعاطفة داخل نفس الانسان . ولكن شكسبير يبعث روحاً جديدة في قالب هذا الصراع التراجيدى التقليدى حين يسلط الأضواء الساطعة على الهزلة الواصلة بين الانسان من ناحية ، والحيوان أو الملك من ناحية أخرى . فان ذلك يوحي بأن شكسبير يدرك تمام الادراك الأهمية القصوى في هذا الوجود للانسان الذى يحتل موقع المركز المحورى في نطاق سلسلة الخلق العظيمة . فمسرحية « هاملت » تتمتع ببراء وحيوية ظاهرتين بفضل وعى شكسبير الباطن بأن الانسان ملاك في عمله وفعله واله في وعيه وإدراكه ولكنه مع ذلك قادر على اتیان أحقر أنواع السلوك كما أنه معرض للهيوط في مستمتع أدناً المخلوقات . يقول هاملت عن أمه التي تجملت الزواج بعمه « يأبئها السماء ، ان الحيوان الذى لا يدرك لفة العقل كان يمكن أن يحزن فترة أطول » ( ف ١ م ٢ ب ١٥٠ -

(١٥١) فهنا نجد الانسان المتمتع بميزة مساوية ، هي العقل والفهم ، ينحط ويتدهور الى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان نفسه . وجدير بالذكر أن أم هاملت - جيرتود - بفعلتها هذه لم ترتكب معصية في حق اللياقة والحسنة الملكيتين ، أو في حق الاسرة والمجتمع فحسب ، بل في حق طبقات الخلائق كلها ، لأنها على الأقل سوت بين نفسها كائنسان ، وبين أرذل الحيوان ، فأفسدت التدرج الطبيعي في سلسلة الخلق ، وتسببت في حدوث خلل بالنظام الكونى . هذا ما يفهم من مأساة « هاملت » في إطار خلفيتها الفكرية أى مفاهيم العصر الاليزابيثى حول الانسان والحياة .

ولكننا هنا ينبغي أن نذكر بأن المعركة بين العاطفة والعقل داخل النفس الانسانية كمنيع للمساوية فكرة موروثه عن الفيلسوف الرواقى سينيكا ( حوالى ٤٠م - ٦٥م ) الذي يعتبره ت.س. إليوت صاحب أعمق وأوسع تأثير على عقلية العصر الاليزابيثى بصفة عامة وعلى شكل ومضمون التراجيديا في ذلك العصر بصفة خاصة. (٢٧) نعم فلم يلق أى مؤلف لا تينى - أو اغريقى - تقديرا واعجابا مثلا لاهى سينيكا آنذاك . فبدت مسرحياته بفلسفتها الرواقية ومبادئها الأخلاقية أكثر اغراء لرجال عصر النهضة من أى وقت سابق أو لاحق . فنهل منها كل أدباء وشعراء العصر الاليزابيثى قدر طاقتهم ، حتى أنه يمكن القول بأن نصف الأشياء المألوفة اليهم - وهو النصف الأكثر شيوعاً - يرجع في أصوله الى كتابات سينيكا الثرية وتراجيدياته الشعرية . وهذا قول ينسجم مع الحقيقة المعروفة وفحواها أن النهضة الأيوبية بصفة عامة لاتينية الطابع أكثر منها إغريقية . فالأقوال القصيرة التى تأخذ شكل المأثورات أو الحكم ( sententiae ) والتى ينثر سينيكا فيضا وافرا منها في كل مسرحياته لاقت قبولا هائلا لدى أهل العصر الاليزابيثى ، وذلك قبل أن يتنبهوا الى الحكم الأخلاقية التى يمكن استخلاصها من شعراء المسرح الاغريقى . ويولد المبدأ الأخلاقى في مسرحيات سينيكا من موقف حاسم ، وكان الموت فى الأغلب هو ذلك الموقف الذى يعطى الشخصية البطولية فرصة ذهبية لظهور الفضائل الرواقية وطرح أكبر كمية ممكنة من الأقوال القصيرة التى تذهب مذهب الأمثال . ولقد تلفف كتاب المسرح الاليزابيثى هذا القالب التراجيديدى الرواقى من سينيكا بصدر رحب واستحسان نشط مفر ، كما يبدو من انتاجهم الأدبى .

ومن الملاحظ أن تأثيرات سينيكا على المسرح الاليزابيثى سارت في اتجاهات ثلاثة : يتمثل الاتجاه الأول في التراجيديا الاليزابيثية الشعبية والثانى في ما يمكن أن نسميه المسرح السينيكارى أو الكلاسيكى الجديد والذى قامت على انشائه وتدعيمه وعرضه صفوة مختارة من المثقفين لم تكن على وئام مع الدراما الشعبية الموجودة آنذاك فنذرت نفسها لمقاومتها . أما الاتجاه الثالث فيتمثل في تراجيديات بن جونسون ( ١٥٧٢ - ١٦٣٧ ) الرومانية ولاسيما « سيجانوس ، سقوطه » ( Sejanus, his Fall ) التى عرضت عام ١٦٠٣ ولعب شكسبير نفسه أحد

T.S. Eliot, Seneca in Elizabethan Translation, 1927 (reprinted in Selected Essays. London 1948 — 9)

أدوارها . فبن جونسون مؤلف هذه المسرحية يحاول التوفيق بين الاتجاهين السابقين بهدف تطوير الدراما الشعبية في ضوء الافادة من تراجيديات سينيكا لا عن طريق التقليد الأعمى وإنما بالاعتداه به والاقتراس الواعي منه . وبعبارة أخرى كان بن جونسون يميل الى جعل الدراما الشعبية عملاً أدبياً صغيفاً عن طريق تمريرها عبر مدرسة المسرح الكلاسيكي الجديد . والجدير بالذكر أن بعض تأثيرات سينيكا لم تصل الى المسرح الاليزابيثي في الجزيرة البريطانية الا عن طريق المسرح الايطالي والفرنسي حيث التصق كتابها بالمؤلف اللاتيني التصاقاً متيناً . ولقد كان سينيكا جزءاً من برنامج الدراسة في مدارس الدول الأوروبية الناهضة في وقت كانت فيه التراجيديات الاغريقية شبه مجهولة ، فهي لن تعرف الا بفضل مسرحيات هذا المؤلف اللاتيني . لقد كان الصبية في المدارس يحفظون بعض أبيات سينيكا للمأثورة والتي ربما وجدوا لها صدى في الدراما الشعبية وسائر الانتاج المسرحي والأدبي لذلك العصر . ومن ثم فإننا عندما نجد أصداء لأقوال سينيكا وأفكاره في مختلف مسرحيات شكسبير ينبغي أن نرجع أكرها الى الزاد الثقافي المتداول آنذاك ، والذي أجاد الشاعر الانجليزي هضمه وتقبله . المهم أنه مستمد من مائدة سينيكا التراجيدية والرواقية التي استضافت معظم كتاب عصر النهضة .

ويتفق جميع النقاد على أن تقسيم المسرحيات الأوروبية إبان عصر النهضة الى خمسة فصول يدين بالفضل لسينيكا . ذلك أن التراجيديا الاغريقية لم تعرف الا الايسودي ( epeisodia ) وهي الأجزاء الحوارية الواقعة بين أغاني الجوقة المستقرة في الأوركسترا ( وتسمى هذه الأغاني ستاسيما stasima وهي غير أغنية الدخول أي البارودوس parodos وأغنية الخروج الاكسودوس exodos ) وكان عدد هذه الأيسوديا متفاوتاً غير مستقر من مسرحية الى أخرى من مسرحيات شعراء التراجيديا الاغريق . أما التقسيم الى خمسة فصول فقد اخترعه فارو ( ١١٦ - ٢٧ ق.م ) الكاتب اللاتيني الموسوعي وقته الشاعر هوراتيوس ( ٦٥ - ٨ ق.م ) في رسالته النقدية المعروفة باسم « فن الشعر » ( Ars Poetica ) أما عنوانها الأصلي فهو « رسالة الى أبناء بيسو » ( فنصل ١٥ ق . م ) ( Epistula ad Pisones ) لقد وضع هوراتيوس التقسيم الى خمسة فصول قاعدة نظرية يجب أن يتبعها كل من يسرع في كتابة التراجيديا . وترجم كتابه « فن الشعر » الى اللغات الأوروبية الحديثة ، وظهرت مؤلفات عديدة إبان عصر النهضة تقلده أو تقتبس منه . ولقد نقله الى الانجليزية بن جونسون والى الفرنسية بوالو ( ١٦٣٦ - ١٧١١ ) . ولكن تطبيقات سينيكا - لا نظريات هوراتيوس - هي التي كان لها أكبر الأثر لأنه قسم الحدث الدرامي الى تراجيدياته الى خمس مراحل تفصل بينها أغاني الجوقة التي لم تعد مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالأحداث كما هو الحال في التراجيديات الاغريقية . ومن ثم جاءت هذه الأغاني الجوقية بمثابة فواصل بين المراحل الخمس للحدث الدرامي وهو التقسيم الذي أخذت به التراجيديا الأوروبية إبان عصر النهضة .

وفي التسعينات من القرن السادس عشر كان توماس ناش Th. Nashe ( ١٥٦٧ - ١٦٠١ ) يسخر من

الكتاب الذى ينسخون من سينيكاً « المقروء على ضوء الشموع مسرحيات كاملة عن هاملت ( Hamlets ) متكئين على أحاديثه الساواسة » . جاء ذلك فى معرض حديثه عن رواية « مينافون » ( Menaphon ) لروبرت جرين R. Greene ( ١٥٦٠ - ١٥٩٢ ) فى مقال طويل بعنوان « تشريح السخافة » ( Anatomie of Absurditie ) المنشورة عام ١٥٨٩ عند ظهور هذه الرواية الرومانسية النثرية . ولا شك أن ناش كان يشير الى البصائر المشينة لمسرح سينيكاً على عصر النهضة وهى بروز وشيوع « تراجيديا الدم » أو ما يسمونه « مملكة العنف الدموى » . فسينيكاً هو المستول الأول عن منازرها المرعبة وفظائعها المروعة التى تعد وصمة فنية فى جبين المسرح الاليزابيثى بصفة خاصة . فمن المعروف أن سينيكاً لم يراع بدقة المؤلف الاغريقى الذى سجله أرسطو وصاغه هوراتيوس . كقاعدة ونعنى عدم إراقة الدماء وأرتكاب سائر أفعال العنف أمام المشاهدين ( coram populo ) . ومن المحتمل أن تكون ملايسات عصر الامبراطور نيرون ( ٥٤ - ٦٨ م ) التى عاشها سينيكاً وخاض غمار مخاطرها الدموية وتورط فى مؤامراتها وفسادها هى التى انعكست فى مشاهد الرعب بتراجيدياته خروجاً على القاعدة الفنية التى وضعها هوراتيوس . وقد تكون حالة المسرح الرومانى نفسه وميل جمهوره الى العنف وراء ابراز هذه المشاهد الدموية على المسرح . لكن المدهش أن سينيكاً يحافظ على القاعدة مرة ويخالفها مرات ، ويبدو أنه فعل هذا أو ذاك وفقاً لما تقتضيه أحداث كل مسرحية على حدة . فيوكاستى فى مسرحية « أوديب » ( ١٠٢٤ - ١٠٣٩ ) وفايدرا فى مسرحية « هيبوليتوس » ( أبيات ١١٥٩ - ١٢٠٠ ) تقتل كل منهما نفسها أمام ناظرينا . وتقتل ميديا فى المسرحية التى تحمل اسمها ( أبيات ٩٧٠ - ٩٧٧ و ٩٩٧ و ١٠٠١ و ١٠٠٦ و ١٠٠٨ - ١٠١٨ و ١٠٢٥ ) ولديها ، وتلقى بجثثها الى زوجها ووالدها من فوق عربتها السحرية ، ويحدث كل ذلك علناً على المسرح وأمام المشاهدين . ولكن أوديب فى المسرحية المعنونة باسمه لا يبقأ عينيه أمام النظارة ( أبيات ٩١٥ - ٩٧٩ ) . وفى مسرحية واحدة هى « هرقل مجنوناً » يقتل البطل أبنائه أمام الجمهور ، ولكنه يبعث بزوجه ميجارا وعدوه ليكوس الى عالم الموتى من وراء الكواليس ( أبيات ٩٨٧ - ١٠٠٢ وقارن ١٠١٨ و ١٠٢٤ و ١٠٢٦ ) . ولكننا الى جانب هذه المشاهد الدموية فى مسرح سينيكاً نلاحظ أن المؤلف بصفة عامة تعمد استخدام الفاظ العنف وما شابهها وتجنبها منها من تعبيرات وتشبيهات وصور شعرية . بل تعمد اختيار موضوعات تقوم على العنف والانتقام وما الى ذلك من الأعمال الغريبة والعلائق الشاذة كأن يقتل الابن أمه أو يتزوج منها ويشجب أو يتغذى الأب على لحم أطفاله ! وكان الهدف الرئيسى لسينيكاً هو احداث صدمة أخلاقية لدى المتفرج تمهد الطريق لتلقيته الدرس الرواقى المناسب . ( ٢٨ )

وظهرت بوادر الاعجاب بمسرح سينيكاً الحافل بالدم والانتقام منذ بداية عصر النهضة فى إيطاليا ، مروراً بالمسرح الاسبانى والفرنسى ، حيث نجد أصداء خفيفة لهذا الميل نحو العنف ، ولكن مملكة مسرح الدم والانتقام

ازدهرت في العصر الاليزابيثي . ولعل أفضل درة في تاج هذه الملكة الدمية هي مسرحية « المأساة الاسبانية » (The Spanish Tragedy) لتوماس كيد (١٥٥٨ - ١٥٩٤ ؟) والتي عرضت عام ١٥٩٢ وطبعت عام ١٥٩٤ . ولكنها من ناحية أخرى تعتبر المسرحية التي دعمت فن التراجيديا على خشبة المسرح الشعبي أبان العصر الاليزابيثي ، فهي بحق فاتحة عهد جديد لهذا الفن ، كما أنها أكثر مسرحيات العصر تأثيرا بسينيكيا وتشبعها بروحه .<sup>(٣٩)</sup> وتبدأ هذه المسرحية وتنتهي بظهور شيخ القاتل أندريا والانتقام (Revenge) مجسدا . إذ لا يرتاح لها بال طوال الحدث الدرامي الا بعد موت كل الأبطال الرئيسيين في المسرحية - بالقتل أو الانتحار - فيبلغ عدد الموتى في النهاية حوالى تسعة ضحايا ، يتساقط الواحد منهم بعد الآخر أمام الجمهور على خشبة المسرح ! ولكن « الانتقام » لم يكتف بهذا العدد المكدر من الجثث ، ولا بأثر الدم التي سالت فيختمهم المسرحية مهددا أعداءه القتل قائلا « وسأبدأ هناك مأساتهم الحقيقية الى مالانهاية » !

ويتحمل سينيكيا مسئولية تقديم هذه المشاهد البشعة على خشبة المسرح وتقع عليه أيضا مسئولية الطنططنة الخطابية الموجودة في أسلوب مؤلفي المسرح الاليزابيثي . نقول ذلك مع أننا نضع في الاعتبار تحذيرات ت.س. اليوت من الاسراف في تأكيد أو إنكار هذه المسئولية بصفة مطلقة.<sup>(٤٠)</sup> لقد جمعت الكونتيسة بيمبروك (١٥٦١ - ١٦٢١) اخت السير فيليب سيدنى حولها زمرة من رجالات الأدب الذين تأثروا بروبير جازينيه (١٥٣٤ - ١٥٩٠) حامل لقب « سينيكيا الفرنسي » لدى النقاد . فترجمت هي نفسها تراجيدته بعنوان « مارك انطوان » (Marc Antoine) المعروضة في فرنسا عام ١٥٧٨ وأعطتها عنوان « انطونيوس » (Antonius) وعرضت بانجلترا عام ١٥٩٠ . وعاش في ظل حماية الكونتيسة بيمبروك ورعايتها كل من صمويل دانييل (١٥٦٢ - ١٦١٩) ونيكولاس بريتون (١٥٤٥ - ١٦٢٦ ؟) وبن جونسون وتوماس كيد وغيرهم . وبعد أن قدم الأخير مسرحية « المأساة الاسبانية » التي أسلفنا الحديث عنها وعن أهميتها في تطوير الفن الدرامي أبان العصر الاليزابيثي قام باعداد مسرحية روبر جازينيه « كورنيليا » (Cornelie) للعرض وهي تراجيدية مأخوذة من التاريخ الروماني وتدور حول كورنيليا زوجة بومبي الأكبر وظهرت في فرنسا فبا بعد عام ١٥٦٨ . وتذكرنا هذه التراجيدية بمسرحية سينيكيا التاريخية (fabula praetexta) « أوكتافيا » رغم اختلاف الموضوع والشخصيات . وجدير بالذكر أن مسرحية سينيكيا هذه هي الوحيدة الباقية من نوعها في المسرح الروماني القديم . ولقد راعى جازينيه عند تأليف هذه المسرحية قانون الوحدات الثلاث بدقة متناهية كما أنه حرص على ألا تضم هذه المأساة أية لمسة كوميدية بهدف التخفيف أو الترويح . وتلك هي نفس السمات تقريبا التي نجدها في تراجيدتي صمويل دانييل « كليوباترا » (Cleopatra) المعروضة عام ١٥٩٣ تقريبا -

C. Ludowyk, Understanding Shakespeare (Cambridge 1964) pp. 65-66.

(٣٩)

(٤٠) انظر خاتمة رقم ٣٧

والتي سنعود للحديث عنها وعن كل المسرحيات التي ظهرت في عصر النهضة وعالجت شخصية هذه الملكة البطلمية<sup>(٤١)</sup> - « فيلوتاس » ( Philotas ) المروضة فيما بين ١٦٠٠ - و ١٦٠٤ والمنشورة عام ١٦٠٥ فيها مسرحيتان مرسومتان على النمط السينيكاوي .

الا اننا نرجع أن تأثيرات سينيكا على شكسبير لا تعود بصفة أساسية الى الدراما الفرنسية الكلاسيكية وانما أصلا الى اتصال الشاعر الانجليزي بالفيلسوف الروماني مباشرة ودون أى توسط . فمن المؤكد أن شكسبير قد قرأ سينيكا وربما رجع الى الأصل اللاتيني باستمرار ولم يكتف بالترجمة الانجليزية للعشر تراجيديات ( Tenne Tragedies ) المنسوبة للكاتب الروماني والتي ظهرت مجمعة في عام ١٥٨١ . وكانت « الطرواديات » ( Troades ) قد طبعت عام ١٥٥٩ و « نيسيتس » ( Thyestes ) عام ١٥٦٠ و « هرقل مجنون » ( Hercules Furens ) عام ١٥٦١ منقولة الى الشعر الانجليزي مع خمس مسرحيات أخرى للمؤلف الروماني ظهرت ترجمتها متفرقة فيما بين عام ١٥٥٩ و ١٥٦٧ وتعزى ترجمتها جميعا الى جيسبر هيود ( Jasper Heywood ) . كما ترجم الكسندر نيفيل ( Alexander Nevyle ) « أوديب » ( Oedipus ) عام ١٥٦٠ ونشرت عام ١٥٦٣ وترجم توماس نوس ( Thomas Nuce ) « أوكاتافيا » ( Octavia ) عام ١٥٦٢ وطبعت عام ١٥٦٦ . وترجم جون ستدلي ( John Studley ) « ميدبا » ( Medea ) و « أجاممنون » ( Agamemnon ) أيضا في نفس العام أى ١٥٦٦ . وظهرت « هيبوليتوس » ( Hippolytus ) عام ١٥٥٦/١٥٥٧ ثم ترجم توماس نيوتون ( Thomas Newton ) مسرحية « الفينيقيات » ( Phoenissae ) بعنوان « الطيبة » ( Thebais ) وضمها الى ترجمة المسرحيات السابقة ونشرها مجمعة في الطبعة التي أشرنا اليها والتي ظهرت عام ١٥٨١ .

ويورد الدارسون فقرات بعينها من مسرحيات شكسبير على أنها مستعارة من سينيكا . وهي فقرات كثيرة وتزايد بصفة مستمرة بتكاثر الدراسات . الا أن لوكاس ( F.L.Lucas ) وهو من أبرز المهتمين بهذا الموضوع يحذر من المبالغة في التركيز على هذه النقطة والسطط في استخراج النتائج وتعميمها<sup>(٤٢)</sup> . فهو يقول على سبيل المثال أن سينيكا كان فعلا مغرما بالأشباح فأظهرها كثيرا في مسرحه ، فضلا عن أنه سلط الأضواء على أعمال العنف وقدم بعضها امام النظارة كما سبق أن ألمحنا ومع ذلك - على حد قول لوكاس - فمن غير المنطقي او المعقول أن يهتف المرء باسم سينيكا كلما صادف عنفا أو واجه شبحا على المسرح الايزابيثي . فلم تكن الاشباح وأعمال العنف في المسرح الكلاسيكي القديم حكرا على سينيكا ، فهناك أشباح ظهرت في مسرحيات أيسخولوس

( ٤١ ) « كلويانرا وأنطونيوس . دراسة في فن بلزانخوس وشكسبير وشوقي » عنوان كتاب لنا على وشك الصدور من المركز العربي للبحث والنشر بالقاهرة وفيه نعالج بالتفصيل المصادر المختلفة لمسرحية « أنطوني وكلويانرا » لشكسبير . « مصرع كلويانرا » لأحمد شوقي .



ويرويديس وغيرهم . والمرح الاغريقي ملء بأعمال العنف ولكنها كانت تروى وتوصف ولا تؤتى أمام المتفرجين . ومع ذلك فإن شبح « هاملت » هو بلا جدال من فصيلة أشباح سينكا وله علاقة وثيقة بشبح تانتالوس في مسرحية « ثيستيس » كما أن علاقته بشبح لاويوس في مسرحية « أوديب » وطيدة وواضحة تماما . ولكن ما ينبغي أن نضعه في اعتبارنا ولا ننساه أبدا هو أن هذا الطراز من الاشباح السينيكاوية كان قد أصبح شيئا مألوفا وطبيعيا ، ليس فقط على خشبة المسرح الفرنسي الكلاسيكي الجديد ، وإنما أيضا في إنجلترا نفسها وعلى خشبة المسرح الاليزابيثي بالذات وأبان عصر شكسبير الذي لم يكن بحاجة ماسة لا استبراده من روما القديمة مباشرة بعد أن صار بضاعة يتداولها جميع المؤلفين الدراميين .

ولكن هذا لا يعني أن شكسبير لم يقرأ النص اللاتيني لسينكا . ان الشاعر الانجليزي قد قرأ دون شك مسرحيات سلفه اللاتيني في المدرسة ، وحتى لو سلمنا - جدلا - بأن هذا لم يحدث فمن الطبيعي أن يتجه شكسبير الى ما كان قد أصبح إبان عصر النهضة في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا النموذج الكلاسيكي لكتابة التراجيديا ، ونعني مسرحيات سينكا العشر . فلا غرواذا ان يتبنى شكسبير بعض أساليب سينكا ، وان يأخذ فقرات بعينها منه ، ويستعمل بعض تشبيهاته ويستلهم الأساطير التي وجدها عنده . وإذا كانت الاشارات الاسطورية المتكررة تعد سمة مقلقة ومعوقة للتواصل الدرامي الساخن في مسرحيات سينكا وفي بعض انتاج العصر الاليزابيثي فانها عند شكسبير تذيب في زخم الدرامية الدفاعة ، ولا تعوق المشاهد أو القارئ عن متابعة الاحداث وفهم الحوار . ومن المجدبر بالذكر هنا أن يظل سينكا الرواقى الكامل أى هرقل قد فاز بخمسين<sup>(٤٣)</sup> إشارة شكسبيرية في مختلف المسرحيات ، بل ان الشاعر الانجليزي يشير الى شخصية ثانوية في اسطوريته ونعني ليخاس الحامد وذلك في مسرحية « تاجر البندقية » ( ف ٢ م ١ ب ٣٢ ) وفي « أنطوني وكليوباترا » ( ف ٤ ب ١٢ ب ٤٣ - ٤٥ ) .

ولكي تثبت للقارئ أهمية الامام بالخلفية الكلاسيكية بصفة عامة وبمسرحيات سينكا بصفة خاصة قبل الشروع في دراسة شكسبير نقتطف من مسرحية « أنطوني وكليوباترا » فقرة صغيرة وردت على لسان قيصر إذ يخاطب رسوله نيدياس وهو على وشك التوجه الى كليوباترا للتفاوض معها ( ف ٣ ب ١٢ - ٢٩ - ٣١ ) :

“Women are not

In their best fortunes strong but want will perjure

The ne’er touched vestal ”

ويترجم الاستاذ محمد عوض ابراهيم ( دار المعارف بمصر ) هذه الأبيات قائلا « فان النساء عندما يصل بهن الحظ الى القعة لا يكن قويات ولكن الحاجة قد تجعل أقدس القديسين يبحث في أيمانهم ويخون عهده » . ومع أنها

قد تكون ترجمة حرفية الا انها مضللة والسبب - في رأينا - هو عدم المام المترجم بالخلفية الكلاسيكية للمؤلف ، فمفتاح هذه العبارة كلها يقع في كلمة *vestal* المستعارة من اللفظة اللاتينية *Vesta* وتعني « ربة النار » التي كان مقرها الأول ومعبدتها الرئيسي هو « الموقد » داخل كل منزل روماني ، سم اقيم لها معبد كبير هو بمجابه « موقد الدولة » الذي كانت توفد فيه النار على مدار السنة ليل نهار ، فيما عدا اليوم الأول من مارس ، وهو بداية السنة في التقويم الروماني القديم . وترمز النار هنا الى الحياة والخصوبة والطهارة والخلود ، وكان يقوم على رعايتها عذارى يطلق عليهن لقب *vestales* أى « عذارى فيستا » والتي جاءت منها اللفظة الانجليزية *vestal* . وكن في الأصل يملن بنات الملك ابان العصر الملكي في روما ( ٧٥٣ - ٥١٠ ق.م ) وينحدرن من طبقة النبلاء وكان عددهن أربعة أزداد الى تسعة فيما بعد . وكن يقيمن في منزل خاص بهن على مربة من السوق العامة ( الفوروم Forum ) ويسمى هذا المنزل « دار فيستا » ( *Atrium Vestae* ) وكان على عذاروات فيستا أن يفيين هكذا طهارات دون أن يسهن رجل طيلة مدة الخدمة - أى لمدة ثلاثين عاما - فان ففدت احداهن طهارتها وضيعت عذريتها دفنت حية تحت الأرض ! أما اللاتي يحفظن عذريتهن طوال الثلاثين عاما فكن ففزن في النهاية بالعودة للحياة العامة الطبيعية والمتنعت بكل مزاياها . والجدير بالذكر أن بلوتارخوس يتحدث عنهن وعن طقوسهن بالتفصيل في ثانيا السيرة التي كتبها للملك الروماني نوما ( *Numa* ) الذي أسس طقوس هذه العبادة . وهكذا يتضح أن شكسبير قد أفاد من اطلاعه على أسطورة وطقوس فيستا عند بلوتارخوس أو غيره ليصور مفهوم فيسر عن المرأة . وعلى أية حال فان الترجمة التي أوردناها لاتنسب أغوار شكسبير ولا تجعلنا نلمس الا السطح من أفكاره وأساليبه . وربما تكون ترجمتنا التي نوردتها الآن أقرب الى روح شكسبير وهى كما يلى « أن النساء لسن قويات في مقاومتهم ، حتى لو كن في أحسن حالاتهن من الحظ ، ولكن الحاجة قد تدفع أكثر العذارى قدسية وطهرا الى نقض الموانيق الالهية » .

أما عن الصلاة الرومانية والروح الروافية التي تمكن صاحبتها من الوقوف في وجه القدر ومصارعته ، بل والتغلب عليه واحتفاره ، فنجدها فيما يقوله أنطونيوس شكسبير لجنوده الذين يحملونه نصف ميت الى كليوباترا باكن محرومين ، يقول لهم « لا يارفاقى الطبيبين لاترضوا غرور القدر القاسى ( *fate* ) فيسعد بحزنكم ، أن نرتجيبا بما يأتى لعماننا يجهلنا نحن المعامين له ولا سبأ اذا احتقرناه » ( انطوني وكليوباترا ) ف ٤ م ١٤ ب ١٣٤ - ١٣٧ ) . وعندما يسأل فيسر بومبي عن سر التغير الذى يطرأ عليه منذ أن ساعده في المرة الأخيرة يقول بومبي « لا أدري ما خطه القدر القاسى ( *fortune* ) على جبينى ولكنه لن يصل قط الى قلبى لكى يستعبده » ( نفس المسرحية ف ٢ م ٢ ب ٥٣ - ٥٦ ) . وفكرة انتصار البطل التراجيدى على القدر انتصارا أخلاقيا ، رغم الهزيمة المادية التي يلقاها ظاهريا والمتتملة في أغلب الأحيان في موته ، هى فكرة رواقية ، فالبطل الرواقى هو الانسان الذى لا يقهر أمام الفقر والألم أو حتى أمام الموت والقدر ، لأنه في المقام الأول قهر نفسه وصار سيدها وسيد مصيره وقدره . قد يموت في النهاية ولكن هذا الموت نفسه هو الشهادة التي لا تقبل الانكار على انتصار

البطل الميت الذى فهر الخوف فى نفسه وتغلب على قوى الشر فى نفوس الأحياء . وتقوم مسرحيات سينيكا كلها دون استثناء على هذه الفكرة الرواقية التى اكتسبت بعدا مأساويا جديدا بارتباطها بالشخصيات الاسطورية وأبطال التراجيديات الاغريقية أمثال أوديب وهرقل وفايدرا وغيرهم .

وسيجد الباحث عن العنصر الرواقى فى مسرحيات شكسبير أمثلة كثيرة جدا لا مفر من أن نعتبرها أصداء لأفكار كاتب المأساة الرواقية الاول سينيكا وترديدا لأقوال أبطاله . بل ان العبارات التى اقتطفناها توا من مسرحية « أنطوني وكليوباترا » - على سبيل المثال - يمكن أن نجد لها نظائر كثيرة فى مسرحيات سينيكا . فلنسمع مثلا لجزء من أغنية الجوقة فى « هرقل فوق جبل أوبتا » ( ب ١٠٤ - ١١١ ) « انه قرين للآلهة الأعلىين ذلك الرجل الذى ملك الحياة والحظ ( Fortuna ) على حد سواء . أما أولئك الذين تغمى حياتهم ببطء وهم يتألمون فالحياة بالنسبة لهم هى الموت . وكل من يضع الأقدار ( Fata ) الغدرة تحف قدميه وكذا القارب الذى يبحر فوق النهر البعيد للغاية ( الموت ) لن يسلم قط يدين أسيرتين للسلاسل ولن يسير كدرة الأسلاب فى موكب نصر ( الأعداء ) . ليس بانسا قط من تيسرت له سبل الموت « وهذا مثل واحد من أمثلة لا حصر لها فى كل مسرحيات سينيكا ترد نفس المعنى . المهم أن تنتبه للتشابه الواضح بين مثل هذه الأقوال وما يرد على لسان أبطال شكسبير ، وهى مشابهة تكاد تكون حرفية فى بعض الأحيان . وفيها تتكرر بصفة خاصة كلمات معينة - مميزة لسرح سينيكا - مثل « احتقار » أو « هزيمة » « ربة الحظ » أو « ربة القدر » ( Fortune = Fortuna ) و« قهر » الأقدار « أو « الحلوظ » ( Fates = Fata ) . وهنا أيضا ينبغي أن نتذكر ما سبق أن المحنا اليه أى فكرة « عجلة الحظ » الاغريقية . فمن المقطوع به أن شكسبير أخذ هذه الفكرة عن سينيكا وليس عن مؤلفى المسرح الاغريقى ، فالكتاب الرومانى كان هو الأكثر شيوعا وتأثيرا فى العصر الاليزابى .

هكذا كان سينيكا بالنسبة لكتاب الدراما الاليزابىة مخزونا لا ينضب معينه من الشخصيات والمواقف والأفكار . وكانت مسرحياته هى النماذج التى ينبغى الاقتداء بها فى تصوير وتحسيد مشاهد الرعب . ولذلك كثر ظهور الأشباح والساحرات فى المسرح الاليزابى . وأخذ عن سينيكا أيضا فن الحوار السريع سطرًا بسطرًا أو بيتًا بيت ( stichomythia ) أو حتى تشطير البيت بين المتحاورين ( antilabe ) وهذا أمر شديد الوضوح فى مسرحية شكسبير « ريتشارد الثالث » وهى المسرحية التى رسم شكسبير حبكة الدرامية وبطلها على منوال وأبطال سينيكا . وإذا كان شكسبير لا يقتطف من كتابات سينيكا سوى فى مسرحية « تيتوس أندرونيكوس » ( ف ٢ م ١ ب ١٣٣ وما يليه وقارن مسرحية « فايدرا » لسينيكا ، ب ١١٨٠ . أنظر كذلك ف ٤ م ١ ب ٨١ - ٨٢ وقارن نفس المسرحية لسينيكا ب ٦٧١ - ٦٧٢ ) . وإذا كان بعض النقاد يشككون فى نسبة هذه المسرحية لشكسبير فان هذا لا يعنى التقليل من حجم وأهمية تأثير سينيكا على الشاعر الانجليزى . فتأثيره واضح تماما فى

رؤية شكسبير المأساوية للحياة والناس وفي تكتيكه الدرامي . فمن الملاحظ أن القدرية البائسة تسيطر على أفضل تراجديات شكسبير وأروعها ، وهذا موقف يعد أكثر تشاؤما من الصراعات التطهيرية في التراجيديا الاغريقية وأقرب الى روح سينيكا . وليست هناك « حكومة كونية » واضحة المعالم في مسرحيات شكسبير اللهم الا اذا اعتبرناه يشير إليها بإبراز حقيقة أن الأشرار في النهاية يلقون جزاءهم وأن بعض الأبطال يتحدون عن الحياة التي يسيرها قدر لا إنساني ولا راد لحكمه ، ولكنه بلا معنى ( انظر « ماكبت » ف ٥ م ٥ ب ١٩ وما يليه و « هاملت » ف ٥ م ٤ ب ٢٣٢ وما يليه ) . ونرى في مسرحيات شكسبير دائما شخصيات تصرخ بمرارة ضد شرور البشر ولا سيما لا يصلحون للحياة ( قارن « تيمون الأثيني » ف ٤ م ١ ب ١ وما يليه ) . ولكن الصرخات الأكثر إثارة هي تلك التي تصدر ضد الآلهة « الذين يتسلون بقتلنا » ( الملك لير » ف ٤ م ١ ب ٣٦ وما يليه ) . ولا يمارى أحد في أن شكسبير يصدر في هذه الرؤية المأساوية للحياة عن تجربته الشخصية ووجدانه الذاتي ولكن هذا لا ينفي أنه قد وجد نفسه في التشاؤم الرواقى المميز لفن سينيكا التراجيدى . ولننظر ماذا يقول سينيكا في مسرحية « فايدرا » ( أو « هيبوليتوس » ب ٩٧٨ - ٩٨٢ ) :

“res humanas ordine nullo

Fortuna regit sparsitque manu

munera caeca , peiora fovens;

vincit sanctos dira libido,

fraus sublimi regnat in aula”

« تحكم ربة الحظ ( فورتونا ) الأمور الانسانية بلا نظام

ويبد عيما تبخر ( بين الناس ) هداياها

فهى تخنق على الأسوأ

بيننا الشهوة الضارية تفقر الأطهار

والجرمة تجلس على عرشها في عالى القصور»

ولعل مسرحية « ماكبت » هي أكثر مسرحيات شكسبير تشبعا بروح سينيكا فهى مسرحية السحر والنبوءات والأشباح والقتل والجنون . ويمكن أن نشبت من ذلك اذا قارنا بعض المواقف والأقوال في هذه المسرحية بأمثالها في مسرحية « فايدرا » و « هرقل مجنون » لسينيكا على سبيل المثال .  
يقول ماكبت القاتل وقد تلوثت يدها بدماء الملك القتيل :

“Will all great Neptune’s ocean wash this blood

Clean from my hand ? No, this my hand will rather

The multitudinous seas incarnadine”

ثم تعود ليدى ماكيت لتردد نفس المعنى قائلة :

“ All the perfumes of Arabia will not sweeten this little hand ”

( ف ٢ م ٢ ب ٦١ وما يليه ثم ف ٥ م ١ ب ٥٦ )

« هل يستطيع محيط نيبوتوس ( اله البحر ) العظيم أن يغسل هذا الدم ويظهر يدي منه ؟ لا ، بل ان يدي هذه هي التي ستحيل البحار المتكاثرة دموية اللون »

أما كلام ليدى ماكيت فمعناه :

« ان كل العطور العربية لن تقدر على ازالة رائحة الدم من هذه اليد الصغيرة »

ولنضع هذه الأقوال جنباً الى جنب مع صرخات هيبوليتوس الطاهر العفيف عندما حاولت فايدرا زوجة أبيه

اغواؤه :

“ Quis elvet me Tanais aut quae barbaris

Maeotis undis Pontico incumbens mari ?

non ipse toto magnus Oceano pater

tantum expiarit sceleris. ”

( سينيكا : « فايدرا » ب ٧١٥ - ٧١٨ )

« أى تانايس ( نهر في سارماتيا اسمه الحديث « الدون » ) سيظهرنى ؟ وأيه مايوتيس ( بحيرة تسمى الآن بحر آزوف ) التي تصب في بحر بونتوس بأمواجها البربرية تلك ستظهرنى ؟ لا ... ولا الأب العظيم نفسه بكل محيطه يستطيع أن يحو مثل هذه الجريمة . »

ولا يخفى على القارىء التشابه الواضح بين الفترتين . ولقد تكرر هذا المعنى كثيراً في كل مسرحيات سينيكا وللتدليل على ذلك نكتفي بالاشارة الى تلك الفقرة في « هرقل مجنوناً » حيث يقول هرقل بعد أن قتل زوجته وأبناءه في إحدى نوبات جنونه ( ب ١٣٢٣ - ١٣٢٩ ) :

“ Quis Tanais qut quis Nilus aut quis Persica

violentus unda Tigris aut Rhenus ferox

Tagusve Hibera turbidus gaza fluens

ablueret dextram poterit ? Arctoum licet

Maeotis in me gelida transfundat mare

et tota Tethys per meas currat manus,

haerebit altum facinus. ”

« أى تانايس وأى نيل وأى دجلة ذلك النهر الجارف بوجهه الفارسية ، وأى راين ذلك النهر المتوحش ، وأى تاجوس ( نهر فى لوسيتانيا مازال يحمل نفس الاسم وإن كان يسمى أحيانا تيجو Tejo ) الذى يتدفق مضطربا بكنزه الاسبانى ( أى برماله الصفراء ) ، أى من هذه الأنهار بوسمه أن يطهر ينأى ؟ أن بحيرة مايوتيس الجليدية نفسها لاتستطيع ذلك وإن صبت على بحرهما الشالى ، لا ولا حتى تينيس ( زوجة أوكيانوس وأم كل قوى البحر الربانية ) كلها بقادرة على تطهيرى وإن جرت بحارها عبر يداى لأن الاتم عالق فى أعماقى . »

وقبل أن تترك هذه الفقرات المقارنة بين سينيكا وشكسبير ينبغى أن ننوه الى أنه من الواضح أن شكسبير قد استعار هذا المعنى وتلك الأقوال من الشاعر اللاتينى ولكنه أدخل عليها من التهذيب والتشذيب الكثير فخلصها من المبالغات التى يتميز بها العصر الفضى فى الأدب اللاتينى وتتجسد فى كل كتابات سينيكا . وهكذا جاء تعبير شكسبير أكثر رشاقة وملاءمة للعمل الدرامى .

وبعد أن انتهى ماكبث من تنفيذ كل جرائمه يقول ( ف ٥ م ٣ ب ٢٢ وما يليه ) :

“ I have lived long enough : my way of life  
Is fallen into the sear, the yellow leaf ;  
And that which should accompany old age,  
As honour, love, obedience, troops of friends,  
I must not look to have. ”

وفى نفس المشهد يضيف ماكبث ( ب ٤٠ ) متسائلا :

“ Canst thou not minister to a mind diseased ? ”

« لقد عشت ما فيه الكفاية : وأدى أسلوبى فى الحياة الى الأوان الجديب ، نحو صفرا الأوراق ولكن ينبغى أن لا أطمح فيما يصحب المنصب ، فلا حشود من الأصدقاء حولى ولا شرف ولا حب ولا طاعة لى »

أما التساؤل الاضافى فمعناه :

« وهل تستطيع أن تشفى عقلا مريضا ؟ »

فاذا رجعنا الى سينيكا وجدنا هرقل المجنون عنده يقول بعد أن عاد الى وعيه متندما على جريمة قتله لكل أفراد أسرته ( « هرقل مجنونا » ب ١٢٥٨ - ١٢٦٢ ) :

“ Cur animam in ista luce detineam amplius  
morerque nihil est : cuncta iam amisi bona,

mentem arma famam coniugem gnatos manus,  
etiam furem. nemo polluto queat  
animo mederi : morte sanandum est scelus ”

« لماذا على أن أحتفظ بروحي لمدة أطول في ذلك الضوء ( أى الحياة الدنيا ) فلا شيء يعوقني ، لقد فقدت كل الأشياء الطيبة بالفعل : العقل ، والسلاح ، السمعة والزوجة ، الأبناء والقوة ، بل حتى الجنون ! فلا أحد يستطيع أن يداوى روحا أصبحت بالتلوث ، وينبغي أن تعالج الجريمة بالموت »<sup>(٤٤)</sup>



#### ٥ - كلاسيكيات شكسبيرية في المسرحيات غير الكلاسيكية

هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية في النتاج المسرحي للعصر الاليزابيثي بصفة عامة ولشكسبير بصفة خاصة . الأول هو الاعتراف من زاد الثقافة الشائع بعصر النهضة في غرب أوروبا . والثاني هو معالجة التاريخ الانجليزي مع التركيز على الحكم الملكي وطبقة النبلاء . أما الاتجاه الثالث وهو الذى يشغلنا بصفة خاصة فهو استلهام التاريخ والأساطير الاغريقية الرومانية . ويضم هذا الاتجاه اثني عشر عملا من أعمال شكسبير الا اننا سنؤجل الحديث عن هذه الأعمال بعض الوقت لتتسنى لنا فرصة ملاحقة التأثيرات الكلاسيكية في الأعمال الأخرى .

( ٤٤ ) قارن كذلك ما بين الفقرات التالية :

شكسبير « ما كيث » ف ١٠ م ٧ ب ١ ومايليه وسينيك « هرقل مجنون » ب ٧٣٥ - ٧٣٦ وكذلك « ما كيث » ف ٤ م ٢ ب ٢٠٩ وما يليه « فايدرا » سينيك ب ٦٠٧ وهو بيت مهب لدى الاليزابيثيين ونصه كما يلي : -

' Curae leves loquuntur, ingentes stupent '

ومعناه « ان المتاعب الخفيفة تتحدث عن نفسها أما الهائلة منها فهي بكاء » .

هذا ونذكر القارئ بأننا أرجأنا الحديث عن تأثير بلوتارخوس على شكسبير بالتفصيل الى أن يصدر كتابنا المشار اليه في الحاشية رقم ٤٩ وان كنا سنعرض لذلك في فئاما هذه الدراسة بشيء من الاجياز وعن تأثير سينيك على مسرح عصر النهضة بصفة عامة والمسرح الاليزابيثي بصفة خاصة نحيل القارئ للمراجع التالية :

John W. Cunliffe, *The Influence of Seneca on Elizabethan Tragedy* ( Archon Books, Hamden — Connecut tuit 1965 repr. ) passim  
P. Baquet ( et alii ), *Les Tragedies de Seneca et le Theatre de la Renaissance*. Editions du Centre Nationale de la Recherche Scientifique, Seconde edition, Paris 1973, passim.

د . أحمد حنين : فايدرا . دراسة نقدية مقارنة حول مسرح كل من يوريبديس وسينيك وراسين « مجلة الكاتب » القاهرة عدد رقم ١٨٩ « ديسمبر ١٩٧٦ »  
ص ٦٢ - ص ٨٣ وعدد رقم ١٩٠ « يناير ١٩٧٧ » ص ٦٦ - ص ٤٤ .

فنحن نؤمن بأن الكلاسيكيات المترجمة وغير المترجمة كانت من المنابع الرئيسية التي نهل منها شكسبير وهو يصوغ مسرحياته وأشعاره . كما أن الثقافة الكلاسيكية التي أصبحت في عصره تشكل الغذاء الروحي الرئيسى لرجال الادب والفكر هي جزء لا يتجزء من تكوينه الذهني والوجداني ، ومن ثم فانتا لو تفحصنا كل انتاجه المسرحي والشعري بدقة لوضعنا أيدينا على تأثيرات كلاسيكية خفية أو ملموسة هنا أو هناك ، حتى في المسرحيات أو الأشعار التي لا تقوم على موضوع كلاسيكي . وبعبارة أخرى فانتا لو سلمنا بحقيقة اعجاب شكسبير بالتراث الاغريقي الروماني ينبغي أن نقبل بالضرورة النتيجة البديهية المترتبة على تلك الحقيقة ، وفحواها أنه لا توجد مسرحية واحدة من مسرحيات شكسبير ، ولا قصيدة من قصائده ، الا وقد مسها التأثير الكلاسيكي بصورة أو بأخرى تاركا عليها بصماته . وذلك أن ثقافة المؤلف المسرحي تتسحب آثارها على كل انتاجه ، فلا يمكن الفصل بين عمل وآخر من حيث علاقته بهذه الثقافة . وفي حالة شكسبير بالذات ، ذلك الفنان المبدع الذي يهضم ما يقرأ ويتعلمه ثم يفرزه بعد ذلك خلقا جديدا ، نجد أنفسنا في الموقف الصعب فلا نتمكن - كما أنه ليس مطلوبا منا - أن نرجع كل صغيرة وكبيرة في مسرحياته الى أصولها بدقة . وبالتالي فانتا لن نستطيع أن نحصى كل الجزئيات من عبارات وأفكار وصور وشكسبير التي تحمل تأثيرات كلاسيكية ، فلسنا بصدد تشرريح جسم مادي وانما نحن إزاء نتاج وجداني نتعر كثيرا في تحليله بحكم تكوينه . صفوة القول أننا سنحاول أن نتعرف على البصمات الكلاسيكية في أعمال شكسبير ، التي لا تقوم على موضوع كلاسيكي ، واضعين في الاعتبار أنه قد يفوتنا الكثير وقد تخفى علينا أشياء وأشياء الا أنه لا يمكن مقاومة مابذه المحاولة من اغراء .

لقد استمد شكسبير موضوع بعض المسرحيات التاريخية من الموسوعة التي شرع الناشر ريمالد وولف في اعدادها وتبويبها للاحاطة بأخبار العالم القديم والجديد ثم مات قبل إتمامها ولم تظهر منها غير الأجزاء الخاصة بالجزر البريطانية أهمها ما كتبه رفايل هولنشيدي ( مات حوالي ١٥٨٠ ) حتى أن هذه الموسوعة التاريخية أو « الحوليات » ( Chronicles ) عرفت باسمه . وظهر منها « تاريخ إنجلترا » ( Historie of England ) بقلم هولنشيدي نفسه ثم « وصف إنجلترا » ( Description of England ) بقلم وليام هاريسون ( ١٥٣٤ - ١٥٩٣ ) واليه تعزى أيضا ترجمة نسخة بيللندن ( Bellenden ) الاسكتلندية لكتاب بويس ( Boece ) وعنوانه « وصف اسكتلندا » ( Description of Scotland ) والذي ظهر ضمن موسوعة هولنشيدي حيث نشرت لأول مرة عام ١٥٧٧ وأعيد طبعها عام ١٥٨٦ . وكان كتاب بويس قد ظهر عام ١٥٢٦ - ١٥٢٧ مكتوبا باللغة اللاتينية . فالمؤلف المعروف باسم بويس هو في الحقيقة هيكتور بوثيوس ( Hector Boethius ١٤٦٥ - ١٥٣٦ ) من مواليد دندي ( Dundee ) وأحد طلاب جامعة باريس حيث أصبح استاذًا بها في وقت لاحق . ولقد شمل « تاريخ اسكتلندا » الفترة الممتدة من البداية حتى اعتلاء جيمس الثالث ( James III ) العرش . وضم هذا التاريخ روايات شبه اسطورية كثيرة من بينها قصة ماكبت ودنكان . ومن المؤكد أن بويس قد رجع الى مصادر لاتينية أقدم . أما هولنشيدي فيقال أنه رجع الى الترجمة الانجليزية لكتاب



بوريس حيث ظهرت عام ١٥٣٦. المهم أنه من المحتمل أن يكون شكسبير قد عاد الى المصادر اللاتينية القديمة ذاتها وهو يكتب مسرحياته المستمدة من هذه التواريخ.

ومن المؤكد أن بعض مصادر مسرحية « ضجة فارغة » ( Much Ado about Nothing ) المعروضة عام ١٥٩٨ - ١٥٩٩ والمنشورة عام ١٦٠٠ - مكتوبة باللغة اللاتينية<sup>(٤٤)</sup>. أما مسرحية « الليلة الثانية عشر » ( Twelfth Night ) - المعروضة عام ١٦٠٠ - ١٦٠١ والمنشورة عام ١٦٢٣ - فهي فى رأى بولدين ( T. W. Baldwin ) مبنية على نمط مسرحية « أندريا » أو « فتاة أندروس » لترنتيوس وتفرعاتها أو تنوعاتها.<sup>(٤٥)</sup> وترجع أول معالجة أدبية لموضوع مسرحية « صاع بصاع » ( Measure for Measure ) - المعروضة عام ١٦٠٤ والمطبوعة عام ١٦٢٣ - الى كلود رويه فيلانيرا ( Claude Rouillet Philanira ) حيث كتب عام ١٥٥٦ مسرحية لاتينية ترجمت الى الفرنسية عام ١٥٦٣. وبعد ذلك وبالتحديد فى عام ١٥١٥ ظهرت رواية جيامباتيستا جيرالدى ( الشينثيو ) فى مؤلفه المشهور « المائة اسطورة » ( Hecatommithi ) فضمت مجموعة الحكايات الشعبية التى استقى منها شكسبير أيضا مسرحية « عطيل » التى سنتحدث عنها بعد قليل. وكانت هناك ترجمة فرنسية لجيرالدى قام بها جابريل شابوى ( Gabriel Chappuys ) عام ١٥٨٤. وكان جيرالدى قد كتب أيضا مسرحية بعنوان « أيبيتا » ( Epitia ) نشرت بعد موته عام ١٥٨٣ وتدور حول هذا الموضوع. وتعد مسرحية جورج وينستون ( George Whetstone ) التى نشرت عام ١٥٧٨ وتحمل عنوان « بروموس وكاسندرا » ( Promos and Cassandra ) أهم مصدر لشكسبير وهو ينظم المسرحية التى نتحدث عنها.<sup>(٤٦)</sup>

وهناك ما يثبت أن شكسبير قد تأثر فى مسرحية « عطيل مغربى البندقية » ( Othello, the Moor of Venice ) المنشورة عام ١٦٠٤ - ١٦٠٥ ببعض الصور الشعرية التى وردت فى كتاب المؤلف اللاتينى الناصر بلينيوس الأكبر ( ٢٣ أو ٢٤م - ٧٩م ) وعنوانه « التاريخ الطبيعى » ( Naturalis Historia ) الذى كان فيليمون هوللاند ( Philemon Holland ) قد ترجمه عام ١٦٠١. فمن هذا المصدر بالذات يرى النقاد أن شكسبير أخذ دفاع عطيل عن نفسه ضد تهمة السحر وكذلك حديثه عن بحر بوتوس. ذلك أن بلينيوس يورد قصة جايوس فوروس كريسينوس ( C. Furius Cresinus ) التى تتشابه مع قصة عطيل - ولا يتعارض ذلك مع معرفتنا بأن الشاعر الانجليزى قد استقى موضوعه أساسا من جيامباتيستا جيرالدى ( الشينثيو Il Cinthio ١٥٠٤ - ١٥٧٣ ) مؤلف كتاب « المائة اسطورة ( 7 III ) » والذى حاكى به بوكاشيو ( ١٣١٣ -

Muir, op. cit., pp.52-54, cf. C.T. Prouty, The Sources of

( ٤٥ )

'Much Ado about Nothing', 1950.

Muir, op.cit., p.76

..... ( ٤٦ )

Ibidem, pp. 101-109

..... ( ٤٧ )

١٣٧٥) في كتابه «ديكاميرون» (Decameron) «العشرة أيام». فمن المعروف أن هذين الكاتبين الإيطاليين كانا من رواد النهضة، ومن ثم فإن كتاباتها تعد أحياء للتراث الكلاسيكي بالدرجة الأولى. وهناك من الدارسين من يحلل اسم البطلة في مسرحية «عطيل» أي «ديزدمونه» (Desdemona) على أنه من الكلمة الاغريقية «Dysdaimon» (ديزدايمون) وتعني «سيئة حظ» أو «الشقية». ويرى بعض الدارسين أيضاً أن قصة «عطيل مغربي البندقية» هذا ليست الا إحدى الصيغ الفولكلورية لاسطورة أطلس (Atlas) الاغريقية. وهو أحد العاهلة الذين ثاروا ضد الآلهة فحكم عليه بأن يرفع السماء على كتفيه الى أبد الأبد في مكان يحمل الآن اسم جبل أطلس، وهو جبل شاهق عند الطرف الشمالى الغربى من القارة الافريقية على ساحل المحيط الأطلسي.<sup>(٤٨)</sup>

أما قصة هاملت فوجدت في كتاب المؤرخ الدنمركى ساكسو جراماتيкус Saxo Grammaticus (عاش أبان القرن الثالث عشر) وعنوانه «أعمال الدنمركيين» (Gesta Danorum) وهو تاريخ كتب باللغة اللاتينية وضم روايات أسطورية كثيرة من قبيل قصة هاملت. ولقد تمكن شكسبير من الحصول على هذه القصة من مؤلف للشاعر فرانسوا دى بيللفوري (Francois de Belleforest ١٥٣٠ - ١٥٨٣) وعنوانه «تواريخ» أو «روايات تراجية» (Histoires Tragiques) وهو في الأصل مترجم عن المؤلف الإيطالى ماتيو بانديللو (Matteo Bandello) (١٤٨٠ - ١٥٦٢) ولقد مارس هذا الكتاب تأثيراً كبيراً على المسرح الايلزابيثي وضم بين دفتيه أيضاً قصة «روميو وجوليت»<sup>(٤٩)</sup>، هذا ومن الحقائق المعروفة بين دارسي شكسبير أن مسرحية «هاملت» التي عرضت عام ١٦٠٠ - ١٦٠١ تقوم على فكرة الانتقام والعدالة - أو بتحديد أكثر «عدالة الانتقام» - وهي نفس الفكرة التي قامت عليها ثلاثية ايسخولوس (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) ورائعته المشهورة «الأوريسستيا» (Oresteia) وهي الثلاثية التي مارست تأثيراً كبيراً على توماس كيد ومسرحيته الرائدة في فن التراجيديا أبان العصر الايلزابيثي وتعني «المأساة الاسبانية». ولكن تأثير ايسخولوس وصل الى مؤلفات ذلك العصر عبر مسرحيات سينيكا.<sup>(٥٠)</sup>

Ibidem, PP. 122—140, 262—204

(٤٨) ....

قارن د. لويس عيسى، البحث عن شكسبير، ص ١٥٤ - ١٥٥

(٤٩) عن مصنف «روميو وجوليت» راجع ١ -

Mary Martha Mulligan, The Sources of 'Romeo and Juliet' (Unpublished Thesis) Liverpool 1954.

R.A. Law, Shakespeare's Changes of his Source material in 'Romeo and Juliet', University of Texas Bulletin, Studies in English 1929.

O. H. Moore, The Legend of Romeo and Juliet, 1950.

Muir, op. cit., pp. 110—122

(٥٠) ....

ولقد سبق أن رأينا كيف أن شكسبير قد عاد الى حوليات هولنشييد عندما أراد أن يكتب مسرحية « ماكبث » عام ١٦٠٦ والتي نشرت عام ١٦٢٣ . ولكننا نريد هنا أن نضيف شيئا ، وهو أن شكسبير قد جاءته فكرة المسرحية في الغالب بعد أن شاهد مسرحية ماتيو جوين ( Matthew Gwinn ) التي عرضت في اكسفورد يوم ٢٧ أغسطس عام ١٦٠٥ وعنوانها « السيبيليات الثلاث » ( Tres Sibyllae ) . وفي هذه المسرحية تتنبأ هؤلاء العرافات الثلاث لخلفاء الملك بأنكو ( Banquo ) الذي قيل أن الملك جيمس الأول جاء من نسله - « بمملكة لا نهاية لها » ( imperium sine fine ) وهي النبوة التي شددت اهتمام الملك جيمس الأول ( ١٦٠٤ - ١٦٢٥ ) . وربما قرأ شكسبير تاريخ بوشانان ( George Buchanan ١٥٠٦ - ١٥٨٢ ) وعنوانه « تاريخ المسائل الرواقية » ( Rerum Stoicarum Historia ) الذي صدر عام ١٥٨٢ . وتعمل مسرحية « ماكبث » أيضا تأثيرات واضحة من مؤلف أرازموس ( Desiderius Erasmus ١٤٦٦ - ١٥٣٦ ) بعنوان « محاورات » ( Colloquia ) وظهر عام ١٥١٦ . وسبق أن ألمحنا الى التشابه الكبير بين بعض العبارات في « هرقل مجنون » لسينيكا ومسرحية « ماكبث » . وهنا ينبغي أن نشير الى تأثير مسرحية أخرى لسينيكا هي « أجاممنون » على رسم الشخصيات في « ماكبث » . اذ أن شكسبير اقتبذ من كليتمسترا سينيكا في « أجاممنون » أنموذجا نسج على منواله شخصية الليدي ماكبث . وإذا كانت أغنية الجوقة الاولى في « أجاممنون » قد وجدت لها صدى في مسرحية « ريتشارد الثاني » الا أن أصداءها في « ماكبث » أكثر وضوحا وأقوى تأثيرا . وحتى رؤية ماكبث للخنجر الوهمي بنقاط الدم التي تتساقط منه يمكن أن تكون من وحى روى كاسندرا التنبؤية ، وهي في حالة الهذيان واللاداعي ، فلقد سبقته هذه الرؤى مقتل أجاممنون ، كما سبقته أوهام ماكبث مقتل دنكان . ومع ذلك فنحن نميل الى اعتبار أن مسرحية « ماكبث » أقرب الى « هرقل مجنون » من « أجاممنون » . لأن مسرحية شكسبير أخذت من « هرقل مجنون » عناصر أكثر مثل فكرة النوم كوسيلة للعلاج النفسي واستيقاظ ضمير البطل القاتل بعد ارتكاب جريمته والاحساس بأن مياه كل المحيطات لن تغسل الدم الذي يبيده ، والمقارنة بين الطاغية الفاسد والملك الطيب . واستنادا الى هذه الدلائل الداخلية المستنبطة من مسرحية « ماكبث » ومقارنتها بمسرحية « هرقل مجنون » و« أجاممنون » لسينيكا يمكن أن نستنتج أن شكسبير قد قرأ المسرحية الاولى في نصها اللاتيني أو أنه على الأقل عاد اليه أثناء تأليفه لمسرحية « ماكبث » بينما اكتفى بقراءة ترجمة المسرحية الثانية . المهم أن « ماكبث » مسرحية كلاسيكية المصدر أكثر مما يظن الكثيرون .<sup>(٥١)</sup>

ومن هذه العجالة يمكن أن يتبين لنا صدق ما سبق أن ألمحنا اليه وهو أن التأثيرات الكلاسيكية لا تنفرد بها مسرحيات شكسبير ذات الموضوع الكلاسيكي وإنما تمتد لتشمل كل انتاج الشاعر بلا استثناء ، وإنما هي فقط مسألة تفاوت في نسبة التأثير من مسرحية الى أخرى ، وفق طبيعة موضوعها وظروف تأليفها . فمما لا شك فيه أن

التأثيرات الكلاسيكية أكثر وضوحاً في المسرحيات القائمة على موضوعات من الاساطير أو التاريخ الاغريقي الرومانى .



## ٦ - مسرحيات شكسبير الاغريقية

يقول هيجيت أنه من بين أعمال شكسبير الاربعة - بما في ذلك القصائد القصصية والسونيتات - هناك ستة تعالج موضوعات من التاريخ الرومانى ، أربعة منها متصلة بالعصر الجمهورى وهى « لوكريس » و « كورولانوس » و « يوليوس قيصر » و « أنطونى وكليوباترا » واثنتان متصلتان بالعصر الامبراطورى ، احداها وهى « سيمبلين » تتحدث عن أوائله ، والثانية وهى « تيتوس أندرونيكوس » تتناول أحداثاً من أواخره ، أى من الفترة التى شهدت بدايات الغزو البربرى للامبراطورية الرومانية . وهناك بعض الدارسين يرون أن خلفية « سيمبلين » رومانية في جزء منها فقط ، أما الجزء الباقي فهو بريطانى مبكر وغامض . وهناك ستة أعمال أخرى ذات خلفية اغريقية وهى « كوميديا الأخطاء » و « تيمون الأثينى » و « فينوس وأدونيس » و « حلم منتصف ليلة صيف » و « بريكلس » . وإذا كنا قد رأينا أن التأثير الكلاسيكى لا يقتصر على تلك الاعمال الكلاسيكية الاثنتى عشر فانتا نؤكد هنا أيضاً عدم قبولنا لتقسيم هيجيت لهذه الاعمال<sup>(٥٧)</sup> الى « اغريقية » و « رومانية » . فهذا التقسيم تعسفى يحمل حقيقة هامة للغاية وهى أن الحضارة الرومانية تكمل الحضارة الاغريقية ، وتعتبران معا الى حد كبير وحدة حضارية واحدة ، ففى الكثير من الأحيان لا يمكن الفصل بين ما هو رومانى وما هو اغريقى . وان صدق هذا القول فانه يصدق أول ما يصدق على مسرحيات شكسبير الكلاسيكية . فالعناصر الاغريقية والرومانية متداخلة ومتشابهة مع بعضها البعض . فمسرحية « انطونى وكليوباترا » مثلاً لا تتحدث عن أنطونيوس وروما وحدها بل تتحدث أيضاً ، وبنفس الدرجة أو أكثر ، عن كليوباترا ومصر البطلمية ومدينة الاسكندرية الاغريقية . أما مسرحية « كوميديا الأخطاء » فهى وان كانت اغريقية في خلفية أحداثها وأبطالها الا انها قبل كل شيء تقليد لاحدى مسرحيات بلانوس شاعر الكوميديا الرومانى الذى كان بدوره يقلد الكوميديا الاثينية الحديثة وعلى رأسها مئاندرس الشاعر الاغريقى المعروف . وكتفى هذا القدر من الأمثلة لنقول أننا مع ذلك نستحدث عن ما يسمى بالمسرحيات الاغريقية والمسرحيات الرومانية لشكسبير على حدة من باب التنظيم فقط ، ما دمتا قد نهتأ من البداية الى التداخل فيما بينها وهو أمر لاشك سينعكس على دراستنا لها .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن سونيتات ( Sonnets ) شكسبير - أو المرشحات كما يحلو لبعض محمود العقاد أن يسميها - قد تضمنت مقطوعتين عن اله الحب الصغير كيوييد ( ايريس عند الاغريق ) وهو ابن فينوس ( أى أفروديتى عند الاغريق ) ولقد شرع شكسبير في نظم هذه السونيتات منذ عام ١٥٩٣ وأنجز

معظمها في عام ١٥٩٦ ، ثم جاء أول شعر قصصى ينظمه المؤلف حاملا عنوان « فينوس وأدونيس » ( Venus and Adonis ) عام ١٥٩٣ ، وهي قصيدة طويلة تقع في مقطوعات ( Stanzas ) سداسية الأبيات وربما تكون أول إنتاج على الإطلاق للمؤلف . لقد عشقت فينوس الشاب الجميل أدونيس ، وحاولت أن تنبيهه عن مواصلة الصيد وهو هويته المفضلة وغرامه الأوحى ، وذهبت محاولاتها هباء كما فشلت كل مساعيها من أجل أن تكسب حبه . توسلت إليه ضارعة أن يقابلها في صبيحة الغد فرفض لأنه كان يبيت النية لمطاردة صيده الثمين الخنزير البرى . وعندئذ للمرة الأخيرة حاولت فينوس بكل ما أوتيت من مقدرة أن تنبيهه عن رحلة الصيد هذه فأبى إلا أن يسير في خطه حتى النهاية . وفي الصباح الباكر سمعت فينوس كلاب صيده تنبح نباح الاستنجد والاستغاثة فهرعت تبحث عنها وعنه وكلها هلع وفزع ، وبالفعل عثرت عليه صريعا مضرجا في دمائه ؛ لأن الخنزير البرى كان قد غلبه وإفترسه . ولقد بدأ شكسبير في نظم هذه القصيدة - التي وجد أسطورتها عند أوفيدوس<sup>(٥٣)</sup> - وهو لا يزال في قرينه ولذلك جاءت أشعارها وهي تنضح بأناءه الريف . وراجت هذه القصة الشعرية رواجاً لم يكن صاحبها نفسه يتوقعه فأعيد طبعها نحو عشر مرات في غضون عشر سنوات كما أنها هي التي طهرت سمعة الشاعر في عالم الأدب . وفيها نلمس بذور الفكرة التي نمت وترعرعت في بقية مسرحياته ونعنى الحذر من الجراح والاسراف في الحب .

ويرى بعض النقاد أن مسرحية « كوميديا الأخطاء » ( The Comedy of Errors ) المعروضة عام ١٥٩٤ ( وربما ١٥٩٢ ) ليست إلا إعدادا عبقريا وموامة ذكية لكوميديا بلاوتوس ( ٢٥٤ - ١٨٤ ق.م تقريبا ) « التوأمان ميناجيموس » ( Menachmi ) . هذا مع أننا لا ندري على وجه اليقين ما إذا كان شكسبير قد قرأ الأصل اللاتيني أم اكتفى بالاطلاع على الترجمة الانجليزية التي قام بها وليام وارنر ( ١٥٥٨ ؟ - ١٦٠٩ ) والتي قد نشرت عام ١٥٩٥ ، والتي من المحتمل أن يكون شكسبير قد حصل عليها مخطوطة عند اللورد هندسون ( Hundson ) بعد أن قدمها المترجم للاخير حوالى عام ١٥٩٤ أو قبل ذلك التاريخ . ويعتقد الباحثان موير أن شكسبير قد عاد للمصادر التالية : - مسرحيات بلاوتوس الثلاث « أمفثريو » ( Amphitruo ) و « التوأمان » و « الجندي الجمعاج » ( Miles Gloriosus ) . وعاد شكسبير أيضا الى مسرحية المؤلف الإيطالي أريوستو ( Ariosto ١٤٧٤ - ١٥٣٣ ) بعنوان « المدعون » ( I suppositi ) عام ١٥٠٩ بترجمة جاسكواني George Gascoigne ١٥٢٥ ؟ - ١٥٧٧ ) تحت عنوان ( Supposes ) وهي أول كوميديا انجليزية تشرية تصلنا وعرضت على المسرح عام ١٥٦٦ . وجدير بالذكر أن شكسبير أفاد من هذه المسرحية في

Ovidius, Metamq. X 519—559, 705—739 & IV 285—388

( ٥٣ )

( Salmacis and Hermaphrodite ). cf. Root, op.cit.,

pp. 31—33, 114—116, Baynes, op. cit., pp. 629—632.

صياغة كوميدته « ترويض النمرة ». بقى أن نعرف أن مسرحية أريوستو مقتبسة من مسرحية « الأسرى » ( Captivi ) لبلاوتوس و« الحصى » ( Eunuchus ) لترنتيوس . ويضيف موير الى مصادر « كوميديا الأخطاء » مسرحية « أندريا » أو « فتاة أندروس » ( Andria ) لترنتيوس<sup>(٥٤)</sup> . والجدير بالتنويه هو أنه ، مع تعدد المصادر المحتملة لمسرحية « كوميديا الأخطاء » ، فإن الحبكة الرئيسية مأخوذة من مسرحية بلاوتوس « التوأمان » كما أن مسرحية شكسبير جاءت أكثر تعقيدا ، لأن إختراعه للتوأم الاضافى درويو الى جانب التوأم الأصل خلق فرصا متزايدة لوقوع الأخطاء الكوميدية . وفي مسرحية شكسبير أيضا أصبحت الزوجة شخصية رئيسية لا ثانوية في حين صارت المومس شخصية صغرى . وينبغى ألا تنفوتنا الملامح المسيحية في المسرحية والمتشكلة في فكرة قدسية الزواج . صفوة القول أن الشاعر الانجليزى قد أضاف من عذباته عناصر كثيرة هزلية وجادة الى الأصل اللاتينى . وسبق أن أوضحنا ما نذكر به الآن وهو أننا في حديثنا عن مسرحية يقال أنها ذات أحداث وخلفية اغريقية تناولنا مصادر ومؤلفات لاتينية .

ان اسم ملكة العرائس وزوجة أوبرون Oberon في مسرحية « حلم منتصف ليلة صيف » ( Midsummer Night's Dream ) المعروضة عام ١٥٩٥ - ١٥٩٦ والطبوعة عام ١٦٠٠ لم يؤخذ من الاسطورة الكلتية - كما هو الحال بالنسبة لاسم زوجها - ولكنه اسم اغريقى - لاتينى Titania « تيتانيا » ويعنى « بنت » أو « أخت » تيتان أحد أفراد سلالة العالقة أو المردة الاسطورية . ويرد هذا الاسم عند أفقديوس فقط ويستخدمه خمس مرات كلقب من القاب ربة الصيد ديانا ( = أرميس عند الاغريق ) والساحرة كيركى ( Circe ) . ويبطأ يرى هيجيت أن الاسم تيتانيا هذا لم يستخدم في ترجمة جولدنج « للفناسخات » ويستنتج - أى هيجيت - من ذلك أن شكسبير على الأرجح قد عاد للأصل اللاتينى ، أو على الأقل كان يتذكره منذ أيام التلمذة في المدارس . نجد موير يقول بأن جولدنج قد خلع هذا الاسم على ربة الصيد ديانا، بل وعلى أعضاء حاشيتها من العرائس . على أية حال فإن قصة بيراموس ( Pyramus ) و« ثيسبي » ( Thisbe ) قد وردت باختصار في قصائد أفقديوس وفي روايات متأخرة شاعت ابان العصر الايزابيثى . ويضاف الى تلك المصادر ترجمة نورث بلوتارخوس لأنه من المؤكد أن شكسبير قد أخذ مادته بشأن البطل ثيسبيوس من سيرته عند بلوتارخوس ومن « قصة الفارس » ( Knight's Tale ) لنشوس<sup>(٥٥)</sup> .

( ٥٤ ) .....

Muir, op. cit., pp. 18 - 20

Muir, op. cit., pp. 31-47

( ٥٥ ) من مصادر حلم منتصف ليلة صيف ، راجع

ومن اسطورة بيراموس و« ثيسبي » انظر ،

Ovidius, Metamorph. IV 55-166, Chaucer, Legend of Good Women, 706-923.

Root, Op.cit. pp.51-56 ( Diana ), 104

وراجع :

وعندما ترد في مسرحية « حلم منتصف ليلة صيف » ( ف ٥ م ٢ ب ٣٤٠ وما يليه ) الآيات التالية :

“ O sisters three,  
Come, come to me,  
With hands, as pale as milke  
Lay them in gore,  
Since you have shore  
with shears this thread of silk ”

« أيتها الأخوات الثلاث

تعالين ، تعالين الى

وبأيد باهتة كالحلبي

اغسنتها في دمائي

مادمتن قد قطعتن بالمقص

خيط حياته الحريري » (٥٦)

لا يمكن فهم هذه الكلمات دون الاطلاع بالتحلفية الاسطورية . فالأخوات الثلاث هن ربات القدر ( موراى Moirai بالارغريقية أو Fata أو Parcae باللاتينية ) وأسائهن كما يلى : كلوتو ( Clotho ) ولاخيسيس ( Lachesis ) وأتروپوس ( Atropos ) وقد تصورهن الناس نساء يقمن بغزل خيوط المقادير والأعمار ولكن خيال الشعراء جعل كلوتو تمسك فلكة المغزل بينما لاخيسيس هى التى تسحب الخيط ، أما أتروپوس فعملها أن تقطعه في الوقت المناسب ، أى حين ينتهى أجل كل امرئ .

وعرضت مسرحية شكسبير « ترويلوس وكريسيدا » ( Troilus and Cressida ) عام ١٦٠١ - ١٦٠٢ . وقد يعنى الاسم ترويلوس « الطروادى الصغير » إذ ورد في الروايات الأسطورية الارغريقية على أنه اسم الابن الاصغر لبريانوس ملك طروادة من هيكايى ملكتها . وتقول الأساطير أيضا أنه قد قتل على يد البطل الارغريق أخيليلوس ( أو أخيليليس ) ، وبفض النظر عن هذه الأساطير الارغريقية الكلاسيكية هناك قصة أخرى شاعت فيما بعد العصر الارغريقى الرومانى وتمزى الى الشاعر الفنائى بينوادى سانت مور الذى عاش ابان القرن الثانى عشر تحت رعاية وحماية هنرى الثانى ملك انجلترا . إذ كان هذا الشاعر قد ألف « قصة طروادة » ( Roman de Troie ) معتمدا على داريس الفريجيى ( Dares Phrygius ) - والفريجيى تنسب الطروادى (٥٧) - وديكتيس كريتيسينس ( Dictys Cretensis ) أى ديكيتيس الكريتى . والاول هو في

( ٥٦ ) « قرن » أنطوني وكليوباترا » ( ف ٢١٨ ب ١٥٠ وما يليه ) حيث يشبه شكسبير الافة التى رثت الارضاج فبعلت لفرالها زوجة أنطونوس السابقة لرت في الوقت المناسب ليعنى لانتونوس ان يتزوج بأخت ليعمر اركنانيا بشهيم ب « حاكى الأرض » ( tailors of the earth ) .

( ٥٧ ) ساد الاعتقاد لدى الكتابه الاخريق بعد هوميروس بأن الطرواديين جاؤا من سلالة الفريجين ولكن الأمر غير ذلك عند هوميروس نفسه .

الأصل سخص يرد اسمه في « الالاباة » ( الكتاب الخامس بيت ٩ ) على أنه كاهن الاله هيفا يستوس في طروادة . وفي العصور الوسطى نسب إليه وضع عمل لاتيني فيل انه ترجمة للوصف الذي أعطاه هو بنفسه كساهد عيان لتدمير موطنه طروادة وحمل عنوان « عن الخروج من طروادة » ( De Excidio Trojae ) . ويرجع بعض الدارسين ظهور هذا المؤلف المترجم الى القرن الخامس الميلادي . أما ديكليس كريتينسيس ( الكريتي ) فقد نسب إليه أيضا وضع عمل مماثل يسجل أحداث الحرب الطروادية وكتب باللغة الاغريقية<sup>(٥٨)</sup> . ثم شاعت ترجمته اللاتينية على يد لوكيوس سيبتيميوس ( Lucius Septimius ) أبان القرن الرابع الميلادي . ولما تفت هذه الترجمة قبولا وذيوغا في العصور الوسطى التي حفظتها من الضياع حتى وصلت الى أيدي الدارسين المحدثين . ومن مقدمة هذه الترجمة علم أن ديكليس من مواليد مدينة كنوسوس ( تسمى الآن هيراكليون ) بجزيرة كريت وانه هو الذي اصطحب إيدونيوس - حفيد الملك الاسطوري للجزيرة أي مينوس - الى الحرب الطروادية .

وهاتان الروايتان الاسطورتيتان الشائعتان في العصور الوسطى أصبحتا المصدر الرئيسى لأى عمل أدبى عن الحرب الطروادية أبان عصر النهضة الأوربية . فعليا امتلكا جويدو داكلونا أو ديللي كولونى ( Guido da Colonna أو G. delle Colonne ) الكاتب الصقلي الذى عاش أبان القرن الثالث عشر ومؤلف القصص باللغة اللاتينية واصلح « التاريخ الطروادى » ( Historia Trojana ) وفى فى الواقع نسخة شريفة لـ « قصة طروادة » للمؤلف الشاعر بينوادي سانت مورمى أن جويدو نفسه لا يعترف بذلك . ولقد ترجمت قصة جويدو نفسها فيما بعد الى أشعار تنسب الى كل من جون باربور ( John Barbour ١٣١٦ ؟ - ١٣٩٥ ) الشاعر الاسكتلدى وجون ليدجيت ( Jhon Lydgate ١٣٧٠ - ١٤٥١ ؟ ) راهب بيورى سانت إدومندز ( Bury St. Edmonds ) فالأول نظم قصيدة « اسطورة طروادة » ( Legend of Troy ) وقيل انها ترجمه لقصة جويدو التى أصبحت تعرف بعنوان جديد هو « قصة تدمير طروادة » ( Historia Destructionis Troiae ) . أما الثانى فهو صاحب « كتاب طروادة » ( Troy Book ) الموضوع فيما بين ١٤٢٠ و ١٤٢٠ والمطبوع عام ١٥١٣ وهو فى الواقع عبارة عن قصيدة تقع فى خمسة كتب ، ونظمت بناء على طلب الأمير هنرى - أى الملك هنرى الخامس فيما بعد - وتقصى « الفصة العظيمة » ( noble storye ) لطرودة وتعد بصورة أو بأخرى مدخلا تمهيدا لفصة « الاستعمار » الطروادى لانتجلترا

H.J. Rose, Outlines of Classical Literature for the Students of English ( London — Methuen 1959 ) pp. 216—217

( ٥٨ )

حيث يذكر المؤلف أنه عثر مزمرا على يديته في تيبونيس Tebtunis ( أى « الحبشة » حاليا وتقع في مصر الوسطى ) ونصو شفرة اغريقية من مؤلف ديكليس هذا ويرجح أن تاريخها يعود الى القرن الثانى للميلاد .



على يد برتولوس حفيد أنيباس الطروادي<sup>(٥٩)</sup> الذي أسس حفيداء رومولوس وريموس مدينة روما - طبقا لما ورد عند جيوفري من موموث (Geoffrey of Monmouth) أو باللاتينية جافوريدوس مونيموتينسيس Gaufridus Monemutensis ١١٠٠؟ - ١١٥٤) في كتابه «تاريخ ملوك بريطانيا» (Historia Regum Britanniae).

وفي الكتاب الثالث من قصيدة ليدجيت، وهو الذي يعالج قصة ترويلوس وكريسيدا، يقدم الشاعر تحية مسطابة الى استاذة (maister) تنوسر (حوالي ١٣٥٤ - ١٤٠٠) الذي سبق أن تناول الموضوع في قصيدته «ترويلوس وكريسيدا» (Troilus and Cryseyde) التي نظمت في الفترة ما بين عام ١٣٧٢ و١٣٨٦ والتي يعتبرها الدارسون مرحلة التأثير الايطالي في إنتاج هذا الشاعر الانجليزي القديم. فلقد تأثر تنوسر في هذه المرحلة بدانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١) ويوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) الذي كتب قصيدة بعنوان «فيلوستراتو» (Filostrato) عن قصة ترويلوس وكريسيدا. أما عن الآخرين الذين كتبوا عن ترويلوس وكريسيدا قبل شكريير فنذكر منهم الشاعر الاسكتلندي الذي يعد من أتباع مدرسة تنوسر في الشعر، انه روبرت هنريسون أو هنريسون (Robert Henryson أو R. Henderson). الذي عاش تقريبا فيما بين ١٤٣٠ و١٥٠٦ وكتب قصيدة «عهد كريسيدا» (Testament of Cresseid) التي كانت تنسب الى تنوسر حتى عام ١٧٢١ بالرغم من أنها كانت مطبوعة تحت اسم مؤلفها هنريسون منذ عام ١٥٩٣.<sup>(٦٠)</sup>

(٥٩) حاولت بعض الدول الأوروبية الحديثة أن تتعجج روما القديمة فتدعى لنفسها نسا طرواديا. فكما أشاع الرومان - واعتقدوا - أنهم من نسل أنيباس الطرواي حاولت هذه الدول أن تبحث لنفسها عن أصول طروادية. ولم تكن قصة برتولوس أوبروت (Brut) مؤسس السلالة البريطانية مرفوعة خيالها صالحا للأدب والتي لعبت بل صارت شبه واقعة تاريخية يؤمن الناس بصحتها. فنجد ليامون (Layamon) - أو لومون (Lawmon) ويعني اسمه «رجل القانون» - الذي ازدهر حول عام ١٢٠٠ م وألف كتاب «بروت» وهو تاريخ لانجلترا منذ وصول بروتوس الاسطوري الى الجزيرة البريطانية وحتى عهد كادواللاد (Cadwalladar ٦٨٩ م) والذي اعتمد المؤلف فيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة على نسخة ريس Wace الفرنسية ل «تاريخ ملوك بريطانيا» لجيرفاري من مرفوت مع اضافات أخرى. ونفسن مؤلف ليامون لأول مرة تاريخ ملوك مثل ليريسيبيلين وشخصيات أخرى ظهرت في الادب الانجليزي بعد ذلك. ولكن قصة بروت (برتولوس) قبلت أيضا كما سبق القول على أنها تاريخ حقيقي الى الحد الذي دفع برشانان (Buchanan) في الكتاب الثاني من مؤلفه «تاريخ الاسكتلنديين» (Historia Scotorum) الى أن ينتقد هذا الاعتقاد بشدة. على أية حال لقد حاول البريطانيون بخلق هذه الاسطورة أن يربطوا نشأة دولتهم بأصل طروادي كمن يربون عرض الخناط بالصعوبة اللغوية الكعكة في حقيقة أن اسم البطل الطرواي الذي وقع عليه اختيارهم لم يكن «برتولوس» كان لايتيس واغريقيا أو طرواديا وأذهب بعض البريطانيين الى حد أن جعلوا لغة هذا البطل ويلشية (Welsh) (اقبل كذلك ان الاسم الاصل للعاصمة البريطانية هو «طروي نوفايت» أي «طروادة الجديدة» (Troynovant) ولكن هذا الاسم قد يكون مشتقا من الاسم القبل في بريطانيا «تريبن باتنيس» (Trinobantes) والذي ورد عند بوليوس قيصر وثاكيوس. وما يذكر في هذا الصدد ان الحرف (b) قد يستبدل بسهولة بالحرف (v) (٧) ابان العصور الوسطى لذلك ما حدث بالنسبة للحرف الاغريقي «بيتا» (B) الذي أصبح يطلق «فيتا». أما المقطع فن Tri التي اليسر تعريبه الى Troia وبذلك يصحح اسم العاصمة البريطانية الأصل هو «طروادة الجديدة» أو «طروي نوفايت».

(٦٠) المجدير بالذكر أن درايدن (١٦٣١ - ١٧٠٠) نشر عام ١٦٧١ مسرحية «ترويلوس وكريسيدا» فانفضها جورج سينتسبيري (Saintsbury George) في كتابه «معالجات الادب الانجليزي» (English Men of Letters) قائلا: «أنه كان من الافضل بكثير ألا يمسوا المؤلف تناول هذا الموضوع». وحيدر بالتاريخ ان درايدن جعل كريسيدا تنسحر عندما أثرت الشكوك حول اخلاصها لترويلوس أما الاخير فيقتل بدوره على يد أخيلليس وهذا حل شائع لعقدة القصة.

ومن المعروف أن ملحمة هوميروس الخالدة « الإلياذة » تتخذ من غضبة أخيليلوس موضوعاً رئيسياً لها ، فهذا ما يقوله لنا الشاعر نفسه في البيت الأول من ملحمة . ولقد وقعت غضبة بطل الأبطال الاغريق بسبب الاهانة التي تلقاها من اجامنون ملك الملوك . ذلك أن طاعوناً كان قد داهم المعسكر الاغريقي أبان الحرب الطروادية فأعلن العراف كالحاس أنه لا علاج ولا دواء يدرأ هذه الكارثة سوى أن يسلم أجامنون محظيته العذراء الجميلة خرسيس ( Chrysis ) الى أبيها كاهن أبوللون . فقبل أجامنون أن يفعل ذلك على مضض ، وبشرط أن تسلم اليه أولاً عوضاً عن محظيته الجميلة محظية أخيليلوس وتدعى بريسيس ( Briseis ) . ولكن بريسيس هذه أصبحت في قصة جويدو « بريسيديا » ( Briseida ) بنت العراف كالحاس التي أحبها على التوالي كل من ترويلوس وديوميديس ، ثم تحول اسمها في قصيدة بوكاشيو الى جريسيدا ( Griseida ) الذي ربما نجم عن خلط بين الاسمين بريسيس وخرسيس وعلى يد تشوسر أصبح الاسم كريسيديد ( Cryseyde ) . ولقد ضمت قصيدة تشوسر حوالى ٨٢٠٠ بيتاً وأثرى المؤلف القصة التي نقلها عن بوكاشيو باضافة عنصر الحبيوة والسخرية لشخصية بانداروس ( Pandarus ) الذى توسط بين ترويلوس وكريسيدا وكذلك بتطوير شخصية الأخيرة فجعلها امرأة رزينة جادة متأنية تضع في عين الاعتبار سمعتها ومصحتها من ناحية ومتعتها من ناحية أخرى . أما شخصية كريسيدا في مسرحية شكسبير فهي فتاة طائشة مستهترّة وأتني متهورّة متقلبة ، وقعت في حب ترويلوس وهجرته بعد ذلك دن ما سبب حقيقى . يعالج تشوسر بطلته بلطف وتعاطف ظاهرين ويرسها لنا كأرملة جذابة ومرة ولكنها تذبذب حياء . وبكياسة بارعة تجنب تشوسر أن يقدم أى شرح أو تفسير مباشر لحياتنها التي وقعت ، ولكنه أوحى لنا أنها تحولت الى حب ديوميديس لا بدافع الشهوة الجسدية الرخيصة ، وإنما لأنها شعرت بالوحدة الفناكة والاغتراب القاتل في المعسكر الاغريقى ، انها بطبيعتها - كما نفهم من معطيات تشوسر - لا تقوى على المقاومة طويلة النفس أمام مغريات الحب . أما كريسيدا شكسبير فهي امرأة غير متزوجة ، مغناج بطبيعتها شهوانية في سلوكها ، أى أنها أبعد ما تكون عن براءة كريسيدا تشوسر ونقاها الداخلى فهي عند شكسبير تتورط في الخيانة بدافع الشهوة الجنسية . وهنا ينبغي أن نتذكر حقيقة أن قصيدة تشوسر قد كتبت في عصر الحب البلاطى وفي ظل السلوك الفروسي الذى وضع قالباً أو نمطاً مقدساً لكياسة العشاق من الفرسان النبلاء . فساد ميدان هامان في قانون الحب الفروسي غير المكتوب أولها السرية فعلى العاشق الفارس أن يحفظ سر عشقه في مكتون صدره ولا يسمح له بالخروج من أعماق القلب كيلا يشيع أمره بين الناس ويفضح المحبوبة ويسئ الى سمعتها وتلوك سريتها كل الالسة . أما المبدأ الثانى فهو الاخلاص التام أو قل التفانى في المحبوب . ولم يتضمن دستور الحب الفروسي العلاقة الزوجية لأن هذا الحب لم يكن يهدف الى هذه النهاية السعيدة ، فلا أمل للعاشق الفارس سوى أن ينفى في خدمة ورعاية عشيقته ولولم يحصل منها على ماينبى . نعم قد تقوم علاقة جنسية بين العشيقيين الفروسيين ولكن ذلك أمر يرجع في المقام الأول الى المحبوبة ورضاها ، أو هل تعطفها على العاشق الوهان . فالعلاقة الفرامية الفروسية مقضى عليها بالفساد ان تسرب أمرها الى اذن او السنة الناس من ناحية وان داخلها شيء من الشهوانية البذبة من ناحية أخرى .

أما شكبير الذى كتب مسرحيته بعد قرنين من الزمان فيخاطب مجتمعا آخر تغيرت فيه الأعراف والتقاليد . فالكتاب الاليزابسي يرى أن النهاية الصحيحة للحب هى الزواج . فاذا وضعنا في اعتبارنا حقيقة أخرى وهى أن كتاب عصر شكبير لم يحفلوا كثيرا بالزنا الا في اطار الكوميديا الهزلية تبينا فدر الصعوبة البالغة التى واجهت شكبير وهو يعالج قصة ترويلوس وكريسيدا معالجة تراجيدية . كان ترويلوس أنموذج العاشق المخلص من ناحية لكنه لم يتزوج كريسيدا في أى مصدر من مصادر شكبير من ناحية أخرى . ولقد استطاع شكبير على أية حال أن يحتفظ ببدء السرية المطلوبة كما عمل على أن لا يتبر موضوع الزواج بطريقة مكتشفة . فدر الامكان . وذهب بعض النقاد الى اعتبار لقاء العاشقين في حصرة أحد الشهود نوعا من الزواج ، ولكن هذه الفكرة لا تنمى مع الانطباع العام الذى نخرج به من المسرحية ككل والتى يحيط بها - على أية حال - قدر كبير من الغموض . يعنى أن تشير الى أن شكبير وتشوسر كانا أكثر تقاربا وتشابها في رسمهما لشخصية ترويلوس اذ انفعا فيا بينهما على القدرة العسكرية لهذا البطل الذى لم يتفوق عليه أى بطل طروادى آخر سوى هيكتور وهو بطل الأبطال الطرواديين ونظير أخيليليس الاغريقى . ويتفق الشاعران كذلك في أن ترويلوس عند كل منها يتميز بالاخلاص في الحب الى مالا نهاية كما أنه قد حاول أن ينسى حبه أثناء القتال بل وتبقى أن يوب في ميدان الحرب ليكسب الحب . ومع ذلك فيمكن القول بصفة عامة أن الجوالساند في مسرحية شكبير جد مختلف عنه في قصيدة تشوسر . فمسرحية شكبير ومعطياتها ليست فقط منافية للبطلوة ( antiheroic ) ولكنها الى حد ما تعد كاريكاتيرا بعيدا في روحه عن الروح الاغريقية التى يجهلها أو يتجاهلها .

ولقد سبق لنا أن أشرنا الى ظهور شخصية تيرسييتيس في مسرحية شكبير ، ولما كانت هذه الشخصية غير موجودة في الروايات الشائعة ابان العصور الوسطى كما رأينا فإن دل ذلك على شئء فانه يدل على أن شكبير قد قرأ ترجمة تشابمان « للالياة » ولاسيما الكتاب الأول والثاني والكتب من السابع الى الحادى عشر حيث ظهرت عام ١٥٩٧ . وفي الواقع هناك ثلاث أو أربع اشارات ايسطورية يمكن ارجاعها الى نفس ذلك المصدر ( فارن « ترويلوس وكريسيدا » ف ٣ م ٣ ب ١٩٠ على سبيل المثال ) .

هذا ويحدد كل من موير وبالتوسعة مصادر رئيسية لمسرحية « ترويلوس وكريسيدا » وهى كما يلى :

أولا : ترجمة تشابمان لالياة هوميروس على النحو التالى :

“ The Seven Bookes of Homers Iliads by George Chapman, 1598 ”

“ The Iliads of Homer ” , 1611

والطبعة الأخيرة تضم كل كتب « الالياة » ويحتمل أن تكون قد وصلت الى يد شكبير كمخطوط قبل النشر في عام ١٦١١ .

ثانيا : « تاسخات » أوفيدوس ترجمة آرثر جولدنج وهى الكتب الثانى عشر والثالث عشر اللذان نظهما عام

١٥٦٧ .

ثالثاً : « تاريخ حصار وتدمير طروادة » بقلم جون ليدجيت عام ١٥١٣

“ The Hystorye Sege And Dystruccyon of Troye ”

by John Lydgate, 1513

رابعاً : « مجموعة قصص طروادة » تأليف راؤول ليفير وترجمة وليام كاكستون عام ١٤٧٤ .

“ The Recuyell of the Historyes of Troye ”

by Raoul Lefevre, transl. by William Caxton 1474

خامساً : « عهد كريسيدي » لروبرت هنريسون عام ١٥٩٣

“ The Testament of Cresseid ” by Robert Henryson, 1593

سادساً : « حبكة ترويلوس وكريسيدي » في مخطوط معروف بالمتحف البريطاني بالأرقام التالية BM. MS Add 10449

سابعاً : - « ترويلوس وكريسيدي » لثيوس

ثامناً : - « إنيادة » فرجيليوس

تاسعاً : - ترجمة دي لا لاند ( De la Lande ) لرواية ديكتيس الكرييني<sup>(١١)</sup>

واستقى شكسبير مادة مسرحيته « تيمون الاثيني » ( Timon of Athens ) المكتوبة حوالي عام ١٦٠٧ من سير بلوتارخوس بترجمة السير توماس نورث التي سنتحدث عنها عندما نتناول المسرحيات الرومانية.<sup>(١٢)</sup> المهم هنا أن ننوه الى أن بلوتارخوس قد أشار في سيرة أنطونيوس الى قصة تيمون الاثيني . فبعد هزيمة أنطونيوس في معركة أكتيوم أمام أوكتافيا نوس تشبه القائد المهزوم بهذا البطل الاثيني ، فأقام لنفسه منزلاً منعزلاً قرب البحر بالاسكندرية وسماه « تيمونيون » أي « منزل تيمون » . وفي سيرة الكيبيديس تناول بلوتارخوس مرة ثانية الحديث عن قصة تيمون . ومن المؤكد أن شكسبير قد رجع أيضاً الى لوكيانوس ( حوالي ١١٥م - حوالي ٢٠٠م ) ذلك الكاتب والفيلسوف المولود في ساموساتا ( Samosata ) على ضفاف نهر الفرات .

Highet, op.cit., p. 197; Muir, op.cit., pp. 78—96; G. Bullough (ed.),

( ١١ )

Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare, Six volumes (Routledge & Kegan Paul

New York, Columbia University Press 1962-1964) vol vi pp.83-221

وانظر أيضاً :

R.K. Presson, Shakespeare, ' Troilus and Cressida' and the

Legends of Troy ( Baldwin, Hillebrand 1953 )

Mary F. Bruce, The Middle English Versions of Troy Legend and

Shakespeare, ' Troilus and Cressida ' , 1948.

( ١٢ ) راجع حاشية رقم ٤١

ومع أن لغة هذا الكاتب الأصلية لم تكن الاغريقية - بل على الأرجح الآرامية - إلا أنه تعلمها وأتقنها حتى أصبح خطيباً مقرباً ومحاضراً نالها وكاتباً ذا أسلوب اغريقي رشيق . غطت أسفاره بلاد الاغريق وإيطاليا وجنوب بلاد الغال سائحاً يتكسب من تدريس الخطابة ، ثم تقلد منصباً قانونياً بصرة وظل يشغله حتى مات . كتب أكثر من ثمانين عملاً أدبياً أغلبها في شكل المحاورات ، منها « محاورة الآلهة » و « محاورة الموتى » . وتناول قصة تيمون في محاورة بعنوان « كاره البشر » ( *Misanthropos* ) لابد وأن شكسبير قد اطلع عليها أو عرفها بطريقة أو بأخرى . ويرى باللوآن شكسبير قد عاد للترجمة الإيطالية لهذه المحاورة بقلم دالونيجو ( *N. da Lonigo* ) عام ١٥٣٦ . ويجدر بالذكر أن هناك مسرحية مجهولة المؤلف تحمل عنوان « تيمون » في مخطوط ديس ( *Dyce MS* ) وتؤرخ هذه المسرحية بعام ١٦٠١ وينبئ أن نضمها الى المصادر المحتملة لمسرحية شكسبير . ولكننا لا يمكن أن نجزم بأن الإشارة التي وردت في مسرحيات أريستوفانيس ( حوالي ٤٤٨ - حوالي ٣٨٠ ق.م ) الى قصة تيمون كان لها تأثير على شكسبير الذي على الأرجح لم يقرأ هذا الشاعر على الاطلاق . كما أنه من المؤكد أن الشاعر الاجليزي لم يعرف المسرحية التي كتبها شاعر الكوميديا المتوسطة الاغريقي أنتيفانيس ( اظهر حول عام ٣٨٥ ق.م ) لأنها فقدت ولم تصل الى أيدينا حتى الآن . وهناك مسرحية بعنوان « تيموني » ( *Timone* ) يعلم بوياردو ( *M. M. Boiardo* ) ظهرت حوالي عام ١٤٨٧ . كما أنه لا يمكن اغفال « الرواية السامة والعشرون » ( *The Twenty Eighth Novell* ) من مؤلف بينتر ( *W. Painter* ) بعنوان « قصر المتعة » ( *The Palace of Pleasure* ) وظهر عام ١٥٦٦ . وكذلك « مسرح العالم » ( *Theatrum Mundi* ) بقلم بواي ستواو ( *P. Boaistuau* ) ترجمة جون ألداي ( *John Alday* ) وظهر عام ١٥٦٦ ( ٢ ) . ومن المصادر المحتملة أيضاً مسرحية « كامباسبي » ( *Campaspe* ) بقلم جون ليلي ( *John Lily* ) وظهرت عام ١٥٨٤ . هذا ويرى موير أن لأساطير « ألف ليلة وليلة » العربية تأثير غير مباشر على « تيمون الاثني » ولا سيما على تصوير المائدة .<sup>(٦٣)</sup>

وتعود مصادر مسرحية شكسبير الرومانسية « بريكليس أمير صور » ( *Pericles, Prince of Tyre* ) المعروضة حوالي عام ١٦٠٨ الى القصة الاغريقية الثرية مجهولة المؤلف والمعروفة بعنوان « أبولونيوس الصوري » . ولقد اشتهرت هذه القصة أبان العصور الوسطى ويعود أقدم نص موجود لها الى القرن الخامس أو السادس الميلادي ويحمل عنواناً لاتينياً معناه « قصة أبولونيوس ملك صور » ( *Historia Apollonii Regis Tyrii* ) وهناك من الدارسين من يعتقد بأن لهذه القصة أصل اغريقي يعود الى القرن الثاني أو الثالث الميلادي ، ولكن فريقاً آخر من الدارسين يرى غير ذلك أي أنها كتبت باللاتينية مباشرة . وموضوع هذه القصة - بكثير من القصص الأخرى التي شاعت أبان تلك الفترة - يدور حول فراق

Bullough, op.cit., vol VI pp. 225—345; Cf. Muir  
op.cit., p. 260.

عاشقين بسبب ظروف قاسية ومغامرات خطيرة تنتهي باللقاء من جديد لمواصلة العيش السعيد . ولقد أورد الشاعر جون جوار ( ١٣٣٠ ؟ - ١٤٠٨ ) هذه القصة في مؤلفه « اعتراف المحب » ( *Confessio Amantis* ) وفي الكتاب الثامن منه على وجه التحديد ولقد ظهر عام ١٥٥٤ . هذا ويورد بالو أربعة مصادر أخرى هي « النموذج المغامرات المؤلمة » ( *The Patternne of Painfull Advetures* ) بقلم لورنس توين ( *Laurence Twine* ) في طبعة ١٥٩٤ . وكذلك « أركاديا الكونتيسة » بمبروك ( *The Countesse of Pembrokes Arcadia* ) بقلم سير فيليب سيدني وظهر عام ١٥٩٠ . وأهم من ذلك « المغامرات المؤلمة لبريكليس أمير صور » ( *The Painfull Adventures of Prince of Tyre* ) بقلم جورج ويلكينز ( *George Wilkins* ) وظهر عام ١٦٠٨ . ثم « الخطيب » ( *The Orator* ) لألكسندر سيلفاين ( *Alexander Silvayn* ) ترجمة لازاروس بيوت ( *Lazarus Piot* ) عام ١٥٩٦<sup>(٦٤)</sup>



#### بلوتارخوس... وثلاثية شكسبير الرومانية :-

إن الأعمال التي استلهم فيها شكسبير التاريخ الروماني سته نوردنا حسب تاريخ عرضها أو نسرها على النحو التالي : « اغتصاب لوكريس » ( *The Rape of Lucrece* ) ونسرت عام ١٥٩٤ و « تيتوس أندرونيكوس » ( *Titus Andronicus* ) وعرض وطبعت عام ١٥٩٤ و « يوليوس قيصر » ( *Julius Caesar* ) ونسرت عام ١٥٩٩ وطبعت عام ١٦٢٣ و « انطوني و كليوباترا » ( *Antony and Cleopatra* ) وكتب عام ١٦٠٦ / ١٦٠٧ وطبعت ١٦٢٣ و « كوروليانوس » ( *Coriolanus* ) وكتب عام ١٦٠٨ وطبعت عام ١٦٢٣ . و « سيمبلين » ( *Cymbeline* ) وعرضت عام ١٦١٠ / ١٦١١ وطبعت عام ١٦٢٣ . وسينركز حديثنا في المسرحيات الثلاث « يوليوس قيصر » و « انطوني و كليوباترا » و « كوروليانوس » لأسباب عدده . نجل الخوض فيها بعض الوقت ، وبعد أن نأخذ فكرة سريعة عن الأعمال الثلاثة الأخرى .

« اغتصاب لوكريس » هي القصيدة القصصية الثانية - بعد « فينوس وأدونيس » - وتدور حول موضوع الحاجة المحب أيضا ولكن هذه المرة من جانب الرجل . وتكون هذه القصيدة من منظوعات سباعية . أما لوكريس فهي لوكريشيا ( *Lucretia* ) زوجة لوكوس تاركوينوس كوللاتينوس ابن عم تاركوينوس بريستكوس الملك الرابع في روما . والجدر بالذكر أن التاريخ العربي لأسس روما هو ٧٥٣ ق.م وأنه حكمها سه ملوك كان آخرهم

Bullough, op.cit., vol. VI pp. 349—548, cf. Muir,

op. cit., pp. 15—16

هو تاركوينيوس سوبربوس أى المتغطرس (Tarquinius Superbus) فلما اغتصب ابنه سكستوس معشوفته العفيفة لوكرتيا وذاع الأمر نار الناس في مدينة روما وانتهت أحداث هذه التورة بطرد أسرة تاركوينيوس كلها هائتا من روما ، وبذلك تم القضاء على النظام الملكي وتأسس النظام الجمهورى عام ٥١٠ ق.م . ولقد عاشت هذه القصة النصف أسطوريه في الأدب الانجليزى فرواها تسوس في « اسطورة النساء الطيبات » ( Legend of Good Women ) التى ظهرت فيما بين ١٣٧٢ - ١٣٨٦ ووردت عند جون جوار ( ١٣٣٠ ؟ - ١٤٠٨ ) في قصيده « اعتراف المحب » ( Confessio Amantis ) . والجدير بالذكر أن هذه الحادثة الاسطورية كما جاءت عند المؤلفين الرومان وفي قصيده سكسبير « اغتصاب لوكريس » تتشابه في الموضوع مع مسرحيه المؤلف الاسانى الأسهر لوبي دى فيجا ( ١٥٦٢ - ١٦٣٥ ) وعنوانها « فونيتى أوبيخونا » ( Fuente Ovejuna ) وتعنى « بئر الخراف » وترجم الى العربيه بعنوان « بورة فلاحين » . وهى تعد بحق راقعة المسرح الاسباني ابان عصر النهضة . ولعل مرد النساء في الموضوع بين هذه المسرحيه وقصيده شكسبير هو أن موضوع الشرف ساد أدب عصر النهضة بصفة عامة ، قال جانب هذين الكاتبين وجد آخرون تناولوا هذا الموضوع نذكر منهم كورنى ( ١٦٠٦ - ١٦٨٤ ) على سبيل المثال في مسرحية « السيد » .

ولقد اختلفت على الباحثين المصادر التى جاءت منها قصيدة شكسبير . فهى أصلا مشتقة من المؤرخ تيتوس ليفيوس ( ٥٩ ق.م - ١٧ م ) الذى ضم تاريخه ١٤٢ كتابا لم تصلنا كلها . ووردت قصة لوكرتيا وسكستوس تاركوينيوس وبروتوس - ابن عم تاركوينيوس المتغطرس وهو الذى قاد التورة ضده وخلص المدينة منه وكان أحد القنصلين الاولين في روما الجمهورية ، وقيل أنه قتل ولديه لأنها حاولا استعادة أسرة تاركوينيوس - في الكتاب الأول ( ٥٧ - ٦٠ ) . وعاد شكسبير أيضا الى قصيدة « الأعياد » ( Fasti ) لأوفيدوس حيث ترد القصة في الكتاب الثانى ( أبيات ٧٢١ - ٨٥٢ ) . ويقول هيجيت أنه بما أن هذه القصيدة لم تظهر مترجمة في انجلترا قبل عام ١٦٤٠ وحيث أن شكسبير يفتطف منها عبارات كاملة فمن المرجح أنه رجع الى الأصل اللاتينى . ويؤكد ذلك ما نجده من تشابه كبير بين العمليين في اللغة والفكر. (٦٥) أما موير فيربط بين هذه القصيدة الشكسبيرية و « تناسخات » أوفيدوس ولا سيما الكتاب الرابع ( أبيات ٤٥٨ - ٤٥٩ وتعليق ريجيوس Regius عليها ) . وكذلك هجائبة هوراتيوس ( Sermones ) الأولى وكتاب « الاقوال المأثورة » ( Adagia ) لارازموس الذى يفتطف من قصيدة أخرى هوراتيوس ( Odes III, 16 ) ليربطها بامثلة الرجل الطماع في الكتاب المقدس ( لوقا ١٢ ، ١٥ ، ٢١ ) وتعليق هامنى عليها ورد في مخطوط جنيف. (٦٦)

وتتشابه الآراء والظنون حول مصادر مسرحية « تيتوس أندرونيكوس » فيقال أنها أخذت من أحدثوة أو حكاية شعبية كانت شائعة في أوروبا الوسطى عن فائد رومانى عاش أبان العصر الامبراطورى . وعلى هذه

Highet, op. cit., p.204

( ٦٥ )

Muir, op. cit., pp. 15—16

( ٦٦ )

الاحدثة بنيت شتى القصص ورويت مختلف الروايات في جرمانيا وهولندا ثم ضاعت الأصول ولم يبق منها غير النصف التي أدرکہا شكسبير وأعاد صياغتها في مسرحية متكاملة تدور حول انتقام هذا القائد الروماني تيتوس اندرونيكوس للمعاملة الوحشية التي عوملت بها ابنته لافينيا (Lavinia) وبعية ابنائه والاهانة التي لقيها هو نفسه وكذلك مقتل حبيب ابنته على يد تامورا (Tamora) ملكة القوط وأبنائها وعشيقتها عارون المغربي (Aaron the Moor). وبينما يقول مويران مصادرهذه المسرحية غير معروفة فانه يؤكد ان مؤلفها لابد أنه قد قرأ مسرحية «ثيستيس» (Thyestes) لسينيكا وقصائد «التناسخات» لأوفيدوس<sup>(٦٧)</sup> وأما باللو فيورد خمسة مصادر محتملة لهذه المسرحية الأول هو «قصة تيتوس اندرونيكوس» (The History of Titus Andronicus) وهي مجهولة المؤلف أو «القصة المفجعة والمأساوية لتيتوس اندرونيكوس» (The Lamentable and tragical history of T. Andronicus) وهي أغنية بطولية شعبية (Ballad). أما المصدر الثاني فهو الكتاب السادس من «التناسخات» لأوفيدوس بترجمة جولدنج وظهر عام ١٥٦٧. والمصدر الثالث مسرحية «ثيستيس» لسينيكا بترجمة هيود (Jasper Heywood) وظهرت عام ١٥٦٠. والمصدر الرابع «أغنية بطولية مفجعة» (A lamentable ballad) بمجهولة المؤلف. والمصدر الخامس حياة سكيبيو أفريكانوس في سير بولتارخوس بترجمة نورث وظهرت عام ١٥٧٩. (٦٨)

على أية حال فان خلفية المسرحية هي أواخر العصر الامبراطوري الروماني مع بدايات الغزو البربري. وهناك من الدارسين من يقول بأن المكان الحقيقي للأحداث المسرحية هو بيزنطة وأن تيتوس أندرونيكوس هو الامبراطور البيزنطي القوي والعنيف الذي حكم من ١١٨٣ الى ١١٨٥ وأن تامورا Tamora هي ثامار (Thamar) من جيورجيا Georgia (١١٨٤ - ١٢٢٠).

أما خلفية «سيميبلين» فهي أوائل العصر الامبراطوري الروماني وإن كان البعض يرى أن هذه الخلفية رومانية في جزء منها فقط. أما الجزء الآخر فهو بريطاني وغامض. وبالفعل تبدو المسرحية كخليط عجيب ليس فقط من التاريخ الروماني والتاريخ البريطاني الاسطوري ولكن أيضا بين روما القديمة وإيطاليا عصر النهضة. كما ان هذه المسرحية تعد هزمة الوصل بين مسرحيات شكسبير التاريخية وتلك الرومانية من جهة وبين مسرحياته الرعوية الروما نسية وتلك التراجيدية من جهة أخرى. (٦٩)

وستكون وقتنا مع المسرحيات الرومانية الثلاث «يوليس قيصر». و«أنطوني وكليوباترا» و«كورولانوس» أطول لأننا نعتقد أن دراسة هذه المسرحيات ستعود بالفائدة ليس فقط على المهتمين بمسرح

Ibidem, p. 258

(٦٧)

Bullough, op. cit., vol VI, pp. 3—79

(٦٨)

Muir, op. cit., pp. 231—240

(٦٩)



شكسبير وإنما أيضا على المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية . إذ ينبغي أن تبدأ من هذا المنطلق ، أى أن دارسى الكلاسيكيات سيعلمون من مسرحيات شكسبير شيئا ما عن روما ، ربما يكون قد فاتهم وهم يعكفون على قراءة المصادر القديمة فقط . كما أن دارسى شكسبير ونقاده سيتمكنون من النفاذ الى أعماق مسرحياته والكشف عن بعض أسرارها بل والاطلاع عن كتب على خبايا الفن الشكسبيرى والعصر الاليزابيثى بصفة عامة أن هم وضعوا هذه المسرحيات في إطارها الصحيح وقارنوها بمصادرها القديمة .

وأول ما يلفت النظر في المسرحيات الرومانية الشكسبيرية أنها مسرحيات سياسية بالدرجة الأولى ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أنها أكثر احتفالا وانتشغالا بالسياسة من التراجيديات الأخرى . وما يسترعى الانتباه أيضا أن هذه المسرحيات الرومانية تشكل فيما بينها « ثلاثية » ما بصورة أو بأخرى . فليس من قبيل الصدفة العنوية أن يعود شكسبير بعد كتابة « يوليوس قيصر » بحوالى سبعة أو تسعة أعوام فيكتب مسرحيتين أخريين مأخوذتين أيضا من التاريخ الروماني . وأن هذه المسرحية تتناول فترة الانتقال من العصر الجمهورى الى العصر الامبراطورى في حين أن المسرحيتين التاليتين - وهما « أنطوني وكليوباترا » و « كوربولانوس » - تعالجان أصول الامبراطورية وبدايات الجمهورية على التوالي . فهذه الطريقة يمكن للمرء أن يفسر كتابة شكسبير لمسرحية « أنطوني وكليوباترا » فهي على هذا الأساس تبدأ تاريخيا من حيث انتهت الأحداث في « يوليوس قيصر » ، أى أنها تأخذ منها خط الحدث الدرامى وتتصاعد به ثم تنشق لنفسها بعد ذلك خطأ جديدا . ولكن اختيار شكسبير لموضوع « كوربولانوس » قد أوقع الدارسين في حيرة كبيرة لأن القصة نفسها ليست مشهورة شهرة قصة يوليوس قيصر أو أنطونيوس وكليوباترا ، وبعبارة أخرى هى قصة لم تجذب انتباه أو أعلام الأدباء والفنانين في عصر النهضة . فلم نسمع الا عن الكاتب الفرنسى الكسندر هاردى ( Alexandre Hardy ١٥٧٥ - ١٦٤١ ) الذى كان قد كتب مسرحية تسمى « كوربولان » ( Coriolan ) قبل شكسبير بفترة وجيزة .<sup>(٧٠)</sup> فمن الملاحظ أن معظم مؤلفي الدراما في عصر شكسبير قد فضلوا الفترة الواقعة عند نهاية العصر الجمهورى وبداية العصر الامبراطورى أى الفترة الانتقالية فيما بين العصرين وهى فترة مليئة بالتوتر والأحداث المثيرة .

ومن ثم يبدو أمرا مميزا لعبقريته شكسبير الدرامية أن يختار فترة البداية المبكرة لعصر الجمهورية في كوربولانوس<sup>(٧١)</sup> . والجدير بالذكر أن هارولد جودارد ( Harold Goddard ) قد أظهر نوعا من التردد وهو

Bullough, op. cit., vol V pp. 464-476

( ٧٠ ) راجع

والجدير بالذكر أن صرخة قصة كوربولانوس التى قام بها كل من جيمس تومسون James Thomson ( ١٧٠٠ - ١٧٤٨ ) بنطوان « كوربولانوس » والتى ظهرت عام ١٧٤٨ وكذلك معالجة برتولد برهت Bertold Brecht ( ١٨١٨ - ١٩٥٦ ) بعنوان « كوربولان » ( Coriolan ) والتى عرضت في لندن عام ١٩٦٥ تدان كوجه نعل مباشرة وتقليد واضح لمسرحية شكسبير ويمكن ان يقال نفس الشيء عن « الفتاحية كوربولان » ( Coriolan Overture ) التى وضع يديه عليها ( ١٧٣٠ - ١٨٢٧ ) وصفيته ت . س اليت ( T. S. Eliot ) بنطوان كوربولان ( Coriolan ) .

Jan Kott, Shakespeare Our Contemporary ( London - Methuen

( ٧١ )

1965 ) p. 146, T.J.B. Spencer, Shakespeare and The Elizabethan Romans,—

( Shakespeare Survey. No. 10, ( 1957 ) p. 31

يحاول تحليل اختيار موضوع كورولانوس ، ولم يقل أكثر من أن شكسبير قد تمتع بحس تاريخي نادر ، وأن معظم المسرحية يمكن اعتباره محاولة لتصوير روح روما القديمة في عصرها الباكر وما تميزت به من صرامة . أما جيوفري بالو فيبرر اختيار شكسبير لهذا الموضوع قائلاً بأنه حتى عام ١٦٠٧ كان شكسبير قد قدم « يوليوس قيصر » و « أنطوني وكليوباترا » وهما دراستان مسرحيتان لروما في نهاية العصر الجمهوري وربما رغب في أن يعرض شيئاً ما عن روما في بداية نشأتها فكان عليه أن يلتقي نظرة في مؤلفات ليفيوس وفلوروس ( عاصر الامبراطور دوميتيانوس ٨١ - ٩٦م وهادريانوس ١١٧ - ١٣٨م ) وبلوتارخوس ليتحقق من أن روما لم تبين بين يوم وليلة وأن قصة كورولانوس تصورها حالها الميكرة<sup>(٧٦)</sup> . على أية حال فإن المسرحيات الثلاث تمثل ثلاثية تاريخية عن صعود وهبوط نجم الجمهورية الرومانية أو هي ثلاثية تراجيدية بطلتها مدينة روما نفسها التي فسدت فيها الجمهورية واضمحلت وسارت الى الهاوية بفضل النجاح الذي حققته والانتصارات التي كسبتها والسيطرة الكاملة على العالم التي أسست بزمامها والسلطة الكبيرة التي تمتع بها حكامها .

ولكننا بالفعل نواجه صعوبات لا يستهان بها في سبيل أن نعتبر المسرحيات الرومانية الثلاث ثلاثية متكاملة . ومن أهم هذه الصعوبات مشكلة انكسار الاستمرارية في شخصية أنطونيوس عندما تنتقل من « يوليوس قيصر » الى « أنطوني وكليوباترا » . وكذا الفرق الزمني بين نظم مسرحية « يوليوس قيصر » والمسرحيتين الآخرين . ومن ثم فعله من الأفضل أن نركز جهودنا مؤقتاً فيما هو شبه مؤكد أي أن « كورولانوس » و « أنطوني وكليوباترا » ثلثان « ثنائية » رومانية تكمل كل واحدة منها الثانية . ومن المحتمل أن يكون شكسبير قد خرج بفكرة مسرحية « كورولانوس » على النحو التالي : بينا كان يقرأ سيرة أنطونيوس لبلوتارخوس صادفته قصة تيمون الانيني التي بدورها قادت الى سيرة الكيبيديس وهناك وجد ما يقوده الى السيرة المقارنة لكورولانوس . وما يسهل علينا الامر فيما يتعلق باعتبار « أنطوني وكليوباترا » و « كورولانوس » ثنائية رومانية أنها نظمتا في نفس الوقت تقريباً .

وينبغي أن نضع في الاعتبار - اذا شرعنا في قراءة هاتين المسرحيتين - الفروق بين « الجمهورية » و « الامبراطورية » لكي يتسنى لنا ان نفهم كيف أنه أمر جد مختلف بين ان تكون رومانيا في عالم « كورولانوس » وان تكون رومانيا أو تعيش في عالم « أنطوني وكليوباترا » . فالمسرحية الاولى تمثل روما عندما كانت حديثها لا تمتد كثيراً وراء سورها أما « أنطوني وكليوباترا » فانها تتناول قصة روما عندما وصلت امبراطوريتها أقصى اتساع لها . وهناك فرق قاطع وبون شاسع بين ان تعيش في مدينة صغيرة هي جمهورية ناشئة تناضل من أجل البقاء ضد جيرانها الاعداء الطامعين فيها المغيرين عليها بين الحين والآخر ، ولكنها قد وضعت

( ٧٦ )

Harold Goddard, *The Meaning of Shakespeare*

( Chicago University Press 1951 ) p. 595; cf. Bullough,

op. cit., Vol V p. 454.

قدمها على بداية طريقها لكسب القوة والسلطان ، وبين ان تعيش في ظل نظام الحكم الامبراطوري الروماني الذي امتد ليشمل كل او معظم أرجاء العالم المعروف آنذاك وبلغ القمة في القوة والسؤدد . ان احساس شكسبير بهذه الفروق بين «الجمهورية» و«الامبراطورية» يسود تصويره للخلفية العامة ورسم الشخصيات وبناء الحدث الدرامي بل ويمتد تأثيره الى الاسلوب والصور الشعرية في المسرحيتين موضع الحديث .

وفضلا عن أن ذلك يؤكد فهم شكسبير لظاهرة روما والرومان فانه يسهل مهمتنا في التدليل على أن «أنطوني وكليوباترا» و«كوربولانوس» مسرحيتان متلازمتان متكاملتان . فمن حين الى آخر تصادفنا صور شعرية كثيرة وأفكار معينة ومشاهد كاملة في هاتين المسرحيتين تعمل على نحو متكامل وكأنها تهدف لعقد مقارنة ذات مغزى بين عالميهما . بل ان قصة حياة كل من كوربولانوس وأنطونيوس تلقي الضوء على الاخرى ، فالبطلان يجسدان خليطين متباينين ومزيجين متفاوتين من الفضائل والذائل البطولية بحيث ان ردائل احد البطلين تساعد على اظهار ابراز فضائل الآخر بالمغايرة كما ان فضائل أحدهما تجسم وتضخم ردائل الآخر . فبينما يبدو أنطونيوس مذنباً رغم انه القائد الاعلى والأمر الناهي ، ويسبب هذا التذبذب بضياع الفرص الثمينة فتفتل الواحدة بعد الاخرى من يديه ، نجد كوربولانوس حازماً حاسماً في اتخاذ القرارات حسماً وحزماً يقربانه من حدود الاستبداد والحكم الفردي مع انه يعيش في ظل النظام الجمهوري . وبينما تدفع عجرة كوربولانوس الرجال الذين كسب من اجلهم النصر تلو النصر لأن يطردوه في النهاية وينفوه ، نجد سخاء أنطونيوس ولبيراليته ودفء المشاعر الانسانية في صدره تكسب له التعاطف والتأييد حتى من جانب الرجال الذين قادهم الى الهزيمة المرة . هكذا يقترب شكسبير بشدة من مصدره لأن هم بلوتارخوس الاكبر كان هو عقد مثل هذه المقارنات بين رجالات روما وأبطال اليونان عن طريق «سيره المقارنة» فما هو شكسبير يفعل نفس الشيء مقارناً بين روما الجمهورية وروما الامبراطورية عن طريق مسرحيتين وقصة بطلين .

ولقد ذهب شكسبير الى ما وراء بلوتارخوس وهو يرسم الخلفية السياسية لمسرحياته الرومانية ونضرب مثالين على ذلك : الاول هو الحوار بين التريبونين (نقيبي العامة) في نهاية المشهد الاول من الفصل الاول بمسرحية «كوربولانوس» والثاني هو المشهد القصير الذي يبدأ به الفصل الثالث في «أنطوني وكليوباترا» . ففي هذين الموضوعين يظهر شكسبير فهماً عميقاً لحقائق ودقائق السياسة الرومانية مما يذكرنا بكتاب مثل ماكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) . بل ان هاتين الفقرتين تؤكدان لنا ان الشاعر الانجليزي قد قرأ هذا الكاتب الايطالي ولا سيما «مناقشات حول الكتاب الاول للبيفوسوس» (Discourses on Livy Book I ch. xxx) . والفقرة الاولى من «كوربولانوس» يدور الحوار فيها بين سيكينوس (Sicinius) وبروتوس ولا أساس لها عند بلوتارخوس على الاطلاق فهي من اختلاق شكسبير الخالص . أما المشهد بين فينتيديوس القائد التابع لأنطونيوس وأحد الجنود في «أنطوني وكليوباترا» فيقوم على أساس حادثة بسيطة رواها بلوتارخوس بهذا المعنى الذي جاء عند

شكسبير . ولكن الشاعر الانجليزي أولاها عناية فائقة ، وألقى عليها أضواء كاشفة ، متبعا وسائل عدة أولها أنه اختارها هي بالذات بين زخم الحوادث التي رواها بلوتارخوس عن الحملة البارثية . وثانيها انه أطال في سرد تفاصيل هذه الحادثة الصغيرة . ويرى كانتور ( P. A. Cantor ) ان الموضوعين اللذين نتحدث عنهما من « كوريلانوس » و « أنطوني وكليوباترا » لا يساهمان كثيرا في تطوير الحدث الدرامي بل يمكن حذفها ففهيما قطع شكسبير حبل التطور الدرامي ليعتد مقارنة بين روما الجمهورية وروما الامبراطورية (٣٧)

ان المشهد الذي نتحدث عنه في « أنطوني وكليوباترا » يقدم صورة غريبة لقائد روماني أي فينتيديوس حقق نجاحات باهرة ولكنه يحجم عن مواصلة انتصاراته العسكرية وهو مدفوع الى ذلك الموقف العجيب لا لأسباب استراتيجية او خطط تكتيكية وإنما خضوعا لتواضع محض شخصية تتلخص في حرصه الشديد على ألا يظهر طموحا اكثر من اللازم في نظري قائده الاعلى أنطونيوس خشية ان يفضض عليه او ينقم نعمة حاسدة لا تحمد عقباه . وهذا يدل دلالة واضحة على ان ما كان هم القائد الروماني في ميدان الحرب بالدرجة الاولى هو ان يحوز على رضا القائد الاعلى لا ان يفوز بالنصر والأرض لصالح الدولة . تلك هي الخلفية السياسية لروما الامبراطورية . وفي حين كان النظام الجمهوري يحاول التوفيق بين المصلحة الشخصية ( res priva ) والصالح العام ( Res Publica ) صار هناك تناقض حاد بينها ابان العصر الامبراطوري بدليل ان فينتيديوس في المشهد الذي نتحدث عنه لم يذكر - ولو بإشارة طفيفة - المصلحة العامة في حديثه . وإذا كان بمقدور الفرد ابان العصر الجمهوري ان يصل الى أعلى المناصب أي التفصيلية بفضل جهوده وكفاحه وأمجاده فان الوصول الى هذه المناصب والاستمرار في شغلها ابان العصر الامبراطوري كان يقوم بالدرجة الاولى على الدسائس والمؤامرات التي تجري وراء الكواليس . وهكذا اصبح فن التملق والتفوق فيه أجدى من فن الحرب والانتصار في مجاله . كما اصبح الولاء للحكام والقادة يستهدفهم بصفتهم أفرادا لا يمثلين للدولة والمصلحة العامة . فينتيديوس يدين بالولاء لأنطونيوس اكثر مما يدين بالولاء لروما نفسها ولذلك فهو لا يتحدث الا عن نفسه وعن أنطونيوس الامبراطور . اما كوريلانوس في المسرحية المسماة باسمه ( ف ١ م ١ ب ٢٧١ ، ٢٨٦ ) فعندما ينطرق الحديث الى علاقته بقائده الاعلى كومينيوس ( Cominius ) يدخل طرف ثالث هو صوت المجتمع الروماني الذي يسبب الدوار لشدة ( giddy censure ) وهذا يعني ان الشعب الروماني او المدينة او المصلحة العامة او الجمهورية - فهذه كلها مسميات لشئ واحد - تلعب دور الشريك الكامل في كل الامور والمواقف التي تقع بين المواطنين .

على انه قد دار جدل عنيف بين نقاد شكسبير حول تحديد طبيعة ونظام الحكم الذي يصوره في مسرحيته « كوريلانوس » فمن قائل بانه نظام استقراطي الى آخر يقول بأنه ديموقراطي . فاذا وضعنا في الاعتبار بأن

Paul A. Cantor, Shakespeare's Rome. Republic and Empire

( Cornell University Press. Ithaca and London 1976 )

pp. 41—2, 43—5.

هناك ثلاثة أنظمة معروفة للحكم في العالم القديم وهو نظام الحكم الفردي المستبد (monarchia) ونظام الحكم الاستقراطي (aristokratia) ونظام الديمقراطية (demokratia) لصارامرا صعبا ان نضع نظام الحكم الذي يصوره شكسبير في «كوريولانوس» تحت راية اي من هذه النظم الثلاث. ف نظام الجمهورية الرومانية (Res Publica) هو- كما يقول بعض الكتاب القدامى انفسهم - نظام فريد لا يمكن ان يتطابق مع اي نظام من النظم الثلاث. ويقول المنظرون السياسيون بأنه ينبغي ان نفهم الجمهورية الرومانية على انها نظام رابع للحكم يمكن أن نسميه «النظام المختلط» أو «الحكم المختلط» لانه - على وجه التحديد - يجمع بين الاستقراطية والديمقراطية وليس حكما فرديا<sup>(٧٤)</sup>. وينطبق هذا المفهوم للجمهورية الرومانية على معطيات مسرحية «كوريولانوس» مما يدل دلالة قاطعة على أن معلومات شكسبير عن روما والتاريخ الروماني تفوق كثيرا معلومات بعض نقاده ودارسيه من ناحية تنفيذ المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية من ناحية أخرى. فكلما قرأ المرء عن روما وتاريخها قبل ان يعايش شكسبير كلما ازداد اعجابا وانبهارا يتمكن هذا الشاعر المبدع من فهم الجوهر الاساسي للظاهرة للرومانية. ونضيف الى ذلك حقيقة تهم دارسي شكسبير ونقاده بصفة خاصة، ذلك أن فهم أسس هذا «النظام المختلط» للحكم الجمهوري الروماني هو حجر الزاوية في فهم الحدث الدرامي لمسرحية «كوريولانوس».

فاذا انتقلنا الى عالم أنطونيوس وجدنا هذا الرجل يمثل اسلوبا جديدا للحياة يقوم على رفض المفاهيم والقيم القديمة عن الفضيلة والتبلى. انه أسلوب حياة عصري يقوم على مبدأ إطلاق العنان للحواس وعدم كبت الرغبات او حبس الشهوات. وهكذا نجد أنطونيوس يبني أعجابه الخالدة في ميدان الحب بعكس أجداده الأوائل الذين أقاموا أعجادهم العظيمة الخالدة في مجال الحرب والضرب وعلى أرض المعارك العسكرية الطاحنة لا على الارائك والموائد الفاخرة أو الولائم الماجنة. هكذا يصور كل من كوريولانوس وأنطونيوس جانبا من جانبي الطبيعة الانسانية، يناقض كل منهما الآخر من ناحية ويتكامل معه من ناحية أخرى. ويتضح تفسيرنا لهاتين المسرحيتين

(٧٤) عن هذا الموضوع راجع :

Kurt von Fritz, *The Theory of the Mixed Constitution in Antiquity* (New York, Columbia University Press) 1954.

ومدير بالذكر ان أصول هذه الفكرة ترجع الى ارسطو الذي أشار اليها في كتاباته (Polit. 1293 b—1294 b) ولكن المزمع الاعرضي بريبيوس (حوالي ٢٠٢ - ١٢٠ ق.م) هو الذي طبق هذه الفكرة بطريقة على نظام الحكم في الجمهورية الرومانية (Hist. VI.10—18) ثم أصبحت هذه الفكرة أساسا أقام عليه ماكيافلي تفسيره لظاهرة الحكم الروماني

(Machiavelli, *Discourses on the First Ten Books of Livy*, I ii)

وبعد ذلك سادت هذه الفكرة الكلاسيكية عن «الحكم المختلط» في الكتابات السياسية والتفكير الادبية ابان عصر النهضة الاوروبية وكان أول من ربط هذه الفكرة بمسرحيات شكسبير الرومانية هو :

Clifford Chalmers Huffman, 'Coriolanus' in Context (Lewisburg, Bucknell University Press 1971) pp. 30—34.

وهذين البطلين لو ألقينا نظرة على تناول شكسبير لموضوع الحب فيها . فالحب يلعب دورا ضئيليا في مسرحية « كورولانوس » وحياة بطلها بل يكاد ان لا يكون له دور نهائي ، اذ يمكننا ان ننسى أو ننسى وجود الثنائي المتزوج كورولانوس - فيرجيليا ولا سبأ أن حبهما لا يجد متنفسا عاطفيا ولا تعبيرا صريحا ، بل تشككه شكائهم قوية تكاد ان تخفقه . أما في « أنطوني وكليوباترا » فالأمر جد مختلف لأن الحب يقبع في قلب الحدث الدرامي نفسه ويتمركز في بؤرة اهتمام المؤلف من البداية الى النهاية . وهكذا نجد أحداث الحب في « كورولانوس » - اذا سمح لنا ان تدور - لا تتعدى حدود العفة ولا تتخطى قوانين الكياسة والطهارة ولا تمس الادبانية العذرية والصيد والطبيعة البكر . أما في « أنطوني وكليوباترا » فحدث الحب هو حديث اللذة والمتعة الجنسية ، تلهيه شهوانية فينوس ربة الحب والجمال ويشارك فيه كيوبيد اله الحب الصغير بالأعبيه الصبانية .

لقد أظهر شكسبير الدستور المدني الروماني في عصر الجمهورية كصالح عام يحتضن تحت جناحيه كل المصالح الفردية المتصارعة في المدينة فيوفق بينها ويجمع شملها ويظهرها جميعا بظله الظليل . ولذلك كانت المدينة نفسها - او المصلحة العامة - تلعب دور الوساطة بين الفقاء من المواطنين ، وهذا ما صان للمجتمع الروماني وحدته وحفظه من الانهيار او التفسخ . فالشيء الوحيد الذي بعيد الهدوء والسكينة بعد الهياج والعاصفة في « كورولانوس » هو تذكير الرومان بالصالح العام . وعندما يحدث الصراع والنزاع بين المواطنين الرومان فلا علاج الا برفع صولجان المدينة بين المتصارعين ، عندئذ ينفض النزاع وتحل جميع المشاكل ( ف ٣ م ١ ب ٢٠٣ - ٢٠٦ ) . ان الشخصيات التي تقوم بدور الوساطة في « كورولانوس » ابتداء من مينينيوس ( Menenius ) في المشهد الافتتاحي الذي يحاول اخماد نار الفتنة وعلاج ثورة الرعاع وانتهاء بدور فولومنيا ( Volumnia ) التي تحاول اقناع ابنها بعدم الهجوم على مدينة روما ، هذه الشخصيات الوسيطة قد نجحت في مهامها وحققت المطلوب لا بفضل الفصاحة والبلاغة التي تميزت بها فقط وانما ايضا لأنها تحتل المدينة روما . ان صوت هذه الشخصيات هو صوت الصالح العام وهذا ما خلق على أحداثهم صفة البلاغة والاقناع ، المنطقية والموضوعية ، فحازت القبول ونجحت الوساطة . أما في « أنطوني وكليوباترا » فان الشخصيات التي تقوم بدور الوساطة - لبيدوس وأوكتافيا - قد فشلت فشلا ذريعا وكان لا بد ان تفشل . ويمكن اعتبار الحدث الدرامي في المسرحية ككل تصعيدا متصلا لا فشلا واسقاط كل عوامل التقارب بين البطلين المتصارعين انطونيوس واوكتافيانوس . ولقد التقى الغريمان في النهاية ، وانما وجهها لوجه ، متناطحين على طرفي فجوة شاسعة لا يمكن سدها مهما بذل من مجهود . ويمكن السر في فشل أدوار الوساطة في « أنطوني وكليوباترا » في حقيقة واحدة بسيطة فحوها عدم وجود شخص واحد في المسرحية يمثل روما تمثيلا حقيقيا ويتحدث باسمها أي باسم الصالح العام . كل فرد في هذه المسرحية يمثل مصلحته الشخصية ويعبر عن أهوائه الفردية وهي بالضرورة متعارضة ومتناقضة مع مصالح وأهواء الآخرين مما يستوجب ازالة أحد الاطراف .

وستصل الى نفس النتيجة اذا قارنا علاقة الناس بالالهة فيما بين المسرحيتين أعني فيما بين العصرين الجمهوري والامبراطوري . فاذا أخذنا موقف فولومنيا مسرحية « كوربولانوس » عندما هدد ابنها بتدمير روما ( ف ٣ م ١٠٤ - ١١٣ ) وقارناه بموقف أوكتافيا عندما أصبحت الحرب وشيكة بين زوجها أنطونيوس وأخيها أوكتافيانوس ( ف ٣ م ١٢ - ٢٠ ) لوجدنا ان فولومنيا ممزقة بين حبها لوطنها - أي للصالح العام - وحبها لابنها ، اما اوكتافيا فممزقة بين حبها لزوجها وحبها لآخيه . وهكذا تحول الصراع بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة في « كوربولانوس » الى صراع بين مصلحتين خاصتين . ففولومنيا تصور صراعا على انه صراع بين آله المدينة - أي الصالح العام - وآله الأسرة - أي الصالح الخاص : أما أوكتافيا فتصوره على انه صراع داخلي فيما بين آله المنزل وبعضهم البعض . ولقد استطاعت فولومنيا ان تحسم الصراع داخل نفسها لصالح المدينة ، مغلبة الصالح العام على المصلحة الشخصية ورافضة أن يكون عدو روما هو ابنها ( ف ٣ م ١٧٨ - ١٨٠ ) أما أوكتافيا فلم ترد لفظة « المدينة » او « الصالح العام » على لسانها مرة واحدة .

ويظهر شكسبير الفارق الاساسي بين المسرحيتين وعاليها منذ افتتاحية كل منها . فمسرحية « كوربولانوس » تبدأ بالحياة اليومية ومتطلباتها البسيطة ونسمع فيها صرخات الجوع . أما في افتتاحية « أنطوني وكليوباترا » فان ابطال المسرحية يشعرون بجوع من نوع آخر غير جوع البطون ، فليس ما يعانيه أنطونيوس وكليوباترا - سيدا الشرق - العوز والحاجة وإنما يعانيان من التلهف على مزيد من التلذذ بالاسترخاء والتمرغ في رخاء الموائد وسخاء العواطف الحسية قبل الروحية . تبدأ إذن « كوربولانوس » بجو من الاستعجال والالحاح حيث تتهدد المجاعة والثورة مدينة روما ، أما « أنطوني وكليوباترا » فتبدأ بالتلف والتمول حيث يطرد أنطونيوس حامل الانباء من روما مفضلا أبناء الولائم والحفلات التي ستقام هذه الليلة بالأسكندرية . وهكذا ترسم « كوربولانوس » صورة روما القديمة والاصيلة والاصيلة التي لم يفسد رجالها بعد ولم ينحل سلوكهم بفعل الرخاء والاسترخاء . اما في « أنطوني وكليوباترا » فقد تندور حال الرومان ووصل بهم الانحلال الى حد السخف مما يبشر روما بالاضمحلال .

ان الحروب الاهلية تمثل نقطة التحول في عالم السياسة الرومانية لأن الروماني بدأ يحارب الروماني من أجل السيطرة على روما نفسها وتلك قمة الفساد . ومنذ عصر يوليوس قيصر - ان لم يكن من قبله - أصبح التاريخ الروماني سجلا للصراع بين الروماني والروماني . في البداية كان بروتوس وكاسيوس ضد الائتلاف الثلاثي ( الثاني ) وبعد ذلك حارب رجال الائتلاف الثلاثي بعضهم البعض . وفي ظل هذا التفتت الداخلي تلاشت فرص مواصلة الحياة السياسية مع الاحتفاظ بالكرم والتبيل ، وتناقضت كوادر الرجال الشرفاء في عالم السياسة الرومانية بسرعة مذهلة ( قارن « يوليوس قيصر » ف ٣ م ١٧٣ - ١٨٠ ) وساد شعور بأن سلالة الرومان الحقيقيين قد اندثرت ( نفس المسرحية ف ٣ م ٦٠ - ٦٤ و ٩٨ - ١٠١ ، ف ٣ م ٦٨ ) . وهذه الفكرة

نفسها تعد مفتاحاً مضموناً الى الفهم الصحيح لأحداث ومضمون مسرحية « أنطوني وكليوباترا » وبعبارة أخرى فان الروح السائدة في « يوليوس قيصر » تبشر بان مبادئ الشرف وقيم النبالة ستغيب عن حلبة الصراع السياسي إبان العصر الامبراطوري . وتلك حقيقة نلمسها في حادثة بسيطة في مسرحية « أنطوني وكليوباترا » . ونعني عرض أنطونيوس اليانيس بأن ينازل أوكتافيانوس في مباراة فردية لحسم الحرب وتعريض مصير الشعوب ! وهكذا لم تعد أمام أي قائد روماني الفرصة لكي يكسب المجد والشرف - لأن الجنود هم الذين يجاريون ويكسبون النصر له - الا اذا نازل القائد المعادي في مباراة فردية ! أما في روما القديمة ذات الحدود الصغيرة فكان المجال أرحب أمام هواهدها ليخوضوا المعارك المجيدة ضد الاعداء الاجانب من أجل أن يوسعوا حدود مدينتهم ويضمو الاراضي الشاسعة اليها . فاذا كان السرف والمجد يعني احترام الناس لك كما تحترمهم أفلا تفضل منصب المنصلي في عصر الجمهورية الرومانية على عرش الامبراطورية ؟

يصرخ تيتينيوس ( Titinius ) في « يوليوس قيصر » ( ف ٥ م ٣ ب ٦٣ - ٦٤ ) عندما يموت كاسيوس فيقول :

“ The sun of Rome is set. Our day is gone  
Our deeds are done ”

« لقد غربت شمس روما . ذهب نهائنا ... وانتهت أعمالنا »

وتجد لهذه الصرخة صدى في « أنطوني وكليوباترا » ( ف ٤ م ١٤ ب ٣٥ - ٣٦ ) حيث يقول أنطونيوس - بعد أن سمع نبأ موت كليوباترا الكاذب - لا يروس :

“ ..... the long day's task is done  
And we must sleep ”

« لقد انتهى عمل اليوم الطويل وينبغي ان تنام »

كما أنه من الملاحظ ان « الشمس الغاربة التي تسقط في الليل » ( « يوليوس قيصر » ف ٥ م ٣ ب ٦٠ - ٦١ ) هي الصورة الشعرية التي بها يصف شكسبير روما الامبراطورية دائماً وان شخصيات هذه الفترة التاريخية يشعرون عند شكسبير بانهم يعيشون في زمن غير زمنهم . فهذا ما يظهر بصفة خاصة في شخصية أنطونيوس ووقوفه تجاه كليوباترا ( « أنطوني وكليوباترا » ف ٣ م ١٣ ب ١١٦ - ١٢٠ ) حيث يقول انه وجد كليوباترا كالفئات التفتي من مائدة يوليوس قيصر وجنايوس بومبي مشيراً الى انها قد عاشت مع كل منها قصة حب معروفة . وهذا من ناحية أخرى يعني ان فكرة الماضي الروماني تفسد على أنطونيوس متعته الحاضرة وتسلب من انتصاراته الحالية - في الحرب وفي الحب - صفة المجد والكرامة . ان أنطونيوس يشعر أنه لا يمكن ان ينافس أسلافه في ميدان الحرب ولا حتى ان يجاريهم في مجال الحب . فحتى كليوباترا وغزو قلبها اذا اعتبرناه نصراً لأنطونيوس فانه يأتي في المرتبة الثالثة بعد يوليوس قيصر وجنايوس بومبي . وهذا مبعث ضيق أنطونيوس عندما



يذكره سكستوس بومبي ( الاصغر ) ان قيصر قد تمتع قبله بكليوباترا ( ف ٢٦ ب ٦٤ - ٧٠ ) وأكثر من ذلك وأتأكد أن منزل أنطونيوس في روما موروث - لا بل منتصب مستلب - من بومبي الأكبر وهذا ما لم يتركه ابن الأخير سكستوس بومبي فأشار إليه أكثر من مرة ( ف ٢٦ ب ٦٤ - ٢٧ و ف ٢٦ ب ٧٢ - ١٢٨ ) . صفوة القول إذن أننا لا يمكن أن نفهم مسرحية « انطوني وكليوباترا » إلا إذا حاولنا أن نتفهم أولا كيف كانت روما القديمة - أي في مسرحية « كوربولانوس » - وكيف هي الآن - أي في عصر أنطونيوس - بل ومن قبل ذلك في عصر « بوليوس قيصر » . (٧٥)

وما يساعدنا على اعتبار المسرحيات الرومانية الثلاث - موضوع حديثنا - ثلاثية متكاملة ان شكسبير وهو ينظمها اعتمد أساسا على سير بلوتارخوس أو بعبارة أخرى أن مصدر المسرحيات الثلاث الرئيسي واحد فانعكس ذلك على شكل ومضمون هذه الثلاثية ككل . إذ كان جاك أميو ( ١٥١٣ - ١٥٩٣ ) الفرنسي قد ترجم هذه السير البلوتارخية عام ١٥٥٩ فنقلها سير توماس نورث ( ١٥٣٥ - ١٦٠٣ ؟ ) من الفرنسية الى الانجليزية عام ١٥٧٩ .

وكوربولانوس - كما يرد في سيرته عند بلوتارخوس - هوجايوس ماركيوس كوربولانوس مواطن روماني من طبقة الأشراف ( patricii ) وقائد عسكري نبيل إزدهر في النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا . واكتسب لقب كوربولانوس ( Coriolanus ) بعد ان استولى على كوربولي ( Corioli ) من الفولسكيين وهي سلاله إيطالية قديمة . ولكن كوربولانوس نفى بعد ذلك بتهمة أنه كان يخطط سرا لكي يصبح طاغية فوجد نفسه مضطرا للجوء الى أعدائه القدامى الفولسكيين ، بل وقادهم بنفسه في هجوم على موطنه الاصيل روما واحتل بعض المدن في سهل لاتيوم من حولها وأصبح على بعد خمسة أميال من المدينة ذاتها . ولكنه في النهاية استجاب لتوسلات وتضرعات أمه فينوريا ( Veturia ) وزوجه فولومنيا ( Volumnia ) (٧٦) وانسحب بالجيش المعادي وعاد الى أنتيوم حيث تم اعدامه على يد الفولسكيين . وسؤالنا الآن : هل اكتفى شكسبير وهو يصوغ مسرحيته « كوربولانوس » بسيرة هذا الرجل عند بلوتارخوس ؟ أم تراء رجع الى مصادر أخرى ؟

ومن بين المصادر التي يوردها باللو للمسرحية « كوربولانوس » التاريخ الروماني لتيوتس ليفيوس بترجمة فيليمون هوللاند عام ١٦٠٠ وكذلك التواريخ الرومانية لفلوروس بترجمة بولتون ( E.M.B " olton " ) التي لم تطبع الا عام ١٦٢١ . ومن المرجح انه اخذ شيئا ما عن قصة مينينيوس ( Menenius ) في المسرحية

Cantor, op.cit., pp. 9—10, 11—12, 13—15, 23, 48—49, 50—51, 130—131

( ٧٥ )

( ٧٦ ) من الملاحظ ان شكسبير قد جعل اسم زوجة كوربولانوس « فيرجيليا » واسم أمه « فولومنيا » . والاسم الاول لا يرد عند بلوتارخوس والمصادر الكلاسيكية الاخرى لأن زوجة كوربولانوس اسملا تدعى « فولومنيا » - الاسم الذي أعطاه شكسبير للأم - كما الأم في المصادر القديمة فتحمل اسم « فينوريا » الذي لا يرد عند شكسبير .

من «دفاع عن الشعر» لسير فيليب سيدني عام ١٥٩٥. ومن «بقايا عمل أكبر عن بريطانيا» لوليام كامدن (William Camden) عام ١٦٠٥<sup>(٧٧)</sup>. وبالفعل نجد أن شكسبير قد استفاد من ليفيوس في بعض التفاصيل كما أنه غير في معطيات مصدره الرئيسي بلوتارخوس. فلقد حذف انسحاب الشعب الروماني من المدينة وهو الانسحاب الذي جعله بلوتارخوس المناسبة التي من أجلها أورد قصة مينينيوس أجريبا (Menenius Agrippa) فلقد وافق الشعب الروماني على الرجوع إلى المدينة بشرط أن ينتخب من بين صفوفه نقيب العامة (Tribuni) لرعاية مصالحهم وحمايتهم. ولكننا نجد شكسبير يعين نقيب العامة في المشهد الأول بالمرسح. فمن الواضح أن الشاعر الانجليزي كان يهدف من البداية إلى الاقلال من حجم الآلام الحقيقية للشعب الروماني ليزداد تعاطفنا مع البطل. ولذلك جعل شكسبير مسألة القنصلية - لا التمرد بسبب القمع - هو سبب نفي كوريلانوس، كما أنه اخترع فكرة سلوك كوريلانوس غير المحتمل أثناء توليه القنصلية وجعله يذهب للنفي باختياره. ولقد طور شكسبير كذلك في شخصية كل من مينينيوس وفولومينا إذا افترضنا وظيفة الأول عند بلوتارخوس على تهدئة الشعب. أما فولومينا فتكاد لا تذكر عند بلوتارخوس اللهم إلا عندما ذهبت تتضرع إلى كوريلانوس زوجها بأن يكف عن الهجوم عن موطنه. أما في مسرحية شكسبير فإن مينينيوس يظهر في ثلاثة عشر مشهداً وبرز دوره هو وفولومينا بصورة ملموسة في المسرحية. ولا يحفل بلوتارخوس كثيراً بعلاقة أم كوريلانوس فيتوريا بابنها ولكنها تصبح المنبع الرئيسي للمأساة في مسرحية شكسبير ويتضح عدم التضج العاطفي عند كوريلانوس شكسبير من وصف ابنه الصغير وهذا أمر ابتدعه الشاعر الانجليزي ابتداءً. ولكننا في غير ذلك نجد شكسبير يلتصق بمصدره الرئيسي التصاقاً واضحاً<sup>(٧٨)</sup>.

ولعل شخصية يوليوس قيصر (حوالي ١٠٢ ق.م - ٤٤ ق.م) غنية عن التعريف ولكننا فقط نود التنويه إلى أن مسرحية شكسبير التي تحمل اسمه عنواناً والمأخوذة أساساً من سير بلوتارخوس لم تكن أول مسرحية تكتب عن هذا العاهل الروماني الكبير إبان عصر النهضة. فالشاعر الفرنسي جاك جريفان (Jacques Grevin) ١٥٢٨ - ١٥٧٠ عرض «مأساة بعنوان «موت قيصر» (La Mort de Cesar) عام ١٥٦١ أي قبل مسرحية شكسبير بحوالي أربعين عاماً. ولا شك أن مؤلفي الدراما في إيطاليا كانوا قد تناولوا هذا الموضوع قبل جاك جريفان الذي تبعه مؤلفون آخرون أيضاً ولكننا سنتوقف قليلاً عند مسرحيته لأنها تحمل بعض التشابه مع مسرحية شكسبير.

تدور الأحداث في مسرحية «موت قيصر» على النحو التالي: في الفصل الأول يدور حوار بين قيصر وأنطونيوس حول الوسيلة المثلى للحكم فيقف قيصر في صف الشرف والمجد أما أنطونيوس فيدافع عن مبدأ القوة

Bullough, op.cit., vol V pp. 453—563

(٧٧)

Muir, op.cit., pp. 219—224, 265—276

(٧٨)

والعنف . وفي الفصل التالي تبرز خيوط المؤامرة التي يديرها بروتوس وكاسيوس لاغتيال قيصر في مجلس الشيوخ . وفي الفصل الثالث تتجسد عواطف كاليورنيا زوجة قيصر التي تحذره من الذهاب الى مجلس الشيوخ بسبب أحلام وهواجس تراودها . وكاد قيصر ان يعدل بالفعل عن الخروج لولا أن ديكيموس بروتوس يؤاخذ على الاستسلام لاهام نسائية ويصطحبه الى مجلس الشيوخ . وفي الفصل الرابع يتم اغتيال قيصر ويصف لنا الرسول تفاصيل الحادثة المروعة . ثم تختتم كاليورنيا الفصل بالبكاء والويل واللعنات التي تصبها على القتلة . وفي الفصل الخامس يلتقي بروتوس خطبة على الشعب ويليه أنطونيوس الذي يعرض على المحاربين القدامى جنود قيصر السابقين عبادة قائدتهم وقد مزقتها طعنات الخناجر وضربات السيوف فتلطخت بالدماء فيصرخ الجنود مطالبين بالانتقام . ولقد كتبت هذه المسرحية على غط تراجيديات سينيكا الفيلسوف . وربما لهذا السبب ولأن كلا من جريفاً وشكسبير قد عاد الى بلوتارخوس وأخذ مادته من سيره بصفة أساسية جاءت مسرحياتهما متشابهتين على الاقل في تركيزهما على أحداث عام ٤٤ ق.م . وانصافاً لشكسبير فإنه من الملاحظ انه قد وسع رقعة الأحداث وتعمق في دراسة الشخصيات فجاءت الهيكلية الدرامية عنده أكثر ثراء وتعقيداً وأفضل اتقاناً من سابقيه الفرنسي .

ويورد باللو أربعة عشر مصدراً لمسرحية « يوليوس قيصر » هي كما يلي : « سيرة يوليوس قيصر » عند بلوتارخوس بترجمة ثورت عام ١٥٧٩ ، وكذلك « سيرة ماركوس بروتوس » و « سيرة تولليوس شيشرون » بنفس المصدر . ثم تواريخ سالوستيوس ( ٨٦ - ٣٥ ق.م ) بترجمة توماس هيود ( Thomas Heywood ) عام ١٦٠٨ . والتاريخ الروماني لفيليبس باتيركولوس ( حوالي ١٩ ق.م - ما بعد ٣٠ ) ترجمة السير ر. لوجريس ( Sir R. Le Grys ) التي طبعت عام ١٦٣٢ والكتاب الاول من حوليات كورنيليوس تاكييتوس ( حوالي ٥٥ م - حوالي ١١٧ م ) بترجمة جرينوي ( R. Grenewey ) عام ١٥٩٨ . و « تاريخ الفياصرة الاثني عشر » لسويتونيوس ( حوالي ٧٠ م - حوالي ١٦٠ م ) بترجمة فيليمون هولاند عام ١٦٠٦ و « الحروب الالهية » لأبيانوس السكندري ( ولد فيما بين ٨١ و ٩٦ م ) بترجمة و. ب. ( W. B. ) عام ١٥٧٨ و « التواريخ الرومانية » لفلوروس ( ازدهر فيما بين ٨١ و ١٣٦ م ) بترجمة بولتون ( " E. M. B. " olton ) عام ١٦١٩ . و « الحاكم » بقلم : سيرتوماس اليوت ( Sir Thomas Elyot ) عام ١٥٣١ . و « مرآة الحكام » ( جايوس يوليوس قيصر ) بقلم : هيجينز ( J. Higgins ) طبعة ١٥٨٧ . وكذلك « القيصر » تأليف أورلاندو بيسكيتي ( Orlando Pescetti ) عام ١٥٩٤ . و « قيصر المقتول » ( Caesar Interfectus ) بقلم : ريتشارد ايديس ( Richard Eedes ) وهي مسرحية مجهولة التاريخ . وأخيراً « انتقام قيصر » ( Caesar's Revenge ) وهي مسرحية مجهولة المؤلف ، وظهرت عام ١٦٠٦/١٦٠٧ وشملها طلبة اكسفورد قبل أن تنشر ويبدو أنها كتبت فيما بين عام ١٥٨٧ و ١٥٩٥<sup>(٧٩)</sup> .

Bullough, op. cit., vol V pp. 3—211; cf. Muir, op.cit., pp. 187—200.

وفي هذه المسرحية الاخيرة نجد العناصر الثلاث الرئيسية التي قامت عليها مسرحية شكسبير « يوليوس قيصر ». وهي أولا : مأساة قيصر القائمة على ارتكابه خطأ تعدي الحدود أو تجاوز المعقول وعدم الاعتدال وما نسميه بكلمة اغريقية واحدة « الهبريس » (hybris) وثانيا : مأساة الانتماء أو الدموية المميزة للمسرح الاليزابيثي وتغلها بصورة خاصة « المأساة الاسبانية » لتوماس كيد ( ١٦٥٨ - ١٦٩٤ ) ثالثا : المعاناة النفسية في شخصية بروتوس . ومن الملاحظ انه يبنّا بقلب العنصر الثاني على مسرحية « انتقام قيصر » كما هو واضح حتى من عنوانها وذلك على حساب العنصرين الآخرين نجد مسرحية شكسبير تغلب عنصر المعاناة النفسية في شخصية بروتوس على المسرحية ككل . ومن المصادر المحتملة لمسرحية « يوليوس قيصر » الشكسبيرية مسرحية توماس كيد الأخرى « كورنيليا » وهي ترجمة لمأساة روبرت جارينيه حامل لقب « سينيكلا الفرنسي » . ففي هذه المسرحية ربما وجد شكسبير وصفا شيقا لأحوال الحروب الاهلية ونتائجها ولا سيما عدم دفن جثث الموتى . وبالفعل هناك تشابه بين المسرحيتين .

وتجدر الإشارة هنا الى ان اطلاع شكسبير على بلوتارخوس كان بداية مرحلة جديدة في نتاج الشاعر الانجليزي . لقد فتح له بلوتارخوس عالما جديدا . ولما كانت « يوليوس قيصر » هي أولى مسرحيات شكسبير البولتارخية فإنها تعد الانطلاقة الشكسبيرية العظيمة نحو التراجيديات ذات المستوى الرفيع . ولكن هذا لا ينفي ان شكسبير في الكثير من الحالات ذهب في هذه المسرحية الى ما وراء معطيات بلوتارخوس وذلك ما نلاحظه في الخلفية السياسية للاحداث وفي رسم الشخصيات . فشكسبير يؤكد نقاط ضعف قيصر الطبيعية وأولها ارتكابه لخطأ الهبريس كما سبق أن ألمعنا ، ولكن المؤلف ينجح في ان يخرج بصورة لبطله أكثر نبلا وعظمة مما هو عند بلوتارخوس . أما بروتوس فيعطيه شكسبير بعض اللمسات الانسانية غير الموجودة في شخصيته عند بلوتارخوس مثل اهانته وقلقه على مصير لوكيوس وثقته التامة في صحة سلوكه بالاضافة الى استبداده في الرأي وخداعه للنفس . اما شخصية كاسكا فتكاد تكون من اختراع شكسبير . وقد يبدو ان الشاعر الانجليزي يلتصق برواية بلوتارخوس ويلتزم بها التزاما حقيقيا حتى أنه يتبعه في أخطائه ، فلقد ورد في ترجمة ثورث أن أسم بروتوس هو كما يلي Decius Brutus والصحيح هو ديكيموس ( يونيوس ) بروتوس Decimus ( Iunius ) Brutus الذي كان قنصلا عام ٧٧ ق.م. واشترك في مؤامرة كاتيلينا وفي هروب قيصر الغالية ثم في المؤامرة على اغتيال ولي نعمته . وهو غير بطل المؤامرة الرئيسي ماركوس ( يونيوس ) بروتوس Marcus ( Iunius ) Brutus المولود عام ٨٥ ق.م. تقريبا . كذلك اتبع شكسبير مصدره بلوتارخوس وهو يخطئ في ذكر اسم جايوس ليجاريوس Gaius Ligarius فالاسم الصحيح هو كوينتوس ليجاريوس Quintus Ligarius .

ومع ذلك فشكسبير يحذف بعض التفاصيل ويتوسع في بعضها الآخر ويغير ويبدل في رواية بلوتارخوس ويتصرف بحرية في المادة التاريخية الخام ليخلق منها دراما رائعة . فهناك مثلا مدة زمنية عبارة عن أربعة شهور

تقع فيها أحداث كثيرة منها الانتصار المذكور في المشهد الاول بالمسرحية وليمسة اعياد اللوبركاليا ( Lupercalia ) التي كانت تقام في ١٥ فبراير تكريما للاله فاونوس Faunus الذى كان يعبد تحت لقب لوبريكوس ( Lupercus ) وهى الاعياد التي حاول فيها أنطونيوس بوصفه قنصلا وأحد المشرفين عليها عام ٤٤ق.م أن يضع تاج الملكية فوق رأس قيصر . ثم حادثة تعرية تماثيل قيصر على يد نقباء العامة . ولكن شكسبير كتف أحداث الاربعة شهور وجعلها تقع جميعا متلاحقة الواحدة بعد الأخرى في يوم واحد . وطبقا لما يرد عند بلوتارخوس فان بروتوس القى خطبتين بعد الاغتيال واحدة فوق الكايتول والثانية في السوق العامة ، أما أنطونيوس فلم يلق كلمته الا في اليوم التالي وبعد قراءة وصية قيصر . ولكن شكسبير جمع خطبتي بروتوس في خطبة واحدة وأعطى لها النجاح والقبول لدى الجمهور الرومانى ، الذى اقتنع بما جاء فيها على نحو يخالف ما جاء في كتب التاريخ . وفي حين تقع خطبة أنطونيوس شكسبير بعد خطبة بروتوس مباشرة ويصبح الكشف عن محتويات وصية قيصر جزءا من هذه الخطبة فان التاريخ يقول لنا عكس ذلك . كما إن شكسبير حذف عن خلافات أركتافيانوس ( الذى أصبح اسمه هكذا بعد تبني قيصر له ) ومشاجراته الطويلة مع أنطونيوس قبل أن ينجح في النهاية في التوصل الى تحالف مؤقت يتم بموجبه تشكيل حكومة الائتلاف الثلاثى الثانى عام ٤٣ق.م.

حقا اننا لو قارنا ترجمة نورث لسيرة يوليوس قيصر عند بلوتارخوس مع مسرحية شكسبير لوجدنا أن الأخير . في بعض الاحيان يستغل كل جملة بهذه السيرة التي يبدو أنه هضمها هضمًا جيدا ولكننا في نفس الوقت نلاحظ أن الشاعر الانجليزي المبدع لا يكسد التفاصيل او يشتتها وإنما يوزعها توزيعا مدروسا على مراحل تطور الحدث الدرامى وحسب مقتضياته وخط سيره المتساعد كما أنه يدخل التغييرات اللازمة كلما شعر بالحاجة الى ذلك . ففى حين ان يوليوس قيصر عند بلوتارخوس يتشكك في نوايا كاسيوس ويتخوف من أمره فان قيصر شكسبير البطل الدكتاتور ذا الشخصية الطاغية المهيمنة لا يمكن أن يتشكك او يتخوف دون ان يفعل شيئا ، فاذا أثار كاسيوس الظنون في قلبه كان من السهل عليه ان يتخلص منه او يجمى نفسه ضده أو يجد من خطره . انه قوى كالرخام لاتناسبه عبارات بلوتارخوس عن الغيرة والشك الى حد الخوف ، حقا لقد احتفظ شكسبير لقيصر ببعض الشكوك حول كاسيوس ولكنها شكوك لاتثير خوفا أو حقدًا فقيصر - لابل اسم قيصر - غير قابل للتعرض لمثل هذه المشاعر الضعيفة ( ف١م٢ب١٩١ وما يليه ) . ولقد كان بلوتارخوس هو مبتدع رواية الفأل السوء الناجم عن عدم وجود قلب في جسد الحيوان الذي قدم قربانا قبل خروج قيصر من منزله الى مجلس الشيوخ . ولكن بلوتارخوس لم يقل اكثر من أنه كان امرا غريبا وعجيبا في الطبيعة كيف يعيش حيوان بلا قلب ! اما شكسبير فقد استغل هذه الحكاية الفرعية أحسن استفلال متيحيا لقيصر أن يرد رده الرائع على الخادم الذي أخبره بحادثة القرбан الغريبة هذه وأن الكهنة يرون عدم خروجه من المنزل حيث قال ( ف٢م٢ب٤٢ - ٤٣ ) :

“ Caesar should be a beast without a heart

If he should stay at home to—day for fear. ”

« فليكن قيصر حيوانا بلا قلب اذا هو قيع اليوم في بيته من الذعر »  
 هكذا أصبح يوليوس قيصر عند شكسبير - كما هو الحال عند معظم كتاب عصر النهضة ولا سيما عند مارك أنطوان موريه Marc Antoine Muret في معالجته اللاتينية لنفس الموضوع - بطلا هرقليا تراجيديا<sup>(٨٠)</sup>

وجدير بالذكر ان وصف شكسبير لعلامات الشؤم التي ظهرت للناس قبل اغتيال يوليوس قيصر تذكرنا بما يرد في مسرحية « هاملت » وغيرها من مسرحيات شكسبير . وهو في ذلك يقلد المؤلفين القدامى بالطبع ولكنه حتى في هذا التقليد يظهر قدرة فائقة على التجديد . ففي حين يذكر شكسبير سبعة عشر علامة شؤم ظهرت في « يوليوس قيصر » لآرند عند بلوتارخوس سوى تسعة منها . كما انه في حديث شكسبير عن هذه العلامات نجد اصداها من قصائد أوفيدوس « التناسخات » ولأسياء الكتاب الخامس عشر عنها . ويلاحظ ان بعض علامات الشؤم الواردة عند أوفيدوس وشكسبير لا يوجد لها عند بلوتارخوس ومثال ذلك الحرب التي تقع في السماء مما يحيل قطرات المطر دماء ويحدث الزلازل . كما ان الطائر المذكور وجوده فوق الكابيتول هو البومة . ولم يكن بلوتارخوس وأوفيدوس وحدهما مصدرا لوصف علامات الشؤم هذه عند شكسبير فعنده يقع أيضا خسوف قمرى كما يحدث عند سينيكا ( وأوفيدوس ) عندما يتحدث عن نهاية أبطاله التاريخيين والتراجيديين . وفي أشعار فرجيليوس أيضا يتحدث لأزل ويقع كسوف للشمس وتظهر الاشباح عندما يموت بطل من أبطاله .<sup>(٨١)</sup> كما ينبغي ان نذكر علامات الشؤم التي يصفها لوكانوس على أنها ظهرت عندما عبر يوليوس قيصر نهر الروبيكون معلنا الحرب على روما وفتحها صفحة جديدة قائمة في التاريخ الرومانى أى صفحة الحروب الاهلية الدموية .<sup>(٨٢)</sup>

ولا أدل على تحرر شكسبير من بلوتارخوس في بعض المواضع من أنه أخذ بعض مادته في « يوليوس قيصر » من أبيانوس السكندرى سالف الذكر والذي ترجم عمله عام ١٥٧٨ بعنوان « التاريخ القديم وسلسلة الحروب الرومانية الاهلية والحارجية »

### “ Auncient Historie and exquisite Chronicle of the Romanes warres both Civile and Foren ”

H.M. Ayres, Shakespeare, ' Julius Cessar ' in The Light  
 of some other Versions, Proceedings and Publications  
 of The Modern Language Association of America,  
 n.s. 18 ( 1910 ) pp. 183—227

( ٨٠ )

Etman, the Problem of Haracles, Apothesosis, p.275

( ٨١ )

Muir, op. cit., pp. 196—200

( ٨٢ )

فهناك مثلاً دلائل قوية تشير إلى أن شكسبير قد استقى من هذا المصدر فكرة مرض قيصر بعد رفضه التاج الملكي مباشرة، وأخذ عنه أيضاً فكرة الأداء التمثيلي الذي تميز به أنطونيوس وهو يلتقي خطبته. والجدير بالذكر أن شيشرون (١٠٦-٤٣ ق.م) يتحدث في كتابه «عن الخطيب» (De Oratore) عن خطيبين بليغين أحدهما هو ماركوس أنطونيوس وهو جد مارك أنطوني عشيق كليوباترا وحامل نفس الاسم. وهذا الخطيب الفصح لم ينشر شيئاً من خطبه بل كان حريصاً كل الحرص على أن يخفى حقيقة أن فصاحته تستند إلى دراسة شاقة متأنية لفن الخطابة وإلى أعداد جيد لخطبه قبل القائها. ويعتقد روز (H. J. Rose) أنه ليس من المستبعد أن صورة أنطونيوس الحفيد - أي مارك أنطوني - كرجل صريح إلى حد الغلظة أحياناً في مسرحية «أنطوني وكليوباترا» وكخطيب مفوه يتميز بالكياسة في مسرحية «يوليوس قيصر» قد نجمت عن خلط من جانب شكسبير بين الجد والحفيد. (٨٧) على أية حال فإن شخصية أنطونيوس عند أبيانوس هي الأقرب إلى شخصيته في «يوليوس قيصر» مما يرد عند بلوتارخوس وشيشرون بشأنها. فعند أبيانوس نجد أنطونيوس مختلصاً تمام الاختلاص في ولاءه كما أنه يتميز بشخصية الإنسان الفنان العاطفي وإن كان لا يخلو من المكر. إن عملية كشفه عن جثثان بهيمير وثوبه المهلهل بسبب الطعنات والضربات كما ترد في مسرحية «يوليوس قيصر» أقرب ما تكون إلى ما يرد عند أبيانوس. هذا ومن الملاحظ أن أبيانوس - في الترجمة الانجليزية المذكورة - يتفق مع شكسبير في ذكراسم كالبورنيا كما يلي «كالفورنيا» (Calphurnia) وليس كما يرد عند بلوتارخوس بترجمة نورث (Calpurnia) وهذا أمر له دلالة بالطبع. (٨٨)



ولعل أقصى ما نطمح إليه بهذه الدراسة هو أن نكون قد فتحناً ثغرة جديدة في الدراسات الأدبية المقارنة، وهياًنا مدخلاً مناسباً لأبحاث أكثر عمقا وتفصيلاً. فإذا استطاعت هذه الدراسة أن تفتح شهية المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية الإنجليزية المقارنة لمزيد من البحث والتقصي في هذا المجال نكون قد حققنا المراد وتلنا

Rose, op. cit., p.168

( ٨٧ ) ....

E. Shanzer ( ed. ), Shakespeare, Appian ( 1956 ),

( ٨٨ )

p. 14; Muir, op.cit., pp. 190—192

أقصى ما نتمنى . فلقد أصبحنا الآن - بعد أن أنهينا هذه الدراسة المتواضعة - أكثر اقتناعاً من ذي قبل بأن الموضوع يحتاج الى موفور الرعاية والعناية من قبل البعثة والنقاد ، ولكننى أستطيع من الآن أن أطمئن كل من يتصدى لمثل هذه الدراسة المضنية بأن الثمار المرتقبة مضمونة وأن المردود المأمول وأفرى يغرى بتجمل عناء البحث ومشقة الدرس . نقول ذلك للمتخصصين في الدراسات الكلاسيكية ونقوله أيضاً للمهتمين بالدراسات الشكسبيرية التى لن تحل بعض المسائل الخلافية فيها الا بالرجوع للمصادر الكلاسيكية .





## شخصيات وآراء

ربما كان فرديناند تونيز Ferdinand Tonnies من اقل علماء الاجتماع الألمان حظا من الشهرة ويُدَّعى الصيت لدى الدارسين في العالم العربي ، مع أن آراءه وأفكاره الرئيسية تشيع شيوعا كبيرا في الكتابات السوسيولوجية والانثروبولوجية في الخارج ، ويعتمد عليها الكثيرون من العلماء في تحليلهم للمجتمع - الانساني وبخاصة في حالة التغير<sup>(١)</sup> . وربما كان السبب الرئيسي في عدم ذبوع اسم تونيز وانصراف معظم الدارسين عن قراءة كتاباته هو صعوبة أسلوبه والطريقة المعقدة التي يعرض بها أفكاره وآراءه ، والتي تجعل من محاولة قراءة أعماله وفهمها عبثا ثقيلا يتطلب قدرا عاليا من القدرة على التركيز ، كما تحتاج الى كثير من الصبر والمثابرة . ومع ان تونيز ينتمي الى فئة المفكرين والعلماء أصحاب « الفكرة الواحدة » على ما يقول سوروكين Sorokin في مقدمته للترجمة الانكليزية عن « الجماعة المحلية والمجتمع » إلا انه في عرض هذه « الفكرة الواحدة » وتحليلها وإبرازها والبرهنة على صحة ما يذهب اليه يعقد المسألة كلها تعقيدا شديدا يؤدي الى نفور الكثيرين من القراءة والدارسين . فطريقة تفكير تونيز إذن «واسلوب كتابته وطريقة معالجته للمشكلات والمصطلحات الكثيرة المهمة التي يستحدثها ويستخدمها في التحليل ،

## فرديناند تونيز الجماعة المحلية والمجتمع

أحمد أبوزيد

(١) استعان بنظرية تونيز عدد من الانثروبولوجيين المصريين في تحليل المجتمعات التي قاموا بدراستها دراسة حقلية كما ان اسم تونيز معروف بين الانثروبولوجيين بوجه خاص بل وان نظريته لم تستخدم حتى الآن - وبقدر ما أعلم - في أي دراسة سوسيولوجية ميدانية . وربما كانت اول مرة استخدمت فيها نظريته هي في دراستي عن :

**The Great Oasis : A study of Social Institutions**

**in Kharga, An Oasis in the Southern Desert of Egypt ( Un published**

**D.Phil. Thesis , Oxford 1956 )**

ثم عرض لها بعض طلاب الانثروبولوجيا بعد ذلك في رسائلهم الماجستير او الدكتوراه من جامعة الاسكندرية .

Paulsen الذي ترك فيه اثرا عميقا بأفكاره وآرائه الفلسفية ، ولفت نظره الى فلسفات هوبز Hobbes وسبينوزا Spinoza وكان Kant وادم سميث وكارل ماركس ورود برتوس Rodbertus وقد انعكست كل هذه الفلسفات بشكل أو بآخر في كتاباته وتحليلاته للعلاقات الاجتماعية وصفتها بصفة فلسفية واضحة ، وذلك فضلا عما كان يتصف به تونيز من اتساع الافق وتفرع الاهتمامات الثقافية ، ونتيجة لهذا كله جاءت كتاباته مزيجاً عجيباً من النظريات والآراء والمناقشات الفلسفية والسيكولوجية والمنطقية والأخلاقية التي لا تخلف وراءها - اذا استبعدت -

والقفزات الطويلة الواسعة التي يقفزها في انتقالاته السريعة الفجائية من موضوع لآخر ، والتكرار الذي كثيرا ما يصل الى حد الاسلال ، كل ذلك يضع عراقيل وصعوبات أمام القارئ ، وبخاصة القارئ المبتدئ ، الذي يجد من العسر عليه تتبع خط تفكيره وسير منطق . يضاف الى ذلك ان تونيز جاء الى علم الاجتماع من خلفية فلسفية ، اي انه درس الفلسفة قبل ان يتجه الى علم الاجتماع شأنه في ذلك شأن الكثيرين من السوسيولوجيين في القارة الأوروبية ، بل انه قام فيها بعد بتدريس الفلسفة في الجامعة<sup>(٢)</sup> . وفي عام ١٨٦٧ التقى بالفيلسوف وعالم الاخلاق باولسن

(٢) نفي فريديان تونيز طوخته في بلدة هوسم Husum في شلاريج هولشتاين وكانت امه تنتمي الى عائلة متدينة اشتهرت بفلسفتها رجال الدين فيها من القرنين ، ولكنه هو نفسه كان ( لا أدري ) وان كان ذلك لم ينم عنه من الاهتمام بـشاكل الدين ، بحيث انتهى به الامر في أواخر حياته الى الميل الى الاعتقاد بإمكان قيام دين عالمي لا يقوم على مجموعة محددة من العقائد الثابتة وبحيث يمكن اتخاذ أساساً لتوحيد جميع البشر .

وقد التحق تونيز بجامعة ستراسبورج ولكنه نقل كثيرا بين عدد من الجامعات كما كان المتبع حين ذلك ، وبذلك التحق بجامعة بيتا Jena وبون ولايبتز Leipzig وليرينج Tubingen حيث حصل على الدكتوراة عام ١٨٧٧ في الفيلولوجيا الكلاسيكية . ولكن حتى في ذلك الحين كان اعلمه قد تحول الى الفلسفة وفلسفة السياسة والشكليات الاجتماعية ، وواصل دراسة هذه الموضوعات وغيرها في مرحلة ما بعد الدكتوراة . وقد حملته اهتماماته الى جامعة برلين ثم الى جامعة لندن حيث اُعطى كثيرا من العناية لدراسة فلسفة ( هوبز ) بواسطة جمع المادة العلمية المتعلقة بالمسئلة التي اصبحت ترتبط باسمه حتى الآن وهي مشكلة التضارب بين « الجماعة المحلية » و« المجتمع » وقد واصل دراسة الموضوع بعد ذلك أثناء عمله بالتدريس في جامعة Kiel ولكن اعباءه الأكاديمية واشتغاله بالتدريس لم يكنوا ليصرفاه عن عدد من الاهتمامات الأخرى . فقد أعطى جانباً كبيراً من جهده وقتته لكتابه وظهرت مقالاته في كثير من المجلات العلمية بل وايضا المجلات السياسية ، ولها كان يتعرض لمشكلات عصره . كذلك كان رئيساً للجمعية الألمانية لعلم الاجتماع من سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩٣٠ ، وقد قام هو نفسه بتكوينها وتأسيسها بالتعاون مع جورج زيل Georg Stummel ولفر زوبارت Werner Sombart ماكس لير Max Weber كما اشترك في تنظيم « جمعية هوبز » و« جمعية سبينوزا » وغيرها من الجمعيات الأكاديمية والثقافية .

وصفه معظم الكتاب الذين كتبوا عنه بأنه كان محافظاً بطبعه ، ولكن ذلك لم ينم عنه من الاهتمام بالحركات الاشتراكية والثورات العالمية بل والانداء الثورات وبكثير من الحركات التقدمية الأخرى . كما انه كان يشجع حركات التحرر والاستقلال ( أيرلندا وفنلندا ) روسيا كان هذا هو الذي دفع به للحرب العالمية الاولى الى الانحياز بالحرب الديمقراطي الاجتماعي والى التنديد بالنازية والحركات المعادية للسامية ما جعل هنر ينصحه من منصبه كأستاذ متفرغ بالجامعة عام ١٩٣٣ . وتوفي عام ١٩٣٨ في الحادية والقيادتين .

للمعصوم على معلومات أدنى عن حياة تونيز وتكوينه العلمي يمكن الرجوع الى :

J. Lelf, La Sociologie de Tonnies, P. U. F., Paris 1946 ;  
Victor Leemans, Tonnies et la Sociologie Contemporaine en  
Allemagne ; Lib. Felix Alcan, Paris 1933 ; International  
Encyclopaedia of Social Sciences, " Ferdinand Tonnies "  
Vol. 16.

الكتاب الذي يعتبر الآن من أهم الكتب الكلاسيكية في علم الاجتماع والذي يعرف باسم توزير أكثر من أي كتاب آخر من كتبه<sup>(٣)</sup> . وهو كتاب صعب ودقيق وعميق ، ومع ان الكثيرين في العالم العربي يشيرون اليه والى النظرية فان القلائل منهم هم الذين قرأوه قراءة متعمقة ، ومن هنا كانت هذه المحاولة لتقديمه للقارئ العربي .

### ( ١ )

يتميز القرن التاسع عشر بعدد من الملامح الهامة التي تركت بصماتها على كتابات المفكرين والعلماء واسلوب تفكيرهم وموقفهم من الحياة ونظرتهم الى المستقبل ، ولقد جاء القرن التاسع عشر في اعقاب ثلاث ثورات كبرى هي : الثورة الامريكية والثورة الفرنسية ثم ما يعرف عموميا باسم « الثورة الصناعية » .

أما الثورة الامريكية فكانت نوعا من التمرد على الدولة الامم، كما يقول ابراهام<sup>(٤)</sup>، من شعب كان هو نفسه استعماريا . فقد استعمر المهاجرون الاوربيون امريكا واضطهدوا سكانها الأصليين من الهنود الحمر ، وفرضوا عليهم كل صنوف الاضطهاد والاستعباد والابادة . وقد ادت هذه الثورة الى قيام اول حكم

سوى قليل من الآراء السوسيولوجية البحتة ، ولكن هذا « القليل » كان له في ذلك شأن كبير جدا في توجيه الكثير من الكتابات والنظريات السوسيولوجية ، وبوجه اخص الدراسات والبحوث الانثروبولوجية ، وبالذات تلك التي تهتم بالتغيير ، سواء في المجتمعات المحلية او المجتمع القوسي او العالم كله .

وعلى العكس من معظم العلماء الذين يعتبرون علم الاجتماع علما مستقلا ومتايزا ، وله مجاله المحدد وقوانينه الخاصة ، كما هو شأن اميل دور كايم مثلا والمدرسة الفرنسية التي تعرف بوجه عام باسم مدرسة « المجلة السنوية لعلم الاجتماع » *L'Année Sociologique* فان توزير يرى ان علم الاجتماع يتركز بالضرورة على علم النفس ، ولذا كان يذهب الى انه يتعين على الباحث قبل دراسة المجتمع او اى علاقة اجتماعية ان يكشف عن الاسس السيكولوجية التي تكمن وراء تلك العلاقة . وسوف نرى فيما بعد انه هو نفسه اقام نظريته الشهيرة عن الجماعة المحلية والمجتمع على اسس سيكولوجية، وهي النظرية التي ضمنها كتابه العميق الذي يحمل نفس التسمية « الجماعة المحلية والمجتمع » *Gemeinschaft und Gesellschaft* وهو

(٣) ظهر كتاب *Gemeinschaft und Gesellschaft* عام ١٨٨٧ وقد قام بترجمته الى اللغة الانجليزية مع مقدمة ضافية وكثير من التعليقات المفيدة البصيفة الأستاذ تشارلز لويس Charles P. Loomis ، وظهرت للكتاب اكثر من طبع تحت عنوان *Community and Association*

وقد قام بترجمة الكتاب الى الفرنسية تحت عنوان *Communauté et Société* الأستاذ ليف لائف الذي سبق الاشارة اليه في الحاقية رقم ٢ وفي عام ١٩٣٦ كتب توزير مقالا بنفس عنوان كتابه « *Gemeinschaft und Gesellschaft* » نشرها في *Handwörterbuch der Soziologie* ( 1931 ) ( Ferdinand Enke Verlag, Stuttgart ) ولقد نقلها لويس ايضا الى الانجليزية وظهرت مع ترجمة الكتاب ذاته كتمتمة تمهيدية له خاصة وان المقالة نقلت كثيرا من الضوء على بعض النقاط العالقة في الكتاب .

J. H. Abraham, *Origins and Growth of Sociology*, Pelican 1963, P. 83 (٤)

إبذانا بظهور عدد من الكتاب والمفكرين والعلماء الذين اعطوا كثيراً من الاهتمام لدراسة تلك التغييرات التي نجمت عن النسق الاقتصادي الجديد ، والتي ينتظر ان تنجم عنه ، وظهرت بذلك أساء آدم سميث وأدم فوجسون Adam Ferguson وسان سيمون Saint Simon وغيرهم<sup>(٦)</sup> . بل إنه يمكن القول ان علم الاجتماع نفسه نشأ بشكل أو بآخر كنوع من الاستجابة لبعض المواقف العملية الناجمة عن هذه التورات الثلاث ، ولذا نجد ان حركات الاصلاح الاجتماعي وبخاصة في بريطانيا ، كانت مرتبطة الى حد ما على الاقل بالنظرية السوسيولوجية على الرغم من الاختلاف بين المشكلة « الاجتماعية » Social التي تحتاج الى إيجاد حل لها والمشكلة السوسيولوجية Sociological التي تحتاج الى الدراسة والفهم والتعليل على اساس من المنطق والنظرية<sup>(٧)</sup> .

وعلى اية حال فان علم الاجتماع في المانيا ظهر في مرحلة متأخرة نسبياً نظراً لسيادة وتسلسل الفكر الفلسفي ، والمكانة العالية التي كانت تحتلها الفلسفة ، بحيث كان الناس يلجأون الى الفلسفة في بحثهم عن اجابات للمشكلات الكبرى التي كانت تواجههم في حياتهم. ويرجع ذلك الى تأثير ( كانت Kant ) بالذات فهو الذي اعطى الفلسفة كل تلك المكانة العالية الراسخة ، وكانت اعماله الفلسفية تتضمن الكثير من الآراء وجهات النظر في المجتمع والقانون والحياة الاخلاقية وما الى ذلك ، وهي امور

جمهوري في المصو الحديثة يقوم على المساواة ويهدف الى تحقيق السعادة البشرية ، ويعتبر هذين المبدأين مثلاً أعلى تستند اليه نظرياته وفلسفاته السياسية والاجتماعية . وأما الثورة الفرنسية فقد اتسمت كما نعرف جميعا بالغف ولكنها مع ذلك قامت لتحقيق ثلاثة مبادئ انسانية هامة هي : الحرية والاخاء والمساواة ، وأقلمت في ان ترك اثرها واضعاً وعميقاً على كل النظم الاجتماعية والسياسية في اوربا وأمريكا ، بل انها أصبحت مثلاً لأي ثورة تهدف الى احلال نظام اجتماعي وسياسي محل نظام آخر ، والى هدم الامتيازات التي تتمتع بها طبقة معينة على بقية طبقات وفئات المجتمع .

وأما الثورة الصناعية ، فهي تختلف عن التورتين الآخرين من حيث انها لم تكن تهدف الى التخلص من نظام سياسي معين على ايدي فئة معينة من الناس ، وإنما هي ثورة فريدة في نوعها ، لانها ادت الى تغييرات جذرية في البناء الاقتصادي الاساسي والاجتماعي لأوروبا ثم بقية العالم . .

وقد تكون هذه التغييرات حدثت بشكل تدريجي يكاد يكون غير محسوس في اول الامر ، ولكنها تسارعت بعد ذلك واصبحت اكثر اتساعاً وشمولاً وصحبتهما تطورات هائلة في مجالي العلوم والرياضيات ، وما ارتبط بها من اختراع الآلات التي حلت محل الايدي العاملة البشرية والمسلل الانساني ، وادت الى ازدياد الانتاج . وكان هذا كله

Ibid, PP. 83 - 4 (٤)

Ibid, P. 199 (٦)

هوانه في هذه الظروف وفي أواسط القرن التاسع عشر ظهر تونيز. وهي ظروف كانت تتميز بنجاح التصنيع في التأثير في « نظم الدولة البروسية العتيقة ». المتأصلة على ما يقول أبراهام<sup>(٨)</sup> وكانت العلوم الطبيعية بدأت تجذب إليها انتباه الكثير من الدارسين والعلماء والباحثين المجادين الموهوبين ، وبدأت حركة هامة لاهياء ( الكانتية ) في جوانبها الامبيريقية وليس في جانبها المثالي ، واتخذت هذه الحركة الاحيائية اسم « الكانتية الجديدة » Neo Kantianism واستتبعت ذلك كله ظهور احساس قوي بضرورة قيام نظرية جديدة الى نخط المجتمع الجديد . وفي هذه الظروف ظهر تونيز وكان هو العالم الذي قدم هذه النظرية ووضعا في صيغة أو حكم كلاسيكي، حسب تعبير أبراهام، لا يزال يحتفظ بقوته وصدقه وصحته ، ويمثل ذلك في نفس عنوان اهم كتبه واكثرها شهرة وهو كما قلنا كتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » وهو عنوان يشير منذ البداية الى موضوع الكتاب والاتجاه الذي يسيطر عليه<sup>(٩)</sup>، وعلى الرغم من ان تونيز ليس اكثر علماء الاجتماع شهرة وذيوخ صيت فلا شك انه هو الذي اسس علم الاجتماع العام .

وقد عرض تونيز نظريته في علم الاجتماع بعامة وتصوره للمنهج الذي يجب اتباعه في دراسة مظاهر

كانت خليفه بان تصبح الاساس النظري لعلم جديد للمجتمع لوامكن تطويرها وتعنيها والاضافة اليها . ولكن الذي حدث هوانه حين مات ( كانت ) اتجهت الفلسفة في المانيا اتجاهاً جديدة بعد ان جاء هجل Hegel وأفلح في حجب فلسفة ( كانت ) الى حد كبير ، وذاع اسمه وصيته واصبح منهجه الفكري ونظرياته هي التي تمثل نقطة الانطلاق في كل نظرية او تفكير نظري عن الانسان والمجتمع . وكانت نظرية هجل عن الدولة بالذات لا تسمح باقامة نظريته عن المجتمع كعملية لها قوانينها الخاصة بها والتي تتبعها . لان الدولة عنده كانت هي النظام السيامي بمعنى الكلمة ، ومن هنا لم يكن يميز بين الدولة والمجتمع ، بل كانت الدولة هي الاهم بحيث كان يتعين على المجتمع ان يسير ويتلام معها . وبذلك فان كل النظم الاجتماعية المهمة والاساسية كانت مستمدة في آخر الامر من الدولة ، وليس لها في ذاتها مكانة او معنى او مبرر بغير الدولة . وواضح ان مثل هذا التفكير كان يتعارض مع امكان قيام علم الاجتماع مستقلاً ومجازاً<sup>(١٠)</sup> .

ولقد قامت عدة محاولات للتخلص من قبضة فلسفة هجل وسيطرتها . وربما كان من اهم هذه المحاولات محاولة لورنتس فون شتاين Lorenz Von Stein الذي تمكن من وضع بعض المخطوط العريضة لعلم منهجي للمجتمع . والمهم هنا

(٧) Ibid, P. 202 - راجع أيضا H. Sutant Hughes ; *Consciousness and Society ; The Reorientation of European Social Thought* 1890 - 1930, Harvester Press, 1979, PP. 106 - 108, 190 - 94

(٨) Abraham, op. cit, P. 204

(٩) Loc. cit

تبعده بعدة عن الموقف الوضعي . وربما كان خير مثال لتوضيح ما نقول هو نوع العلاقات التي اختارها لكي تؤلف موضوع « علم الاجتماع البحث » . فهو يقسم العلاقات التي يمكن ان تنشأ بين الافراد الى نوعين او فئتين : علاقات ايجابية وعلاقات سلبية ، ويذهب الى ان علم الاجتماع البحث يهتم بدراسة العلاقات الايجابية فقط لأنها هي وحدها التي تؤدي الى قيام ما يسميه « الوحدة الاجتماعية » وبالتالي قيام وظهور « الواقع الاجتماعي » او « الحقيقة الاجتماعية » وتتمثل هذه العلاقات الايجابية في الحب والصداقة والتبادل والتعاقد وسا اليها من روابط تساعد على خلق ونشأة وظهور الجماعات . فالجماعات تظهر في الوجود نتيجة للإرادة وقيام العلاقات الايجابية بين اعضائها .

ونظرا لان هذه العلاقات الايجابية هي علاقات سلام بالضرورة فانه يتعين على عالم الاجتماع ألا يشغل نفسه بعلاقات العداوة والعداء لأنها تساعد - في رأيه - على قيام الوحدة الاجتماعية . بل انها تهدم مثل تلك الوحدة . ولذا كان يجب ترك كل العلاقات السلبية ( التي تعتبر علاقات العداء خير مثال لها ) . بل ان الامر يصل به الى حد ان يناقض نفسه . اذ على الرغم من كل ما يقوله عن الملاحظة والتصنيف فانه لا يلبث ان ينتهي الى التسليم بان علم الاجتماع البحث لا يمكن ان يكون مجرد ( فحص ) للحقائق او الوقائع ، وبالتالي لا يمكن ان يكتفي بالمنهج الاستقرائي ، والا لما استحق ان يطلق عليه اسم « علم » . فليس ثمة علم حقيقي الا علم الافكار والمفاهيم التي تنشأ بفعل العقل البحث او الفكر

الظاهر والعلاقات الاجتماعية في كتابه « مقدمة لعلم الاجتماع » ( ١٩٣١ ) . ويعرفه تونيز موضوع علم الاجتماع بأنه « نظرية الحقائق الاجتماعية » ويعني بالحقيقة او « الواقع الاجتماعي » كل الحياة العامة او الحياة المشتركة من حيث انها تؤلف وحدة متأسكة ومثابرة ، او يقول اخر اكثر وضوحا ، انها الحياة الاجتماعية التي يتفاعل فيها افراد المجتمع بعضهم مع بعض مثلما تتفاعل وتعاون اعضاء الكائن العضوي الحي او اجزاء السكل الواحد . ويرتكز ذلك « التجمع » الذي يكشف عن « وحدة الحياة المشتركة » على روابط سيكولوجية تركز بدورها على ارادة الافراد الذين يدخلون في تلك العلاقات . وهذه الروابط السيكولوجية والعلاقات الاجتماعية هي التي يجب اختيارها ودراستها وتحليلها اذا اردنا معرفة « ماهية » الواقع الاجتماعي وطبيعته .

ومع ان تونيز يعترف بان منهج علم الاجتماع ، وبخاصة ما يسميه الاجتماع البحث او علم الاجتماع الخالص ، هو منهج استقرائي يقوم على الملاحظة وتصنيف الحقائق او الوقائع الاجتماعية التي يشم جمعها ، ومع انه يبدو متفقا في ذلك مع المنهج الوضعي الذي وضع أسسه في علم الاجتماع اوجست كومت August Comte ، ومع ان كثيرا من عباراته تذكرنا بعبارة دوركايم المشهورة التي ذكرها بعد ذلك بستوات في كتابه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » *Règles de la Méthode Sociologique* من انه « يجب اعتبار الظواهر الاجتماعية على انها اشياء » فان تونيز حين يشرح في شرح نظريته وموقفه يفرق نفسه في مناقشات ونظريات فلسفية لا تلبث ان

اسماء مختلفة ، فنجدها في الفلسفة الكونفوشية والفكر الديني المسيحي عند القديس اوغسطين والقديس توما الاكوييني وغيرها ، كما نجدها في التقابل الذي يقيمه ابن خلدون بين البداوة والحضارة ، كما نجدها في فلسفة هوبز السياسية وايضا في فلسفة هيجل حين يميز بين « مجتمع العائلة » و « المجتمع المدني » ثم نجدها بعد ذلك في التفرقة التي يقيمه اميل دوركايم بين ما يسميه « التضامن Solidarité Mécanique » والتضامن العضوي « Solidarité Organique ». وكما يقول رودلف هيبسري Rudolf Heberle فان كل نظريات الفلاسفة الاجتماعيين تنبع اما من موقف رومانتيكي الى الحياة الاجتماعية او من نظرة عقلانية ، ويكاد يكون كل الفلاسفة الاجتماعيين ينتمون الى واحد من الاتجاهين ، ولكن الذي يميز تونيز هو انه يجمع بين هذين الاتجاهين المتعارضين معا ، ويحاول البرهنة والتدليل على ان هذا التباين او التعارض هو امر مقتعل وغير قاطع ، وان الواقع الاجتماعي او الحقيقة الاجتماعية تمكس « المظهرين » معا مع تغلب أحدهما على الآخر .

وعلى ذلك فمن الخطأ ان نتصور ان تونيز

المخالص . وعلى ذلك فان ماهية علم الاجتماع عند تونيز تكمن في المحل الاول في اقامة وتشبيد المقولات الاساسية للحياة الاجتماعية ، ويمكن فيما بعد تطبيق هذه المقولات على الظواهر الاجتماعية ، وبالتالي تعيين وتحديد المقولة التي تنتمي اليها كل ظاهرة من تلك الظواهر ... وواضح ان هذا هومنهج استنباطي جدلي وليس منهجا استقرائيا كما اراد لنا ان نفهم في اول الامر<sup>(١٠)</sup> .

## ( ٢ )

ومهما يكن من شيء فان النقطة المركزية في فكر تونيز الاجتماعي هي نظريته عن العلاقة الاجتماعية او الكيانات الاجتماعية Soziale Wesenheiten وهي نظرية تقوم على اساس التفرقة بين المفهومين اللذين سبقت الاشارة اليهما مفهوم الجماعة المحلية Gemeinschaft ومفهوم المجتمع Gesellschaft<sup>(١١)</sup> . وليست هذه التثنائية جديدة في حقيقة الامر على الفكر الاجتماعي . ولم يكن تونيز هو اول من نبه اليها ، ولما نجد ما يماثلها لدى عدد كبير جدا من المفكرين والفلاسفة الاجتماعيين قبل تونيز ، كما نجدنا عند عدد آخر من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده وان كانت تتخذ

( ١٠ ) الواقع ان المسألة اكثر تعقيدا من ذلك ، وهي تتصل بالتقسيمات والتفريعات التي يقيمها تونيز في مجال علم الاجتماع ، لأن لكل فرع منهجه الخاص به .

تونيز يستخدم مثلا اصطلاح علم الاجتماع مفهوم واسع يشمل علم النفس الاجتماعي والديورجاني والتاريخ الاجتماعي الذي يسميه أحيانا بالأنثروبولوجيا الاجتماعية والذي يقصد به دراسة السلالات والوراثة ، كما يشمل أيضا علم الاجتماع بالمعنى الدقيق للكلمة أوما يسميه أحيانا بعلم الاجتماع الخاص . وينقسم علم الاجتماع الخاص بدوره الى علم الاجتماع البحث وعلم الاجتماع التطبيقي وعلم الاجتماع الأبرقي .

( ١١ )

Rudolf Heberle ; The Sociological System of Ferdinand Tönnies ;

" Community " and " Society " ; in H. E. Barnes ( ed ) ;

Introduction to the History of Sociology , Chicago U. P. 1948 , P. 232

وأيضا في تحليل المادة الانتوجرافية التي يحصلون عليها من هذه البحوث .

وليس ثمة شك في أن تونيز تأثر بكتابات بعض علماء الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر من أمثال لويس مورجان Lewis Morgan وبخاصة كتابه عن المجتمع القديم Ancient Society وسير هنري مين Sir Henry Maine وبخاصة كتابه عن « القانون البدائي » Primitive Law<sup>(١٢)</sup> . خاصة وأن هذين العالمين رغم اتجاههما التطوري واهتمامهما بدراسة المراحل التي مر بها المجتمع الانساني في تطوره لم يغفلا النظرة التكاملية الشمولية التي مهدت لقيام النظرية البنائية الوظيفية . وقد اشار تونيز مرارا الى تأثره بكتاب مين بالذات وبالتفرقة التي يقيمها بين المجتمعات التي تقوم على اساس المنزل Status وتلك التي تقوم على التعاقد او العقد Contract<sup>(١٣)</sup> ، بل ان نظرية تونيز التي ظهرت في كتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » عام ١٨٨٧ مهدت بشكل او بآخر لقيام نظرية اميل دوركايم عن « التضامن » بنوعيه، وهي النظرية التي ضمنها كتابه المهم « عن تقسيم العمل

يصنف التجمعات الانسانية او « الكيانات الاجتماعية » بفئتين منفصلتين تمام الانفصال ومما يميز كل التمايز احداهما عن الاخرى ، بحيث تعكس الفئة الاولى في بنائها وتركيبها وتنظيمها ونظمها مظاهر « الجماعة المحلية » بينما تعكس الفئة الثانية مظاهر « المجتمع » . ولكن على الرغم من ان التمييز بين نمطي الحياة الاجتماعية قديم كما رأينا، فان الاسس التي يقوم عليها لم تتضح بقوة مثلما اتضحت - ربما لأول مرة في تاريخ الفكر الاجتماعي - في كتاب تونيز، وذلك نتيجة لازدياد المعرفة بالحياة الاجتماعية لدى الشعوب البدائية بفضل الدراسات الانثروبولوجية التي اجريت بين هذه الشعوب في القرن التاسع وكذلك - الى حد اقل - نتيجة لتقدم الفيلولوجيا المقارنة Comparative Philology والقانون المقارن Comparative Law وهذا بغير شك هو احد العوامل التي تجعل كتاب تونيز من اهم الكتب التي يعني بها الانثروبولوجيون ويعتبرونها من افضل المصادر النظرية التي تساعد على فهم التغيير الاجتماعي وتقدم بشرونة نظرية ضخمة يعتمدون عليها ، ليس فقط في توجيه بحثهم الحقلية ، بل

(١٢) مزيد من المعلومات عن هذين الكتابين راجع مقالنا عن « المجتمع القديم للويس مورجان » مجلة تراث الانسانية ، المجلد التاسع ، العدد الأول ١٩٧٠ . ومقالنا عن « نظرية القانون عند سير هنري مين » ، المجلة الاجتماعية القومية . ويشير تونيز نفسه الى سير هنري مين في كتابه « الجماعة المحلية والمجتمع » في صفحتي ٢١١ ، ٢١٢ .

(١٣) التفرقة بين « المرحلة الاجتماعية » والعقد ترتبط في نظرية مين عن القانون بمكانة الفرد في المجتمع البدائي ومكانته في المجتمع الأكثر تطورا وتقدما . ولقد ذكرنا في موضع آخر حول هذا الموضوع « ان الفرد في المجتمعات البدائية لا يكاد يتمتع بشخصية مادية متميزة او كيان شعبي مستقل راعا يتصرف ويعمل وينظر اليه على انه عضو ارجو من جماعة معينة سواء كانت هذه الجماعة جماعة قرابية او سياسية ، بعكس الحال في المجتمعات المتقدمة حيث يتزايد تطور النزعات الفردية على حساب روابط القرابة على الخصوص . وتظهر هذه التفرقة واضحة في كل مبادئ الحياة الاجتماعية من اقتصادية وسياسية ودينية . ولكنها تتبلور في اوضح صورها في « القانون » انظر الحاشية التي كتبناها في « صفحة ٦٢ حاشية رقم ٢ » من ترجمتنا العربية لكتاب الاستاذ ايفانز بريشلايد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية الطبعة الاولى ١٩٥٨ ، منشأة المعارف بالاسكندرية .



ولقد اقام تونيز هذا التقابل بأسلوبه الجدلي على المستوى السيكلوجي أولا ، ثم نقله الى المستوى الاجتماعي ، وعلى عكس الكثيرين من علماء علم الاجتماع وبخاصة في فرنسا ، كان تونيز يرى ان المدخل الصحيح لدراسة الحياة الاجتماعية هو المدخل السيكلوجي ، وذلك نظرا لأن الفعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية تصدر بالضرورة عن الإرادة ، ومن هنا كانت نظرية الإرادة تؤلف الركيزة الأساسية التي يرتكز عليها كل تفكير اجتماعي وكل تحليلاته للعلاقات الاجتماعية وللنظم السائدة في كلا النمطين من الحياة الاجتماعية : النمط الذي يؤلف الجماعة المحلية والنمط الذي يرتبط بالمجتمع .. والفقرة مالاوولى من كتاب تونيز عن « الجماعة المحلية والمجتمع » تظهر تحت عنوان « العلاقات بين الإرادات الانسانية » كما انه يخصص الباب الثاني بأكمله ( حوالي ثلث الكتاب ) لدراسة نوعي الإرادة اللذين يرتبطان بنمطي الحياة الاجتماعية اللذين يقابل بينهما .

هذان النمطان من الحياة الاجتماعية عالجهما تونيز مرة اخرى في اواخر حياته بأسلوب أكثر سلاسة في كتاب ظهر قبيل وفاته عام ١٩٣٥ تحت عنوان روح العصور الحديثة « Geist der Neuzeit » وقد عرض الاستاذ تشارلز لوميس Charles P. Loomis مترجم كتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » الى الانجليزية ( وهي الترجمة التي تعتمد عليها هنا )<sup>(١٤)</sup> لاهم القضايا التي أثارها تونيز

### الاجتماعي « De La Division du Travail »

الاجتماعي Social الذي ألفه عام ١٨٩٣ . ومع ان تونيز ميز في كتابه بين نوعي التضامن ، واستخدم نفس المصطلحين « تضامن آلي » و « تضامن عضوي » فان استخدام دور كايم للمصطلحين كان يناقض تماما استخدام تونيز لهما .

ومن الطريف ان دور كايم كتب نقدا لكتاب تونيز ظهر في المجلة الفلسفية Revue Philosophique عام ١٨٨٩ اي قبل ان يصدر هو كتابه عن تقسيم العمل بأربع سنوات وعلى الرغم من اختلاف العالمين في تصورهما لنوعي التضامن وقط الحياة الاجتماعية التي تربط بكل نوع من نوعي التضامن ، فان المبدأ الذي يقن عليه تصنيفهما للحياة الاجتماعية وللتجمعات الانسانية واحد . وعلى العموم فان ظهور فكرة المقابلة بين نمطي الحياة الاجتماعية بين عدد كبير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع لا يقلل من اهمية نظرية تونيز ، ومعظم الافكار الحديثة التي تردد الآن في نظريات علم الاجتماع والانثروبولوجيا هي في الحقيقة افكار « قديمة » سبق ظهورها أكثر من مرة خلال تاريخ الفكر الاجتماعي والانثروبولوجي ، والمهم هو الاسهام الذي يضيفه كل عالم الى هذه الافكار والاسلوب الذي يعالجها به . ومن هنا يمكن اعتبار نظرية تونيز « تنويع » خاصة على « لحن اساس » ان صحت هذه الاستعارة من مجال الموسيقى .

(١٤) تعتمد هنا على الترجمة الاحادية التي نشرها الاستاذ تشارلز لوميس لكتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » وعلى ذلك ما كل اشاراتنا الى كتاب تونيز سكون في الحقيقة اشارات الى تلك الترجمة ، وأرقام الصفحات التي ترد في النص بين أقواس تشير أيضا الى صفحات تلك الترجمة .

تفسيرها في ضوء نظريته عن الإرادة كما ذكرنا .

فالتمييز بين لمطي الحياة الاجتماعية اذن اقتضى منه التمييز بين نوعين من الإرادة . وعلى الرغم من ان جميع الافعال الارادية تتضمن عنصرا من التفكير والاختيار فان تمييز يفرق بين الإرادة من حيث هي تتضمن التفكير ، وبين التفكير من حيث هو يتضمن الإرادة . فالأول يعطينا ما يطلق عليه تمييز اسم « الإرادة العضوية » بينما يعطينا الثاني « الإرادة العقلانية » - ويستخدم تمييز كلمة ارادة بمعنى اوسع بكثير من معناها في الاستخدام العادي . فالارادة عنده عبارة عن كل شامل معقد او وحدة كلية متأصلة تضم « مختلف المشاعر والغرائز والرغبات » ولكن بينما تكون هذه الوحدة في الإرادة العضوية وحدة حقيقية وطبيعية فانها في الإرادة العقلانية وحدة ذهنية او فكرية ، وبالتالي فهي وحدة غير طبيعية او مصطنعة ولذا يقول : إنني أسمي النوع الاول من الإرادة الانسانية بالارادة الطبيعية **Wesenwille** بينما أسمي النوع الثاني بالارادة العقلانية او الرشيدة **Kurwille** ( كتاب الجماعة المحلية والمجتمع صفحة ٩ - ١٠ ) .

واذا كانت العلاقات الاجتماعية تتشأ بفعل الإرادة فان الوقائع والحقائق الاجتماعية ذاتها ، او ما يعرف عموما في الكتابات السوسيولوجية باسم الظواهر الاجتماعية وكذلك ما يسميه بالكيانات الاجتماعية **Soziale Wesenheiten** لا يمكن ان تظهر الى الوجود الا اذا اراد الافراد الذين يدخلون أطرافا في تلك العلاقات والكيانات قيامها ووجودها ، كما ان

في كتاب « روح العصور الحديثة » كما يلي : لقد كانت الوحدة تسود المجتمع الانساني في القرون الوسطى فحل محلها التفكك والتفسيخ والتجزؤ وكانت السلطة تتخذ شكل الرعاية الابوية فاصبحت الآن نوعا من الاستغلال الاجباري المفروض على الناس ، وبينما كان يسود القرون الوسطى سلام نسبي فان الحروب الطاحنة والقتل الجماعي اصبحت هي سمة العصر . وبينما كانت علاقات التراحم والمشاركة الوجدانية تسود بين الاقارب والمعارف اصبحت الناس الآن اغرابا بعضهم مع بعض ؛ وبينما كان المجتمع يتألف في الاغلب من الفلاحين الذين يرتبطون بالارض والوطن اصبحت نظرة الناس الآن نظرة تجارية عقلية في الاغلب ، وبينما كانت حاجات الناس قليلة وبسيطة ويمكن اشباعها عن طريق الانتاج المنزلي والمقايضة تعقدت احتياجاتهم وبطالبهم الآن ، وساد نظام التجارة العالمية والانتاج الرأسمالي ، وبينما كان الناس يميلون الى الاستقرار في مواطنهم ويقومون فيها اقامة دائمة اصبحت الحركة والتنقل هي الغالبة ، وبينما كانت الفنون الشعبية والموسيقى والصناعات اليدوية تشغل حياة الناس وتفكيرهم اصبحو الآن ينتهجون الى العلم ويطبقون المنهج العلمي ، مما ادى في آخر الامر الى تجريد البشر من شخصياتهم بحيث لم يبق من هذا كله سوى رموز وتعميمات جامدة ( PP. XI—XII ) . وهذه الملاحظات تلخص الى حد كبير نظرية توينيز الى « الحياة المحلية » و « المجتمع » والتفسيرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية عموما وعلى العلاقات بين الناس خلال تطور المجتمع الانساني ومحاولة

الارادة الطبيعية وفي الجماعات والزمير التي تقوم على أساسها ، كما هو الحال مثلا في الجماعات او الزمر (المحلية) التي تقوم على الصداقة أو علاقات الجوار او روابط الدم . فدرجة العقلانية في الجماعات الاولى أكبر منها في جماعات الجوار ، وتصل الى أذناها في الجماعات التي تقوم على روابط الدم التي هي روابط بيولوجية قبل كل شيء ( PP. XIV—XVI )

ويعرف تونيز الارادة العضوية بأسلوبه المعقد القامض بأنها « المساوى السيكلوجسي للجسم الانساني أو مبدأ وحدة الحياة » وذلك على افتراض انه يمكن تصور الحياة تحت ذلك الشكل من الحقيقة التي ينتمي اليها التفكير نفسه . فالارادة الطبيعية تتضمن التفكير مثلما يتضمن الكائن العضوي الحي خلايا المخ التي تسبب - حين تستثار - الانشطة السيكلوجية التي يمكن اعتبارها مساوية للتفكير .

وترتبط الارادة العضوية بالنشاط الذي تشير اليه بنفس الطريقة التي ترتبط بها القوة بالعمل الذي يصدر عنها ... فالارادة الطبيعية توجد كامنة بالضرورة في كل نشاط يقوم به الفرد ... ( الجماعة المحلية والمجتمع ، صفحات ١١٩ - ١٢٠ ) اي ان كل فعل يتضمن بالضرورة ارادة عضوية او ارادة طبيعية وذلك بعكس الحال بالنسبة للارادة العقلانية التي يراها تونيز منفصلة تماما عن النشاط مستقلة عنه كل الاستقلال ، بمعنى انها تسبق الفعل وتكون خارجة عنه . ورغم ما قد يبدو من بساطة الارادة الطبيعية او العضوية ، فالواقع انها ارادة متعددة الجوانب والمظاهر شأنها في ذلك شأن كل مشكلات

الصورة او الشكل الذي تتخذه هذه الظواهر وتلك الكيانات الاجتماعية تتفاوت وتباين نتيجة للوسائل والاهداف التي يزداد تحقيقها من قيامها . فكأن الارادة تتغير بتغير الظروف والملابسات ، ويؤدي ذلك الى ظهور علاقات مختلفة بين نفس المجموعة من الافراد نتيجة لتغير ارادتهم تبعا لاختلاف هذه الظروف والاضاع ، وتبعا للاهداف التي يريدون تحقيقها تحت كل ظرف او مناسبة او وضع من الازضاع . فقد تنشأ العلاقات الاجتماعية مثلا ، أو تألف زمرة اجتماعية معينة لان الافراد الذين يدخلون طرفا فيها يريدون ، كما هو الحال في تعاون رجال الاعمال معا ، لتحقيق هدف معين عن طريق هذه العلاقة ، وبذلك فانهم يتعاونون معا من اجل ذلك الهدف ، وبصرف النظر عما قد يكون بينهم من تنافر ونفور وتباعد في بعض المواقف الاخرى . ففي هذه الحالة تكون الارادة العقلانية هي العنصر المسيطر والموجه لهذه العلاقة وما يرتبط بها من فعل اجتماعي ؛ ولكن من ناحية اخرى قد يرتبط الافراد بعضهم ببعض لانهم يزون لتلك الرابطة او العلاقة قيمة في ذاتها كما هو الحال في الصداقة التي تعتبر غاية في ذاتها ( وتزداد ) لذاتها ، وهنا تكون الارادة الطبيعية هي السائدة والموجهة . فالارادة الطبيعية اذن تعتبر هي العنصر الاساسي والقوة الدافعة وراء كل عملية ارادية تكون مستمدة من مزاج الفرد او شخصيته او موقفه واتجاهه العقلي ، وسواء كان الباعث عليها هو الحب او الميل او العادة او الذاكرة ، ولكن هذا لا يعني ابدا ان الارادة الطبيعية ارادة لاعقلانية دائما . فتمتد درجات متفاوتة من العقلانية او ( الرشاد ) في

يعتبره الصورة الأساسية للإرادة الطبيعية ، لأنه يجد الانسان بالرغبة في بعض الانشطة او الانصراف عن البعض الآخر وتجنيها ، بل ويثقل الميل بوجه خاص في الرغبة في عمل كل ما من شأنه ان يساعد على اطالة الحياة والحصول على القوت وعلى التناسل والتكاثر ، وهذه الخاصية الأخيرة ، أعنى الرغبة في التناسل والتكاثر ، هي التي تعطي الفكرة معناها الكامل الحقيقي ، لان التناسل هو الحياة ذاتها . يقول توينز : « ان التقسيم الشائع لعام لاعضاء الجسم ووظائفه يميز بين الحياة النباتية ( اوالداخلية ) والحياة الحيوانية ( اوالخارجية ) وبالمثل فان ثمة ما يجعلنا نسلم بوجود نوعية من الإرادة هي الإرادة النباتية والإرادة الحيوانية وهما تتحدان معا وتعاونان وتساندان في إرادة الحيوان ، شأنها في ذلك شأن تركيبات الجسم الفيزيكية . ولكن هذه الرابطة تفترض ضرورة تمييز الإرادة الانسانية او العقلية ( وكذلك ذلك النوع من الحياة ) عن الإرادة الحيوانية او النباتية بنفس الطريقة التي تتميز بها هاتان الإرادتان احدهما عن الاخرى ، وان تصور العناصر الثلاثة على انها تتحد معا في الكائن البشري بنفس الطريقة التي تتحد بها هاتان الإرادتان الأخريان معا في التركيب العام للحيوان ... والإرادة الطبيعية لدى الكائنات البشرية يجب تصورها على انها تشمل كل هذه الفئات التي تؤلف معا وحدة متكاملة . وعلى ذلك يمكن اعتبارها هي الإرادة العضوية بحيث نحددنا بالإشارة الى الإرادة الحيوانية - العقلية : كما يمكن اعتبارها هي الإرادة الحيوانية التي يمكن التعبير عنها في الإرادة العضوية والعقلية معا ، كما انها هي .

الحياة العضوية ذاتها ، فهي إرادة اصيلة وفطرية في الكائن البشري تلازمه خلال حياته وتنمو معه طيلة الوقت ، وتخضع اثناء ذلك لكثير من التعديلات والتغيرات بتأثير البيئة المحيطة به . اي ان توينز يعترف هنا بتأثير البيئة المادية على الإرادة الفطرية المتأصلة ، او على الاصح على العناصر ( الفطرية ) في الإرادة . وأثناء عملية التطور والنمو تنضج الميول والامكانات وتصبح ملكات وقدرات ، وبذلك يمكن للإرادة الطبيعية ان تواجه أحداث وأوضاع العالم الخارجي ككيان له القدرة على التأثر والتأثير . وكل هذا معناه ان توينز يرى انه في الوقت الذي تصدر فيه الافعال عن الإرادة الطبيعية فان هذه الإرادة تتأثر وتعدل نتيجة لهذه الافعال ذاتها ، وبذلك يكون التأثير متبادلا بين الإرادة الطبيعية والفعل الاجتماعي . ان الإرادة الطبيعية هي مبدأ كل فعل يعطي الحياة وحدتها الحقيقية .. انها تتضمن التفكير وتحتويه وتحدده ، كما انها هي اصل كل عمل او مشروع ، كما انها مبدأ كل عملية خلق وابتكار ، بل انها اصل الأخلاق . ( الجماعة المحلية والمجتمع صفحات ٣٧ - ٤١ ، ١٢٠ - ١٢٢ ) .

ويحدد توينز الصور والاشكال المميزة للإرادة العضوية في ثلاثة ، تؤثر في سلوك الانسان وأفعاله وعلاقاته بالآخرين ، وهذه الصور أو الأشكال هي : الميل ( او الرغبة ) والعادة ثم الذاكرة . وهنا ايضا تجد توينز يعتمد في تحديده هذه الصور الثلاث على الفلسفة القديمة التي تميز بين ثلاث مراحل للحياة هي الحياة النباتية والحيوانية والعقلية او الذهنية . فالميل هو التعبير الصريح المباشر للحياة النباتية ، ولذا فانه

القسم الثاني ، الفقرات ٦ - ٩ ، صفحات ١٢٤ - ١٣٢ ) .

والذي يريد توينيز ان يخلص اليه من هذا كله هو ان هذه الصور الثلاث المتعاونة والمتساندة للارادة العضوية هي التعبير الحقيقي عن كل الطبيعة البشرية في نموها التدريجي البطيء من التعبير الساذج المباشر عن الكائن العضوي الحي ( اللذة ) الى العمل الذكي ( التجربة والخبرة ) ثم الى التفكير ( الذاكرة ) ولكنها تظل مع ذلك مركزة طيلة الوقت على الارادة الاصيلة العميقة ، وهي ارادة الحياة ، وعن طريق الارادة العضوية يمكن تفسير ومعرفة شخصية كل فرد وطابعه وخلقه الخاص ، لان الطابع او الخلق ليس الا « التنوية » الفردية للترابط بين هذه الصور والاشكال الرئيسية للحياة التي يسود فيها صورة او شكل بقية الصور والاشكال . أضف الى ذلك ان الارادة العضوية هي مصدر الاخلاق ايضا ، فهي اصيلة وفطرية في الانسان كالضمير تماما ، كما انها تؤلف « عاطفة الالتزام » لدى الانسان ، وبذلك فهي التي تحدد له ما هو خير وحق وضروري ، سواء من الاعمال او الاشياء او الناس . وهذا كله معناه في آخر الأمر ان توينيز يرى الارادة العضوية على انها تعبير عن الحياة ذاتها بكل عظمتها واتساعها وتطورها ونورها ، ومنها تنبعث وتصدر كل افعالنا سواء في ذلك الأفعال والأنشطة الفيزيائية او العقلية او الأخلاقية ، ولذا فانه يعتمد عليها ويتخذ منها أساساً لفهم وتفسير العلاقات ومظاهر السلوك التي ترتبط بذلك النمط من الحياة

الارادة العقلية ذاتها في اعتبارها على الارادة العضوية - الحيوانية » ( الجماعة المحلية والمجتمع صفحتا ١٢٣ - ١٢٤ ) .

وفي ضوء هذا التفكير الجدلي يحدد توينيز التصورات او المفاهيم السيكلوجية التي يعتبرها صورا للارادة الطبيعية ، ونعني بها الميل والعادة والذاكرة التي سبقت الإشارة اليها . واذا كان « الميل » هو التعبير المباشر للحياة النباتية ، فان العادة تعتبر عند توينيز ارادة تظهر وتتكون بفعل التجربة وممارسة الاعمال واجه النشاط المرغوبة او التي « ميل » اليها الفرد . فكل عادة تتضمن اذن قدرا من الميل مثلما تتضمن قدرا من التجربة او الخبرة ، وهي تجربة اللذة ، مما يعني انها ( العادة ) ترتكز بالضرورة على عنصر « الميل » لعمل ما يحبه الانسان وتجذب الاعمال التي « ينفر » منها . وأخيرا فان الذاكرة ليست الا حالة متطورة في العادة . فهي أساس الحياة العقلية ولذا فانها تعتبر الخاصة الاساسية المميزة للارادة الطبيعية او العضوية عند الانسان ... انها الصورة العقلية للارادة العضوية ، ويمثل الدور الرئيسي الذي تلعبه الذاكرة في حفظ التداعيات بين النمو من ناحية والممارسة من ناحية اخرى ، وفي هذا بالذات يكمن سر التعلم ... ويمكن ان تضرب مثلا للتعارف والتنسيق بين هذه المظاهر الثلاثة باللغة ، فاللغة هي تعبير عام عن الحياة العقلية ولكنها عبارة عن تعلم وتذكر لمعنى وقيمة الالفاظ ؛ كما انها في الوقت ذاته عادة ولذة ( أو ميل وجب ورغبة ) ( انظر : الجماعة المحلية والمجتمع ،

الاجتماعية الذي يطلق عليه اسم « الجماعة المحلية Gemeinschaft » .



ولكن اذا كان تونيز يطلق على الارادة العضوية اسم « الارادة الطبيعية » لأنها تعبر عن « طبيعة » الفاعل فان الارادة العقلانية يدخلها عناصر أشد تعقيدا وأبعد عن التلقائية ، والكلمة الألمانية Kürwille ذاتها مصطلح مستمد من كلمة جرمانية قديمة تعنى الاختيار ، لأن الفاعل هنا يوازن بين كل الوسائل الممكنة ويختار منها تلك التى تحقق بأفضل شكل استطاع الغاية التى يهدف اليها من الفعل . فالارادة العقلانية اذن هى محصلة التفكير وثمرته ونتاجه ، وهذا هو ما يقصده تونيز من قوله أنها « التفكير من حيث يتضمن الارادة » ولا يعنى هذا أبدا ان الارادة العقلانية ( غربية ) تماما حسب تعبير تونيز - عن الارادة العضوية أو الطبيعية ، بل ان ثمة علاقة وثيقة بينها فى ايجاد عمليات التفكير الى حد كبير على ميول الكائن العضوى الحى وملكانته الطبيعية واتجاهاته العقلية واستخدامه لها كلها فى صياغة انساق الفكر ، وبالتالي استغلالها فى تحقيق الأهداف والغايات المحدودة التى يهدف اليها ، فالتفكير من اجل هدف معين هو اذن العنصر البارز أو الغالب فى الارادة العقلانية الواعية المدركة ، ولذا كانت هذه الارادة تقوم على أساس تغليب التفكير على الرغبة ، كما أن نظرتها للأشور والأفعال هى بالضرورة نظرة مستقبلية مادامت ترمى فى آخر الأمر الى تحقيق هدف مرسوم ، كما أن ( الاختيار ) بين

الاحتمالات الممكنة يتم قبل الاقدام على تنفيذ « الفعل » . والتفكير بهذا المعنى هو الذى يحدد كل أفعال الكائن العضوى الحى ويوجهها ويتحكم فيها وهذا بالضبط هو ما يؤلف أهم مقومات الارادة العقلانية عن الارادة الطبيعية .

وعلى ذلك فاذا كان التفكير البارد المتعمد المحسوب هو الذى يحدد للمرء الفعل الذى ينبغي عليه القيام به من أجل غاية أو هدف ، فلن يكون من الضروري أن تكون اللذة فى أداء العمل هى الدافع الأساسى فى أداء الفعل . فالعقل قد يختار عن عمد الأفعال غير السارة ، بل وحتى الأفعال المؤلمة ، ما دامت تحقق الهدف أو الغاية التى يصبو اليها . وعلى ذلك ففى الارادة العقلانية الواعية توجد دائما قوة تتولى عملية المقارنة بين الوسائل المختلفة والموازنة بينها لاختيار أكثرها ملاءمة للهدف ثم اتخاذ القرار الخاص بأداء الفعل ذاته . ولكن الى جانب هذا التفكير المتعمد البارد المحسوب واتخاذ القرار بناء على تلك الحسابات الدقيقة . فان للذهن تصورات الخاصة به التى يلجأ اليها فى محاولة فهم الواقع ، والتحكم بالتالى فى سلوك الانسان وتوجيهه وتحديد أفعاله تبعالها . وعن طريق هذه التصورات والمفاهيم ، التى ليست فى حقيقتها سوى تخطيطات ذهنية بسيطة تتعلق بالواقع الاجتماعى ، تقوم الارادة العقلانية بصياغة النماذج العامة للعقل .

والعناصر الثلاثة التى تؤلف الارادة العقلانية ، وهى التمييز واتخاذ القرار والتصور ، هى التى تحدد كل الأفعال فى غط التجمعات الانسانية التى يطلق

على نفسه وعلى الآخرين » لأنها هي ومنجزاتها أيضا ، لاتضم شيئا حقيقيا أو مخلصا أو صادقا ( راجع في ذلك كله كتاب الجماعة والمجتمع ، صفحات ١٣٨ - ١٦٠ ) .

وواضح من هذا كله الى أى حد يقف هذان النوعان من الارادة موقف التعارض التام أحدهما من الآخر ، وكما يقول نيتشه فان احداهما ( الارادة الطبيعية ) تعكس نبضات القلب ، بينما تعبر الاخرى ( العقلانية ) عن نشاط العقل ( ص ١٥٩ ) : احداها ارادة عضوية وانفعالية تماما بينما الاخرى فكرية ومجردة . ولكي يبين نيتشه التعارض بين الاثنين فانه يقارن الارادة الطبيعية بالعضو ( اليد مثلا ) والارادة السواعية أو العقلانية بالأداة أو الآلة المصنوعة : فالعضو يخلف نفسه ولا يكون له أى كيان الا بالنسبة لعلاقته بالكائن العضوى الى ككل ، أما الأداة فانها من خلق يد الانسان ، كما أنها تصنع لتحقيق هدف أو غرض معين ، فضلا عن أن لها كيانا ووجودا قائمين بذاتها وبصرف النظر عن العضو أو حتى الكائن العضوى الى الذى يستخدمها ، الا أن العضوى وينمو ويتطور بالحياة بينما الآلة جامدة هامة تستهلك ولا تلبث أن تختفى وتزول تماما عن طريق الاستعمال ( صفحة ١٥٥ ) .

### ( ٣ )

هذا التعارض بين نوعي الارادة على المستوى السيكولوجي يجد له تعبيرا واضحا في التعارض القائم بين فئات أو قطاعات معينة من المجتمع. ويضرب نيتشه لذلك عددا من الأمثلة ، ولكنه يخصص بالدراسة

عليها تونيز مصطلح « مجتمع Gesellschaft » والغاية الأخيرة من بلوغ أى هدف هو- في نظره الحصول على أكبر قدر ممكن « السلطة والقوة والنفوذ » ويؤكد تونيز بشدة على هذه النقطة ويعتبرها عنصرا جوهريا في الارادة العقلانية وكل ما يصدر عنها ، ولعل أفضل مثال يوضح ما يذهب اليه في المجتمع هو « قوة المال الذى يؤدى الى سيطرة وتسلط وتحكم من يملك فيمن يملك » ( الجماعة المحلية والمجتمع ، صفحة ١٤٥ ) وهذه مسألة لانهج لها مثيلا في الارادة الطبيعية . ولهذا كله يذهب نيتشه الى القول بأن الارادة العقلانية ليست هي جوهر الكائن الانسانى أو طبيعته لأنها ينقصها العاطفة وتفتقر الى المشاعر والأحاسيس والوجدانات ، بل وتحلوا من الضمير . فالأنشطة التى تقوم على أساس هذه الارادة يتم فعلها ويمارسها وأدائها من أجل غرض معين أو غاية محدودة فحسب ، وتهدف الى صالح وخير الفاعل نفسه بصرف النظر عن قيمتها الأخلاقية ، بل وعن صالح الآخرين . بل أنها تنظر الى هؤلاء الآخرين بكثير من عدم الاهتمام واللامبالاة ، وقد تستغلهم وتعتبرهم مجرد أداة لتحقيق ذلك الصالح الشخصى أو المنفعة الذاتية ( صفحة ١٤٧ ) ونظرا لأن القيم الأخلاقية ترتبط الى حد كبير بالمواظف والمشاعر والوجدانيات فان كل الأفعال الصادرة عن تلك الارادة العقلانية الواعية والتى تحلوا من هذه الجوانب « تنف في الحقيقة خارج مجال الأخلاق » . فالارادة العقلانية تعنى- كبت القيم الأخلاقية وخنقها ، وهذا هو ما يجعل تونيز يذهب الى حد أن يصنفها بأنها « مهزلة أو كوميديا يمثلها الانسان

والتحليل ثلاثة أنواع من التعارض وهي : التعارض بين الجنسين والتعارض بين الشيوخ والشباب ثم التعارض بين العامة والمتفنين *intelligentsia* وهي تعارضات تظهر على المستوى السيكولوجى والسوسولوجى فى كل المجتمعات مع بعض فوارق طفيفة ، وينجم التعارض بين الجنسين أساساً من اختلاف الأزوجة والطباع والجهاز العصبى عند كل منها ، فالمرأة فى نظر تونيز عاطفية تتحكم فيها عواطفها وانفعالاتها ووجدانها تماماً ، ولذا تظهر أشد حساسية من الرجل ، وسيطر عليها تماماً. جهازها العصبى « - على حد تعبيره - بحيث يكاد يكون من المستحيل أن يصدر عنها أى نوع من التفكير المنهجي أو المنطقي، أو «الاستبصار البارد» وتعيش المرأة بكل كيانها فى الحاضر ، فهي تحس أكثر مما تفكر ، وهي تصدر الأحكام التقويمية أكثر مما تصدر الأحكام التقريرية ، وفى عبارة واحدة فإن الذاتية تسيطر على أفعالها ، وبذلك فإنها تنتمى تماماً الى مجال الإرادة العضوية . أما الرجل فإنه على العكس من ذلك يعتبر فى سلوكه وتصرفاته مثالا واضحا للإرادة العقلانية المدركة الواعية ، إذ تسيطر قواه العقلية والفكرية على كل تصرفاته ، كما أنه يتمتع بقدره هائلة على التفكير والحساب والتقدير المجرد وعلى التأمل المنطقي ، وتتميز حياة الرجل بأنها أشد حركة ونشاطا وصعوبة لأنه هو الذى تقع عليه دأنا مسئولية توفير القوت والحماية للمرأة والعائلة ، فإنه يتمتع بكل القدرات والسلطات التى تؤهله لأن يكون زعيما وقائدا ، وعلى ذلك فإن الرجل المفكر هو الموضوع الحقيقى للمجتمع *Gesellschaft* لأنه هو القادر على

ممارسة التجارة وأداء العمل الشاق والتفكير المجرد ، بينما يتصف عمل المرأة عموما بارتباطه بالجماعة المحلية الضيقة *Communal* فهو عبارة عن خلق داخلى *internal creation* ورعاية فى ذاته وليس وسيلة لأى غاية أخرى ( صفحات ١٧٤ - ١٧٦ ) والتعارض بين الشباب والشيوخ يعكس فى معظم الأحيان نفس ملامح العلاقات القائمة بين الذكور والاناث ، وحسب تمييز تونيز فإن المرأة الشابة هي « المرأة الحقيقية » ، أما المرأة المتقدمة فى السن أو العجوز فإنها « أقرب الى الرجل » ؛ بينما يعكس الأطفال - والشباب كثيرا من الطبيعة الأنثوية « إذ يظهر فيهم الغرور والبراءة ، كما أن الأطفال بالذات يعيشون فى الحاضر ويفرقون فيه كلية ، ويتسمى النساء والأطفال الى نفس الفئة لأن لهم نفس العقلية ويفهمون بعضهم بعضا تمام الفهم ، وذلك يعكس الرجل المتقدم بالسن فإنه يعكس ملامح وخصائص الرجولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ويرتبط الأطفال والشباب بالعائلة ارتباطا قويا ، كما يرتبطون بالبيت والقسرية أى الجماعة المحلية بعامية *Gemeinschaft* ، وإذا كانوا يمارسون أى عمل على الإطلاق فإنما هم يمارسونه لأنهم يميلون اليه ويجدون فيه لذة ، أولاً لأنه على الأقل يدخل البهجة والسرور الى نفوسهم ، وذلك يعكس الرجل الناضج الذى يتحكم التفكير فى سلوكه واختياراته ، كما يتغلب العقل والحكمة على قراراته والذى يستطيع بسهولة أن يتخلص من الجوانب العاطفية فى أحكامه . وإذا كان الأطفال والشباب يرتبطون بالعائلة فإن الرجل الناضج المكتمل الرجولة يرتبط أكثر بتجارته وعمله



عليه نظرا لامكان الانتقال من فئة لأخرى نتيجة لتغيير الأوضاع والظروف ، كما أن ثمة درجات كثيرة وسيطة بين حالة الجهل المطبق والثقافة الراقية السامية . ومع ذلك فإن الصفة الغالبة على الفئة الأولى هي اعتيادها على « الإرادة العامة » أو « العقل العام » وعلى « الضمير الجمعي » أو « الضمير الشعبي » مما يجعلهم يرون الخير والحق في كل ما هو عام وشائع، وذلك فضلا عن أن هذه الفئة هم أعمق إيمانا وأكثر تمسكا بالدين وأشد خوفا من الشياطين والأرواح والأشباح التي يعتقدون أنها قادرة على إلحاق الأذى بهم أو جلب الخير لهم . وهذه كلها مشاعر وعواطف يعتبرها المثقفون وأعضاء الفئات المتعلمة من أكبر المعوقات لتقدم الحياة الاجتماعية ، ومن أهم العقبات التي تموق تنفيذ الأهداف والغايات السامية . فكلما ازداد نصيب المرء من التعليم تبذرت عواطفه وانفعالاته وأحاسيسه العامة أو الشعبية ، نظرا لأن المعرفة تحرره من أسار وريبة « الضمير الشعبي » وتجعله أكثر اهتماما وانصرافا الى ما يحقق أغراضه الخاصة ، وإلى جانب هذا التايز السيكلوجي فإن الملاحظ على المستوى الاجتماعي أن الشخص غير المتعلم يكون أكثر التصاقا بالعائلة والحياة العائلية ، انه ينعم بالعلاقات القوية مع جيرانه ويهتم بتوطيد روابط الصداقة مع كثير من الأفراد الذين يعتبرهم أصدقاء حميين له، وذلك بعكس الشخص المتعلم المثقف الذي يجد لذته الكبرى وسروره الفائق في العلاقات الاجتماعية التي تخلو من بعض الرسميات المنطق عليها والمقبولة اجتماعيا ، وذلك نظرا لتخلصه من علاقات الجوار

ويستغل طاقته المنتجة في هذه المجالات ، فضلا عن أنه يميل الى حياة المدن حيث تزدهر التجارة والصناعة ولا يكاد يعطى سوى القليل من اهتمامه للبيت ، وعلى ذلك فبينما تولف النساء والأطفال والمراهقون فئة واحدة متأثرة توهلها طبيعتها للانشطة الجماعية يظل الرجل الناضج المكتمل الرجولة مالكا لقواه وسيطرها عليها وموجهها كل نشاطه وملكاته وقدراته الى العمل . انه هو « الكائن الاجتماعي بمعنى الكلمة » لأنه وحده هو النشط الفعال المفكر المالك لقواه المسيطر على أهوائه والذي لا يكشف قط عن نفسه أو يتخاذل أمام الصعاب وإنما هو يرتدى قناعا يخفي وراءه انفعالاته ومشاعره وعواطفه ( صفحات ١٧٩ - ١٨١ ) .

أما التعارض الثالث وهو الذي يقوم بين غير المتعلمين أو العامة والمثقفين فإنه يكشف بشكل أفضل عن نظرية تونيز السوسولوجية التي تقوم على الاستقطاب الثنائي dual polarity وذلك نظرا لأنه هو الأساس الذي يقوم عليه التمييز بين فئتين كبيرتين متايزتين تمايزا جذريا في تكوين المجتمع ، وإذا كان التعارض أو التايز الأول يرتكز على « الحياة النباتية التي يظهر تأثيرها بشكل أوضح لدى الاناث فإن التعارض الثاني يشير بشكل خاص الى « الحياة الحيوانية » التي تتمثل على الخصوص لدى الرجال . أما هذا التعارض الثالث بين العامة والمثقفين فإنه تمايز ينتمي الى « المجال العقل » ويرتبط بالموقف الذهني والمعرفة، حسب التعبيرات التي يستخدمها تونيز نفسه ( ص ١٨١ )، وعلى الرغم من أهمية هذا التايز بين هاتين الفئتين في الحياة الاجتماعية فإنه يمكن التغلب

وروابط العائلة ، وأحياناً من الروابط الدينية ذاتها ، فهو « رجل المدينة » والحياة الحضرية أو حتى رجل « العالم » ككل ، لا يؤمن بالتقاليد المتوارثة ولا يعتقد في الأرواح والشياطين والحياة الغيبية بل يؤمن على العكس من ذلك بالعلم ويرى كل تاريخ الإنسانية نوعاً من الصراع بين الإيمان والتقاليد من ناحية والعلم من ناحية أخرى .

هذه التعارضات أو التباينات الثلاثة التي يقيمها تونيزلكي يدعم نظريته السيكلوجية لتفسير الحياة الاجتماعية تكشف لنا عن الطريقة التي يعمل بها ذهنه والخط الذي يسير فيه تفكيره في محاولته رسم التفرقة بين نطى الحياة الاجتماعية ونوعى « التجمعات الإنسانية » اللذين تنقسم اليها كل المجتمعات المعروفة .

ويفحص تونيز كل القسم الأول من كتابه « الجماعة المحلية والمجتمع » للكلام عن هذين النمطين . ويضع تونيز لهذا القسم الأول أو « الكتاب الأول » كما يسميه عنواناً له مفزاه هو « المقولات الأساسية » أو « المفهومات الأساسية » . إذ يبدأ بمناقشة هذين المفهومين من ناحية الاشتقاق اللغوي أولاً قبل أن ينتقل الى الكلام عن « نظرية الجماعة المحلية Gemeinschaft ثم نظرية المجتمع .Gesellschaft »

( ٤ )

يرتكز التقابل الذي يقيمه تونيز بين مفهوى الجماعة المحلية والمجتمع على التمييز بين الإرادة

الطبيعية أو العضوية والإرادة العقلانية على ما سبق أن ذكرنا ، وذلك على اعتبار أن كل نوع من هذين النوعين من الإرادة يؤدي الى قيام علاقات اجتماعية لها طابع معين يتمثل في ظهور أنماط سلوكية ونظم وانساق اجتماعية تتمثل من ناحية في ذلك « التجمع » الانساني أو « الكيان » الاجتماعي الذي يعكس خصائص « الجماعة المحلية » من ناحية و « المجتمع » من الناحية الأخرى ، ومن هنا كان تونيز يعتقد أن هذين المفهومين كفيلاً بتفسير « الواقع » الاجتماعي أو « الحقيقة » الاجتماعية القائمة الآن بالفعل ، وكذلك فهم التطور التاريخي للمجتمع الانساني في عمومه .

فكان نقطة الانطلاق لفهم الحقيقة الاجتماعية هي دراسة وتحليل الإرادة التي تنبعث عنها الأفعال والعلاقات ، وبالتالي النظم والانساق ، اذا نحن استخدمنا المصطلحات السائدة الآن في الكتابات الانثروبولوجية بوجه خاص والسيكولوجية بعامة . ومن هنا كنا نجد أن تونيز حين يريد دراسة العلاقات الاجتماعية السائدة في تلك الكيانات الاجتماعية التي يسميها « بالجماعة المحلية » يعود الى صور الحياة الثلاثة التي تتخذها الإرادة الطبيعية أو العضوية والتي تقوم على أساس المحبة والميل أو العادة أو الذاكرة ، لأنها هي التي تمجد - في نظره - التجمعات الإنسانية التي تعكس أهم خصائص « الجماعة المحلية » ومقوماتها ، ولذا يميز تونيز بين ثلاثة أشكال من « الجماعة » المحلية هي الجماعات التي تقوم على أساس روابط الدم ( المحبة والميل ) وتلك التي تقوم على روابط المكان ( العادة ) ثم تلك التي تنشأ من

للمعاطفة وحدها . وهذا لا يقلل بحال من شأن الدور الذى تلعبه الأبوة في حياة « الجماعات المحلية » فهى أفضل تجسيد لفكرة ومفهوم السلطة والسيطرة في تلك المجتمعات أو « الكيانات » الاجتماعية . ومن هذه الناحية فان الأبوة تعتبرهى العامل الرئيسى في تماسك العائلة والمحافظة عليها لأجيال طويلة متعاقبة لانتقال السلطة ، على الأقل في المجتمعات الأبوية ، من الأب الى الابن الأكبر جيلا بعد جيل ، مما يساعد على ارتباط الأجيال المتعاقبة بالسلف الأول المشترك الذى كان ولا يزال حتى الآن في كثير من الجماعات المحلية البدائية - موضع العبادة والتقدس ( انظر صفحات ٥١ - ٥٣ ) من كتاب الجماعة المحلية والمجتمع . ولقد كان تونيز يعتقد النظرية القائلة بأسبقية النظام الأمومي Matriarchy على النظام الأبوي Patriarchy هى نظرية كانت سائدة في القرن التاسع عشر لدى عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا من أمثال باخوفن Bachofen ووليام روبرتسون سميث W. Robertson Smith وغيرها . وبصرف النظر عن صدق هذه النظرية أو كذبها فالواضح أنها كانت تتفق كل الاتفاق مع نسق تفكير تونيز وموقفه النظرى ، وتدعم وجهة نظره في أن روابط الأمومة أكثر أصالة وأقرب الى الطبيعة ، وان هذا هو السبب في سبق نظام الانتساب الى جماعة الأم على نظام الانتساب الى جماعة الأب ، كذلك فان هذه النظرية تدعم فكرته عن الانتقال التدريجي من الارادة العضوية بكل مظاهرها وتعبيراتها الى الارادة العقلانية الواعية المدركة . فالمراة ( الام ) والأمومة وما يرتبط بها من عواطف وانفعالات تنتمى

« روابط التفكير » أو « روابط الذهن » حسب تعبيره ( الذاكرة ) .

وترتكز « جماعات الدم » على الروابط التى تقوم بين أعضاء الأسرة بالمعنى الضيق للكلمة . ولكن من بين كل هذه الروابط فان الرابطة التى تقوم بين الأم واولادها هى انقائها وأسماها وأكثرها قربا من « الطبيعة » لأنها علاقة أو رابطة عضوية بسيطة في المحل الأول ، وإن كان يدخلها بعد ذلك عناصر اجتماعية وثقافية كثيرة تؤدى الى تعدها . والواقع أن تونيز يعطى أهمية بالغة لروابط الأمومة في تكوين كل جماعات الدم ويعتبرها في هذا الصدد أهم من العلاقة بين الأب واولاده ، فلعلاقة الأمومة تقوم على الغريزة وعلى اللذة الصافية في أقوى وأسمى صورها . وعلى الرغم من أن العلاقة بين الرجل والمرأة أو على الأصح العلاقة الجنسية - تتركز هى أيضا على الغريزة واللذة الا أنه ليس من الضروري أن تؤدى هذه العلاقة الى قيام حياة مشتركة بين طرفي العلاقة ، ان ما يعطيها صفة الاستمرار والاستقرار هو في المحل الأول الاقامة أو السكن المشترك من ناحية ، ووجود الأطفال وما يحتاجونه من رعاية تتطلب تعاون الوالدين من ناحية أخرى ، وبالمثل فان علاقة الأخوة والأخوات بعضهم ببعض هى أقل قوة من علاقة الأم بأولادها على الرغم من أن علاقة الأخوة تقوم على روابط الدم ويدعمها الحياة المشتركة والعادات المشتركة والذكريات والعواطف المشتركة ، وعلى أية حال فان رابطة الأبوة هى في رأى تونيز أقل هذه الروابط « عضوية » لانه على الرغم من وجود جانب انفعالي أو عاطفي فيها فان الرجل لا يستجيب

قواعد الضبط الاجتماعي . وفي ذلك الصدد يلاحظ  
تونيز أن الآلهة في القرية البدائية والأرواح والأولياء  
تلمب كلها نفس الدور الذي يؤديه «السلف» بالنسبة  
لجماعة الدم وبخاصة في المجتمعات التي تعرف  
« عبادة الاسلاف » . ومع أن العامل الأول في تحديد  
« جماعة المكان » أو « الجيرة » هو القرب المكاني  
وتجاور المساكن فإن هذه « الجماعة المحلية » تظل  
محتفظة بكثير من العلاقات والروابط بين أفرادها حين  
يتفرقون ويتباعدون إذا هم ظلوا محتفظين بمبادئهم  
وتقاليدهم وملكيتهم الجماعية للأراضي والحقول  
وبالشعائر والطقوس والاحتفالات التي تدعوهم  
للتجمع في مواسم معينة ( صفحة ٢٤٩ )

أما « جماعة الفكر » فأنها « تبهر عن وحدة  
الحياة الفكرية » - حسب تبير تونيز ( صفحة ٤٨ )  
وهي بذلك تمثل « أسس صور وأشكال الجماعات  
المحلية وأكثرها انسانية » . وإذا كانت جماعة الدم  
تتمثل في القرابة ، وجماعة المكان تتمثل في الجيرة ،  
فإن جماعة الفكر تتمثل بأحد صورها في  
« الصداقة » . وليس من الضروري أن ترتبط  
الصداقة بالقرابة أو بالجواري المكاني لأن العمل  
الرئيسي في قيامها ونشأتها هو « تشابه العمل ومقاتل  
الموقف العقل » ... « كما تقربها للقاءات الكثيرة  
السهلة الميسورة وهو ما يحدث بوجه خاص في المدن  
الصغيرة ... والعلاقات بين الناس من حيث هم  
أصدقاء ورفاق لا يدخلها إذن أي عنصر عضوي أو  
غريزي ... وإنما لها طبيعة عقلية ويبدو أنها تنشأ من  
المصادفة والاختيار الحر ، إذا هي قورنت بعلاقات

كلها إلى النوع الأول ، بينما ينتمي الرجل والعلاقات  
الأبوية إلى النوع الثاني ، وعلى المصمم فإن توزيع  
يعتبر العائلة « المحلية الحيوية » للجماعة المحلية بوجه  
عام ، لأن الروابط العائلية وعلاقات القرابة هي  
روابط وعلاقات طبيعية بكل معاني الكلمة ، ويمكن  
اكتشافها في كل أشكال التجمعات الانسانية التي  
تتدرج تحت مقولة « الجماعة المحلية  
Gemeinschaft » ( صفحة ٢٦٧ ) .

ومن « جماعة الدم » تنشأ « جماعة المكان » .  
فالعائلة لا تستطيع أن تعيش في عزلة دائمة وإنما هي  
تحتاج لأن تدخل في علاقات مع غيرها من الجماعات  
التي من نفس النوع والتي تعيش في المناطق المجاورة ،  
مما يؤدي إلى ظهور ما يسميه تونيز بعلاقات الجوار ،  
وهي علاقات من الدرجة الثانية ، وذلك على اعتبار  
أن علاقات الدم هي علاقات من الدرجة الأولى نظرا  
لأصلاتها . وبينما تقوم علاقات الدم والقرابة في  
جوهرها على أساس عضوي فإن علاقات الجوار تقوم  
على الملكية المشتركة للأرض والاستغلال المشترك  
لتنلك الأرض ، وهذا هو الأساس الذي ترتكز عليه  
وحدة الحياة الريفية والسدى يعطى هذه الحياة  
خصائصها ومقوماتها كما تتمثل في القرية . وتحدد  
الأرض المشتركة درجة تركيز وتجمع السكان بعضهم  
إلى جانب بعض تماما مثلاً يربط الدم في العائلة بين  
ذرية السلف الواحد .

ويؤدي التعاون بين أعضاء القرية ، وهو تعاون  
يقوم - في نظر تونيز - على العواطف الطيبة والمشاعر  
النبيلة - إلى إقرار النظام وحسن الإدارة ورسوخ

تكشف للباحث عن أهم مقومات البناء الاجتماعي للمجتمعات المحلية البسيطة القليلة العدد والمحدودة المساحة سواء في ذلك تلك المجتمعات القائمة الآن بالفعل ، كالقرى والنجوع والقبائل الصحراوية والجماعات الحرفية الصغيرة ، أو المجتمعات المبكرة التي ظهرت في مراحل سابقة من تطور المجتمع الانساني . وهي كلها مجتمعات تتميز بالعلاقات الاجتماعية المباشرة في كل ميادين الحياة وقلة التفاضل أو التمايز الاجتماعي ، وهي خصائص تعطي هذه « الجماعات المحلية » ذلك النوع من التماسك الذي يطلق عليه « تونيز » اسم « التماسك العضوي » أو الطبيعي لأنه يماثل تماسك وتعاون أعضاء الكائن العضوي الحي .

## ( ٥ )

تقوم فكرة المجتمع **Gesellschaft** عند تونيز على أسس وعناصر تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تقوم عليها فكرة الجماعة المحلية ، وبالتالي فإن مقومات الحياة والعلاقات الاجتماعية والنظم والانساق التي تسود في المجتمع تختلف اختلافاً كلياً عن تلك التي تسود في الجماعة المحلية . ويحاول تونيز أن يفسر فكرة المجتمع بالعلاقات المجردة التي تميز الإرادة العقلانية أو الواعية المدركة . فالمجتمع مجموعة من الأفراد الذين يعيشون جنباً إلى جنب دون أن يكون بينهم بالضرورة أى نوع من العلاقات العضوية أو الطبيعية التي سبقت الإشارة إليها حين تكلنا عن الجماعة المحلية ، إذ يعيش كل فرد بمقتضى إرادته العقلانية الواعية الخاصة وتبعاً لتفكيره وحساباته

الدم وعلاقات الجوار » . ( صفحات ٤٩ ، ٥٠ ) ولكن هذا لا يعنى انفصال جماعة الفكر عن جماعة المكان انفصالياً كلياً ، بل أن علاقات المكان كثيراً ما تكون هي العامل الرئيسى في ظهور « جماعة الفكر » مثلاً تنشأ جماعة المكان في كثير من الأحيان عند جماعات الدم . فاللقاءات الكثيرة التي تقوى علاقة الصداقة وتساعد على استمرارها تتطلب القرب المكاني أو سهولة الاتصال على الأقل على ما ذكرنا ، وإذا كان « الكيان » الاجتماعي الذي يقوم على روابط المكان والجوار هو « القرية » فإن الكيان الاجتماعي الذي يقوم على أساس الصداقة - بالمعنى الذي يعطيه تونيز للكلمة - هو تلك الهياكل أو التنظيمات الاجتماعية **Korperschaften** والمنافضلة وظيفياً ، والتي تنشأ عن التنظيم الحضري ويكون لها القدرة على الفعل عن طريق هيئات أو أشخاص يمثلونها . والمهم هنا هو أن تونيز يرى أن العلاقات الاجتماعية التي تميز التجمعات أو الكيانات التي يطلق عليها اسم « الجماعة المحلية **Gemeinschaft** » تمتد وتنتشر تدريجياً وباطراد من جماعة الدم إلى جماعة الفكر مؤلفة سلسلة من الروابط التي تكون بمثابة الأساس أو الركيزة التي تقوم عليها وحدة وتجانس كل كيان من هذه الكيانات . ودراسة هذه الأشكال الثلاثة من الكيانات الاجتماعية ( أى الأسرة أو الجماعة القرابية ، والمجتمعات القروية ثم الهياكل والمنظمات في المجتمعات الصغيرة ) والأسس السيكولوجية التي تنبثق عنها العلاقات الاجتماعية التي تسود فيها والنظم والانساق المختلفة التي تميزها من اقتصادية وسياسية وقانونية ودينية كفيلاً بأن

تكشف عن إرادة وروح الوحدة حتى وأن صدرت هذه الأفعال عن الفرد كفرد ، كما لا توجد أفعال تصدر عن الفرد ولكنها تعبر عن المجموعة التي يتحد ذلك الفرد معها . فمثل هذه الأفعال لا وجود لها في المجتمع ، وإنما الأمر على العكس من ذلك تماما ، إذ يعيش كل فرد بنفسه في عزلة تامة عن الآخرين وفي حالة توتر ضد الآخرين . فمجالات نشاط الأفراد منفصلة انفصالا شديدا بعضها عن بعض حيث يرفض كل منهم أن يسمح للآخرين بالتدخل في نشاطه وسلطته ، ويعتبر مثل هذا التدخل عملا عدوانيا . وهذا الموقف السلبي إزاء الآخرين هو السائد والمألوف ، كما أنه يكمن وراء علاقات الأفراد بعضهم ببعض ويعتبر من الملامح المميزة للحياة في « المجتمع » ، حيث يرفض الأفراد أن يمنحوا شيئا أو أن ينتجوا شيئا لغيرهم أو أن يتنازلوا عن شيء عن رضا وطيب خاطر إلا إذا كان ذلك على سبيل التبادل في مقابل هدية أو عمل يعتبره الفرد مساويا لما أعطاه » ( الجماعة المحلية والمجتمع صفحة ٧٤ ) .

المهم هو أن التبادل في نظر تونيز هو الأساس الذي تقوم عليه كل الأفعال والعمليات الكبرى الأساسية في المجتمع ، وهو أساس عقل إلى حد كبير لأنه يقوم على التفكير والتقدير والتقييم ومقارنة قيم الأشياء المختلفة . سواء أكانت هذه الأشياء : هي السلع التجارية أو المنتجات الصناعية أو الأفكار العلمية . والمقصود بالقيمة هنا فائدة الشيء أو « السلعة » . ويفترض التبادل مقدما اتفاق الإرادات الذي يتم التعبير عنه في شكل « عقد » من أجل

الخاصة أيضا . فهو لا يعطى شيئا أو يتنازل عن شيء دون مقابل يكون مساويا - على الأقل - لما أعطاه أو نزل عنه . وهذا الاستقلال أو تلك الفردية التي يتمتع بها كل عضو من أعضاء المجتمع *Gesellschaft* تستتبع ما يسميه « فردية القوة » أو « خصوصية الثورة » التي تؤدي بدورها في آخر الأمر إلى ظهور التبادل الحقيقي الذي هو أصل التجارة والصناعة . بل أن تونيز يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول أن هذه « التقديرات الرياضية » هي أصل العلم أيضا فان التبادل والتجارة والصناعة والعلم هي في نظره حقائق مميزة لتلك المرحلة أو الحالة التي يطلق عليها اسم « مجتمع » لأنها كلها تعبيرات مباشرة للإرادة العقلانية الواعية المدركة التي يتطابق فيها التبادل والتجارة مع التفكير العقلاني ، كما وتتطابق الصناعة مع القرارات العقلانية ، بينما يرتبط العلم بالأفكار والمفاهيم *Concepts* .

يقول تونيز : « أن نظرية المجتمع تعالج التركيب المصطنع لتجمع الكائنات البشرية الذي يشبه بطريقة فجة سطحية الجماعة المحلية من حيث يعيش الناس ويقبضون معا في دعة وسلام . ولكن الناس في الجماعة المحلية يظلون متحدين ويتناسكون بالضرورة رغم وجود عوامل كثيرة للتفرقة والانفصال ، بينما هم يعيشون في المجتمع منفصلين بالضرورة رغم كل العوامل التي قد تساعد على التماسك والترابط . وعلى العكس من الجماعة المحلية فانت لا تجد في المجتمع أي أفعال يمكن أن تصدر من وحدة موجودة مسبقا وجودا ضروريا ، وبالتالي لا توجد في المجتمع أفعال

النوع من النشاط الاساسي لأنها يوجدان معا في أصل التركيب الثنائي للمجتمع الذي تتعارض فيه طبقة الرأسماليين الأحرار الأقوياء وطبقة العمال المستعبدين الذين يوفرون قوة العمل . فالعلاقة بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة هي التي تؤلف « مرحلة المجتمع Society phase » كما يسميها . فالتجار أو الرأسماليون ( وهم الذين يملكون المال الذي يزداد ويتضاعف عن طريق التبادل ) هم السادة الطبيعيون وحكام المجتمع ، والمجتمع Gesellschaft يوجد من أجلهم . أنه أداتهم . أما كل من عداهم من أعضاء المجتمع فانهم يكونون اما أنشبه بالآلات والأدوات غير الحية - وهذه هي الصورة المثلى للعبودية والاسترقاق - أو أنهم لا يتمتعون بأي كيان قانوني خاص وبذلك يكونون عاجزين عن الادارة الحرة ... وبين السيد والعبيد لا توجد أى علاقة من العلاقات المميزة لحالة المجتمع ؛ وبالتالي لا يمكن أن تقوم مثل هذه العلاقات على الاطلاق » ( الجماعة المحلية والمجتمع صفحات ٩٥ ، ٩٦ ) . وتتحدد « حالة المجتمع » بثلاثة أفعال « متكاملة هي : ( أ ) شراء قوة العمل . ( ب ) استغلال قوة العمل ثم ( ج ) بيع تلك القوة في صور السلع المنتجة أو الانتاج . وبشارك « العامل » في الفعل الأول فقط من هذه الأفعال الثلاثة ، ولكنه حتى في هذه المشاركة فإنه يفقد حرية تماما . وواضح أن توتيز متأثر هنا بكتابات ماركس الى حد كبير ، ولذا قوبلت نظريته عن « المجتمع » في بداية الأمر بنفور شديد ولقيت كثيرا من النقد وبخاصة من مدرسة علم الاجتماع الفرنسي .

اقام العملية . وهذا العقد يتحكم فيه التراضى والاتفاق الى حد كبير ، وذلك على اعتبار أن كل عملية تبادل ( تجارى مثلا ) تتضمن نوعا من التراضى الاجتماعى أو الاتفاق الاجتماعى العام الذى يتمثل في ( . العقد ) ، والتبادل القائم على العقد بهذا المعنى لا يدخل فيه أى عنصر عضوى أو أى جانب عاطفى ، ولا يتوقف على المركز الاجتماعى أو المرتبة كما هو الحال في المجتمعات المحلية . ففى التبادل التجارى مثلا يتم تبادل السلع في مقابل النقود التى تمثل هذه السلع في ( القيمة ) والتي تعتبر أى النقود ( هي جوهر العمليات التجارية . وليست التجارة في آخر الأمر الا ( تبادلا اجتماعيا ) للسلع في مقابل النقود ، كما أن الهدف من التجارة هو تحقيق « الربح » أو « المكسب » وبالتالي زيادة مضاعفة الثروة ومن ثم زيادة النفوذ والقوة والسلطة في المجتمع ( صفحات ٨٠ - ٨٥ ) .

وليست الصناعة الا امتدادا اجتماعيا للتجارة ولو أنها لا تقتصر على تبادل السلع وإنما تمتد نشاطها الى صنع تلك السلع ذاتها ونتاجها . كما أن الهدف الأخير منها هو - كما في التجارة - الكسب أو الفائدة أو الربح الخاص . ويختلف « الرأسمالى » عن الصانع الحرفى الماهر Artisan في الجماعة المحلية من حيث أنه لا ينتج بنفسه ما يبيعه وإنما ينحصر دوره في المضاربة ، كما أن مكسبه وربحه يتألفان في الفرق بين سعر شراء « قوة العمل » - أى العمل نفسه - وسعر بيع المنتوجات الصناعية . وعلى أية حال فإن التجارة والصناعة هما تعبيران عن نفس

أما « العلم » فانه يعكس بشكل واضح وجلي الارادة العقلانية الواضحة المدركة بكل ما فيها من « برود » وعدم انحياز وزد ، كما أنه بطبيعته ، وحسب القيم التي تحكمه ، يتميز بالكلية والعمومية ويتخطى كل حدود المكان وكل الروابط العضوية أو الطبيعية ويعمل على توحيد « العقل » والأفكار .

ولست التجارة والصناعة والعلم مجرد تعبيرات عن نفس المناشط العقلية ، وإنما هي ترتبط أيضا بعضها ببعض ارتباطا قويا عن طريق البحث عن المعرفة . ولكن بينما يهدف العلم الى المعرفة لذاتها ، وهو ما يعطى العلم قيمة أخلاقية عليا ، فان التجارة والصناعة تطلبان المعرفة لتحقيق مزيد من المطالب العملية ومزيد من الربح والكسب والفائدة المادية .

وعلى العموم « فان تونيز يرد هذا التطور من التجارة الى العلم الى تطور الحياة الاجتماعية ذاتها ويوردها بثلاثة مراحل تتمثل في ثلاثة أشكال هامة من أشكال « المجتمع Gesellschaft » وهى : المدينة الكبيرة والأمة ثم العالم ككل . فحياة المدينة تقوم الى حد كبير على أساس التراضى والاتفاق ، وهى بذلك تختلف عن خط الحياة السائدة في « جماعة محلية » مثل المدينة الصغيرة أو البلدة حيث ينظم العرف Custom العلاقات بين الناس . وإذا كانت المدينة الكبيرة القديمة تعتبر مركزا تجاريا فانها لم تلبث أن تطورت بحيث أصبحت مركزا للصناعة ، وإن كانت الصناعة تتعدى بالضرورة نطاق المدينة وتغارس - كشاش وعمل وانتاج - على مستوى الأمة كلها بل وعلى المستوى الدولى أيضا . وهذا يعنى أن

حياة الأمة هى امتداد حياة المدينة التى تدخل فى تكوين الأمة . بيد أن الأمة لا يمكن أن تقوم على أساس التراضى أو الاتفاق البسيط ، وإنما هى تحتاج الى تنظيم « للطبيعة السياسية » يكون أكثر قوة وصلابة وتعقيدا وهذا التنظيم يتمثل فى الدولة . وأخيرا فان الحياة العالمية أو الكوزموبوليتانية تظهر كنتيجة مترتبة على كل من الصناعة والسوق العالمية وتجد لها سنداً من العالم الذى يتخطى كل الحدود المعروفة . وهذا لا ينفسى على أية حال أن الحياة المرتبطة بالمجتمع Gesellschaft تجد أفضل تعبير لها فى المدينة ، بينما الأمة والعالم ليسا سوى مجرد تطورات لهذه الحياة ، بنفس الطريقة التى تعتبر بها الصناعة والعلم امتدادا أكثر تقدما وتجريدا وعقلانية للتجارة . فالتجريد والعقلانية هما ما يؤلفان جوهر « المجتمع » بحيث لا نكاد نجد أية عناصر عضوية أو عاطفية فى العلاقات السائدة فيه .

## ( ٦ )

ويكفى هذه القدرة من المعلومات للتعرف على المخطوط الرئيسية لفكر تونيز عن الحياة الاجتماعية وأشكالها ومقوماتها . فلم يكن هدفنا أن نعرض بالتفصيل لأركان نظريته فى علم الاجتماع ( والواقع أنه لم تعد لهذه النظرية أهمية تذكر الآن ) وإنما كنا نهدف منذ البداية الى الكشف عن نظريته الى المجتمع الانسانى بعامة والقوى التى تعمل على تغييره ، وإن تبين مدى تأثير هذه النظرية بالأوضاع السائدة فى القرن التاسع عشر وتدخّلها فى صياغة فكره وتشكيله وتوجيهه . فعلى الرغم من كل ما يقال عن وضعية



الشعبية وأقوال الحكماء وتعاليم وإرادات « الحكام » عليه طابعاً مقدساً كما لو كان صادراً عن الإرادة الإلهية . وفي الحالة الثانية نجد أيضاً نسقاً آخر من « القانون الوضعي » ولكن يتعارض تماماً مع النسق السابق . فهو يؤكد الشخصية المستقلة المنفصلة للإرادات الفردية العقلانية من كل علاقاتها وتفرعاتها وتشابكها ويستمد وجوده من التنظيم المتسق عليه والذي يتحكم في تحديد وتوجيه العلاقات والروابط المختلفة التي تعتبر العلاقات التجارية أفضل مثل لها ، كما أن الذي يفرض على الناس هو الإرادة العليا التي تتمثل في قوة الدولة . وتوجد إلى جانب ذلك « تلك الفكرة المزدوجة عن الأخلاقية من حيث هي نسق مثالي أونسق عقلي من المعايير في حياة المجتمع . إلا أن هذا النسق يكون في الحالة الأولى تعبيراً عن المتقدات والقوى الدينية وأداة لها ، كما أنه يتداخل بالضرورة مع أوضاع وحقائق روح العائلة والأساليب الشعبية والأعراف . أما في الحالة الثانية - فإن ذلك النسق يكون حصيلة الرأي ونتاجه وأداته ، ذلك الرأي العام الذي يتضمن كل العلاقات التي تنشأ من الروابط والعلاقات الاجتماعية التعاقدية ، ومن الاتصالات والأهداف والمراعى السياسية التعاقدية أيضاً ( صفحة ٢٦٦ ) ... وفي هذا الشكل الأخير من الحياة الاجتماعية نجد أن التنظيم الاجتماعي والأوضاع والظروف والأحوال الاجتماعية تدفع الفرد إلى العيش بعيداً عن الآخرين ، وأن يشعر نحوهم ويعمل لهم كثيراً من العداء المستتر ، ولا يمنعه من الكشف عن هذا العداء وترجمته إلى أفعال عدوانية إلا الخوف والانتقام والقصاص ، فالعلاقات بين

الفكر الاجتماعي وموضوعية العلماء فإن هذا الفكر هو في آخر الأمر محصلة للظروف والأوضاع التي تنشأ فيها وهذه مسألة سبق وأن عالجتُها في دراستنا عن العلوم الانسانية والصراع الأيديولوجي » ( عالم الفكر ، المجلد ٢ العدد ٢ ، ١٩٧٦ ) فالتغيرات التي كانت تحدث في المجتمع الأوروبي في كل المجالات كنتيجة مباشرة للتورة الصناعية كان لها بغير شك دخل كبير في تكوين نظرية تونيز عن « الجماعة المحلية والمجتمع » وتعتبر هذه النظرية الاسهام الحقيقي الذي أضافه إلى الفكر الاجتماعي ، كما أنها هي الجزء الباقي من كتاباته الذي لا يزال يجد له صدى في كتابات الكثيرين من الانثربولوجيين المعاصرين وبخاصة الذين يهتمون منهم بدراسة التغيير الاجتماعي والبنائي ، فالذي استرعى انتباه تونيز وكان يؤكد عليه هو ذلك التعارض بين « الوضع الاجتماعي » الذي ينشئ من تشابه الإرادات ويقوم على الانسجام ويحدد سندا له من الأعراف والسند والأعراف الشعبية والدين وبين « الوضع الاجتماعي » الذي يتركز على اتحاد الإرادات العقلانية ويقوم على الانقسام والمواقف والتراضي ، ويحدد له سندا في التشريع السياسي ، كما يجد له تبريراً أيديولوجياً في الرأي العام ( صفحة ٢٦٦ ) .

في الحالة الأولى - نجد أن ثمة نسقاً من « القانون الوضعي » - حسب تعبيره - يتكون من المعايير المفروضة التي تنظم العلاقات بين الإرادة ويستمد كيانه وقوته من الحياة العائلية وملكية الأرض ، وتتلو مبادئ الأخلاق والعادات الشعبية صياغة قواعده وبنوده ، بينما تضيي المتقدات الدينية

بحيث تقترب الحياة في كل شكل من أشكال هذه التجمعات الى أحد الطرفين . فسلوك الفرد في « المجتمع » Gesellschaft لا يمكن أن يكون صادرا عن العقلانية فقط أو عن التفكير البارد المجرد المحسوب وحده وإنما تلعب فيه دائما الانفعالات والوجدانات والمشاعر والرغبات دورا هاما ، وتتدخل في تحديد كل الارتباطات والعلاقات الانسانية . والعكس صحيح فيما يتعلق بنمط الحياة « الجماعة المحلية » . حيث يداخلها كثير من ملامح التفكير المجرد والارادة العقلانية ، وكل ما يمكن قوله - على هذا الأساس - هو أن العصور الوسطى مثلا كان يسود فيها علاقات من ذلك النمط الذي يميز « الجماعة المحلية » بعكس الحالة بالنسبة للعصر الحديث أو أن العائلة تتوفر فيها من ملامح وعناصر « الجماعة المحلية » أكثر مما تتوفر في كثير من التنظيمات الحديثة مثل الشركات المساهمة وهكذا . والمهم هو أن نتذكر دائما أنه لا العصور الوسطى ولا العائلات هي « جماعات محلية بحتة » . وبالمثل فإنه يمكن اعتبار العائلة الريفية أقرب الى « الجماعة المحلية » من عائلات العمال الذين يعيشون في المدن الكبرى اذ يوجد فيها قدر كبير من ملامح « المجتمع » وهكذا ، فالجماعة المحلية والمجتمع اذن هما تصوران عقليان يمكن تطبيقهما على مختلف الكيانات والزمر والعصور ( P. XIX ).

فكان من الخطأ الاعتقاد اذن أن تونيز حين يميز بين مايسميه « الجماعة المحلية » أو « المجتمع » كان يهدف الى تصنيف المجتمعات الانسانية الى فئتين متخارجتين ونابزتين ومنفصلتين تماما كما يعتقد الكثيرون ، والأقرب الى الصواب هو أن نقول أن

الناس وحتى الجيران هم في جوهرها علاقات « حرب خفية » أو حرب غير معلنة ، وهذه في نظر تونيز أحد الملامح الهامة لما يسميه « حضارة المجتمع » التي تشرف الدولة على حمايتها بقوة القانون السياسي، كما أن العلم والرأى العام يلعبان دورا هاما في الرفع من شأن « الحضارة » باعتبارها نوعا من التقدم نحو السكال ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للجماعة المحلية « حيث تسود مظاهر الحياة الشعبية والثقافة الشعبية وهي أمور لا تجد كثيرا من الترحيب أو الاهتمام أو الاحترام من الدولة التي تقتل « المجتمع » وتعتبر نفسها تجسيدا له . وعلى أية حال فإنه في الحياة الاجتماعية والتاريخية للجنس البشرى « يقوم نمط من العلاقات القوية المتبادلة التي تتخذ شكل التعاض والتعارض بين الارادة الطبيعية والارادة العقلانية . وهذا لا يتعارض على أية حال مع « القضية الاساسية التي يحاول تونيز ابرازها في كثير من مواضع الكتاب وهي أن الارادة الطبيعية الفردية التي تتطور الى تفكير خالص أو تفكير بحت واردة عقلانية لا تلبث أن تطفئ على الارادة العضوية وتضمف من تأثيرها ، وان الصور والأشكال الاجتماعية الأصلية للجماعة المحلية تتطور بالمثل الى « مجتمع » وإلى ارادة عقلانية مرتبطة بالمجتمع وأنه خلال التاريخ الانساني كله أدت الثقافة الشعبية الى قيام حضارة الدولة ، وان الاتجاه العقل للرد هو التحرر التدريجي من تأثير الدين والمحضوع التدريجي لسلطان العلم ( الجماعة المحلية والمجتمع ، صفحات ٢٦٢ - ٢٦٥ ) .

بيد أن هذه الثنائية « توجد على أية حال في كل أشكال التجمعات الانسانية ولكن بنسب مختلفة ،

فقط يقتنعون بأن يحرصوا جهودهم في هذه الدائرة الضيقة ، بينما تجذبهم جميعا الى خارج هذا النطاق الأعمال التجارية والمصالح والاهتمامات الخاصة ، وبذلك يتباعدون بعضهم عن بعض ، فالرجل العظيم القوى الذي يدرك حرته واستقلاله يشعر بميل قوى لأن يتخطى حواجز الأساليب الشعبية والسنن والأعراف ، كما يدرك أن بإمكانه أن يفعل ما يشاء وان لديه القدرة على ادخال التغييرات التي تلائمه ، وهذا دليل إيجابي على القوى التحكيمية الفردية .. ولكن هذا لا يصدق دائما في كل الأحوال . وحتى اذا استبعدت كل الضوابط المرتبطة بالجماعة المحلية . فانه تظل هناك بعد ذلك ضوابط المجتمع التي يخضع لها الأفراد ، لأن المجتمع Gesellschaft ( بالمعنى الحقيقي للكلمة ) يحل الاتفاق الى حد كبير محل الأساليب الشعبية والسنن والدين . فهو يحرم الكثير من الأمور التي اعتبرتها هذه الأساليب الشعبية والأعراف والأديان أمورا سريرة في ذاتها .. كذلك فان ادارة الدولة تلعب نفس الدور من خلال المحاكم والشرطة ، ولكن في حدود أضيق ، وتطبق قوانين الدولة على الجميع بغير تمييز .. كذلك يعمل الاتفاق على مساندة الأخلاق ، على الأقل من الناحية المظهرية .. لأن الدولة لا تكداه تهتم بطريق مباشر وصريح بالأخلاق وإنما هي تكتفي بالقمع وتوقيع العقوبة على الأفعال العدوانية التي تعتبر ضارة بالمصالح العام ، أو تهدد وجودها هي ذاتها ووجود المجتمع .. وحين تكتشف الدولة في آخر الأمر أن زيادة المعرفة والتفافه لا تكفي وحدها لجعل الناس أكثر رقة أو أقل أنانية أو أكثر رضا ، وأنه لا يمكن احياء الأساليب الشعبية والأعراف والمعتقدات الميتة بطريقة القسر ومن خلال التعليم ، فانها تدرك أن تكوين القسوى الأخلاقية وبناء الأشخاص

هذين النمطين هما غطان متاليان لا يمكن تحقيقهما بكل تفصيليهما في الواقع ، وان أى تجمع انساني يجمع كما ذكرنا ، من خصائص ولامح كل من هذين النمطين متميزين معا في كل واحد منهما . وتوزيع نفسه ينه الى ذلك فيقول في الفقرة الخامسة من خاتمة كتابه « ان الحياة العائلية هي الأساس العام للحياة في الجماعة المحلية ، فهي تستمر وتظهر في حياة القرية وحياة المدينة الصغيرة أو البلدة ، ويجتمع القرية ويجمع البلدة يمكن اعتبارها كماتلات كبيرة حيث تمثل العشائر والبيوت الكائنات العضوية الحية الأولية التي تدخل في تكوين جسم مجتمع القرية ، وتشل الجماعات والاتحادات والمكاتب الحكومية ، وأعضاء البلدة . هنا نجد أن القرية الاصلية والمركز أو الكائنة الموروثة تظل حالة ضرورية أو شرطا هاما على الأقل للمشاركة مشاركة كاملة في الملكية العامة وغيرها من الحقوق . وقد تنقبض الجماعة المحلية الأغراب ، كما قد تقدم لهم الحماية باعتبارهم أعضاء يقدمون خدمات أو باعتبارهم ضيوفا يقيمون بصفة مؤقتة أو دائمة وبذلك فإنهم يكتسبون الانتماء الى الجماعة المحلية كأسياء ، ولكن ليس كمفوضين أو ممثلين للجماعة المحلية .. أسا في المدينة الكبيرة فان الاختلاف بين الأهالي الأصليين والأغراب يصبح غير ذي موضوع . فكل شخص هو بما هو عليه بفضل حرته الشخصية وقرينه وتعاقداته ، فهو يعتبر خادما فقط بقدر ما يقدم من خدمات للآخرين ، كما يعتبر سيدا فقط بقدر ما يتقبله نفسه من خدمات .. وفي المدينة الكبيرة وكذلك في المدينة العاصمة ، أو على الأصح في المدينة العريقة ، تتدهور حياة العائلة وتضمحل وتذوى ، وكلما زاد تأثير المدينة واستمر لمدة أطول تضاعفت الحياة العائلية بحيث تصبح علاقة عارضة فحسب ، لأنه لن يكون هناك سوى قلائل

التصرفات العقلانية التي لا تأخذ في حسابها اعتبارات الانصاف والانسانية في هذه الأفعال . وهذا هو السبب في أن تونيز - حسب ما يقول لوميس في مقدمته للكتاب ( P. XXVI ) كان يأخذ جانب العمال في أي مشكلة تنور بينهم وبين أصحاب العمل ، اعتقاداً منه أنه حين يؤازر الرجل العادي فإنه يفعل ما فيه خير الأمة ، كما كان يؤمل في أنه عن طريق الحركات التعاونية والتقابلية سوف يمكن التغلب على كثير من المساويء والمشكلات التي تنشأ عن تقدم العقلانية والفردية .



ان ما يجب أن نذكره دائماً هو أن تونيز كان أول عالم اجتماع اتخذ موقفاً صريحاً ضد النظام الصناعي الجديد ، مبيناً أنه اذا لم يتمكن هذا النظام من الاحتفاظ ببعض عناصر النظام القديم المرتبط بالجماعة المحلية فإن المجتمع سوف يضعف تماماً وفي ذلك خسارة فادحة على الانسان من حيث هو انسان . وعلى الرغم من أن كثيرًا من آراءه ظهرت فيما بعد بشكل أكثر ترتيباً عند أميل دوركايم وبخاصة في التمييز بين المجتمعات البسيطة والمجتمعات المركبة أو بين التضامن الآلي والتضامن العضوي فإن دوركايم يهدف الى اظهار حركة التقدم الحضاري من البسيط الى المركب وذلك يعكس تونيز الذي كان يرى أنه على الرغم من أن المجتمع هو تقدم لا مفر منه فإن ثمن ذلك « التقدم » غالو جداً لا يستطيع المجتمع الانساني أن يتحملة أو يدفعه . فهذا الثمن لن يكون أقل من فقدان العناصر الحيوية الطبيعية التي لا توجد الا في ذلك النمط من العلاقات التي تتوفر فيها يسته بالجماعة المحلية Gemeinschaft . ففى ذلك النوع من التجمع الانساني يشعر الناس جميعاً بالتعاطف والتأثر ويحس أمور يفقر اليها المجتمع الصناعي الكبير الحديث .

الأخلاقيتين يستلزمان تهيئة أساس قوى لذلك وتحقيق عدد من الشروط الأساسية ، أو على الأقل القضاء على القوى المناوئة ، كما تجد لزاماً عليها باعتبارها هي عقل المجتمع أن تقرر هدم ذلك المجتمع أو على الأقل اصلاحه وتجديده . والنجاح يمثل هذا الأمر مشكوك فيه الى حد كبير ( الجماعة والمجتمع صفحات ٦٢٧ - ٦٢٩ ) .

مثل هذه العبارات والأحكام جعلت الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بأعمال تونيز يعتبرونه من الكتاب ( المشائين ) وانه لا يختلف في نظريته الى ( حضارة المجتمع ) عن نظرة شبنجلر مثلاً . ولكن من الانصاف أن نذكر أن تونيز كان يرى الهدف النهائي من أي نظام اجتماعي هو تحقيق العلاقات السلمية بين أعضاء المجتمع ، وفي ذلك يتركز معنى هذا النظام وغزاه . ولقد سبق أن ذكرنا أن تونيز انطلقاً من هذه النظرة أخرج من مجال علم الاجتماع البحث السلوك السلبى والعذوانى ، وانه كان يرى أن في الامكان معالجة الانحرافات المختلفة بالأساليب والوسائل « السلمية » دون حاجة الى اللجوء الى الثورات التي تؤدي آخر الأمر الى هدم المجتمع وتقويض نظمهم ومعاييرهم . فوظيفة علم الاجتماع هي أن يبين للناس السبيل الى اقامة علاقات انسانية سلمية بين الجماعات والازمر والطبقات والأهم ، كما أن الأشخاص العاديين أو عامة الشعب هم الذين ينبتطعون - دون غيرهم أن يستبدلوا على ذلك الطريق . ولقد كان تونيز يشعر بالتعاطف والتجاوب مع عامة الناس كما كان يؤمن بهم ، وكان يعرف عن طريق الاحتكاك المباشر أنهم أكثر واقعية وأشد رقة وإحساساً بالجماعة من الأغنياء والمتعلمين الذين يعتمدون من أجل تحقيق مصالحهم والوصول الى مكانة اجتماعية عالية أو الاحتفاظ بمكاسبهم على

شهدت مدينة طرابلس الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين ( العاشر والحادي عشر الميلاديين ) نهضة ثقافية وحركة علمية لم تشهدهما في تاريخها من قبل ، وتمثلت تلك الحركة الثقافية المزدهرة بكثرة المجالس العلمية التي كانت تعقد في مساجدها ومدارسها ودور علمها ، وباستقبال العديد من العلماء الذين نزلوها وحطوا رحالهم فيها ، أو اتخذوا منها محطة في رحلاتهم الواسعة طلبا للعلم أو التعليم ، وتوجت النهضة الثقافية ، أخيرا بقيام « دار العلم » التي ضمت مكتبة ضخمة كانت درة مضبنة في جبين التاريخ الحضاري للعرب والمسلمين .

وقيل أن نعرف على « دار العلم » منذ تأسيسها حتى تدميرها ، يجدر بنا ، توطئة لذلك ، أن نستعرض العوامل التي ساعدت على قيام النهضة الثقافية في المدينة خلال تلك الفترة ، وهي الحركة التجارية والزراعية والصناعية المزدهرة ، الى جانب الموقع الطبيعي على ساحل البحر والاستعداد الفطري لأهل المدينة ، وتشجيع الولاة والأمراء للعلماء والأدباء .

#### الحركة التجارية

كان ميناء طرابلس الشام من أهم الموانئ التجارية في الشام خلال القرن الثالث الهجري وما بعده ، وهو المنفذ البحري الرئيسي لاقليم حمص ، وثغر دمشق على البحر المتوسط ، فمن طريقه تتم عمليات التصدير والاستيراد ، وبواسطته تنتقل منتجات الشام والشرق الى بلاد الروم والافرنج ، ويستقبل السفن التجارية القادمة من كل الجهات

## دار العلم في طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجري

عمر عبد السلام تدمري

استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة  
الليبية - فرع طرابلس

ميناء طرابلس اذا عرفنا أن ميناءها كان في القرن الثالث الهجري واسعا « جدا » بحيث كان يستوعب حوضه ألف مركب. ولذا أشاد به « اليعقوبي » المتوفي سنة ٢٨٤هـ. ووصفه في كتابه « البلدان » بأنه « ميناء عجيب يحتمل ألف مركب ».<sup>(٢)</sup>

### الثروة الزراعية

كانت الثروة الزراعية عاملا « آخر مساعدا » لقيام نهضة اجتماعية في طرابلس ، إذ كانت الأرياض المحيطة بالمدينة تشتهر بوفرة وتنوع مزروعاتها ، بحيث لا تحتاج الى استيراد شيء من المحاصيل ، وبذلك بقيت الأموال الواردة من طريق التجارة ، بين يدي أبنائها ، فاستفادت منها الحركة الصناعية والاقتصادية وانعكس ذلك كله بالتالي على النهضة الثقافية .

فقد أجمع المؤرخون والرحالة والجغرافيون ، على أن طرابلس تجمع في بساطتها من الفواكه والثمار « ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلا » ، إذ لا يكاد يوجد فيها دار بغير شجر لكثرة تحرق أرضها بالمياه<sup>(٣)</sup> . فهي تجمع بين « ثمار الشام ومصر ».<sup>(٤)</sup> وأشاد « ناصر خسرو » بوفرة مياهها فقال انه وجد في سوق طرابلس « مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير يأخذ منه الناس حاجتهم ، ويفيض باقية على

لتفرغ حواصلها فيه ، ومنه تحمل لتوزع في أنحاء البلاد الشامية وغيرها من بلاد الشرق . فطرابلس بهذا تمثل همزة وصل ، أو جسرا بين الشرق والغرب ، وملتقى للقوافل التجارية ، برية كانت أم بحرية . ولذا استفادت ، بفضل موقعها ، من تجارة المسرور ، وازدادت أرباح أهلها . وتردد على المدينة كثير من التجار الاجانب الوافدين من بيسنطة والاندلس وصقلية وبلاد غرب أوروبا . وأبحرت من مينائها الأساطيل التجارية الخاصة بالخليفة الفاطمي في القاهرة ، قاصدة القسطنطينية وصقلية وشمال افريقية للتجارة معها.<sup>(٥)</sup> كما كان أمراؤها من بني عمار يسيرون أسطولا « تجاريا » الى موانئ البحر الأبيض المتوسط ، حتى وهم يقاومون هجمات الصليبيين .

وقد وصف الرحالة الفارسي « ناصر خسرو علوي » الحركة التجارية النشطة في ميناء طرابلس أثناء زيارته لها في سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م . أيام الدولة الفاطمية بقوله « .. وتحصل المكوس . بهذه المدينة ، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والاندلس والمغرب العشر للسultan فيدفع منه أرزاق الجنود . وللسلطان بها سفن تسافر الى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة ... »<sup>(٦)</sup>

ويمكننا أن نتصور ضخامة النشاط التجاري في

( ١ ) الثرى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - أرشيبالد ر. لويس - ترجمة أحمد محمد عيسى - ص ٢٢٦ - القاهرة .

( ٢ ) سفرنامه - ناصر خسرو علوي - ترجمة د. يحيى الخشاب - ص ١٣ - القاهرة ١٩٦٨ .

( ٣ ) البلدان - اليعقوبي - ص ٣٢٧ - طبعة لندن ١٨٩٦ .

( ٤ ) تقويم البلدان - ابن الفداء - نشره ويته والبارون ماك كوكين ديسلان - ص ٢٥٣ - باريس ١٨٤٠ ، نغمة الدرر في عجائب البر والبحر - شيخ الزبوة الدمشقي - نشره مهرون ص ٢٠٧ ليزرغ ١٩١٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ٣١٣/١٣ .

( ٥ ) البداية والنهاية ٣١٣/١٣ ، زبدة كشف الممالك - نشره بولس راليس - ص ٤٨ - لابن شامون الطاهري - باريس ١٨٩٤ .

البندقية أو جنوا يعود الى بلاده وهو يحمل معه « سلال السكر وأكياسه من طرابلس الشام ».<sup>(١٠)</sup>

ولم تكن صناعة السكر هي الوحيدة في طرابلس ، بل كانت هناك صناعة الورق أيضا ، وهي الصناعة التي ساهمت بانتشار حركة التأليف وقيام المكتبات ودور العلم ، وكذلك صناعة النسيج التي أعجب بها الصليبيون حين احتلوا بلاد الشام الساحلية ،<sup>(١١)</sup> الى جانب صناعة ألواح الثلج وحفظها ، ونقلها الى قصور الخلفاء الفاطميين في مصر.<sup>(١٢)</sup>

الارض ويصرف في البحر .. » ، ويصف مزروعانها فيقول « وحول المدينة المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر ، وأشجار النارج والتنج والموز والليمون والتمر .. » ويقول « الأصطخري » عن طرابلس « وهي ذات نخل ، وقصب سكر ، وخصب ».<sup>(١٣)</sup> ويقول « الشريف الإدريسي » « ولها رساتيق وأكوار وضياح جليلة ، وبها من شجر الزيتون ، والكروم ، وقصب السكر ، وأنواع الفواكه ، وضروب الغلات ، الشيء الكثير ... ».<sup>(١٤)</sup> وكانت أرضها تنتج الفاكهة بنوعها ، الياسسة والرطبة ، وتعمل هذه الفواكه الى مصر في زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي .<sup>(١٥)</sup>

### الحركة الصناعية

وهكذا اجتمعت هذه العوامل الاقتصادية ، من تجارية وزراعية وصناعية ، لتكون سببا في ازدهار المدينة ورخائها ، وقد عاد ذلك بالخير على حكام المدينة وأهلها ، إذ عاشوا في بريحة ، وتعموا بثروات كثيرة . وشهد المؤرخون المعاصرون للفترة التي نهضت لها عظم ثروة طرابلس وأهلها ، فهذا « ابن الاثير » يقول « .. وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام ، وأكثرها تجملا وثروة ».<sup>(١٦)</sup> وهذا « ابن تيري بردي » يقول عن أهلها انهم « كانوا من أكثر

لما كان قصب السكر ينمو بغزارة حول طرابلس ، فقد أقيمت مصانع لمصره وتصنيعه ، وشاهد « ناصر خسرو » عملية عصر القصب بنفسه عند زيارته للمدينة ، وكانت طرابلس ومعها دمشق ، يوجه خاص ثمران أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى ، بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك ، بشكل رقائق ، أو ناعم ، بشكل دقيق ، أو بشكل حلوى .<sup>(١٧)</sup> وكان التاجر الأوروبي القادم من

( ٦ ) المسالك والممالك - الأصطخري - تحقيق د . محمد جابر الحيني - ص ٤٦ القاهرة ١٩٦١ .

( ٧ ) زينة المشتاق في اخراق الآفاق - الادريسي - نشر جوانيس جيلد ميستر - ص ١٧ - بون ١٨٨٥ .

( ٨ ) تاريخ الانطاكي - يحيى بن سعيد - نشر لويس شيخو - ص ٢٠٠ - بيروت ١٩٠٩ .

( ٩ ) لبنان في التاريخ - د . فيليب حتي - ص ٤١٤ - بيروت ١٩٥٩ .

( ١٠ ) فضل العرب على اوروية ( شمس الله على الغرب ) - د . سيفريد هرنكه - ترجمة د . فؤاد علي - ص ٢٨ ، القاهرة ١٩٦٤ .

( ١١ ) اللدندس لويس - حياته وولاته على مصر والشام - كتبها سيمون دي جرانفيل - ترجمة وتعليق د . حسن حيتي - ص ٢٦١ ، القاهرة ١٩٦٨ .

( ١٢ ) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢٤٩/٤ .

( ١٣ ) الكامل في التاريخ - ابن الاثير ٤١٢/١٠ - بيروت ، طبعة صادر .

أهل البلاد أموالاً وتجارة»<sup>(١٤)</sup> ويقول عنها في موضع آخر «إن فيها من الأموال والذخائر ما لا يحصى ولا يحصر»<sup>(١٥)</sup>

ومن الأمثلة على تراء أهل طرابلس ، انه بالرغم من تعرضها لحصار مستمر من الصليبيين في العشر الاخير من القرن الخامس الهجري ، فقد ظلت صامدة بفضل ثروتها التي أدهشت الصليبيين ، إذ عندما دخلت سفارة أرسلها «ريوندي تولوز» قائد الحملة الصليبية للتفاوض مع صاحب المدينة «فخر الملك بن عمار» ومرت بأسواقها ، أدهشها ما رآته من أنواع البضائع ورواج التجارة ، وعظيم الثروة والرخاء الذي ينعم به أمير المدينة وأهلها .<sup>(١٦)</sup>

أدى الرخاء والثروة التي نعم بها أهل طرابلس وأمرائها إلى الاهتمام بنواحي الحياة ومباهجها ، وسرعان ما بدت طرابلس كحاضرة كبيرة تجذب إليها كل راغب في الثروة ، ولذا قصدتها الشاعر المشهور «أبو الطيب المتنبي» وهو ما يزال في صباه ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ليدسح أحد رجالاتها ، وهو «عبيد الله بن خراسان الطرابلسي»<sup>(١٧)</sup> ولا شك انه كان يطمع في ثروته ليهبه ما يجود به ، على نحو ما فعل مع «سيف الدولة الحمداني» صاحب حلب ، و«كافور الأخشيدي» صاحب مصر .

وبما أن طرابلس تقع على ساحل البحر ، وتستقبل التجار والرحالة والمسافرين من كل بلد ومن كل لون ، فقد ساعد ذلك أهلها على تعلم لغات مختلفة للتعامل والتعامل مع التجار الأوروبيين . أو الآسيويين غير العرب .

كذلك ، فإن تعرض مدن وقرى الشام في هذه الفترة إلى أعمال النهب والتخريب والتدمير التي كان يقوم بها البيزنطيون وغيرهم ، أدى إلى كثرة النازحين إلى طرابلس من الأدياء والشعراء والمحدثين والفقهائ وغيرهم ، إذ كانوا يجدون فيها ملاذاً «أمنياً» وحصناً «منيعاً» لم يستطع البيزنطيون أن يدخلوه في كل حملاتهم .<sup>(١٨)</sup>

كما كان قرب طرابلس من حاضرة الشام ، دمشق ، عاملاً من عوامل ازدهار الحركة الثقافية فيها ، إذ كانت المدينة تجذب إليها كل عالم مقيم بدمشق أو زائر لها . وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، استقبلت طرابلس جماعة كبيرة من وجوه وأعيان دمشق ، فأقاموا فيها بقية حياتهم ، ومنهم من أقام فيها لعدة سنوات ثم غادروها بعد أن شاركوا في إثراء حياتها العلمية وحركتها الثقافية بعلومهم وفنونهم . وأتى المؤرخون على ذكر الرحلة الجماعية لوجوه دمشق إلى طرابلس عند حديثهم عن فتنة «أنتز بن آف بن الخوارزمي التركي» الذي

(١٤ و ١٥) التاجم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ابن نوري بدي - ج ٥/١٨٠ و ٤٧٦ - القاهرة .

(١٦) الحروب الصليبية الأولى - د . حسن حنن - ص ١٦٥ - القاهرة ١٩٥٨ .

(١٧) يتلو من سياق قصيدة المتنبي التي مدحه بها أنه كان والياً على طرابلس من قبل الدولة الأخشيدية .

(١٨) استعرضنا الحملات البيزنطية على بلاد الشام عامة ، وطرابلس خاصة ، في كتابنا «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور» - ج ١/١٨٩ -

٢٢٣ - طرابلس ١٩٧٨ .



شهرة طرابلس بمكتباتها ودور علمها ، ويحالف علمائها ، فانهدر إليها من بلدته المرة واستقر فيها زمنا يحالف العلماء ويحضر مناقشاتهم ، ويرتد على مكتباتها ، ويحفظ ما يقرأ عليه من الكتب في شتى المواضيع<sup>(٢١)</sup> . ويغلب الظن على انه كان يود أن يبقى طويلا في طرابلس لولا ان ورد عليه نعي والده في سنة ١٣٧٧هـ . فانصرف عنها ، غير انه اطلع على معظم الكتب الموقوفة بطرابلس على ما يبدو ، ويؤيد ذلك ما ذكره « القفطي » في « إنباء الرواة » أن أبا العلاء حضر خزانة الكتب التي يبد « عبد السلام البصري » - وكان يتولى النظر في دار العلم ببغداد - وطلب منه معرفة أسهام ما تحتويه من كتب ، فقرأ له البصري أسهامها ، فلم يستغرب أبو العلاء منها شيئا لم يقف عليه بدور العلم بطرابلس ، سوى كتاب واحد هو « ديوان تيم اللات » فاستعاره منه<sup>(٢٢)</sup>

إن هذه الرواية تشهد على ان دور العلم بطرابلس ومكتباتها كانت تجمع كل الصفات التي اطلع عليها ابو العلاء في دار العلم ببغداد ، اللهم الا كتابا « واحدا » هو ديوان تيم اللات وان نقص هذا الكتاب من مكتبات طرابلس لا ينقص من قيمة وغنى تلك المكتبات ، خاصة وانها كانت مكتبات أهلية بيتا مكتبة دار العلم ببغداد هي مكتبة عاصمة الخلافة العباسية حيث الامكانات المادية المتوفرة لدى

حاصر دمشق سنة ٤٦٨هـ . واعتقل عددا من وجوهها<sup>(٢٣)</sup> . وكان من بين الاعلام الذين غادروا دمشق في هذه المحنة وأقاموا بطرابلس الشاعر « ابن الحياط » صاحب الديوان المعروف باسمه وأخوه « يحيى » الذي أنجب في طرابلس عدة أبناء عرفوا بأبناء سني الدولة . وهكذا نجد أن لموقع المدينة أثرا « كبيرا » على الحركة العلمية التي شهدتها في العصر الوسيط ، وحتى في الفترة التي خضعت فيها للاحتلال الصليبي .

#### مظاهر الحياة الثقافية

إنصرف الموسرون والاختباء من أهل طرابلس وحكامها الى شراء الكتب واقتنائها ، وإقامة المكتبات العامة بمختلف المصنفات ، وقد مكنهم ثرواتهم من جمع كتب كثيرة . وبناء دور العلم ، وكان من شغل أهل طرابلس بالكتب والعلم والثقافة أنهم وقفوا كتبهم أو خزائنتهم لطلبة العلم تبرعا ، وأتى المؤرخون على ذكر تلك المكتبات التي كثرت في طرابلس ، الى حد يسترعي الاهتمام فقالوا : « .. وكانت بها خزان كتب موقوفة قد وقفها ذؤيب السار من أهلها »<sup>(٢٤)</sup> . ومن ترد على تلك المكتبات الشاعر المشهور « أبو العلاء المغربي » في الربع الاخير من القرن الرابع الهجري ، بعد أن طمعت نفسه الى الاستكثار من تلقي العلم والتزود بالمعرفة والاطلاع . وصلت اليه

( ١٩ ) تهذيب تاريخ دمشق - ابن عساكر - هبة الشيخ عبد القادر بدران - ج ٣٣١/٢ - دمشق ١٣٣١هـ .

( ٢٠ ) إنباء الرواة على أنباء النحاة - القفطي - ج ٥٠/١ ، القاهرة ١٩٥٠ ، نكت الحبان في نكت العميان الصفي - ص ١٠٣ ، القاهرة ١٩١١ ، شرح سواد التلخيص المنس معاهد التنصيص - العباسي - ص ٦٦ ، القاهرة ١٢٧٤هـ . آثار أبي العلاء - تأليف جماعة من الاساتذة - ج ١٩٠/١ ، القاهرة ١٩٤٤ .

( ٢١ ) مجال الاسلام - جبر بامات - ترجمة عادل زمير - ص ٢٧٦ ، القاهرة ، اعلام الفلسفة العربية كمال اليازجي وأطوار غطاس كرم - ص ١٧٠ - بيروت ١٩٦٤ .

( ٢٢ ) إنباء الرواة - ص ٥٠ .

للورق. (٢٣) وأشار «ناصر خسرو» الى صناعة الورق بطرابلس وأشاد بجودته أثناء رحلته ، فقال : « ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه » . (٢٤)

ولم تقتصر الحركة الثقافية في طرابلس على قيام المكتبات ، ودور العلم ، واستقبالها لطلبة العلم ، بل اشتملت ايضا على قيام حركة ترجمة واسعة ، فأدت طرابلس بذلك دورها الحضاري والانساني ، وشاركت أخواتها في المحاضر العربية في هذه الرسالة العظيمة التي كان فضلها كبيرا على البلاد الاوروبية حيث نشطت في طرابلس خلال هذه الفترة والفترة التي تلتها ( العصر الصليبي ) حركة الترجمة من الكتب اللاتينية ، والفارسية ، وغيرها ، الى العربية ، وبالعكس . (٢٥) ووقفت بذلك على قدم المساواة مع المدن العربية الاسلامية الكبرى كقرطبة ، والقاهرة ، ودمشق ، وبغداد . وترتب على قيام حركة الترجمة ، أن كثر النساخ والمخطاطون والمترجمون والوراقون الذين يعملون في هذا المجال .

وكان لقيام مصانع الورق أثره على حركة التأليف والكتابة والتجليد ، فكثر المجلدون الذين كانوا يعملون في تجليد الكتب على الطريقة الصينية وزخرفتها وتوشيحها بالمخطوط الملونة ، ووصلتنا أسماء عدد من الوراقين الطرابلسيين نذكر منهم « ابو الحسن ابراهيم بن عبد الله بن اسحاق الوراق »

الخلفاء ، الى جانب ازدهار المدينة بالعلماء والمؤلفين والنساخ . ولا يضير مكتبات طرابلس شيئا « أن تكون حتى ذلك الوقت أقل منها شأنًا » ، خصوصا « اذا تتبعنا تاريخ طرابلس السياسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، حيث نجد انها كانت عرضة لاغتهادات بيزنطية وصليبية متلاحقة ، تعرض خيراتنا للاستنزاف وتقلل من ثرواتها ، وتهدد ميناءها بالشلل والحركة التجارية بالكساد ، وتتسبب في صرف طلاب العلم ورجاله عنها » . وقد لاحظ الامبراطور البيزنطي « يوحنا زيمسكس » اعتاد المدينة على الثروة الزراعية المحيطة بها ، ولذلك عمد الى إحراق الرطب والقرى والمزارع والبساتين القريبة بعد أن فشل في اقتحام المدينة في حملته عليها سنة ٣٧٥هـ . ولكن طرابلس بالرغم من كل الاخطار التي كانت تتعرض لها فقد رفعت سيف الصمود بيد ، ومشعل العلم بيد أخرى ، ولم تنطفئ فيها جذوة العلم وهي تقاوم الحصار الصليبي .

ولا غرو أن تكثر المكتبات في طرابلس ، وان تزدهم بالكتب في القرن الرابع الهجري وفي القرن الذي تلاه ، فقد كانت مصانع الورق التي تقوم في المدينة تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بمختلف أنواعه المعروفة في ذلك الوقت من الكاغد والطوامير والقراطيس ، اذ اشتهرت طرابلس في هذه الفترة بمصانعها المنتجة

( ٢٣ ) تاريخ الدولة الفاطمية - د . حسن ابراهيم حسن - ص ٥٨٩ - القاهرة ١٩٦٤ .

( ٢٤ ) سفرنامه - ص ١٣ .

( ٢٥ ) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب - دي لاني أوليري - ترجمة وجيب كامل - ص ٣٦٦ القاهرة ١٩٦٢ .

الطرابلسيين فصار اليه منهم نحو مائتي دينار. (٢٤)  
وذلك في الربع الاخير من القرن الخامس الهجري .

#### بنو عمار مؤسسو دار العلم

إن القول الفصل في تحقيق الأصل الذي  
انحدرت منه اسرة بني عمار لم يجز به حتى الان ،  
فقد ظهرت هذه الاسرة على مسرح الاحداث في  
طرابلس خلال القرن الخامس الهجري ، إلا ان هناك  
أسرة أخرى تحمل الاسم نفسه ، وكسات في بلاد  
المغرب بشمال افريقية ، ونطالع أخبارها منذ بداية  
النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وتخلط  
المصادر التاريخية المعاصرة بين الأسرتين بشكل يعتقد  
معه الباحث أنها أسرة واحدة ، وذلك للتشابه الكبير  
في أسماء أفراد البيتين ، إلا أن إرجاع أصل أحد  
هذين البيتين إلى أرومة عربية من بني طيء ، والقول  
بأن شيخ البيت الآخر هو كبير قبيلة كتامة المغربية  
وشيخها وسيدها ، يدعو إلى التأمل فعلاً فيما إذا كان  
بنو عمار الافارقة يتنون بصلة القرابة لبني عمار  
الطرابلسيين ، فسلسلة نسب بني عمار تنتهي عند  
« المقرزي » بأبي يوسف الطائي ، (٢٥) والظانيون

ويعرف بوراق الوزير المتوفي سنة ٣٥٠هـ. (٢٦)  
و« الحسن بن محمد بن هبة الله ابو علي الطرابلسي  
الوراق » (٢٧) و« علي بن الخضر بن سليمان  
الوراق » المتوفي سنة ٤٥٥هـ. (٢٨) و« محمد بن  
الحسن بن هبة الله الوراق الطرابلسي » (٢٩)  
و« محمد بن هبة الله بن جعفر الوراق  
الطرابلسي » (٣٠) وكان لمحبث طرابلس الكبير  
« خيشمة بن سليمان القرشي الطرابلسي » المتوفي سنة  
٣٤٣هـ . وراقان ييجان بتوزيق مصنفاته (٣١) ها :  
« عثمان بن احمد بن شريك الدينوري » المتوفي  
حول سنة ٣٦٥هـ. (٣٢) و« محمد بن موسى ابو  
يعلي الملقب بذكر » (٣٣) .

وكان محور الشعر من أهل طرابلس مولعين باعطاء  
القصائد الى الخطاطين والشعراء لتبليغها لهم ، وكان  
الواحد منهم يدفع أكثر من سبعة دنائير ذهبية لتبليغ  
القصيدة الواحدة ونسخها . فقد نقل المؤرخ « ابن  
العديم الحلبي » عن الشاعر ابن الحياض أن الشاعر  
« ابن الخيشي الحلبي أحمد بن حمزة » قام بتبليغ  
سبعة وعشرين قصيدة في شهر رمضان لجماعة من

( ٢٦ ) تاريخ دمشق - ابن عساکر - مخطوط الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية - رقم ١٠٤١ تاريخ - ج ٢٢٧/٤ ، تاريخ الاسلام - الذهبي - مخطوط دار  
الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ - ج ٨١/٢٠ .

( ٢٧ ) للريعة الى تصانيف الشيعة - آغا برك الطهراني - ج ٢٣٢/١ - النجف ١٣٥٧هـ .

( ٢٨ ) ابن عساکر ٧/١١ و ١٤٠/٢٩ .

( ٢٩ ) للريعة ٧٣٣/١ .

( ٣٠ ) طبقات اعلام الشيعة - آغا برك الطهراني - ج ١٨٩/٢ - بيروت ١٩٧٦ .

( ٣١ ) من حديث خيشة بن سليمان - تحقيق د . عمر عبد السلام نعمري - ص ٤٧ - بيروت ١٩٨٠ .

( ٣٢ ) الاكمال - ابن ماکول - ج ٣٦٢/٤ - حيدر آباد ١٩٦٣ ، ابن عساکر ١١٥/٢٦ تاريخ الاسلام ٣٣٩/٢٠ .

( ٣٣ ) ابن عساکر ٨٢/٤٠ .

( ٣٤ ) بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم الحلبي - ج ٦٨/١ - نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، رقم ٩٢٩ تاريخ .

( ٣٥ ) إيفاد الحفا بأخبار الأئمة الفاطميين المخلتا - المقرزي - تحقيق د . جمال الدين السبيل ج ٤٧/٢ بالخاصة ، القاهرة ١٩٤٨ .

وقال له أنت أمني على دولتي ، ولقبه وكناه ، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترجلون له .<sup>(٤٧)</sup> وهو الذي فتح الطريق لأبناء قبيلته لينتقلوا الى الشام حيث أرسل القائد « أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي » الى دمشق . فقام أبو تميم هذا بوضع أخيه « علي بن جعفر بن فلاح » واليا على طرابلس سنة ٣٨٦هـ .<sup>(٤٨)</sup>

غير ان المصادر التاريخية التي بين أيدينا لا تتحدث عن تاريخ بني عمار في طرابلس الشام ولا عن كيفية مجيئهم اليها لأول مرة ، اذ تنقطع أخبار الأسرة المغربية بعد قتل شيخها « الحسن بن عمار » سنة ٣٩٠هـ .<sup>(٤٩)</sup> ولا نقف على أخبار أسرة بني عمار الطرابلسية الا في الربع الاول من القرن الخامس الهجري ، حيث نطالع اسم أحد أفراد هذه الأسرة « الامير الوزير رئيس الرؤساء خطير الملك أبي الحسن عمار بن محمد » ، وكان يتولى ديوان الانشاء في مصر ، وقتل في سنة ٤١٢هـ .<sup>(٥٠)</sup>

ثم نطالع ذكرا لاثنتين من أسرة بني عمار في

بطن من الدواسر ، أحد قبائل بادية نجد ، ويذكر « الألويسي » أنهم من أشهر قبائل الزيدية في بلاد قطيفة بجنوبي شبه الجزيرة العربية وأنهم فرقة من بني سعيد ، إحدى عشائر سورية الشمالية<sup>(٥١)</sup> .

وقد اعتنق بنو عمار في بلاد المغرب والشام المذهب الشيعي ، وعندما قامت الدولة الفاطمية تولى شيخ قبيلة كتامة مراكز قيادية في مصر والشام ، فكان منهم : « أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار ابن أبي الحسين »<sup>(٥٢)</sup> الذي نطالع اسمه للمرة الاولى في حوادث سنة ٣٥١هـ . أثناء حصار المسلمين لقلعة « طبرمين » في جزيرة صقلية ، اذ كان يقود جيش المزلدين الله الفاطمي وحاصر « رطمة » في الجزيرة<sup>(٥٣)</sup> وظهر بشكسل بارز على مسرح الأحداث في عهد الخليفة « العزيز بالله » فكان من أجل كتابه<sup>(٥٤)</sup> وهو كبير كتامة وشيخها وسيدها ،<sup>(٥٥)</sup> ولقب بأمين الدولة ، وهو أول من لقب في دولة المغاربة .<sup>(٥٦)</sup> ولما أفضت الخلافة الى الحاكم بأمر الله رد اليه الأمور والتدبير في سنة ٣٨٦هـ .

( ٣٦ ) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - القلشندي - ص ٤٠٥ - تحقيق إبراهيم الابياري ، تاريخ نجد - الألويسي - ص ٨٩ ، عشائر الشام - وصفي زكريا ٢/٢٢٢ ، الامارات العربية في بلاد الشام - محمد محمد الشيخ - رسالة دكتوراه - ص ١١ - مصر .

( ٣٧ ) مكنيا ورد اسمه في « وفيات الأعيان » - ابن خلكان - ٢٠١/٢ تحقيق د . احسان عباس - طبعة بيروت ، والاثارة الى من نال الوزارة - ابن منجب الصفي - تحقيق عبدالله غلص ص ٦٦ ، طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٤ .

( ٣٨ ) المكتبة العربية الصقلية - تحقيق ميخائيل أماري - ص ٥٣٠ - ليزرغ ١٨٥٧ .

( ٣٩ ) ذيل تاريخ دمشق - ابن الفلاني - نشره أمدرود - ص ٢٠ - بيروت ١٩٠٨ .

( ٤٠ ) وفيات الأعيان ٢/٢٠١ .

( ٤١ ) ذيل مجارب الأمم - أبو شعاع الروادري - ج ٢٢٢/٢ - نشره أمدرود - مصر ١٩١٦ .

( ٤٢ ) الاشارة ٣٦ .

( ٤٣ ) ابن الفلاني ٤٣ .

( ٤٤ ) ابن الفلاني ٥٦ ، الاشارة ٢٧ .

( ٤٥ ) الاشارة ٣٤ ، الدرر النضية في أخبار الدولة الفاطمية - ابن أبيك الروادري - ص ٣١٥ ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد - القاهرة ١٩٦١ .

الواضح في المصادر ، بحيث أن أية دراسة حول تسلسل أسانهم ستظل محاطة بالغموض أو الشك ، ولسنا هنا في مجال مناقشة هذا الموضوع . كما اختلف المؤرخون المحدثون في تحديد تاريخ حكم بني عمار في طرابلس ، ونحن نرجع تاريخ ولايتهم الى سنة ٤٢٤هـ . حيث كان « أمين الدولة أبو طالب عبد الله ابن محمد بن عمار » يحكم المدينة من قبل الدولة الفاطمية على سبيل الولاية ، فجمع بين منصبي الوالي والقاضي ، وفي ذلك يقول المقرئزي : « إن الدولة قد حولت الثغر في أيدي بني عمار على سبيل الولاية ، فلما جاءت الدلائد تغلبوا عليه ، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه فلم يرموا أيديهم في يده ، ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح عن ولايتهم » . (٥٠)

واستمر أمين الدولة ابن عمار على ولايته للدولة الفاطمية الى أن بدأ يحكم طرابلس بشيء من الاستقلال الذاتي ، عقيب سنة ٤٥٧هـ . / ١٠٦٦م . ثم استقل بها تماما عن الدولة الفاطمية سنة ٤٦٢هـ . / ١٠٧٠م . واتخذ موقفا « محايدا » بينها وبين الدولة السلجوقية في العراق . (٥١)

ولم يطل حكم أمين الدولة بعد استقلاله وتأسيس إمارة بني عمار في طرابلس ، اذ توفي سنة

طرابلس ، ها « أمد بن محمد بن عمار » المعروف بأبي الكتاب ، و « عبد الله بن محمد بن عمار » المعروف بالقاضي الجليل أبي طالب . وقد صنف « أبو الفتح الكراجكي » المتوفي سنة ٤٤٩هـ . لأبي الكتاب كتابين ، (٥٢) ولأبي طالب كتابا في الفقه .. (٥٣)

ولدينا رواية « ابن حجر » عن « ابن أبي طيء » تقول ان ابن القطان البغدادي توجه الى طرابلس فأقام عند رئيسها أبي طالب محمد بن أحمد وأقرأ أولاده ، وصنف له « الشامل في الفقه » من ٤ مجلدات ، وكان موجودا سنة ٤٢٠هـ . (٥٤)

ولما كان « الكراجكي » موجودا في طرابلس سنة ٤٣٦هـ . كما يذكر في أحد مصنفاته ، (٥٥) فهذا يعني انه وضع المصنفات لبني عمار في الثلاثينات من المائة الخامسة . ورواية « ابن أبي طيء » تجعل وجود بني عمار بطرابلس في الربع الاول من القرن الخامس فهو يعرف أبا طالب برئيس طرابلس ، وهذه اشارة الى انه كان قاضيا المتصرف في شؤونها وما يليها من الحصون .

وجدير بالذكر ان الباحث المدقق يواجه عملا « مضنيا » عند تتبع أسماء أفراد أسرة بني عمار حسب ترتيبهم لاضطراب تلك الاسماء واختلافها

( ٤٦ ) طبقات اعلام الشيعة ١٢٢ ، القدير في الكتاب والسنة والأدب - العامل التلوي . ج ١/١٥٥ ، بيروت ١٩٦٧ .

( ٤٧ ) الذريعة ١٠٥/٣ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٩ و ١٢٢ .

( ٤٨ ) لسان الميزان - ابن حجر - ج ٢/٢٦٧ - حيدر أباد ١٣٣٠هـ .

( ٤٩ ) كتاب التفضيل - أبو الفتح الكراجكي - ص ٨ - طهران ١٣٧٠هـ .

( ٥٠ ) عتبات الحفا ٧٨/٣ - القاهرة ١٩٧٣ .

( ٥١ ) دائرة المعارف الإسلامية - ( مادة بني عمار ) - سور تهايم - ص ٣٥٣ .

٤٦٤هـ. / ١٠٧٢م. وبعد صراع على الحكم تم لابن أخيه « جلال الملك » الانفراد بالحكم ، وطالت مدة حكمه حتى توفي سنة ٤٩٢هـ. (٥٦) ثم خلفه أخوه « فخر الملك » الذي سطرت طرابلس في عهده سجلا من الصمود تفخر به على مر التاريخ ، حيث وقفت بقيادته تتحدى الهجمة الصليبية مدة عشر سنين حتى سقطت بأيديهم في آخر سنة ٥٠٢هـ. / ١١٠٩م.

ومن أفراد أسرة بني عمار نذكر « شمس الملك ابن أمين الدولة المعروف بأبي المناقب » وناب عن ابن عمه « فخر الملك » بحفظ طرابلس أثناء سفره الى بغداد سنة ٥٠١هـ. لطلب التجدة ضد الصليبيين. (٥٦)

و « جلال الدولة أبو القاسم علي بن أحمد بن عمار » وكان « قاضيا » في الاسكندرية ، وقتله الأفضل الجلبالي سنة ٤٨٨هـ. (٥٦)

#### اهتمام بني عمار بالنواحي الأدبية والعلمية

كان « أمين الدولة » مؤسس إمارة بني عمار

المستقلة رجلا « عاقلا » فقيها ، شديد الرأي ، (٥٥) ومن فقهاء الشيعة . كما كان كاتبا « مجيدا » ، ألف كثيرا من الكتب النفيسة. (٥٦) ولم يصلنا من هذه المؤلفات شيء ، سوى اسم كتاب واحد بعنوان « تزويج الأرواح ومفتاح (٥٧) السرور والأفراح » المنعوت « جراب الدولة » . واسم هذا الكتاب ورد عند « ابن الفرات » ، ونسبته الى أمين الدولة تستدعي التأمل ، فقد ورد اسم هذا الكتاب منسوباً الى « أحمد بن محمد بن علوية السجزي » ويكنى أبا العباس ، ويعرف بجراب الدولة من أهل سجستان . وكان « طنبوريا » ومن الظرفاء المتطايين في أيام المقتدر بالله العباسي ( ٢٩٥ - ٣٢٠هـ ) وأدرك دولة بني بويه ، ويلقب بالريح ، سعى نفسه بجراب الدولة لأنهم كانوا يفتخرون بالنسبة في الدولة . قال « ابن التديم » : له من الكتب كتاب « النوادر والمضاحك في سائر الفنون وال نوادر » . وسمى هذا الكتاب « تزويج الأرواح ومفتاح السرور والأفراح » وجعله فنونا ، وهو كتاب كبير . (٥٨) وقال « ياقوت » : لم يصنف مثله اشتالا على فنون الهزل والمضاحك . (٥٩) وجاء في كشف الظنون كتاب بعنوان

( ٥٢ ) الاطلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - نشره د . سامي الدغمان - ص ١٠٨ - دمشق ١٩٦٢ تاريخ ابن الفرات - تحقيق د . قسطنطين زريق ج ٧٧/٨ - بيروت ١٩٦٩ .

( ٥٣ ) الاطلاق الخطيرة - ج ٢ ق ١٠٩/٢ ، ابن الفرات ٧٧/٨ المدرة الزكية في أخبار الدولة العركية - ابن أبيك - تحقيق أورخ هارمان - ص ٢٨٥ ، القاهرة ١٩٧١ .

( ٥٤ ) أخبار الدول المنقطعة - ابن طاهر - ص ٨١ و ٨٤ - نشره أندريه فر - القاهرة ١٩٧٢ .

( ٥٥ ) الاطلاق الخطيرة ١٠٧ .

( ٥٦ ) الاطلاق الخطيرة ، ابن الفرات .

( ٥٧ ) ابن شداد . وعند ابن الفرات « مصباح » .

( ٥٨ ) الفهرست - ابن التديم - ص ١٥٣ - نشره غوستاف جلوبن - بيروت ١٩٧٢ .

( ٥٩ ) معجم الأدباء - ياقوت الحموي - ج ١١٨/٤ ، الوافي بالوفيات ٧/٨ .

ان من الغريب - كما يقول الدكتور مصطفى جواد - أن ينسب ابن الفرات كتاب « ترويح الأرواح » في الفكاهة والمزحل والباطل الى قاض وأمير ذي ديانة متينة ، ولا شك أن هذه الرواية يعثرها الاضطراب ويشوبها النقص حيث جمعت بين اسم الكتاب ولقب مؤلفه وجعلتها اسما « لكتاب القاضي ابن عمار » ، وهذا من أشنع الغلط. <sup>(٦٣)</sup> والمراجع ان اسم كتاب ابن عمار ( جراب الدولة ) يبحث في اقتصاديات الدولة الاسلامية وارتفاع الواردات ، وهذا يتناسب مع مكانة القاضي الجليل والأمير الفقيه .

ومن جهة أخرى ، اتخذ أمين الدولة ابن عمار دار علم له جمع فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وفقاً <sup>(٦٤)</sup> وكان يرسل المراسلات الى أقطار البلاد ويبدل الاثمان الباهظة ، ويحبب الكتب النادرة هذه المكتبة ، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء ، ويستقبل طلاب العلم الى عاصمته. <sup>(٦٥)</sup> حتى توفي سنة ٤٦٤هـ . في شهر رجب وأثنى عليه المؤرخون فقال سبط ابن الجوزي « القاضي أمين الدولة الحاكم على طرابلس والمتولي عليها ، كان عظيم الصدقة ، كثير المراجعة للعلويين ، تفرد بذلك في زمانه ولم يدانيه أحد من أقرانه » <sup>(٦٦)</sup>

« مفتاح السرور والأفراح » غير منسوب لأحد. <sup>(٦٠)</sup> وذكر المرحوم الدكتور « سامي الدهان » انه لم يقع على ذكر الكتاب منسوباً لابن عمار وأنه وقع على كتاب بهذا الاسم في « ذيل تاريخ الادب العربي » لكارل بركلمان - ٥٥٩/١ - وينسب الى « جراب الدولة » ، وهو مخطوط محفوظ في مكتبة باريس الأهلية برقم ٣٥٢٧ <sup>(٦١)</sup>.

وذكر « ابن خلدون » كتاباً بعنوان « جراب الدولة » نقل منه ما كان يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع التواحي وجد بخط ( أحمد بن محمد بن عبد الحميد ) ، وهو يعدد غلات السواد مثل كوردجلة وحلوان والأفواه وفارس وكرمان والسند وسجستان وخراسان وجرجان وهمذان وأذربيجان وأرمينية ودمشق والاردن وفلسطين ومصر وأفريقية واليمن والحجاز ، وغيرها ، من سكر وزيت وقر وثياب وعسل وغيره. <sup>(٦٢)</sup> وموضوع هذا الكتاب موضوع جليل ونافع يبحث في اقتصاديات الدولة العباسية فأين هو من موضوع كتاب « جراب الدولة » في المضاحك والتواذر الذي نسب الى ابن عمار قاضي طرابلس الفقيه الجليل .

( ٦٠ ) كشف الظنون - عمدة ١ ، ١٧٦ .

( ٦١ ) الأطلاق الخطيرة - حاشية ص ١٠٧ .

( ٦٢ ) مقدمة ابن خلدون ١٧٩/١ و ١٨٠ ، طبعة دار احياء الفرائد العربي - بيروت .

( ٦٣ ) مقالة بعنوان « دار العلم في طرابلس » للدكتور مصطفى جواد - نشرت في « دائرة المعارف الاسلامية الشيعية » ، من وضع حسن الأمين - ج ١٢/١٣ - بيروت ١٩٧٧ دار المعارف م ٣ .

( ٦٤ ) ابن شداد ، ابن الفرات ، ابن خلدون - العبر في ديوان الجنتا والمحر - ٨٦٥/٥٠ ، بيروت .

( ٦٥ ) لبنان في التاريخ ٣٥٢ .

( ٦٦ ) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي ١٣٨/١٢ قسم ٢ .

الشعراء والادباء الذين لم تصلنا أسماؤهم ، فضلا عن أن سديد الملك كان « له فضل جلي ، وشهر كانه في نضارته جلي ، وهو وفي بعلمه ملي .. » . (٧٦)

وكان فخر الملك ابن عمار ، أيضا مقصد الشعراء والأدباء ، ومحبا للمجالس العلمية والمناظرات الادبية فيعقد في قصره المناظرات والمسابقات الشعرية والفقهية والخطابية . وقد ذكر « العماد الأصفهاني » نقلا عن « ابن النصار الطرابلسي » ان فخر الملك اقترح على الشعراء أن يعملوا قصيدة على وزن قصيدة « ابن هاني » المغربي وجعل للفائز جائزة ، ففاز بها الشاعر ابو الحسن علي بن ابراهيم المري . (٧٧)

وفي عصر بني عمار كانت مجلس العلم تقام في « دار العلم » التي أنشئت خصيصا لتدريس العلوم المختلفة ، ومن حلقات التعليم في عهدهم الحلقة التي يعقدها « ابو عبد الله الطليطلي » الناظر على دار العلم . كما كانت مساجد المدينة تشهد بمجالس العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والقراء ، فكانت الرحلة اليها من مختلف الاقطار ، حيث يقصد بمجالس

وقال ابن شداد انه « من أعقل الناس وأسدعهم رأيا » (٧٨) وقال ابن الفرات « وكان ابن عمار هذا رجلا عاقلا فقيها سديد الرأي » . (٧٩) ورثاه الشاعر « ابن حيوس » في ديوانه (٨٠) .

واقضى كل من جلال الملك ثم فخر الملك آثاره ، فقام جلال الملك بتجديد دار العلم سنة ٤٧٢هـ - ١٠٨٢م . وكان مقصد الشعراء من أنحاء الشام . ووقف على طلبة العلم جرايات من الذهب ، كان المتولي على دار العلم يقوم بتوزيعها على طلبة الدار . (٨١) وبني جامعا باسمه في طرابلس ، (٨٢) وساهم في إعادة بناء جامع حلب الكبير . (٨٣) وفي عهده استضافت طرابلس الأمير سديد الملك أبا الحسن علي بن منقذ صاحب شيزر لعدة سنوات ، فأثرى الحياة الأدبية أثناء إقامته بها حيث قصده الشعراء وتباروا في مدحه ، ومنهم : الشاعر الدمشقي ابن الحياط ، والشاعر الحفاجي ، وشرف الدين بن الحلواني شاعر الموصل ، وابن مزاحم الصوري (٨٤) وأبو يعلى الأتاسي ، (٨٥) وابن السلويدة المعري ، وابن الحبشي الحلبي (٨٦) وابن حيوس ، وغيرهم من

( ٧٦ ) الاطلاق الخطية ١٠٧/٢ .

( ٧٨ ) تاريخ ابن الفرات ٣٢/٨ .

( ٧٩ ) ديوان ابن حيوس ١٢٢/١ ، سبط ابن الجوزي - ج ١٢ ق ١٣٨/٢ .

( ٨٠ ) ديوان ابن الحياط - ص ١٢١ - تحقيق خليل مردم بك - دمشق ١٩٥٨ .

( ٨١ ) Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe- Gaston Wiet- T.8- p. 42 .

( ٨٢ ) الدر المنثور في تاريخ ملكة حلب - ابن التحنة - تعليق يوسف إللي - سركيس - ص ٦٣ - بيروت ١٩٠٩ .

( ٨٣ ) ابن عساكر ٣٩٨/٣٧ .

( ٨٤ ) ابن عساكر ٤٠٨/٣٧ .

( ٨٥ ) بغية الطلب في تاريخ حلب ١٧/١ .

( ٨٦ ) غرنية القصر وجريدة العصر - العماد الأصفهاني - تحقيق د . شكري فيصل - ج ٥٥٢/١ ، دمشق ١٩٦٨ .

( ٧٧ ) الخريدة ج ٧٧/٢ - دمشق ١٩٥٥ .



والمحاورة التي جرت بين قاضي طرابلس « ابن  
البراج » وعبد السلام القزويني شيخ المعتزلة المتوفي  
سنة ٤٨٨هـ . (٨٣)

وكان بنو عمار من الممدحين من شعراء عصرهم ،  
ومن الشعراء الذين مدحهم : « ابن الخياط  
الدمشقي » وقد حفل ديوانه بالقصائد التي أنشدتها  
لهم ، و « ابن النفاذ » الكاتب والشاعر الطرابلسي في  
ديوانه أيضا ، و « ابو المواهب المعري » و « ابن  
العلائي المعري » ، و « ابو الفتيان بن حيوس »  
صاحب الديوان المعروف باسمه ، و « ابو الحسن  
التاهض الكتامي » و « ابن هبة الله الطرابلسي »  
المعروف بالأفطسي ، و « سديد الملك بن منقذ »  
وغيرهم . وكان عبد الله الحميري المعروف بابن  
النفاذ المولود بطرابلس سنة ٤٧٩هـ . يحضر مجلس  
فخر الملك ابن عمار ويدون قصائد الشعراء الواردين  
الى طرابلس في ديوانه ، وعنه نقل « العماد  
الاصفهاني » بعض تلك القصائد في الحريدة . (٨٤)

#### تاريخ بناء دار العلم

يذهب بعض الباحثين والمؤرخين الى أن  
مؤسس « دار العلم » هو جلال الملك ابو الحسن  
علي بن محمد بن عمار ، في سنة ٤٧٢هـ . (٨٥)

علائها الطلبة فرادى وجماعات ، وقد شهد أحد  
مساجدها رحلة جماعية قام بها شيوخ عسقلان  
بفلسطين ليسمعوا فيه على العالم الطرابلسي « عمر  
بن داود بن سلمون » . (٧٨)

والى جانب حلقات الدرس والتعليم ، كانت  
هناك لقاءات أدبية تتم بين عدد من الادباء والشعراء  
في أماكن غير المساجد أو المدارس ، مثل اللقاءات  
التي كانت تتم في دكان أحد العطارين النصاري  
يسوق طرابلس ويدعى ابا المفضل النصراني ، أو في  
منتزهات المدينة ، فابن الخياط الدمشقي كان يتردد مع  
أبي الحسين هبة الله بن الحسن الحافظ على دكان  
العطار ويتجاذبان الأشعار . (٧٩) كما كان الشعراء  
يخرجون الى عين ماء بظاهر طرابلس تعرف بعين  
ملكان فيتطارحون الأشعار عندها . كما يجتمع عندها  
الشيوخ فيعمدون مجالس الحديث . (٨٠) كذلك ، فقد  
كانت حلقات المناظرة تقام بين الفقهاء والشعراء في  
قصور بني عمار ، ومنها المناظرة التي جرت بين  
القاضي « ابن أبي روح » وبين بعض فقهاء  
المالكية (٨١) والمناظرة الخطابية التي كانت بين  
« الحسين بن بشر الطرابلسي » المتوفي على دار  
العلم ، والخطيب البندادي المؤلف المعروف . (٨٢)

( ٧٨ ) الأنياب - السعاني - ص ١٠٥ ب - النسخة المصورة

( ٧٩ ) تهذيب ابن عساكر ٦٧/٢ ، مجلة المجمع العلمي العربي - دراسة ديوان ابن الخياط - خليل مردم بك - مجلد ٢٣ - ج ٣ ص ٣٥٨ - دمشق ١٩٥٨ .

( ٨٠ ) ابن عساكر ١٥٤/٤ .

( ٨١ ) تاريخ الإسلام ( مجلد الحوادث ٥٠٠ - ٥٣٠هـ . ) - ص ٢٠٥ - النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .

( ٨٢ ) لسان الميزان - ابن حجر العسقلاني - ج ٢/٢٧٥ - حيدر آباد ١٣٢٩هـ .

( ٨٣ ) ابن عساكر ١٦٦/٢٤ .

( ٨٤ ) انظر كتابها « الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال المصمر الوسطى » في مواضيع مختلفة .

( ٨٥ ) مصر والشام في الغابر والحاضر - د . أسعد طلس - ص ٦٥ ، القاهرة ١٩٤٥ .

وتدحض هذا القول روايتا المؤرخين : « ابن شداد » و « ابن الفرات » في تاريخيهما ، وكذلك عدة وقائع ذكرها غيرها من المؤرخين ترجع تاريخ بناء الدار الى سنين سابقة لعهد جلال الملك ، فأمين الدولة الحسن بن عمار مؤسس الامارة المستقلة « كان له دار علم فيها مايزيد على مائة ألف كتاب وقفا » . ونفهم من هذا النص أن مكتبة دار العلم هذه كانت مكتبة عامة لأنها موقوفة في سبيل العلم والاطلاع والمعرفة .

ومن البديهي أن يبادر « أمين الدولة » خلال فترة حكمه الممتدة بين ٤٢٤ - ٤٦٤ هـ . الى إقامة هذه الدار في عاصمة إمارته لتكون قاعدة دينية وثقافية وفكرية ، سيما بعد أن استقلت طرابلس عن الدولة الفاطمية سياسياً . وليس من الواضح التأكيد إذا كانت هناك أية فكرة في أن تكون دار العلم منافسة للجامع الازهر بالقاهرة وبث المذهب الشيعي للأئمة الاثنى عشر السائد في ساحل الشام في العصر الفاطمي .

ويدعم قولنا أيضاً ، من أن دار العلم كانت موجودة في النصف الاول من القرن الخامس الهجري معرفتنا لأحد نظارها « ابن بشر الطرابلسي » حيث كان على نظارته قبل سنة ٤٤٩ هـ . وهو الذي تناظر والمحيط البغدادى أثناء رحلته في ساحل الشام .

وحول تأسيس دار العلم ، ومناظرة ابن بشر

والمحيط ، يضع المرحوم « يوسف العش » تاريخاً لكل منها ، فيحدد تأسيس الدار بسنة ٤٧٣ هـ .<sup>(٨٦)</sup> ويحدد تاريخ المناظرة بشهر شعبان من سنة ٤٦٢ هـ . / ١٠٦٩ م . أي عندما دخل المحيط طرابلس قبل فتح دار العلم حسب قوله !

“Cette polemique dut avoir lieu vers le mois de s a b a n 462/1069 quand Hatib entra a Tripoli, c'est-a-dire avant l'ouverture du dar al-'ilm” .<sup>(٨٧)</sup>

ونحن نقول : إن تحديد تاريخ تأسيس الدار بسنة ٤٧٣ هـ . فيه سهو غير مقصود - ربما - إذ أراد بسنة ٤٧٢ هـ . كما هي عند « ابن العديم » ، وهو يعتمد على نص روايته التي تقول أن القاضي جلال الملك هو الذي جدد دار العلم في سنة ٤٧٢ هـ . وهذه أيضاً ، رواية تدعو للمناقشة بعد قليل .

أما تحديد المناظر بسنة ٤٦٢ هـ . فلا يقوم عليه دليل . ونحن نرى انها جرت قبل سنة ٤٤٩ هـ . قطعاً ، ونرجح انها حول سنة ٤٤٧ هـ . لأن المصدر الوحيد الذي أتى على ذكر تلك المناظرة هو « أبو الفتح الكراچكي » ، وهذا توفي سنة ٤٤٩ هـ . فكيف يذكر أمراً « حدث بعد وفاته بثلاثة عشر عاماً » ؟

ومن الواضح أن المرحوم « العش » اعتمد في

(٨٦) Les bibliotheques Arabes, Publiques et Semi- Publiques en Mesopotamie, Syrie et en Egypte Au Moyen Age- Youssef Eche- P.117- Damas 1976

Youssef Eche- P.119 (٨٧)

وفاة « الكراجكي » بثلاث سنوات ، وهذا يدعم رواية « الكراجكي » حول المناظرة بين الخطيب وناظر دار العلم ، والتي ترجع انها جرت في هذه الرحلة أوائل سنة ٤٤٧هـ .

وهناك دليل قوي آخر على زيارة الخطيب لطرابلس في التاريخ الذي ترجمه ( أوائل سنة ٤٤٧هـ ) . نستمد من كتابه « تاريخ بغداد » حيث أثبت في مقدمته فصلا عن أنهار بغداد حدثه عنها « عبد الله بن محمد بن علي البغدادي » بطرابلس عن بعض متقدمي العلم .<sup>(٩١)</sup> وإذا علمنا ان الخطيب أتم تأليف تاريخه الكبير قبل عودته الى بغداد وهو في صور اثناء اقامته بها للمرة الثانية ، حيث أهدى نسخة منه بخطه الى « أبي منصور عبد المحسن بن محمد المعروف بابن شهد انكه المالكي » المتوفي سنة ٤٧٨هـ .<sup>(٩٢)</sup> لتأكد لنا ان الفصل الخاص عن ذكر أنهار بغداد الجارية التي كانت بين الدور والمساكن وتسمية ما كانت تنتهي اليه من المواضع والأماكن قد كتبه الخطيب قبل سنة ٤٦٠هـ . على أية حال ، لأنها السنة التي وقف عندها في التأريخ لوفيات الأعلام الذين تضمنهم تاريخ بغداد .<sup>(٩٣)</sup>

ولتعد الآن الى النص الذي ورد عند « ابن العديم » فأثار هذا الجدل لقرأه بحرفيته : .. وقد

تحميد سنة ٤٦٢هـ . على ما ذكره « ابن الجوزي »<sup>(٩٤)</sup> و « ياقوت الحموي »<sup>(٩٥)</sup> حيث يقولان ان الخطيب البغدادي خرج من بغداد الى الشام اثناء فتنة « البساسيري » ( سنة ٤٥٦هـ ) . وأقام بدمشق ، ثم خرج الى صور سنة ٤٥٧هـ . فأقام بها حتى سنة ٤٦٢هـ . ثم خرج الى طرابلس ، ثم الى حلب ، فأقام بها سنة واحدة وتوفي سنة ٤٦٣هـ .

إن هذه الرحلة ، هي الرحلة المشهورة للخطيب البغدادي ، وهي التي اعتقد المرجع « العث » ان المناظرة جرت فيها أثناء الأيام الغلائل التي أمضاها الخطيب في طرابلس قبل عودته الى بغداد .

ولكن للخطيب رحلة سابقة الى ساحل الشام قبل رحلته المشهورة ، فقد تبين لنا بعد تتبع سيرته وترجمته في كتب التاريخ وطبقات الرجال وتراجم المحققين ، من شيوخه وتلاميذه ، انه خرج من بغداد مرتين ، ففي سنة ٤٥٦هـ . كان خروجه للمرة الثانية أما خروجه للمرة الاولى فكان في سنة ٤٤٦هـ . حيث ذهب لاداء فريضة الحج ، ودخل الشام ، ونزل مدينة صور ، ولقي بها « أبا الفرج عبد الوهاب الغزال البغدادي » المتوفي سنة ٤٤٧هـ . فسمع منه الحديث .<sup>(٩٦)</sup> وهذا يعني ان الخطيب كان بصور قبل

( ٨٨ ) المتظم في تاريخ الملوك والأمم - ابن الجوزي - ج ٢٦٦/٨ - تحرير أيد ١٣٥٩هـ .

( ٨٩ ) معجم الأعلام - ياقوت الحموي - ج ١٩/٤ .

( ٩٠ ) الأنساب ٤٠٨ ب ، ابن عساکر ٥٤٣/٢١ .

( ٩١ ) تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - ج ١١١/٨ .

( ٩٢ ) الأنساب ١١٠ ب ، ابن عساکر ٣٦٦/٢٤ .

( ٩٣ ) تاريخ بغداد ٤٤٦/١٤ .

ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة. وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة<sup>(٩٤)</sup>.

ومن الواضح أن الالتباس بمبعته كلمة « جدد » الواردة في النص، فيبدو أن المرحوم « العنق » فسرّها بـ « أسس » أو « أوجد » أو « أنشأ » .. ونحن لا نرى مبررا للتفسير والتأمل، فكلمة « جدد » تعني إعادة شيء قديم أو عتيق إلى حالة حسنة، فالتجديد، استئناف لشيء مؤسس سابقا. فدار العلم كانت موجودة قديما، ويحتمل أن بنائها تصدع لسبب من الأسباب، أو أنها ضاقت عن استيعاب الكتب المتزايدة من الكتب، فاحتاج بناؤها إلى ترميم أو توسيع، فقام جلال الملك بتجديد الدار في سنة ٤٧٢هـ. كما قال ابن العديم.

وذكر الاستاذ محمد كرد علي أن مكتبة طرابلس كانت قبل بني عمار، لأن بني عمار لم يستولوا على طرابلس إلا بعد الأربعين وأربعمائة. وأن أبا العلاء المعري زار طرابلس وانتفع بخزانتها وكتبها

الموقوفة<sup>(٩٥)</sup>. وقال بعضهم إن أبا العلاء كان يتردد على دار العلم التي بناها بنو عمار في طرابلس<sup>(٩٦)</sup>. وهذا قول لا يعتد به، لأن أبا العلاء توفي سنة ٤٤٩هـ. وكان حضوره إلى طرابلس في سنة ٣٧٧هـ. وفي هذا التاريخ لا نجد أي ذكر لبني عمار في طرابلس، كما لم نعرف عن أبي العلاء أنه عاد إلى طرابلس من جديد. غير أن الاستاذ محمد سليم الجندي ينكر رحلة أبي العلاء إلى طرابلس أصلا، وحتى رحلته إلى انطاكية واللاذقية. ولا يصدق ما قاله كل من: القفطي، والذهبي، والصفدي، والسيوطي، وغيرهم. ويرد على الدكتور طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء » وعلى الاستاذ الميمني في « أبي العلاء وما إليه »، ويقول: إن رحلة أبي العلاء إلى انطاكية واللاذقية وطرابلس، وقصة حفظه لما على عليه، وتعلمه من الراهب، وأخذه من مكتبة طرابلس، لا تظمن النفس إلى شيء منها. وليس هناك ما يوجب القطع بصحتها، وإنما سداها بهم ولحمتها الباطل. وإن قول ابن العديم في مكتبتي أنطاكية وطرابلس أقرب إلى الصواب والواقع...<sup>(٩٧)</sup>.

ونحن إذا قرأنا ما ذكره ابن العديم ثانية لوجدنا أن الاستاذ الجندي قد ذهب بعيدا عن مفهوم الرواية، فابن العديم نفى أن يكون أبو العلاء قد

(٩٤) الأصفهاني والتبريزي في دفع الظلم والتعري عن أبي العلاء المعري - ابن العديم الحلبي ص ٥٠ - نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية رقم ١٠٨٥ تاريخ، تيمور.

(٩٥) غلط الشام ١١١/٦.

(٩٦) آراء وأبحاث - د أسد رستم - ص ٣٩، بيروت ١٩٦٧، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي د السيد عبد العزيز سالم - ص ٣٨٧، الاسكندرية ١٩٦٧.

(٩٧) الجامع في أخبار أبي العلاء - محمد سليم الجندي - ج ٢/١ و ٢/٣، دمشق ١٩٦٢.

وقد ذكر المؤرخ « ابن أبي طي » اسم أول هؤلاء النظار « الحسين بن بشر » بين رجال الشيعة الذين ترجم لهم ومن المؤسف ان كتب هذا المؤرخ قد فقدت ، ولو وصلت إلينا لوقفنا على وصف أوضح لدار العلم ، وبيان أوفى لمكتبتها ، إذ كان معاصرا لها ، وتناول الحديث عن مكتبات الفاطميين بمصر بصورة مفصلة ، ونقل « ابن حجر العسقلاني » ترجمة « ابن بشر » عنه وقال انه كان صاحب دار العلم بطرابلس .<sup>(٩٨)</sup> إلا انه لم يذكر له تاريخا .

أما الناظر الثاني فهو « أبو الفضل أسعد » الذي تولى النظر عليها بعد سنة ٤٨٠ هـ . - على ما يبدو- إذ كان حتى هذه السنة ما يزال تلميذا « لقاضي طرابلس » ابن البراج .<sup>(٩٩)</sup>

وكان الناظر الثالث « ابو عبد الله الطليطي » قد وفد على طرابلس من الاندلس ومن المحتمل أنه جاءها في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . بعد سقوط مدينة طليطلة في أيدي القشتاليين كما يعتقد الدكتور سالم .<sup>(١٠٠)</sup> واستدل من لقبه « الطليطي » على أنه أندلسي الاصل . وهذا الناظر بقي على دار العلم حتى دخل الصليبيون المدينة أواخر سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م .

رحل الى دار العلم بطرابلس لانها لم تكن قد أوجدت بعد ، بيد أنه لم ينف الرحلة مطلقا ، لأن طرابلس كانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تحتوي على مكتبات موقوفة موزعة في المساجد والمدارس قبل قيام دار العلم . ولنا أن نراجع ما ذكره : القفطي ، والصفدي ، والعماسي ، وغيرهم ، لتؤكد من أن مكتبات طرابلس التي عنوها لم تكن هي دار العلم التي أقامها بنو عمار وإنما هي « .. خزان كتب موقوفة ، قد وقفها ذوو اليسار من أهلها .. » .

#### نظار دار العلم

وصلت إلينا أسماء ثلاثة من تولوا النظر على دار العلم بطرابلس ، هم على التوالي :

١ - الحسين بن بشر بن علي بن بشر الطرابلسي ، المعروف بالقاضي .

٢ - أسعد بن أحمد بن أبي روح ، ابو الفضل الرافضي القاضي .

٣ - أحمد بن محمد ، ابو عبد الله الطليطي النحوي .

ولكننا لم نعرف مدة ولاية كل منهم ، وكما كانوا يتقاضون من مرتبات لقاء وظيفتهم هذه .

( ٩٨ ) ضبط خليل مردم بك في ديوان ابن الخطيب ١٢١ « الدوح » بالدال ، والذي أثبتاه هو المشهور .

( ٩٩ ) لسان الميزان ٢/ ٢٧٥ .

( ١٠٠ ) هو عبد العزيز بن البراج ، ابو القاسم ، قرأ على الشيخ المرتضى ، والطوسي ، وغيرها ، وتولى طرابلس سنة ٤٣٨ هـ . ولاء جلال الملك الله ابن عمار قضاء طرابلس ، فلبث في منصبه عشرين عاما ، « وقيل ثلاثين عاما » . نعرف بوجه الاصطحاب ولقبهم ، إلى أن تولى سنة ٤٨١ هـ . وقد ثبت على الشافيين . وترك مصنفات بالعربية والفارسية . ( انظر عنه روضات الجنات ) - الخوانساري ج ١/ ١١٢ - طهران ١٣٩٠ هـ . الكتي والألقاب - عباس القمي ٢١١/٨ - التلبي ١١٥٦ .

( ١٠٠ ) طرابلس الشام ٣٨٧ .

ومن مطالعنا لتراجم النظائر الثلاثة نلاحظ انه قد روعي في تولية هذه الوظيفة على رجال علماء لهم وزنهم ومكانتهم وشهرتهم العلمية .

فابن بشر الطرابلسي كان خطيباً « منها » وكان من أعيان الشيعة ، وله خطب يضاهي بها خطب « ابن نباتة » المشهور بهذا الفن .<sup>(١٠٧)</sup> كذلك اشتهر عن ابن بشر أنه جرت بينه وبين الخطيب البغدادي المؤرخ مناظرة في الخطابة ذكرها « أبو الفتح الكراچكي » المتوفي سنة ٤٤٩هـ . في رحلته وقال انه حكم لابن بشر بالتقدم على الخطيب البغدادي في العلم .<sup>(١٠٨)</sup>

وأبو الفضل الرافضي كان قاضياً وفقهياً ، ورأساً للشيعة في الشام ، وقد عقدت له حلقة الاقراء ، وانشد بالشام وطرابلس وفلسطين . وكان مرجعاً للامامية واليه يرجع أهل عقيدته بعد شيخه القاضي « ابن البراج » وولي بعده قضاء طرابلس وأخذ عن شيخه العلوم في سنة ٤٨٠هـ . وقبلها . وكان متعبدا « زاهدا » . ذكره « ابن عساكر » فقال انه جليل القدر ، يرجع اليه أهل عقيدته ، وكان عظيم الصلاة والتجهد ، لا ينأى الا بعض الليل ، وكان صمته أكثر من كلامه . وحكى أبو اللطف الداراني قال : ما استيقظت من الليل قط الا وسمعت حسه بالصلاة ،

وبالغ في وصفه وحكى له كرامة . وجمع « فخر الملك ابن عمار » بينه وبين بعض فقهاء المالكية فناظرهم في مسائل منها : تحريم الفقاع ،<sup>(١٠٩)</sup> وحديث القرآن ، وأفعال الناس مخيرة أم مسيرة ، والمتعة . وذكر الذهبي نقلاً « عن ابن أبي طي » أن أبا الفضل انتقل من طرابلس الى صيدا وأقام بها ، وكان مرجع الاسامية بها ، فلم ينزل الى أن ملكت الفرنج صيدا ، فأظنه قتل بها عندما ملكت الفرنج البلاد ، ورأيت من يقول انه انتقل الى دمشق .<sup>(١١٠)</sup>

وقال ابن حجر انه توفي قبل سنة ٥٢٠هـ . وينقل عن ابن أبي طي انه قتل في حيفا عندما ملكها الصليبيون . وهذا لا يتفق مع ما ذكره المؤرخون من أن حيفا سقطت بيد الصليبيين سنة ٤٩٤هـ . وبذلك يكون القول في تحوله الى دمشق ووفاته بها قبل سنة ٥٢٠هـ . أقوى .

وقد خرج أبو الفضل من طرابلس أثناء الحصار الصليبي لها ، وعندما انتقل منها كانت له مكتبة خاصة تحتوي على أكثر من أربعة آلاف مجلد ، وقد ضاعت .<sup>(١١١)</sup> وهو صاحب المصنفات المتعددة ، وسنذكرها بعد قليل . وتفرج على يديه عدد من التلاميذ منهم « ابن مخلوف الراشدي » المعروف بابن بركات الطرابلسي .<sup>(١١٢)</sup>

( ١٠١ ) هو عبد الرحيم بن محمد بن ثباتة الحجازي ( ٩٤٦ - ١٠٨٤ م ) خطيب . ولد ومات بهمالقون بديار بكر ، عاش حلب وكان خطيبها . اشتهر بخطبه في الحث على الجهاد في حروب سيف الدولة مع البيزنطيين . قرأ على الثني بعض شعره . له ديوان مطبوع .

( ١٠٢ ) لسان الميزان ٢/ ٢٧٥ .

( ١٠٣ ) الفقاع الكماء ، نبات لطري .

( ١٠٤ ) تاريخ الاسلام ( حوادث ٥٠٠ - ٥٤٠ هـ ) - ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، سيرة اعلام النبلاء - ج ١٢ في ١١٦ و ١١٦ .

( ١٠٥ ) لسان الميزان ٣٨٦/١ و ٣٨٧ ، أعيان الشيعة - ج ١١/ ١٢٤ .

( ١٠٦ ) انظر الصدرين السابقين .

« وافتحه وأقرأ من أول الصفحة سطرا » واحدا ،  
« فأخذت جزءا » وفنحته وقرأت منه سطرا ، فقرأ  
الصفحة بأجمعها حفظا « حتى أتى على تلك الأجزاء  
جميعها . فأريت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة  
البشر .. » .

وكان ابو عبد الله يعقد حلقة للتعليم في طرابلس  
قبل ان يتولى النظر على دار العلم ، والمرجع ان هذه  
الحلقة كانت تقام داخل دار العلم ، وكان الشاعر ابن  
الحياط يغنى تلك الحلقة ، كما كان يتردد على الدار  
عندما كان « ابو الفضل » ناظرا عليها . ويبدو ان  
الفضل استمر في منصبه الى سنة ٤٨٦هـ . أو بعدها  
بقليل إذ في هذه السنة غادر ابن الحياط طرابلس ولم  
يشر الى ما يدل على تغيير في نظارة الدار .

وقنع ابو عبد الله الطليطلي بشهرة عظيمة في  
علمه ومنصبه مما حدا بوالده اسامة<sup>(١١٣)</sup> وعده<sup>(١١٤)</sup>  
ان يبعثا مجال الى الصليبيين اقتديا به من أينهم إبان  
سقوط طرابلس . كما اقتديا معه شخصا يدعى  
« يانس الناسخ » واستخلصهما لنفسهما ، فأصبح

أما « أبو عبد الله الطليطلي » فكان رجل علم ،  
ومن الملاحظة المكرين ، ويتمتع بملكة نادرة في حفظ  
نصوص الكتب . وقد أشار « اسامة بن منقذ » الامير  
والشاعر المعروف الى ذلك في كتابه « الاعتبار »<sup>(١١٥)</sup>  
عندما أخبره في قوة حفظه ، اذ كان يتهدب على  
يديه ، حيث لبث يقرأ عليه علم النجوم مدة عشر  
سنين . ويقول اسامه عن شيخه وأستاذه ما نصه  
« الشيخ العالم ، أبو عبد الله الطليطلي ، النحوي ،  
رحمه الله ، وكان في النحو سببويه زمانه ، قرأت عليه  
النحو ، نحوا من عشر سنين ، وكان متولي دار العلم  
بطرابلس » . ثم قال « .. وشاهدت من الشيخ أبي  
عبد الله عجا » . دخلت عليه يوما لأقرأ عليه ،  
فوجدت بين يديه كتب النحو « كتاب  
سببويه » ،<sup>(١١٨)</sup> وكتاب « المختصائص » لابن  
جني ،<sup>(١١٩)</sup> وكتاب « الايضاح » لأبي عبد الله  
الفارسي ،<sup>(١٢٠)</sup> وكتاب « اللمع » ،<sup>(١٢١)</sup> وكتاب  
« الجمل »<sup>(١٢٢)</sup> نقلت : ياشيخ أبا عبد الله ، قرأت  
هذه الكتب كلها ؟ قال : قرأتها لا والله الا كتبتها  
في اللوح وحفظتها . تريد ان تدري ؟ خذ جزءا

( ١٠٧ ) الاعتبار - اسامة بن منقذ - تحقيق د . فليپ حني - ص ٢٠٨ و ٢٠٩ - برلستون ١٩٣٠ .

( ١٠٨ ) عرف باسم « الكتاب » أو « كتاب سببويه » وسببويه لقب فارسي معناه رائحة النفاخ ، وهو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، أمير الحارثة .  
ناظر أمام نسخة الكوكبة « النكاساني » لمحمديا بانتصار عليه ، فألف وعاد الى بلد فرسج كتابه المشهور هذا ونرى ١١٢ و قبل ١٨٠ .

( ١٠٩ ) عثمان بن جني ( ٩١٢ - ١٠٠٢ م ) نحوي . ولد بالمرسل ومات ببغداد . حقق اللغة والنحو . ويرى في الصرف : اعتمد على آراء الفارسي وأكملها . له عدة مؤلفات .

( ١١٠ ) من أشته النحو . نزل طرابلس وسكنها مدة . كان شيعيا ولللك عهد الدولة ، ولابن جني « مات ببغداد سنة ٣٧٧ . سير اعلام النبلاء - ج ١ ص ٢٤٣/٢ ، المعري بن خرمير ص ٤/٣ ، ابو علي الفارسي حياته ومكانته بين أشته العربية - د . عبد الفتاح اساميل شلي - ص ١٤٧ و ١٤٨ ، مصر ١٣٧٧ .

( ١١١ ) يقول د . فليپ حني انه لا ين جني ( الاعتبار ٢٠٩ ) وأقول لعنه لا ين نصر السراج .

( ١١٢ ) يقول د . فليپ حني انه إما أبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي القوي سنة ٩٥٠ م . أو لعبد القاهر الجرجاني القوي سنة ١٠٨١ م . وأقول : لعنه لأبي  
خالدويه النحوي القوي سنة ٩٨٠ م .

( ١١٣ ) هو محمد الدين ابوسلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ( ١٠٦٨ - ١١٣٧ م )

( ١١٤ ) هو عز الدين ابو الصاكرا سلطان بن علي بن مقلد المروزي بطرابلس ، والمروزي سنة ٥٤٣هـ .

ذكر عنه اسامه أنه « قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن الجواب »<sup>(١١٨)</sup> وقال انه أقام عندهم بشيزر مودة من الزمن ، ونسخ لوالده ختمتين من المصحف الشريف ،<sup>(١١٩)</sup> ثم انتقل الى مصر في سنة ٥٠٦ هـ . فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية ، وكان الأفضل بن بدر الجوالي قائد الجيوش يؤدي اليه عشرة دنائير في الشهر ، وثلاث رزم كسوة في السنة ، بالإضافة الى الهبات والرسوم . ولبيت مقيا في مصر حتى توفي في سنة غير معلومة .<sup>(١٢٠)</sup>

#### طلبة دار العلم

تردد على دار العلم بطرابلس الكثير من طلبة العلم ، وتخرج منها العديد في كل فن ، وزارها جماعة كبيرة من العلماء الذين كانوا ينزلون طرابلس في رحلاتهم ، ولكن المصادر التاريخية لا تصرح بأسماء أولئك الذين استفادوا من الدار ومكتبتها العامة ، إذ لم يصلنا سوى اسم أحد طلبتها وهو « أحمد بن محمد ابن علي » الشاعر المعروف بابن الخياط الدمشقي ، المولود سنة ٤٥٠ هـ والمتوفي سنة ٥١٧ هـ . وكان قد خرج من دمشق في الفترة ما بين سنة ٤٦٣-٤٦٩ هـ . إذ كانت تعاني خلالها فترة عصبية

الطليطلي استاذاً « لأسامة ، بيتا عمل « يانس » في نسخ الكتب ، أو على الأرجح في نسخ المصحف الشريف ، إذ كان والد اسامة مولعا بنسخ المصاحف .<sup>(١١٥)</sup>

وليس من العسير ان نستدل من اسم « يانس التاسع » على انه كان أحد النساخين أو الخطاطين الذين كانوا يعملون في نسخ المصنفات بدار العلم بطرابلس ، وإن مهنته قد غلبت على كنيته فأصبح يعرف بها . وهو الاسم الوحيد الذي وصلنا من بين مائة وثلاثين ناسخا<sup>(١١٦)</sup> كان دأبهم نسخ المصنفات والمؤلفات القديمة والقيمة .

هذا ، وقد أخرجت طرابلس عددا ممن برعوا في الخط ، نذكر منهم « أحمد بن حمزة بن الشام الحلي » وهو طرابلسي الاصل . وكان له خط حسن على غاية ما يكون من الضبط والافتقان . ذكره ياقوت الحموي وقال انه رأى بخطه نسخة من شعر أبي الطيب المتنبي ، وقد نسخها بمصر في سنة ٥٠٨ هـ .<sup>(١١٧)</sup>

وكما رأينا نبوغ ابن بشر في الخطابة ، ورسوم أبي الفضل في العلم ، وشهرة الطليطلي في النحو ، فإن يانسا « التاسع كان ماهرا » أيضا في فنه ، فقد

( ١١٥ ) ذكر أسامة أن أباه كان يكتب خطا « مليحا » وكان لا ينسخ سوى القرآن الكريم . وانه نسخ ٤٦ ختمة من المصحف الشريف بخطه منها ختمتان بالذهب .

( ١١٦ ) المكتبات في الاسلام - د . محمد ماهر حمادة - ص ١٢٣ - بيروت ١٩٧٠ ، P. 118 Echo بيت الحكمة - سعيد الديوي جي - ص ٥٥ - جامعة المرسى ١٩٧٢ ، دار العلم بطرابلس الشام - مجلة الحديث - محب الدين الخطيب - ج ٤ / ١٧٥ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

( ١١٧ ) بغية الطلب في تاريخ حلب - ج ٦٥ / ١ .

( ١١٨ ) هو أبو الحسن علي بن هلال البواب ، خطاط عربي مشهور . كان أبوه بواب بيت القضاء ببغداد . نسخ القرآن بيده أربعاً وستين مرة ، وهو الذي ابتدع الخط الرعائي . توفي سنة ٤١٣ هـ .

( ١١٩ ) الاعتبار ٢٠٨ .

( ١٢٠ ) إتصاف الحفا - ج ٥١ / ٣ .



وغشى ابن الحياط حلقة الدرس التي كان يعقدها ابو عبد الله الطليطي ، وكان الطليطي يعنف طلبته الذين لا يحفظون ما يعطيهم من دروس ، وكان ابن الحياط من بينهم ، وقد ذكر الذهبي عن الطليطي قوله : « كان ابن الحياط أول ما دخل طرابلس وهو شاب ، يفتشاني في حلقتي وينشدني ما أستكثره له ، فأتهمه ، لأنني كنت إذا سألته عن شيء من الأدب لا يقوم به ، فوبخته يوما على قطعة عملها ، قلت : أنت لا تقوم بنحو ولا لغة ، فمن أين لك هذا الشعر ؟ فقام الى زاوية ففكر ، ثم قال : اسمع :

وفاضل قال إذ أنشدته ، نخباً  
من بعض شعري وشعري كله نخب  
لا شيء عندك مما يستعين به  
من شأنه معجزات النظم والخطب  
فلا عروض ولا نحو ولا لغة  
قل لي فمن أين هذا الفضل والادب ؟  
فقلت قول امرئ صحّت قريحته :

إن القريحة علم ليس يكتسب  
ذوقي : عروضي ، ولفظي : جلّه لغتي  
والنحو : طبعي ، فهل يتناقض سبب ؟  
فقال ابو عبد الله الطليطي : حسبك الله ، والله  
لا استطمت لك بعدها عظيماً . ولزمه بعد ذلك ، فأفاد  
ابن الحياط من الأدب ما استقل به . (١٢٤)

من الفتن والجوع والفاقة ، وهو ما يزال في صباه ،  
فقصدهم ، ثم ذهب الى حلب فالتقى هناك بالشاعر  
« ابن حيوس » فشكا له حاله ، فقال له : « كرم  
عندي ، ونعيت الى نفسي ، فإن الشام لا يخلو من  
شاعر مجيد ، فأنت وارثي ، فاقتصد بنسي عمار  
بطرابلس فإنهم يحبون هذا الفن . » (١٢١) فنزل  
طرابلس والتحق بدار العلم ، فكان من ينظر اليه  
يعتقد انه جمال أو جمال لشكله وطوله وعرضه ويزنه ،  
وما كانت صورته تنبئ عن ذكائه ولطفه وفضله  
وفطنته ، ولما كان فقيراً فقد انضم الى غيره من  
الطلبة الفقراء الذين يتقاضون الجرايات والهبات التي  
وقفها بنو عمار عليهم ، وصرح هو بذلك في ديوانه ،  
وقال : .. ومضيت الى بني عمار ومدحتهم فأحسنوا  
الي وأجأوني الى إجابة شعري . » (١٢٢) وكان جلال  
الملك ابن عمار أمر القاضي أبا الفضل بتوزيع الذهب  
على الطلبة . غير أن ابن الحياط لم يلحقه نصيب من  
ذلك فكتب الى أبي الفضل يعاتبه ويطلبه بنصيبه .

أبا الفضل كيف تناسيتني  
وما كنت تعدل نهج الرشاد  
فأوردت قوما رواء الصدور  
وحالات مثلي وإنسي لصاد  
لقد أبأستني من ودك الحقيقة  
إن كان ذا بأعجاب . (١٢٣)

( ١٢١ ) التبريم ٢٢٦/٥ ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - ج ٣/٢ مجلد ٢٢ - ص ٢٥٣ وما بعدها .

( ١٢٢ ) خريدة القصر - ( شعراء دمشق ) - ص ٢٤٣ بداية قسم شعراء الشام .

( ١٢٣ ) ديوان ابن الحياط ١٢١ .

( ١٢٤ ) سير أعلام النبلاء - ج ١٢ - ق ١١٠/٨ عمود ٢ .

ومن تلاميذ الطليطلي ، أبو جعفر محمد بن محمد ابن هبة الله المولود في طرابلس في سنة ٤٦٢هـ . وقد قرأ عليه العربية . وأخذ علم النسب على علي ابن محمد بن ملفطة العلوي النسابة بطرابلس ايضا . ولا شك انه كان في عداد طلبة دار العلم ، وتخرج منها ، وعمل في نسخ الكتب ، وقال الشعر ، فكان يكتب على طريقة أبي عبد الله بن ملقة ، (١٢٥) ومدح جلال الملك ابن عمار وغيره في سنة ٤٨٥هـ . فكان أول ما ظهر شعره ، ثم اعتقله فخر الملك ابن عمار لأمر بدا منه ، ثم أخرجته من طرابلس بعد مدة فقصد الأفضل بن بدر الجمالي ومدحه في سنة ٥٠٩هـ . ثم عاد الى طرابلس وقدم على فخر الملك بأهله وبنيه قبل خروجه منها فمدحه ولزمه ، وولي قاضي عسقلان في سنة ٥١٠هـ . وصرف بعد سنة ، وعاد الى القاهرة فولي صاحب ديوان الأقباس ، والجامع العتيق ، والأوقاف ، والمواييث بمصر والقاهرة وأعمالها في سنة ٥١٥هـ . ثم ولي قضاء المحلة الغربية من غربي الفسطاط ، ورشح الى ولاية نقابة الاشراف . وقال فيه القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب « الجنان ورياض الأذهان » انه شاهده بمصر في سنة ٥١٧هـ . فرأى شخصا كامل الأدوات ، قد أحرز

ومن طلبة الدار أيضا « الأمير والشاعر أبو المساكر سلطان بن علي بن مقلد بن منقذ » المولود بطرابلس سنة ٤٦٤هـ . حيث نشأ وتعلم فيها وتلمذ على يد الطليطلي ، ووفاه لاستاذة فقد قدم للصليبيين فدية لاطلاق سراحه حين استولوا على المدينة ، واستضافه عنده بشيزر حين ولي إمرتها ، فأفاد هناك ، ولذا عرف بنزيل شيزر ، وقرأ عليه فيها الأديب « أبو عبد الله محمد بن يوسف بن منيرة الكفرطاسي » المتوفي سنة ٥٥٣هـ . (١٢٨) و « عبد القاهر بن عبد الله المعروف بالسوواء الحلبي » المتوفي سنة ٥٥١هـ . (١٢٩) فضلا عن أسامة بن منقذ .

ومن تلاميذ الطليطلي ، أبو جعفر محمد بن محمد ابن هبة الله المولود في طرابلس في سنة ٤٦٢هـ . وقد قرأ عليه العربية . وأخذ علم النسب على علي ابن محمد بن ملفطة العلوي النسابة بطرابلس ايضا . ولا شك انه كان في عداد طلبة دار العلم ، وتخرج منها ، وعمل في نسخ الكتب ، وقال الشعر ، فكان يكتب على طريقة أبي عبد الله بن ملقة ، (١٢٥) ومدح جلال الملك ابن عمار وغيره في سنة ٤٨٥هـ . فكان أول ما ظهر شعره ، ثم اعتقله فخر الملك ابن عمار لأمر بدا منه ، ثم أخرجته من طرابلس بعد مدة فقصد الأفضل بن بدر الجمالي ومدحه في سنة ٥٠٩هـ . ثم عاد الى طرابلس وقدم على فخر الملك بأهله وبنيه قبل خروجه منها فمدحه ولزمه ، وولي قاضي عسقلان في سنة ٥١٠هـ . وصرف بعد سنة ، وعاد الى القاهرة فولي صاحب ديوان الأقباس ، والجامع العتيق ، والأوقاف ، والمواييث بمصر والقاهرة وأعمالها في سنة ٥١٥هـ . ثم ولي قضاء المحلة الغربية من غربي الفسطاط ، ورشح الى ولاية نقابة الاشراف . وقال فيه القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب « الجنان ورياض الأذهان » انه شاهده بمصر في سنة ٥١٧هـ . فرأى شخصا كامل الأدوات ، قد أحرز

( ١٢٥ ) هو أبو علي محمد بن علي المعروف بأبن مقلدة الوزير ، صاحب الخط الذي تعرب بعسنة الامثال . تولي الوزارة ثلاث مرات ولعدة خلفاء . قطع يده « الأراضي العباسي » لكتيب بالسار مثل ما كان يكتب بالبين ، ثم شد على يده المظفوعة وكتب بها لثم يفرق بين خطه قبل قطعها وبعده . مات بالحبس سنة ٣٢٨هـ .

( ١٢٦ ) ابن عساكر ٣٣٢/٢٩ ، الملقب - المقيزي - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية - ج ٥٢/٤ و ٥٣ - رقم ٥٧٢٢ تاريخ .

( ١٢٧ ) الحريدة - قسم شعراء مصر - نشر أحمد أمين وشوقي هبيب وأحسن عباس - ج ١٢٩/٦ - ١٤٤ - القاهرة ١٩٥١ .

( ١٢٨ ) الحريدة ٥٧٣/١ ( قسم شعراء الشام ) .

( ١٢٩ ) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير ، الأديب صاحب الديوان المعروف به ولد بعكا سنة ٤٧٨ وتنا بقبسارية فنسب اليها . وسكن دمشق وامتدح الملوك والنبلاء وتولى ادارة الساعات التي على باب الجامع . قرأ الادب وتعلم الهندسة على توفيق بن محمد بن زريق الطرابلسي ، وأبى الترح بن الشام الطرابلسي . توفي سنة ٥١٨هـ . ( بنية الطلب ج ٦٤/٧ و ٦٥ و ٦٦/٨ ، تاريخ الاسلام ٣٣٢/٢٥ )

ومن درس في دار العلم ايضاً « ابو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسين النقار » ، وهو الكاتب المعدل المولود بطرابلس في سنة ٤٧٩ هـ . (١٣٣) إذ نشأ وتأدب وقرأ القرآن بها ، وعندما تخرج تولى وظيفة الخطابة والامامة في جامع جبلة (١٣٤) ثم انتقل الى دمشق فكتب الانشاء للملكها ، وكتب لنور الدين محمود وسمع شعره « ابن عساكر الدمشقي » . (١٣٥) وكانت وفاته بدمشق في سنة ٥٦٩ هـ . (١٣٦)

ومنها تخرج أبو محمد توفيق بن محمد المعروف بابن زريق الطرابلسي فكان من كبار العلماء في الهندسة والنحو والتاريخ ، وقد ولد بطرابلس في سنة لا نعرفها وانتقل الى دمشق اثناء الحصار الصليبي ، على الأرجح ، وتوفي بها سنة ٥٦٦ هـ . ترجم له « القفطي » فقال : « كان جده محمد بن زريق يتولى الثغور الشامية من قبل الطائع لله . وانتقل ابنه عبيد الله الى الشام ، وولد توفيق بطرابلس ، وانتقل الى دمشق وسكنها . وكان أديباً « فاضلاً » حاسباً « هندسياً عالماً » يعلم الهندسة وتسيير الكواكب . « يعلم كلام الأوائل ومقاصدهم ومذاهبهم ، ويفيد علم العربية . قرأ عليه عالم من الأدباء وتخرجوا به . وكان له شعر جيد » . (١٣٧) روى عنه ابن الصغير

ومن خريجي الدار الشاعر الطرابلسي « أحمد بن منير » المولود بها سنة ٤٧٣ هـ . فقد ذكرت كتب التراجم انه حفظ القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب بطرابلس قبل ان يهاجرها الى دمشق اثناء الحصار الصليبي . وهو أشهر من أخرجته طرابلس من الشعراء في العصر الوسيط على الإطلاق ، إتصل بمعظم ملوك وأمراء ووزراء وأعيان عصره في الشام والعراق ، وترك ديواناً نافس في معاصريه ابن القيسراني (١٣٠) حتى شبيها بجرير والفرزدق ، (١٣١) وأكثر أشعاره الحماسة والتي تحض على الجهاد ومقاتلة الصليبيين هي التي أنشدتها لمعاد الدين زنكي ، ثم لابنه نور الدين محمود . ومعظم قصائده هذه حفظها لنا المؤرخ الدمشقي « أبو شامة » في كتاب « الروضتين » حيث ضاع ديوانه ، وتوزعت قصائده في الغزل والثرثاء والوصف والتشبيب والهجاء والمديح وغير ذلك من العديد من كتب الأدب والتاريخ . وقد جمعنا شتاتها فبلغت ألفاً وخمسمائة وخمسة وخمسين بيتاً . ويبدو أن ذكريات الدراسة في دار العلم جمعت بينه وبين أمير شيزر « سلطان بن منقذ » حيث استضافه عنده مدة . (١٣٢) وكانت وفاته بحلب سنة ٥٤٨ هـ .

( ١٣٠ ) الخريدة ١/٣٧٦ ( قسم شعراء الشام ) .

( ١٣١ ) الخريدة ٢/١٥٥ ( قسم شعراء الشام ) .

( ١٣٢ ) تهذيب ابن عساكر ٢/٩٨ .

( ١٣٣ ) ابن عساكر ١٩/٦٠٣ .

( ١٣٤ ) تهذيب ابن عساكر ٤/٣٥٧ .

( ١٣٥ ) تهذيب ابن عساكر ٧/٢٧٩ .

( ١٣٦ ) الخريدة ١/٣١٤ .

( ١٣٧ ) إنباء الرواة على أنباء النحلة - القفطي - ج ١/٢٥٨ .

أبي الفضل بن أبي روح ، ونفخ منها ، واشتغل بالأدب فصنف كتاب « التصريح في شرح قصيدة كثير وابن ذريح » . وتوفي سنة ٥٤٠ هـ . (١٤١)

وتخرج من الدار « أبو طاهر جعفر بن علي بن دواس » المعروف بقمر الدولة ، وهو شاعر من أهل مصر ، ولكنه نشأ بطرابلس ودرس فيها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها مدة في خدمة « قسيم الدولة البرمقي » وكان نديما له . (١٤٢) وكان قمر الدولة شاعرا رقيق الألفاظ عذب الاليراد ، لطيف المعاني . وله في الغناء وضرب العود وطربه طريقة حسنة بديدة . وشعره في بعض المصادر . (١٤٣)

ودرس بدار العلم « أبو الحسن علي بن يحيى بن هبة الله الكتامي » المعروف بالناهض وهو من مواليد الاسكندرية والمتوفى بها في آخر المحرم سنة ٥٣٣ هـ . ذكره أبو طاهر السلفي فقال : « الناهض هذا كان كبيرا » ، وكان يحفظ من أشعار متأخري الشاميين كثيرا ، ورأى منهم شعراء بطرابلس ، وبها تربى في خدمة بني عمار ، وقد علقت منها ملحاً . (١٤٤) ومن الشعراء الذين التقى بهم في طرابلس وروى عنهم : « أبو القاسم زيد بن أحمد بن عبيد الله » المعروف بأبن أبي الفتح الماهر الحلبي ، وقد رآه ابن الخياط

القيصري شيئا من شعره ، وقرأ عليه شيئا من علوم الحكماء في تسيير النجوم وتأثيرها . وحقق بقرائه على ابن زريق نسخة من « ذريح كشيبار » ، وهو كتاب ينسب إلى كشيبار بن لبان الجبلي يحسب سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم . (١٤٨) وكان الشيوخ من تلاميذه يقولون : « كان توفيق ، ذا توفيق ، وعلم وتحقيق ، ونظر وتدقيق ، وله تصانيف ، وشعر حسن لطيف » . (١٤٩)

وخرج من طرابلس مهندس آخر في تلك الفترة هو « ابن أبي العيش الطرابلسي » وهو أحد أفراد أسرة أبي العيش التي أنجبت عددا من القضاة والأعلام ، وأشهرت بالعلم والأدب والفضل ، ونرجح أن ابن أبي العيش هذا درس في دار العلم ، ثم خرج من طرابلس أثناء حصار الصليبيين لها ، وانتقل إلى مصر فكان بين الخيرة الذين أنشأوا المرصد المأموني ، مع أبي عبد الله محمد بن فاتك البطانحسي الملقب بالمأمون ، وهو الوزير الفاطمي الذي صلب حول سنة ٥٩٩ هـ / ١١٢٥ م . (١٥٠)

ومن طلبة الدار « أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن مخلوف الراسدي » المعروف بأبن بركات الطرابلسي ، وكان يتردد عليها أيام نازحها القاضي

( ١٣٨ ) إنباء الرواة ٢٥٨/١ .

( ١٣٩ ) إنباء الرواة ٢٥٨/١ و ٢٥٩ .

( ١٤٠ ) دائرة المعارف الإسلامية ٣٠٩/٧ ( مادة البطائحي ) .

( ١٤١ ) لسان الميزان - ج ٣٨٧/١ ، إنباء النسخة - ج ١٣٥/١١ ، إنباء المكتون في الليل على كشف الظنون - ج ٢١٣/١ .

( ١٤٢ ) الزواجر بالويليات - الصلبي - ج ٥٠/١١ - نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، ١٣٩ تاريخ .

( ١٤٣ ) انظر الزواجر ٥٠/١١ و ٥١ ، الدرر النضية في الدولة الفاطمية - ابن أبيك - ج ٥٩٣/٦ : فرائد الويليات - ابن شاعر الكتبي - ج ٢٠٠/١ ، خريدة

القصير - قسم العراق - ج ٦٤/٢ و ٦٥ .

( ١٤٤ ) معجم السلف - السلفي - ج ٢٦٣/٢ - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٩٣٢ تاريخ .

فكان أحد الشهود المعدلين ، وكتب الشروط ، وروى عن والده ، وأكثر من تلاوة القرآن الكريم ، حتى توفي سنة ٥٣٣ هـ .<sup>(١٤٨)</sup>

ونهم : « محمد بن الحسين الطرابلسي » المعروف بالحنك ، القاضي المرتضي . ولد بطرابلس ونشأ فيها وتلقى علومه بدار علمها ، ثم انتقل الى مصر فولاة الوزير « رضوان بن مايهتي » ديوان المجلس في ذي القعدة سنة ٥٣٩ هـ ، ثم صرف ، وأعيد ثانيا بعد « ابن معصوم » في ربيع الآخر سنة ٥٤٢ هـ . وكانت وفاته سنة ٥٤٩ هـ . قال ابن ميسر : « وكان ممن ولي نظر الدواوين والخزائن وغير ذلك من المناصب . وله ( تاريخ خلفاء مصر ) قطع فيه على الحافظ . وقيل انه ينظم الشعر » .<sup>(١٤٩)</sup>

ونهم : « ابو الكتائب محمد بن يحيى » المعروف بابن سني الدولة الطرابلسي ، وهو ابن اخي الشاعر ابن الحياط الدمشقي ، وقد ولد بطرابلس أثناء إقامة ولده يحيى فيها ، ونشأ فيها ، وتردد على دار علمها ، فكان بعد تخرجه من رجال الادب ، وكتب لبعض الامراء .<sup>(١٥٠)</sup>



أما السنين زاروا دار العلم واستفادوا من مكتبتها ، أو جالسوا علمائها ، أو شاركوا بدروسهم

الدمشقي فيها فقال « رأيت ابن الماهر بطرابلس ، وهو يعمل أشعارا ضعيفة ركيكة ، وكان يعتمد على الجناس المركب فلا يأتي بشيء فعلم أبياتا يهني بها إنسانا تولى الخطابة فقال بعد ذكر المنبر :

أتسرى ضم خطيبا منك  
أم ضمخ طيبا ؟<sup>(١٥٥)</sup>

كما التقى الناهض بأبي حامد المفضل المعروف بابن المرحل الطرابلسي المولود بها سنة ٤٠٤ هـ . وهو يروي حديث « خبثمة بن سليان الطرابلسي »<sup>(١٥٦)</sup> والناس يرحلون اليه ويقولون انه عالي السند .<sup>(١٥٧)</sup>

ومن تلاميذ دار العلم « الحسين بن محمد بن أحمد » المعروف بابن النصار المولود بدمشق سنة ٤٦٤ هـ . وهو ابن عم « عبد الله الكاتب » اصطحبه أبوه معه الى طرابلس حين خرج من دمشق أثناء الفتنة التي وقعت فيها ، وخرج منها أيضا « عمه أحمد بن الحسين » ، في جملة أعيان دمشق الذين قصدوا طرابلس واستوطنوها سنة ٤٦٨ هـ . فنشأ الحسين بها وتردد على دار علمها وتعلم بها قراءة القرآن الكريم واللغة ، وبرع في الخطابة ، وخطب لفخر الملك ابن عمار أثناء إقامته بجبلبة في سنة ٥٠١ هـ . بعد خروج طرابلس من يده ، ثم رحل الى دمشق وبغداد

( ١٥٥ ) بنية الطلب ٦٤/٧ و ٦٥ .

( ١٥٦ ) أشهر المعدلين الخطاطين الذين أخرجتهم طرابلس في العصر الوسيط على الإطلاق ، لقب بسند الشام . ولد بطرابلس سنة ٢٥٠ هـ . وتوفي بها سنة ٣٤٣ هـ . ترك مصنفات في الحديث ، وقضايا الصحابة ، والرفائق والحكايات ، وجميعها تحت الطبع حاليا من تحقيقنا ونستصدر عن « دار الكتاب العربي بيروت » .

( ١٥٧ ) معجم السلف - ق ١٦٣/٢

( ١٥٨ ) تهذيب ابن عساکر ٤٥٦/٤ و ٣٥٧

( ١٥٩ ) أخبار مصر - ابن ميسر - صفحة هنري ماسيه - ج ٩٥/٢ - طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩١٩ ، الملفى - المقريري - ج ٢١٩/٢ ، انطاك الحفا ٢٢٣/٣ .

( ١٥٠ ) الثراني بالرهيات - الفصلي ٧٠/٨ .

القضاعي « القاضي والفقيه الشافعي ، قاضي الديار المصرية في الدولة الفاطمية ومصنف كتاب « الشهاب » وقد نزل بطرابلس وحدث بها أثناء سفارته للخليفة الفاطمي الى ملك الروم في القسطنطينية ، وكان يدرس بكتابه « الشهاب » فسمعه جماعة من طلاب الحديث بطرابلس ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٥٤ هـ .<sup>(١٥٢)</sup> و « أبو طاهر أحمد ابن الحسين بن النصار » المولود بالكوفة سنة ٤١٨ هـ . نشأ ببغداد وقرأ النحو وحفظ القراءات السبع ، وانتقل الى دمشق وسكنها مدة مفيدة ، ورحل الى مصر ولقي جماعة من الفقهاء الشافعية ، ثم دخل طرابلس سنة ٤٦٨ هـ . وأقام فيها الى سنة ٤٩٧ هـ . حيث عاد الى دمشق وتوفي بها سنة ٥٠٦ هـ .<sup>(١٥٣)</sup> و « ابو نصر أحمد بن حمزة » الملقب بالمهندس ، ويعرف بأبن الخيثي الحلبي ، شاعر مجيد ، جزل الالفاظ ، حسن المعاني ، أصله من خلاط ، وأقام بحلب فنسب اليها . وجاء طرابلس فأقام فيها مدة ، والتقى به ابن الخياط الدمشقي أثناء دراسته بدار العلم ، فقال : « رأيت الأمير ابن المهندس أبا نصر أحمد بن حمزة الخيثي بطرابلس ، وكنا نجتمع على الطريق ، وكان يشوق الى أبدا » واجتمعنا يوما في أوائل شهر رمضان ، فعرض علي الافطار عنده ، فامتنت ، فلم يراجعني ، وافترقا ، وأبغني غلامه وأنا لا أعلم ،

فيها فهم أكثر من أن يحصوا ، ويمكن القول أن مئات المحدثين ، والفقهاء ، والادباء ، والشعراء ، والنحاة ، والعلماء الذين أخرجتهم طرابلس في القرن الخامس الهجري ، والذين كانوا يؤمنون المدينة من أقطار العالم الاسلامي ، تردوا بشكل أو بآخر على دار العلم ومكتبتها ، كطلبة ، أو مدرسين ، أو للمطالعة ، أو للوقوف على ما تحتويه من نفائس المخطوطات . نذكر منهم ، على سبيل المثال لا الحصر : « المصطب البغدادي » الذي زار طرابلس مرتين ، وناظر في إحدى رحلتيه صاحب دار العلم « الحسين بن بشر القاضي » و « ابو الفتح الكراچكي » الذي سمع الحديث بطرابلس ، ووضع المصنفات لبني عمار قبل أن ينتقل الى صور ويتوفى بها سنة ٤٤٩ هـ .<sup>(١٥٤)</sup> و زيد بن علي بن عبد الله الفارسي « النحوي اللغوي ، والفاضل العالم العارف بعلوم كثيرة ، ابن اخت « أبي علي الفارسي » العالم النحوي المشهور ، وكان قد نزل بطرابلس فأقرأ فيها وأملئ « شرح إيضاح أبي علي الفارسي » وشرح الحماسة ، وتوفي بها في أواخر سنة ٤٦٧ هـ .<sup>(١٥٥)</sup> و « عبد السلام بن محمد ابو يوسف القزويني » شيخ المعتزلة والمتكلم على مذهبهم ، وقد سكن طرابلس مدة ، وحدث بها ، واجتمع بقاضيه « عبد العزيز بن البراج » المشوفي سنة ٤٨١ هـ .<sup>(١٥٦)</sup> و « ابو عبد الله محمد بن سلامة

( ١٥١ ) بنية الطلب ١٢٤/٧ ، آباء الرواة ٣٢٥/٢ ، معجم الابهاء ١١/١٧٦ ، بنية الوعاة السيوطي - ج ١/٥٣٤ - مصر ١٩٩٤ ، تهذيب ابن عساکر ٢٥٨/٦ .

( ١٥٢ ) ابن عساکر ١٢٦/٢٤ ، النجوم الزائرة ١٥٦/٥ .

( ١٥٣ ) ابن عساکر ٣٦٥/٢٤ و ٣٦٥/٢٤ ، تهذيب ابن عساکر ٤٤٤/٤ ، معجم السلف ٣٧٦/٢ ، الملقى ٢٧٧/١ ، الزاوي ١١٦/٣ ، المعري في خبر من غير ٢٣٣/٣ ، الباب ٣٦٩/٢ .

( ١٥٤ ) إنباء الرواة ٣٥٨/٣٦ .

بالسابق ، وهو شاعر أديب من أهل المعرفة ، نزل طرابلس والتقى فيها بآين الخياط الدمشقي ، وكان يجلس معه في دكان عطارد نصرائي يعرف بأبي الفضل ، ذكي محب للادب ، وكان الثلاثة ينتظرون الاشعار عند غدير ماء بظاهر طرابلس . قال عنه عباد : « كان شاعرا مجيدا » ، مليح القول ، حسن المعاني ، رشيق الألفاظ . دخل بغداد وجالس ابن باقيا ، والأبيوري ، والمحطوب أبا زكرياء التبريزي ، وأنشدتهم من شعره . ودخل الري ، وأصبهان ، ولقي ابن الهبارية الشاعر . وعمل حين رجع من العراق رسالة لقبها « تحفة التذمان » أتى فيها بكل معنى غريب ، وكل شعر مختار لأديب . توفي بعد سنة ٥٠٠هـ (١١٠٨) و « أبو الحسين أحمد بن الحسين بن حيدرة » المعروف بآين خريسان الطرابلسي ، الأديب والشاعر المشهور . له ديوان فيه فنون ، ولكنه مفقود ، وكان من أثرياء طرابلس ومترفيها ، ذكر ابن عساكر انه عمل أبياتا « يصف فيها بركة » له ملأها فخرا في بستان يملكه بطرابلس ، وأوقف على جوانب البركة عددا « من الجوارى البيضاء والبيضاء والسود » وقد ساءت علاقته بسبب تجهله بأمره بني عارما جعله يهجو في شعره فخر الملك وأخاه جلال الملك ، فأمر به فخر الملك فحضر حتى مات ودفن بطرابلس سنة ٤٩٧هـ . (١٥٩)

عرف البيت ، ورصدني إلى حين خروجي ، فخالفتني إليه ففش القفل ونقل جميع ما فيه إلى بيت مولاه فلما انصرفت عشاء وعابنت بيتي ظننت أنني سرقت ، وإذا الأمير قد وأفاني يضحك ، فعلمت انه صاحب القصة ، وما برح حتى انصرفت معه فأقمت عنده الشهر كله .. رأيت في هذا الشهر وقد بيض سبعا وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين ، وصار إليه منهم نحو مائتي دينار ، فعرض علي القصة فما فعلت ، ولم يحصل لي أنا شيء . (١٥٥) ومن شعر الحبيشي وقد كتبه إلى الأمير سديد الملك ابن متقذ :

إنني وحققك في طرابلس كما  
تهوي العدى تحست المقيم المقعد  
أما « المحرم » قد حرمت نجاز ما  
وعدوا ، في « صفر » فقد صفرت يدي  
قالت لي العلياء لما أن سفو  
نسي كأس مظهرهم : سكرت فغريد (١٥٦)  
و « ابو القاسم زيد بن أحمد الحلبي » المعروف بآين أبي الفتح الماهر ، أصله من حلب ، وسكن مع أبيه دمشق ، ثم انتقل إلى طرابلس وأقام بها حتى توفي بعد ٤٨٠هـ . وقد رآه ابن الخياط الدمشقي بطرابلس وهو يعمل أشعارا ضعيفة ركبة ، وبروي عن أبيه شيئا من شعره وقد نيف على السبعين . (١٥٧)  
و « أبو اليمس محمد بن المنضر العربي » الملقب

( ١٥٥ ) بغية الطلب ٧٠/١ .

( ١٥٦ ) بغية الطلب ٧٠/١ .

( ١٥٧ ) بغية الطلب ٦٤/٧ و ٦٥ .

( ١٥٨ ) تهذيب ابن عساكر ٦٧/٢ و ٦٨ ، الخريدة - ص ٢٧ ، بديع البالد - ابن طاهر ١٢٩ - مصر ١٩٧٠ .

( ١٥٩ ) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي - ج ٨ ق ١٠/١ - حيدرآباد ١٩٥١ .

القرآن الكريم وآياته ، وهو على حروف المعجم في آخر كلماته . (١٦٥)

- « السادن » ومقداره عشرون كراسة ، وهو مختصر يبحث في الغريب من كتاب الفصول والغايات . (١٦٦)

- « إقليد الغايات » ومقداره عشر كراريس . (١٦٧)

- « رسالة الاغريض » وهي رسائل قصيرة من ديوان الرسائل لابي العلاء . (١٦٨)

وكان في مكتبة الدار ما صنفه الطرابلسيون على الأرجح خلال القرن الخامس الهجري وما قبله ، ومصنفات الكثير من نزولوا طرابلس وشاركوا في حياتها العلمية والأدبية ، فنذكر من مؤلفات الطرابلسيين ما يلي :

- « فوائد » في الحديث . لأبي عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن أبي المتوكل الطرابلسي المتوفي سنة ٤١٤هـ . وقد خرجها له خلف بن محمد الواسطي وانتقاها عليه فسمعاها عبد العزيز الكتاني . (١٦٩)

هذا فضلا عن قاضي طرابلس « عبد العزيز بن البراج » الذي سبق التعريف به ، (١٦٥) والشمراء الذين مدحوا الامراء بنسي عمار ، وسديد الملك بن منقذ ، وغيرهم من الامراء والقضاة والأعيان ، ممن نمسك عن ذكرهم خشية الاطالة .

### أسماء بعض المصنفات في مكتبة دار العلم

ذكر « ابن العديم الحلبي » في « الانصاف والتحري » (١٦١) أن جلال الملك ابن عمار وقف بدار العلم من تصانيف أبي العلاء المعري ما يلي :

- « الصاهل والشاحج » ، ومقداره أربعون كراسة ، ويتكلم فيه عن لسان فرس وبغل . (١٦٢)

- « السجع السلطاني » ومقداره ثمانون كراسة ، ويشتمل على مخاطبات الجنود والوزراء وغيرهم من الولاة . (١٦٣)

- « الفصول والغايات » ومقداره مائة كراسة . (١٦٤) قال عنه ابن الجوزي انه وصفه في معارضة سور

( ١٦٠ ) انظر حاشية رقم ( ١٠٠ ) .

( ١٦١ ) الانصاف والتحري - ص ٥٠ .

( ١٦٢ ) إنباء الرواة - ج ٥/١ ص ٥٦١ .

( ١٦٣ ) المصدر نفسه - ج ٥/١ ص ٥٧١ .

( ١٦٤ ) المصدر - ج ٦/١ ص ٦٦٤ .

( ١٦٥ ) البداية والنهاية - ابن كثير ٧٤/١٢ .

( ١٦٦ ) إنباء الرواة - ج ١٣/١ ص ٦٣١ .

( ١٦٧ ) المصدر نفسه .

( ١٦٨ ) المصدر - ج ٦٥/١ ص ٦٥٨ .

( ١٦٩ ) ابن عساكر ( المطبوع بدار الكتب المصرية ) - ج ٢/١١ ، تهذيب ابن عساكر ٣٠٥/٤ ، الأنساب ٥٦٢أ ، معجم البلدان ٢١٣/١ و ٢٥٧/٣ ، التكملة لكتاب الصلة - ابن الأثير - ص ٥٩٩ - مدريد ١٨٨٩ ، تاريخ الإسلام - ج ٨٣/٢١ و ٢٥٣ و ٢٥٤ ، سير أعلام النبلاء - ج ١١ ق ٦٦/١ و ٧٥ و ٧٦ ، المعبر ١١٦/٣ ، شذرات الذهب ٢٠٠/٣ .



- « فوائد » في الحديث . (١٧٠)
- « فضائل الصحابة » . (١٧١) وهو من أجزاء .
- « فضائل أبي بكر الصديق » (١٧٢) وهو من أجزاء .
- « فضائل عمر بن الخطاب » .
- « فضائل عثمان بن عفان » .
- « فضائل علي بن أبي طالب » .
- « الرقائق والحكايات » . (١٧٣) وهو من أجزاء .
- وجميعها من تصنيف محدث طرابلس الكبير « خيمة بن سليمان القرشي الطرابلسي » ( ٢٥٠ - ٣٤٣هـ . )
- وترك القاضي عبد العزيز بن البراج عدة تصانيف في الفقه وغيره ، كتبها بالعربية والفارسية ونرجح أن تلميذه أبا الفضل بن أبي روح الذي تولى نظارة دار العلم وضع مصنفاته في مكتبتها ، وقد عرفنا منها :
- « المذهب » .
- « المعتمد » .
- « الروضة » .
- « المقرب » .
- « عماد المحتاج في مناسك الحاج » .
- « الكامل » في الفقه .
- « الموجز » في الفقه .
- وله كتاب في الكلام ، وكتب في الاصول والفروع منها :
- « الجواهر » .
- « المعالم » .
- « المنهاج » .
- « روضة النفس في أحكام العبادات » .
- « حسن التعريف » .
- « شرح جمل العلم والعمل » لشيخه المرتضى . (١٧٤)
- ووضع شيخه الطوسي كتابا سماء « الجمل والعقود في العبادات » وقد ألفه بطلب من خليفته في البلاد الشامية القاضي ابن البراج كما صرح في أوله ، (١٧٥) ويحتمل انه كان في عداد المصنفات التي وضعت في دار العلم .

( ١٧٠ ) تاريخ التراث العربي - فزاد سركين - ترجمة د . هادي أبو الفضل - ج ٤٦٢/١ و ٤٦٣ ، القاهرة ١٩٧١ ، فهرست المتعقب من مخطوطات الحديث بالطاهرة - محمد ناصر الدين الالباني - ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

( ١٧١ ) تاريخ التراث .

( ١٧٢ ) تاريخ التراث .

( ١٧٣ ) تاريخ التراث .

( ١٧٤ ) روشتات الجنات - المخرنيساري - ج ١١٢/١ ، طهران ١٣٩٠هـ . الكني والألقاب - عباس الفني - ج ٢١٩/١ ، النجف ١٩٥٦ ، أمل الأمل - الحر العاملي - ق ١٥٢/٢ ، رجال السيد بحر العلوم - ج ٦١/٣ .

( ١٧٥ ) النهاية في جمرة الفقه والفناوي - الطوسي - ص ١ - بيروت ١٩٧٠ ، رجال السيد بحر العلوم - ج ٢٢٣/٣ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٦/٢ .

بعض معاصريه الذي ألف فهرس تصانيفه انه فقه في معنى « لم يطرُق وسبيل لم يسلك قسم فيه أبوابا من الفقه ، وفُرع كل فن منها حتى حصل كل باب شجرة كاملة يَكُونُ نِيفًا وثلاثين شجرة . وقد صنّفه للقاضي أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار . (١٧٩)

- « الرحلة » أشار إليها « ابن أبي طي » الحلبي في رجال الشيعة ، وذكر فيها المناظرة التي جرت بين القاضي الطرابلسي ابن بشر والحطيط البغدادي . (١٨٠)

- « تلقين أولاد المؤمنين » وهو في كراستين . صنّفه بطرابلس كما ذكره بعض معاصريه في فهرس كتبه . (١٨١)

- « الاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الأنصاف » . ألفه لأبي الفتح عبد الحاكم القاضي بطرابلس والذي تحول عنها سنة ٤٦٥ هـ . (١٨٢)

- « نهج البيان » ، ألفه في طرابلس لأبي الكتائب ابن عمار . (١٨٣)

- « مسألة البيان عن جل اعتقاد أهل الايمان » ، وهي من عدة مسائل سئل الكراجكي عنها وهو في

وصنف « ابو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي » أكثر من سبعين مصنفًا منها ما ألفه لبني عمار في طرابلس ، ووضعت على الأرجح في مكتبة دار العلم ، عرفنا منها :

- « عدة البصير في حج يوم الندير » ألفه في طرابلس للشيخ أبي الكتائب ابن عمار ، قال عنه « النوري » في « المستدرك » هذا كتاب مفيد يختص بإثبات إمامة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في يوم الندير . وقد بلغ الغاية في هذا الكتاب حتى حصل في الامامة كافيًا للشيعة وهو في جزء واحد من مائتي ورقة . (١٧٦)

- « مختصر طبقات الوارث » وهي رسالة ألفها للمبتدئين في طرابلس . (١٧٧)

- « معدن الجواهر ورياضة الناظر » في الأدب والحكم . نقل عنه المجلسي في كتابه « بحار الأنوار » . رواه عنه تلميذه الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله الطرابلسي كما في صدر بعض نسخه القديمة . (١٧٨)

- « البستان » في الفقه ، ويعبر عنه بالمشجر أيضا لأنه رتب فيه أبواب الفقه بعنوان الشجرات . قال

( ١٧٦ ) الفهر - ج ١/١٤٥

( ١٧٧ ) فلاسفة الشيعة - عبد الله نعمة - ص ٤٤٩ - بيروت .

( ١٧٨ ) طبقات اعلام الشيعة ١٧٨/٢ .

( ١٧٩ ) الذريعة ١٠٥/٢ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٩/٢ و ١٣٢ ، فلاسفة الشيعة ٤٤٩ .

( ١٨٠ ) لسان الميزان ٢٧٥/٢ ، فلاسفة ٤٤٩ - ٤٤٩ .

( ١٨١ ) الذريعة ٤٢٩/٤ ، معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم فديا وحديثا - ابن شهر آشوب - ص ١١٩ ، التلخيص ١١٦١ .

( ١٨٢ ) الذريعة ٢٧/٢ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٤/٢ .

( ١٨٣ ) طبقات اعلام الشيعة ١٣٢/٢ .

- طرابلس فكتب عنها رسالة في عقائد الامامية بكتابه « كنز الفوائد » . (١٨٤)
- وهناك عدد من المصنفات التي ألفها في صيدا وصور قبل وفاته سنة ٤٤٩ هـ . ولا ندري ان كان قد وصل نسخ منها الى مكتبة دار العلم بطرابلس .
- وترك « ابو عبد الله محمد بن هبة الله الوراق الطرابلسي » مجموعة من المصنفات يحتمل انها كانت بدار العلم ، عرفنا منها :
- « الواسطة بين النبي والاتباء » .
  - « ما لا يسع المكلف امله » .
  - « عمل يوم وليلة » .
  - « الزهرة في أحكام الحج والعمرة » .
  - « الأنوار » .
  - « الأصول والفصول » .
  - « جوابات المسائل الصيداوية » . (١٨٥)
- ومن المرجح أن الكتب التي ذكرها أسامة بن منقذ عند حديثه عن استاذة الطليلي ، كان يوجد منها نسخ في دار العلم وهي :
- « كتاب سيبويه » في النحو .
  - « كتاب الخصائص » لابن جني .
- « كتاب الأيضاح » لأبي علي الفارسي ، وهو قدم الى طرابلس وسكنها مدة وانتفع بكتبها الموقوفة . وتوفي ببغداد سنة ٣٧٧ هـ . (١٨٦)
- « كتاب اللع » لابن نصر السراج . ويبحث في النحو . قال عنه « الروذاري » إنه مع قلة حجمه يوفي على الكتب الكبار التي من جنسه في قوة عبارته وجودة صنعه . (١٨٧)
- « كتاب الجمل » ، وهو إيسا للزجاجي أو المجراني ، أو ابن خالويه النحوي .
- ويمكننا أن نضيف أيضا الى قائمة أسماء الكتب بدار العلم ، كتاب أمين الدولة ابن عمار :
- « جراب الدولة » .
- والكتابين اللذين وضعهما « زيد بن علي الفارسي ابو القاسم » والمتوفي بطرابلس سنة ٤٦٧ هـ .
- « كتاب شرح الأيضاح » لحاله أبي علي الفارسي .
- « كتاب شرح ديوان الحماسة » لأبي تمام الطائي . (١٨٨)
- وهناك من المصنفات :
- « كتاب شرح اللع » الذي وضعه « ابو بركات

( ١٨٤ ) مجلة المرفان - احمد عارف الزين - ج ٤ مجلد ٢٨٧/١٠ ، صيدا .

( ١٨٥ ) معالم العلماء - ص ١٣٤ ، النهاية - الطوسي - صفحة ( أذ ) و ( أم ) أمل الأمل ٣١٢/٢ و ٣١٣ .

( ١٨٦ ) سير أعلام النبلاء - ج ١٠ ق ٢٤٣/٢ أ ، الغير ٤/٣ .

( ١٨٧ ) ذيل مجارب الأمم - الروذاري - ج ٦٨/٣ .

( ١٨٨ ) بغية الطلب ١٢٤/٧ ، إنباه الرواة ١٧/٢ ، معجم الائمة ١٣٦/١١ ، بغية الرعاة ٥٧٣/١ .

النحوي « وهو من أهل الكوفة ، وأقام في طرابلس الى ان توفي سنة ٤٦٦ هـ . (١٨٩) »

- « المسائل الطرابلسية » وهي مسائل وضعها السيد المرتضى علي بن الحسين التوفي سنة ٤٣٦ هـ . وسئل عنها « ابو الفضل ابراهيم بن الحسن الأبنسي الطرابلسي » وعددها ( ١٣ ) مسألة . فصنف منها الطرابلسي ثلاث مسائل ، الأولى ١٧ مسألة ، والثانية ١٢ مسألة ، والثالثة ٢٣ مسألة ، عرفنا منها :

- « مسائل الامامة » وعددها تسع .

- « إعجاز القرآن » مسألة :-

- « كيفية مسخ المسوخ » مسألة .

- « كيفية نطق النمل والمهدد » . (١٩٠) وهي تفسير لما جاء في سورة النمل .

وليس من المستبعد أن تكون دار العلم قد ضمت نسخة - وربما نسخا - من ديوان أبي الطيب المتنبي الذي زار طرابلس ومدح رجالها ، ونسخ « أحمد بن حمزة بن الشام الطرابلسي » نسخة من شعره بمصر في سنة ٥٠٨ هـ . (١٩١) وكذلك بعض مصنفات الخطيب البغدادي ، ودواوين العديد من الشعراء الذين نزلوا طرابلس ومدحوا أمرائها وولاتها وأعيانها .

ومن الكتب التي كانت بدار العلم :

- « الشامل » في الفقه . وهو من أربع مجلدات . صنفه « الحسين بن أحمد بن محمد القطان البغدادي » في طرابلس لرئيسها أبي طالب محمد بن عمار . (١٩٢)
- « عيون الأدلة في معرفة الله » .
- « التبصرة في معرفة المذهبين الشافعية والامامية » .
- « البيان في الخلاف بين الامامية والنعمان » .
- « المقتبس في الخلاف مع مالك بن أنس » .
- « النور في عبادة الأيام والشهور » .
- « البيان عن حقيقة الانسان » .
- « كتاب الفرائض » .
- « كتاب المناسك » .
- « كتاب البراهين » .
- « مسألة تحريم الفقاع » .

وهذه كلها من تأليف القاضي أبي الفضل ابن أبي روح الناظر على دار العلم . (١٩٣)

- « أنس المجلس وسرة الأنيس » صنفه « ابرو الحسين ادريس بن ابراهيم الواظ البغدادي » وروى

( ١٨٩ ) الخبلة الشفالية في طرابلس الشام - عمر عبد السلام تدمري - ص ٥٣ - بيروت ١٩٧٣ .

( ١٩٠ ) الفدير ٤/٢٥٥ ، اعيان الشيعة ٥/١١٠ .

( ١٩١ ) بغية الطلب ٦/٦٥ .

( ١٩٢ ) لسان الميزان ٢/٦٢٧ .

( ١٩٣ ) سير أعلام النبلاء - ج ١٢ - ق ١١٦/١ ، تاريخ الاسلام ( حوادث ٥٠٠ - ٥٣٠ هـ ) - ص ٢٠٤ ، لسان الميزان ١/٣٨٦ ، اعيان الشيعة ١١/١٣٤ ، ميزان الاعتدال - الذهبي - ج ٢١٠/٨ ، الرائي ٤٠/٩ ، تحقيق يوسف خان إس ١٩٧٤ .

وكانت كل هذه الكتب أو أغلبها من أجل الكتب المجلدة والمزخرفة والمحلاة بالذهب والفضة ، بالخطوط المنسوبة لأشهر الخطاطين ، وفيها عدد كبير جدا من الكتب بخطوط مؤلفيها . (١٩٨) فجاء عمل بني عمار هذا شبيها بما قام به سيف الدولة الحمداني في حلب . (١٩٩) بل هو أعظم وأبعد أثرا ، وفاقته شهرة أسرة بني عمار في رعايتها للمعلم واهتمامها بالتعليم والفكر والثقافة ، « كل ما كان له من صفات حربية » . (٢٠٠) وصارت طرابلس بدار علمها « مجمعا » علميا « سمت به مكانة العلوم » . (٢٠١) وأصبحت مكتبتها تقارن بمكتبات ملوك العرب في أسبانيا . (٢٠٢) حتى أنها اعتبرت أروع مكتبة في العالم . (٢٠٣)

وتبوأت طرابلس بدار علمها ومكتبتها الرائعة مكانة الصدارة في ميادين العلم ، وأضحت أول مدينة علمية في الشام كله ، على ما رأى المستشرق « فان يرشم » (٢٠٤) ومركزا من أهم وأعظم المراكز الفكرية للشيعنة الامامية في العصر الوسيط . (٢٠٥) مما حدا

فيه عن محدث طرابلس خيشة بن سليمان ، وخراسان ابن عبد الله الطرابلسي ، وأبي القاسم علي بن محمد الصوري ، وغيرهم . (١٩٤)

- « أسماء الشيوخ » ، وضعه « أبو الفضل علي بن عبد الواحد المري الطرابلسي » . (١٩٥)

وكان يوضع في مكتبة دار العلم مصنفات العلماء والادباء والمحدثين والفقهائ والمفسرين والنحاة والقراء ، ودواوين الشعراء ، والرسائل ، والمسائل ، والمناظرات ، التي وفد أصحابها الى طرابلس ، أو التي كان يقتنيها محبو الكتب من أهل المدينة ، أو التي كان يبتاعها بنو عمار من البلاد البعيدة ، أو تهدي اليهم ، أو تصنف أو تنسخ بناء لطلبهم . هذا عدا النسخ المكررة التي يقوم النساخون بكتابتها ، ومن ذلك ثمانون ألف نسخة من كتب التفسير ، (١٩٦) وخمسون ألف نسخة من المصاحف الشريفة . (١٩٧) كما كان بها كثير من كتب اليونان والرومان والفرس والهند التي تتناول جميع أنواع المعرفة الانسانية وعلم الطب والفلك والتنجيم والفلسفة والهندسة وغيرها ،

( ١٩٤ ) ابن عساكر (للمخطوط) ٥٩٤/٤ و ٣٩٠/١٢ ، تهذيب ابن عساكر ٣٣٦/٢ ، الزاوي ٣١٧/٨ .

( ١٩٥ ) ابن عساكر ١١٣/٢٥ .

( ١٩٦ ) المكتبات في الاسلام - ص ١٣٣ وجاء في « الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وأئله » لمحمد سليم الجندبي ج ٢/١ - ٢٠٢/١ انها عثروا ألف نسخة .

( ١٩٧ ) المصدرين السابقين .

( ١٩٨ ) المكتبات في الاسلام - ص ١٣٣ .

( ١٩٩ ) لبنان في التاريخ - ص ٣٥٢ ، دائرة المعارف الاسلامية - ص ٣٤٢ بني عمار .

( ٢٠٠ ) تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنشان - ترجمة د . السيد الباز العريضي - ج ٣٨٠/٢ ، بيروت ، القفلة .

( ٢٠١ ) تاريخ العلم في سورية - البارون راي - مجلة الباحث - ج ١١ - المجلد ٨٠٢/١٧ - جرمي بني .

( ٢٠٢ ) Tripoli of Lebanon - B .konde - P.S- Beyrouth 1961

( ٢٠٣ ) تاريخ الحروب الصليبية ١١٣/٢ .

( ٢٠٤ ) مصر والشام - د . طلس - ص ٦٥ .

( ٢٠٥ ) خطط الشام - ج ٣٨/٤ ، الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام - د . أحمد بدوي - ص ٢٩ - القاهرة .

بالمؤرخ « ابن الفرات » ان يقول : « ان طرابلس في زمن آل عمار صارت دار علم » (٢٠٧)  
**عدد المصنفات في مكتبة دار العلم**

اختلف المؤرخون في تقدير عدد المصنفات التي احتوتها مكتبة دار العلم في القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر ميلادي ) فكانوا بين مقل ومكثر . فمنهم من قال انها ضمت « عشرة آلاف » مجلد (٢٠٧) ومنهم من قال ان عدد كتبها كان يزيد على مائة ألف كتاب وقفا (٢٠٨) وتواضع على هذا الرقم كثير من الباحثين المحدثين ، العرب منهم والمستشرقين على السواء (٢٠٩) ومنهم من قال ان المكتبة كانت تشتمل على « ثلاثمائة ألف مجلد » (٢١٠) ومنهم من قال انها كانت تحتوي على نحو « مليون كتاب » (٢١١) وهناك الكثير من المؤرخين العرب والمستشرقين الذين ينقلون عن المؤرخ « ابن الفرات » قوله ان كتب دار العلم

بطرابلس « ثلاثة آلاف ألف » . أي ثلاثة ملايين . وهو ينقل عن المؤرخ « ابن أبي طي ه الحلبي » (٢١٢) ولم تقع تحت يدنا هذه النسخة من تاريخ ابن الفرات ، بل اطلعنا على النسخة التي حققها الدكتور قسطنطين زريق وهي لا تذكر هذا الرقم . ونخص بالذكر من المستشرقين الذين أخذوا بتقدير ابن أبي طي ه من أن عدد الكتب هي ثلاثة ملايين كتاب ، المؤرخ الانكليزي وأكبر بحاثيه في أمور المشرق « ادوارد جيبون E. Gibbon » في « تاريخ الدولة الرومانية » (٢١٣) و « أرنولد Arnold » و « غروهمان Grohman » (٢١٤) وشوشنري « الذي يذكر في كتابه مختصر الثقافة الاسلامية » ان مكتبة طرابلس كانت تحوي أكبر عدد من كتب عرف ان مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن ، ألا وهو ثلاثة ملايين (٢١٥) وهذا الرقم الهائل يعني انه كان بها ثلاثة أرباع ما تحويه مكتبة « يوديان » . منذ بضع

( ٢٠٦ ) بيت الحكمة - سعيد الديوي جي - ص ٥٧ .

( ٢٠٧ ) الحركة الصليبية - د . سعيد عبد القاه عاشور - ج ١١٧/١ - القاهرة ١٩٦٢ .

( ٢٠٨ ) الأخلاق الخلقية - ص ١٠٧ ، تاريخ ابن الفرات ٧٧/٨ ، نهاية العرب في فنون الادب - النويري - ج ١٦/٢٩ ، مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

( ٢٠٩ ) دائرة المعارف الاسلامية ٢٥٤ ، مشاهدات في لبنان - لويس لورث - ص ١٣ ، بيروت ١٩٥١ لبنان الدليل الاخير - روجي جويل - ص ٢٠٧ ، بيروت ١٩٤٨ ، لبنان - حسن محمد جبر ص ١٢٣ ، القاهرة ١٩٧٠ .

( ٢١٠ ) منجم الصغار في المستشرق على معجم البلدان - محمد أمين الحانجي - ج ٢٩٣/٢ ، القاهرة ١٩٠٧ ، ليل لبنان - ربيع أبي فاضل - ص ٣١٧ ، القاهرة ١٩٠٩ ، سير اللبالي محمد أمين صوفي - ج ١٠٦/١ - طرابلس ١٣٣٧هـ .

( ٢١١ ) أعيان الشيعة - ج ١ ق ٢٥٨/٢ وينقل « أخطبوطيس اخري » عن النويري قوله انه كان في دار العلم « ألف ألف كتاب » ( أي مليون ) انظر ، مصطفى آغا بيرحاجكم طرابلس - ص ١٧ - بيروت ١٩٥٧ وهذه الرواية لم نجدها عند النويري ، وما ذكره النويري في « نهاية العرب » هو مائة ألف كتاب ج ١٦/٢٩ النسخة المصرية .

( ٢١٢ ) خطط الشام ١١٧/٦ .

( ٢١٣ ) تاريخ الدولة الرومانية - جيبون ج ٥٠٨/٢ - طبعة أوروبا ، تاريخ التسند الاسلامي - جرجي زيدان - ج ٢٣٤/٣ ، القاهرة ١٩٥٨ ، العالم العربي - دكتور نجلاء عز الدين - ترجمة أسائلة ، ص ٥١ ، القاهرة ١٩٦٢ ، خزائن الكتب العربية في الحافظين - فليپ طرازي - ج ١٠٠٣/٣ - بيروت ١٩٤٧ .

( ٢١٤ ) المكتبات في الاسلام ١٣٤ ، تاريخ التسند ٢٣٤/٣ .

( ٢١٥ ) المكتبات ١٣٤ .

العلم فقط. (٢٢٢) ونحن نرى هذا معقولا . وسلم الاستاذ يوسف العشي بأن العدد كان يسوق المائة ألف ، ويرى ان الثلاثة ملايين رقم مبالغ فيه ، (٢٢٣) وكذلك أغناطيوس الحسوري (٢٢٤) والمستشرق « تومبسون Tompson » في « المكتبة في المصور الوسيطة » (٢٢٥) أما « هنري لامنس » فهو يقلل من أهمية مكتبة دار العلم ومدريستها ولا يقبل الرقم الذي جاء عند الحسوري أيضا . (٢٢٦) وأيده في ذلك أصحاب كتاب « لبنان » . (٢٢٧)

ويبقى عندنا ما رواه « ابن الأثير » ، فيها وان كانا قد تجنبنا تحديد رقم معين فقد ذكرنا ان كتب دار العلم الموقوفة بطرابلس وما كان منها في خزائن أربابها « ما لا يحده عدده ولا يحصى فيذكر » (٢٢٨)

ونقول : من المحتمل أنه كان في المكتبة مائة ألف كتاب في أول أمرها ، عندما كانت برعاية أمين الدولة أبي طالب بن عمار ، حسب روايات « ابن شداد الحلبي » و « النويري » و « ابن الفرات » .

سنوات أو أكثر من نصف ما تحويه مكتبات الهند وباكستان في الوقت الحاضر ، (٢٢٩) ولسنوات قليلة .

وينقل الكونت « فيليب دي طرازي » عن الاستاذ أحمد ذكي قوله عن المستشرق الفرنسي « كاترمير Katmir » ( ١٧٨٢ - ١٨٥٧ ) في بعض تأليفه نبذة في مجموعته المطبوعة سنة ١٨٦٢ في باريس وعنوانها « محبة الشرقيين للكتب » ، ان هذا المستشرق لم يتجمله أدنى شك في تقدير عدد الكتب بدار العلم بطرابلس ، بثلاثة ملايين كتاب . (٢٣٠)

ومن المؤرخين النصارى الذين أبدوا عدد الكتب بثلاثة ملايين : « جرجي زيدان » (٢٣١) و « جرجي الحسوري سكسك » (٢٣٢) و « فيليب دي طرازي » (٢٣٣) ومن المستشرقين أيضا : « هرتويك ديرنبورغ » و « الألماني بروتس Prutz » . (٢٣٤)

ولكن الاستاذ محمد كرد علي لا يوافق على هذا العدد ويعتقد أن العدد يشمل كل الكتب التي كانت موجودة في ذلك الوقت في مدينة طرابلس وليس في دار

( ٢٢٦ ) دراسات في الحضارة الاسلامية - د . احمد شلبي - ٥١/١ ، القاهرة ١٩٧٩ .

( ٢٢٧ ) خزائن الكتب العربية ١٠٠٢/٣ ، الحضارة الاسلامية - احمد ذكي باناس - ص ٥٣ و ٥٤ .

( ٢٢٨ ) تاريخ الصمد الاسلامي - جرجي زيدان ٢٣٤/٣ .

( ٢٢٩ ) اعداد الكتب - مجلة الآثار - جرجي الحسوري سكسك - ج ٣٣/١ - سنة ١٩١٢ .

( ٢٣٠ ) خزائن الكتب العربية في الحافظين - ج ١٣٩/١ و ١٠٠٣/٣ .

( ٢٣١ ) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام - هنري لامنس - نبذة تاريخية انتقادية في مجلة المشرق - عدد ٢ - ص ١٠٨ و ١٠٩ - السنة ١٩٢٢ .

( ٢٣٢ ) خطط الشام ١٩١٧/٢ .

( ٢٣٣ ) Youssef Echo- P.118

( ٢٣٤ ) مصطفى آغا بربر - ص ١٧ .

( ٢٣٥ ) المكتبات ١٣٤ .

( ٢٣٦ ) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام - مجلة المشرق - عدد ١٠٨/٢ .

( ٢٣٧ ) لبنان مباحث علمية واجتماعية - لجنة من الأدباء - ج ٥٦٢/٢ - بيروت ١٩٦٩ .

( ٢٣٨ ) ذيل تاريخ دمشق ١١٣ ، الكامل في التاريخ ٤٧٦/١٠ .

وإن هذا العدد ارتفع حتى بلغ ما يزيد عن المليون وذلك في عهد جلال الملك ابن عمار ، عندما قام بتجديد دار العلم سنة ٤٧٢هـ . على حد رواية ابن العديم الحلبي ، وارتفع هذا الرقم على مر الأيام إلى ثلاثة ملايين في عهد فخر الملك عمار بن عمار .

ومن المحتمل أن يكون جلال الملك قد تصدى لجمع المكتبات الأهلية الموجودة في طرابلس والتي كانت فيها خزانات كتب موقوفة إلى جانب مكتبة عمه أمين الدولة ، وكون منها ومن الكتب التي كان يبتاعها هو ، دار كتب ضخمة ، حيث توفر له ما يساعده على إقامة هذا المدخر العلمي وإزدهاره ، ما لم يتوفر لأمين الدولة من قبل ، إذ كانت الأحداث في عهد أمين الدولة لا تساعده على التفرغ للنسابة الثقافية ، وكان استقلال طرابلس عن الدولة الفاطمية يمر بمراحل الأولى ، بينما استقر حكم جلال الملك وامتد زعاه ثمانية وعشرين عاماً ، وازداد ثراء أمارته ، كما اتسعت ممتلكات الامارة ونشطت تجارتها ، وكثرت مجالسها العلمية .

ومن الجائز أن الرقم الكبير لا يقتصر على كتب دار العلم فقط ، بل يدخل تحته ما في المدينة كلها من كتب ، وليس بمستغرب أن تكثر الكتب في طرابلس إلى هذا الحد المذهل في ذلك التاريخ ، إذ كانت مصانع الورق الجيد توفر ما يحتاجه الرواقون والمصنفون والنساخ ؛ وهي في متناول يد الطرابلسيين حيث كانت صناعة الورق مزدهرة عندهم في القرن الخامس الهجري ، بشهادة الرحالة الفارسي ناصر خسرو .

ويظهر أن دار العلم بطرابلس كانت تستقبل كميات من الكتب التي تخرج من دار العلم بالقاهرة أثناء الفتن ، وإن كاثبت المصادر التاريخية التي وصلتنا لم تصرح بذلك ، إلا أننا نستنتج ذلك من رواية ذكرها « المقرئ » في حوادث سنة ٤٦١هـ .

تقول انه خرج من قصر المستنصر الفاطمي خردادي وباطية من بللور في غاية النقاء وحسن الصنعة ،

مكتوب عليها اسم سرير . سح . ب . ب

ماء ، ويسع الخردادي تسعة أراطل ، دفع فيها « أمين الدولة » ابن عمار بطرابلس ثمانمائة دينار فامتص صاحبها . (٢٢٩) ونقول : إذا كان قد وصل إلى طرابلس بعض الأدوات والأواني الثمينة ، فليس بمستبعد أن تصلها كمية من الكتب قام بها ابن عمار ، ولم تذكر ذلك المصادر التاريخية ، فقد أخرج من خزائن الكتب في ذلك الوقت ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة ، وألفان وأربعمائة ختمة من المصاحف الشريفة في ربعات بخطوط منسوبة محلاة بالذهب والفضة . وأخرج في شهر المحرم من سنة ٤٦١هـ . في يوم واحد خمسة وعشرون مجلا « موقرة كتب » ، صارت إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المعز ، واقسمها هو والمظفر بن الموفق في الدارين بخدمات وجبت لها عما يستحقانه وغلماهما من ديوان الحلبيين ، نهبت بأجمعها من داره يوم انتهز ناصر الدولة من مصر في صفر ، مع غيرها مما نهب من دورن سارمه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرها . وأخرج ما في خزائن دار العلم



عهد القاضي عبد الجبار بن أحمد بالقضاء بخط  
الصاحب ابن عباد ، وأشار به ، وهو سبع مائة  
سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف  
أبنوس يطبق كالاسطوانة الفلظية ، والرابع مصحف  
بخط بعض الكتاب الموجودين بالخط الراضع ، وقد  
كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحسرة ،  
وتفسير غريبه بالخرقة وإعرابه بالزرق ، وكتب  
بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح  
للاتزانعات في اليهود والمكائبات وآيات الوعد  
والوعيد ، وما يكتب في التنازي والتهازي ، وأهداء  
أيضا : غريب الحديث لابراهيم الحربي بخط أبي عمر  
بن حيويه في عشر مجلدات . فوقفه نظام الملك بدار  
الكتب ببغداد ، ومنها : شعر الكميث بن زيد بخط  
أبي منصور في ثلاثة عشر مجلدا . وكان عنده جزء  
ضخم من حديث أبي حاتم الرازي عن محمد بن  
عبد الله الأنصاري في غاية العلو ، وله تفسير القرآن  
في سبعائة مجلد ، وقيل في أربعائة ، وقيل ثلاثائة .  
وكان الكتاب موقوفا في مشهد أبي حنيفة رضي الله  
عنه . (٢٣١) ويعتبر القزويني مثالا « لغيره من المولعين  
باقتناء الكتب ، كما تعتبر مقتنياته منها مثلا لما كانت  
تحتويه دور العلم في عصره . والتي كانت دار العلم  
بطرابلس واحدة منها » ولا يستبعد أن يكون  
القزويني قد أهدى بني عمار بعض المخطوطات التي  
أتى بها من مصر ، أو اشترىها منه ووقفوها في دار  
العلم .

بالقاهرة وصار الى عماد الدولة أبي الفضل بن  
المحترف بالاسكندرية كثير من الكتب ، ثم انتقل  
منها كثير بعد مقتله الى المغرب وأخذته ولاته ، فيما  
صار اليها بالابتياح أو الغصب من الكتب الجليلية  
المقدار ما لا يعد ولا يوصف ، فجعل عبيدهم واماؤهم  
جلودها نعالا في أرجلهم ، وأحرق ورقها تأولا منهم  
أنها خرجت من القصر ، وأن فيها كلام المشاركة  
الذي يخالف مذهبهم ، فصار رمادهم تلالا عرفت في  
نواحي أبيار بتلال الكتب ، وغرق منها وتلف ،  
ووصل الى الامصار ما يتجاوز الوصف . (٢٣٠)

كذلك فقد أقام مصر « ابو يوسف عبد السلام  
القزويني » وحصل في سنين إقامته بها أحمالا « من  
الكتب . فكان ينتقل بين البلاد ويجمع الكتب حتى  
اجتمع له منها الشيء الكثير ، فسكن ببغداد ، ثم  
سافر الى الشام ، ثم الى مصر ، ثم دخل طرابلس  
وسكنها مدة ، وعاد الى بغداد وهو يحصل الكتب ،  
فقبل انه حصل غالبها من مصر في عام الفلاء  
المفرط ، وكان يقول : ملكت نفيسين منها : تفسير  
ابن جرير الطبري في أربعين مجلدا ، وتفسير أبي  
القاسم البلخي ، وأبي علي الجبائي ، وابنه أبي  
هشام ؛ وأبي مسلم بن بحر ، وغيرهم . وقيل دخل  
بغداد قادما من طرابلس الشام ، وقد أتى من مصر  
ومما معه عشرة جمال عليها كتب بالمخطوط المنسوبة في  
فنون العلم . اهدى منها لنظام الملك أشياء ما لأحد  
مثلا ، ذكرها محمد بن عبد الملك الحمداني ، ومنها

(٢٣٠) اتعاظ الخفاء ٢/٢٩٤ و ٢٩٥ .

(٢٣١) ابن عساکر ٢/١٩٦ ، تهذيب ابن عساکر ٢/٢٨٦ ، معجم البلدان ٢/٣٢٢ ، طبقات الضاعمة الكبرى - السبكي - ج ٢/ ٣٣٠ ، لسان المیزان ٣/ ١١٦ و ١١٧ ، كتاب الروضتين - أبو شامة - ج ١ ق ٧٢/١ ، البداية والنهاية ١٢/١٥٠ ، الرائي ٨/٧٦ ، التجرم ٥/١٥٦ ، المعر ٣/٣٢١ .

### مقارنة مكتبة طرابلس بالمكتبات الكبرى

شهد العالم الاسلامي في العصور الوسطى نهضة حضارية وثقافية ، لم يشهدها في تاريخه كله ، وقد عبر الملوك والامراء العرب والمسلمون عن هذه النهضة ببناء دور العلم ، وبيوت الحكمة ، والمكتبات العظيمة ، وخزائن المخطوطات ، وكانت مكتبة طرابلس واحدة من تلك المكتبات التي انتشرت في مدن العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه .

وهذه احصائية لاعداد الكتب التي كانت تحتويها تلك المكتبات ، ومقارنة بين المكتبات الكبرى المشهورة في العالم الاسلامي في ذلك الوقت ، وسكان « دار العلم » بطرابلس منها ، كما رتبها « جرجي زيدان » على الوجه التالي :

- ١ - مكتبة سابور<sup>(٢٣٥)</sup> في بغداد - عدد المجلدات - ١٠,٤٠٠ (٢٣٦)
- ٢ - مكتبة الحكم<sup>(٢٣٧)</sup> في قرطبة - عدد المجلدات - ٦٠٠,٠٠٠ (٢٣٨)
- ٣ - خزائن القصور بالقاهرة - عدد المجلدات - ١,٦٠٠,٠٠٠ (٢٣٩)

ولندع الآن « ابن الفرات » يحدثنا عن دار العلم ، في النسخة التي لم تنف عليها من تاريخه ، وقيل أنه رواها استنادا الى المؤرخ « ابن أبي طيء » ، ونحن ننقلها عن مقالة « هنري لامنس » :

قال ابن الفرات : « وكان لطرابلس دار علم لا نظير لها في العالم ، تحتوي على ثلاثة آلاف ألف كتاب ، في العقائد وتفسير القرآن الكريم والحديث والأدب . وكان عدد المصاحف فيها يبلغ خمسين ألفا ، والتفاسير عشرين ألفا » . وكان قضاء بني عمار يمتنون بنجاح دار العلوم هذه<sup>(٢٣٢)</sup> ويصرفون الرواتب السنوية على مائة من النساخ ، وكان بينهم ثلاثون ناسخا لا يروحون الدار نارا ولا ليلا . وكان لهم عملاء في كل البلدان ليتابعوا لهم أفضل ما يجدون من الكتب . وكانت طرابلس في عهد بني عمار أصبحت مدينة زاهرة حافلة بالعلوم يتقاطر اليها العلماء من كل البلدان .<sup>(٢٣٣)</sup>

وبلاحظ على هذا النص أن « لامنس » جعل عدد النساخ مائة ، بينما هم عند الاستاذ يوسف العش ومحِب الدين الخطيب : مائة وثلاثون .<sup>(٢٣٤)</sup> وهذا أمر له أهميته ، سوف تناقشه عما قليل .

( ٢٣٢ ) وردت عنه : « دار العلوم » .

( ٢٣٣ ) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام ( مجلة الشرق ) - ١١٠/٢ .

( ٢٣٤ ) Eche-P.118 دار العلم بطرابلس الشام وعدد ما كان فيها من الكتب - ( مجلة الحديث ) - حب الدين الخطيب - ج ١٧٥/٤ ، بيت الحكمة - سعيد الدويري - ص ٥٥ .

( ٢٣٥ ) هو سابور بن أرتشستر ، أنشأ سنة ٣٨١هـ . ( تهجد ذكرى أبي العلاء ) - د . طه حسين - ص ١٥٠ - القاهرة ١٩٣٧ .

( ٢٣٦ ) المعاصرة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم ميتز - ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريد - ج ٢٤٩/١ - القاهرة ١٩٤٦ .

( ٢٣٧ ) هو المستنصر بن الناصر ( ٢٥٠ - ٣٦٦هـ . ٩٦٦/ - ٩٧٦هـ ) .

( ٢٣٨ ) شمس الله ... - ص ٢٩١ .

( ٢٣٩ ) شمس الله ... - ص ٢٩١ ، تاريخ الدولة الفاطمية - د . حسن إبراهيم - القاهرة ١٩٦٤ .

الميلادي أيضا ، لم يستطع ملك فرنسا « شارل الخامس » الملقب بالحكيم أن يجمع أكثر من ألف كتاب ، يكاد ثلثها يكون خاصا « بعلم اللاهوت » . (٢٤٥)

إن مكتبة كانت تضم عددا « هائلا » من الكتب ، كمكتبة طرابلس الشام ، استلزمت ، ولا شك بناء « ضخما » متسع الارحاء ، وتحتاج الى موظفين وعمال ومشرفين كثيرين ، وبالطبع ، كانت ترصد لها ميزانية ضخمة للانفاق على العاملين بها من موظفين ، ونظار ، ونساخت ، وخطاطين ، ومرجحين ، ومجلدين ، ووراقين ، وحرس ، فضلا عن التجار الذين كانوا يأتون بنوادير الكتب من مختلف أقطار الدنيا ، مها غلا ثمنها ، والطلبة الذين كانوا يتقاضون الهبات والمجاريات الشهيرة ، مع ما يستلزم من نفقات العناية بالمكتبة من فراشة وتنظيف وإنارة ، وتأمين لأدوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وجلد ، وما تحتاجه من بسط أو حصير ، ومناضد ومقاعد ، وخزائن ورقوف ، وما يرصد من نفقات سنوية لترميمها أو تبويضها .

وكانت دار العلم تضم عدة أجنحة ، كما يجيل ، أحدها كان يضم قاعة التعليم ، حيث تعقد حلقات الدرس ، وأحدها كان مخصصا للمكتبة ، وهذا يضم

٤ - دار المحكمة بالقاهرة - عدد المجلدات - ١٠٠,٠٠٠ (٢٤٠)

٥ - مكتبة مراغة - عدد المجلدات - ٤٠٠,٠٠٠ (٢٤١)

٦ - دار العلم بطرابلس الشام - عدد المجلدات - ٣,٠٠٠,٠٠٠ ملايين

ومن هذه الاحصائية يتضح لنا أن عدد مجلدات الكتب في دار العلم بطرابلس ، كان يفوق عدد جميع الكتب في المكتبات المذكورة مجتمعة . وقد اقتضت المقارنة ، كما يلاحظ ، على مكتبات العالم الاسلامي فقط ، اذ لم يكن هناك مكتبات أخرى غيرها ، يصح أن يطلق عليها « مكتبات كبرى » ، وخاصة في أوروبا . اذ كانت الأديرة الأوروبية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، تقيد العدد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة بالسلاسل نظرا لندرتها ، وخوفا عليها من الضياع . (٢٤٢) وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي ، كانت مكتبة « كلوني Gluny » تعتبر أكبر مكتبة في أوروبا ، ولا تحتوي سوى على خمسمائة وسبعين كتابا (٢٤٣) وفي سنة ١٣٠٠م . أصبحت مكتبة كنيسة « كثربري » أغنى مكتبة أوروبية حيث ضمت خمسة آلاف كتاب . (٢٤٤) وفي القرن الرابع عشر

( ٢٤٠ ) بنها الحاكم بأمر الله في ١٠ جمادي الآخرة سنة ٣٩٥هـ . / آذار - مارس سنة ١٠٠٥م . ( شمس الله - - - ص ٢٩٩ ) .

( ٢٤١ ) أنشأها ملازم البشري لما نهبه التتر من بغداد والشام والمغرب - ( العرب والعلم ) د . توفيق الطويل - ص ٨١ - بيروت ١٩٦٨ .

( ٢٤٢ ) شمس الله - - - ص ٢٩٠ و ٢٩٩

( ٢٤٣ ) العرب والعلم - ص ٨٣ ، شمس الله - - - ص ٢٩٠

( ٢٤٤ ) العرب والعلم - ص ٨٣

( ٢٤٥ ) العرب والعلم ، محاضرة العرب - غوستاف لابر - - - . وعينتر - ص ٤٢٤ اللغزاة المحاضرة العربية - جاك ويسلر - ترجمة فهد عيود - ص ٨٣ ، القاهرة .

### مصير دار العلم ، إحراق وتدمير

تتحدث بقية رواية ابن الفرات عن إحراق الصليبيين لدار العلم ، وظروف ذلك الحريق فتقول ان الكاهن المنقطع لخدمة الكونت « برترام بن ريجوند » دخل الى المكتبة ، بعد اقتحام المدينة ، فوجدها ملأى بالكتب بحيث أثارت تعجبه ، فدخل القاعة المخصصة للمصاحف الشريفة ، فأراد أن يتصفح ما في إحدى خزائنها ، فتناول نسخة وحين استقرأها وجد قرآناً « كريماً » ، وظل يفعل الشيء نفسه حوال عشرين مرة ، فلما أيقن أن جميع النسخ التي تصفحها كانت نسخاً من القرآن الكريم ، اعتقد بجهله ان المكتبة كلها لا تضم سوى المصاحف ، ولذلك غضب واثارت في نفسه الروح الصليبية ، وقال : هذه مكتبة مملوءة بالمصاحف . أحرقوها وهكذا نفذ أمر هذا الكاهن الجاهل المتعصب وأميره الصليبي ، وأضرم أصحابه النيران في دار العلم فأنت على جميع الكتب حتى أصبحت أضرأ بعد عين . (٢٤٧) ولم يكن إتلاف هذه المكتبة الرائعة سوى مقدمة لما حل بالمكتبات الاسلامية الاخرى من جراء الأفعال التدميرية التي أتأها المغول عندما اجتاحتها دول الاسلام . (٢٤٨) كما كان مصير مكتبات الاندلس الاسلامية الأحراق والتدمير على أيدي رهبان وأمرأه أوروبا المتعصبين . (٢٤٩) ولم يقتصر الحريق على

قاعة للمطالعة ، وقاعة للنساخت ، وقاعة للتوريق والتجليد والزخرفة ، ومن المرجح انه كان يفصل بين القاعات أروقة مسقوفة يسهل على المترودين اليها الانتقال بينها .

وكانت خزائن الكتب المخطوطة تتوزع حسب موضوعاتها في غرف كبيرة ، كل غرفة تختص بنوع من الكتب ، على غرار مكتبة الخليفة الفاطمي بمصر ، الحاكم بأمر الله . ونستدل على ذلك من رواية ابن الفرات التي يذكر فيها أن إحدى حجرات دار العلم كانت تحتوي على نسخ المصاحف الشريفة فقط .

وكانت « دار العلم » بكل ما تشتمل عليه ، مع غيرها من المكتبات الأهلية الموجودة في بيوت وقصور الأحرأ والأعيان وصحي اقتناء الكتب ، توجد في منطقة الميناء الحالية حيث كانت تقوم هناك مدينة طرابلس الفينيقية القديمة . وكنا نود معرفة الموضوع الذي أقيمت عليه الدار من المدينة القديمة ولكن الاحداث التي شهدتها طرابلس أثناء الاحتلال الصليبي ، لم تترك لنا أثرأ يدل عليها . فقد اندثرت معالمها وضاع منها كل أثر ، بقفل ما ارتكبه الصليبيون عند دخولهم المدينة ، إذ شمل التدمير والأحراق ، فيما شمل هذه المكتبة العظيمة كما يسميها « رينيه ديسو » . (٢٤٩)

La Grande Encyclopédie - R.D-v.31- P.402 ( ١١٤ )

( ٢٤٧ ) ينقل جرجي زيدان عن « جيبون » قوله أن الكونت برترام هو الذي دخل القرية وأمر بإحراقها . ( تاريخ المدن الاسلامي - ج ٢٢/٣ ) ، المكتبات في الاسلام - ص ١٣٤ نقلاً عن المكتبات العربية في العصر العباسي - بيتر أولفا . ( ٢٤٨ ) العالم العربي - ص ٥١ .

( ٢٤٩ ) أقرق الكرتديال « كسمينس » في ساحة لمرناطة لثانية آلاف كتاب عربي ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين ، وقيل انهم أحرقوا أكثر من مائة ألف من الكتب العربية بدون استفاء في لمرناطة ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب . ( حاضرم العالم الاسلامي - لورويب ستندارد ) - تعليق شكيب ارسلان - ج ١٤٤/١ الفن والحياة - بيروت ١٩٧٣ .

لايقاع تهمة من هذا النوع على عاتق النصارى أيضا» (٢٥١).

وإذا كان «كاترمير» قد أبدى تشكيكه في مسألة احراق المكتبة ، فهو لم يذكر لنا أين وكيف ضاعت ، ولم نسمع عنها شيئا أيام الاحتلال الصليبي لطرابلس طوال مائة وثلاثين عاما ( ٥٠٢ - ٦٨٨ هـ / ١١٠٩ - ١٢٨٩ م ) . وهل تأخذ رواية المؤرخين أمثال ابن القلانسي ، (٢٥٢) وابن الأثير ، (٢٥٣) وابن خلكان ، (٢٥٤) وابن أبيسك الدواداري ، (٢٥٥) والمعري ، (٢٥٦) والسيوطي (٢٥٧) وابن الفرات ، (٢٥٨) وغيرهم ، على أنها روايات مختلفة ومكذوبة حين يقولون ان الصليبيين انتهبوا مكتبة طرابلس ودور علمها ؟ .

أما هنري لامنس فقد وضع كتابا بعنوان « مختصر تاريخ سورية » ونشر نبذة تاريخية انتقادية عن « الصليبيين ومكتبة طرابلس الشام » قلل فيها من أهمية دار العلم ، ووصفها بأنها لم تكن سوى مدرسة صغيرة ، وهو بهذا يحاول التخفيف من الجرمية التي ارتكبتها الصليبيون ، ويصرف الأذهان بإبراز أحداث دمشق عندما دخلها « أسنر الخوارزمي »

المكتبة ، بل تعداه الى المدرسة وصنع الورق أيضا . (٢٥٠) لاجتثاث كل ما يمت الى العلم بصلة أو ينشط حركته .

ومن الملاحظ أن معظم المؤرخين الأفرنج لا يتعرضون لذكر إحراق هذه المكتبة إلا في سياق سردهم للأحداث التاريخية ، فهم يذكرون ذلك عرضا وبصورة موجزة بهدف التقليل من أهمية هذا العمل ، بل ان بعضا من باحثيهم حاولوا التشكيك بحادثة إحراق هذه المكتبة ، تماما ، كما فعلوا في حادثة إحراق مكتبة الاسكندرية القديمة ، والتي نسبوا إحراقها باطلا الى « عمرو بن العاص » ، وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، ومن الذين حاولوا التشكيك في أمر إحراق الصليبيين لمكتبة طرابلس المستشرق الفرنسي « كاترمير » حيث يزعم ان هذه الحادثة من وضع المؤرخين الشرقيين ( يقصد المسلمين ) وأن هذه الحادثة إن لم تكن مخترعة فمن الجائز أنها محرفة أو مبالغ فيها بسبب العصبية القومية . وذلك لأن المسلمين قد اتهموهم أحيانا بإحراق خزانة الاسكندرية . ويضيف الى ذلك قوله : « ولا شك أن ضمايرهم ( أي المسلمين ) ترتاح

( ٢٥٠ ) مختصر تاريخ العرب - سيد أمير علي - ترجمة عفيف بكلي - ص ٢٨٨ - بيروت .

( ٢٥١ ) خزائن الكتب ١٠٠٤/٣ .

( ٢٥٢ ) ذيل تاريخ دمشق ١١٣ .

( ٢٥٣ ) الكامل في التاريخ ٤٧٦/١٠ .

( ٢٥٤ ) وفيات الأعيان ٣٠٠/٥ .

( ٢٥٥ ) كنز الدرر وجامع الفهر - ج ٨ ق ٢٥٤/٣ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ تاريخ .

( ٢٥٦ ) مسالك الأبحار في بحالك الامصار - ج ٨ ق ٦٠/١ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة .

( ٢٥٧ ) تاريخ الخلفاء ٤٨٢ - الثغرة ١١٦٤ .

( ٢٥٨ ) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - بحث انتقادي للاستاذ محمد كبر علي - مجلة ٢ - ج ٢٧٧/٩ - دمشق ١٩٢٢ .

ها : توفيق بن محمد بن زريق الطرابلسي الذي كان من كبار العلماء في الهندسة والرياضيات وعلم الفلك ، وابن أبي العيش القاضي الطرابلسي العالم الفلكي الذي شارك ببناء المرصد المأموني في مصر ، وقد سبق التعريف بهما .

أما علم الطب فقد أجمعت كتابات الباحثين على ازدهاره في عصر الامارة الصليبية في طرابلس حيث أقيم فيها أعظم معهد أكاديمي للطب كان فيه عدد كبير من الاطباء البعاقية والمكانيين والمسلمين ، وذلك بشهادة « لامنس » نفسه (٢٦٠) فهل ينشأ هذا المعهد من العدم ؟ أم أن هناك أصولا لهذا العلم كانت موجودة في طرابلس قبل مجيء الصليبيين ؟

أما أخذ الطرابلسيين بالعلوم الطبيعية فيستدل عليه من تطويعهم للمغناطيس واستخدام البوصلة في أسفارهم البحرية ، حيث تحدث صاحب كتاب « كنز البحار » عن ابتكار البعارة في طرابلس لتلك الآلة ، من خلال مشاهدته الذاتية في مناتها في النصف الاول من القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) فكتب يقول : « ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامي إذا أظلم عليهم الجوريللا ولم يروا من النجوم ما يحتاجون به الى تحديد الجهات الأربع يأخذون إناء مملوءا ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه الى بطن السفينة ثم يأخذون إبرة وينفذونها في سمة أوقشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ،

فقال : « ان دار العلم بطرابلس لم تكن مدرسة جامعة بل مدرسة صغيرة لتلقين العلم الديني » ثم يقول : « ان حريق الجامع الأموي بدمشق سنة ٦٩٠م . على عهد الفاطميين كان أشأم على العالم من أخذ طرابلس » . وقد رد الاستاذ محمد كرد علي على هذه الدعوى القوية فقال : « ان المؤرخين يجمعون على أن طرابلس كان فيها دار حكمة على مثال بيت الحكمة في بغداد ، وقد قال الاثري العلامة فان يرشم من مفكراته أزهت طرابلس زمن القاضي ابن عمار ، وقد جعلها مركزا من مراكز التشيع وأنشأ فيها بيت حكمة جهزه بمائة ألف مجلد من الكتب ، وكان فيها على عهده مدرسة جامعة ودارس دينية وخرائن كتب ، وربما كانت طرابلس قبيل استيلاء الصليبيين عليها اول بلدة علمية في الشام » . وكتب « لامنس » يقول : ان المراد بالعلم في اصطلاح مؤرخي العرب انما هو درس القرآن وما يلحق به من التفسير والحديث واللفظ . أما العلوم المدنية كالطب والهندسة والرياضيات ... الخ ، فكانت تعرف بعلوم الأوائل ، وكان لها مدارس خاصة يحضرها الدارسون كما أثبت ذلك المستشرق الكبير أغناطيوس غولد سيهر . ولا شاهد لدينا يثبت تعليم المسلمين علوم الأوائل في طرابلس (٢٥٩)

وزد على هذه الدعوى بأن علوم الأوائل لم تكن مجهولة في طرابلس ، فهي وان لم تكن مزدهرة كبقية العلوم الاسلامية ، فقد برز فيها عالمان طرابلسيان

( ٢٥٩ ) الصليبيون مكتبة طرابلس الشام - ص ١٠٨ .

A History of Deeds one beyond the sea- William of Tyro- V.2 P.395- Columbia 1943 La Syrie- Lammens- ( ٢٦٠ ) P.246- Y.I- Eelyrouth 1921

عن أعمال الصليبيين اللاتينية عندما دخلوا طرابلس وغيرها من المدن العربية .

ويجدر هنا أن نسوق ما ذكره ابن القلانسي وابن الاثير عن أعمال الصليبيين عندما دخلوا طرابلس سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٩م . (٢١٤)

يقول ابن القلانسي : « إن الصليبيين ملكو طرابلس بالسيف ونهبوا ما فيها وأسروا الأموال ، وغنموا من أهلها الأموال والأمنمة ، وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ولا يحصى ، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة » ، وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دقاتهم وذخائرهم من مكانهم . (٢١٥)

وذكر ابن كثير في تاريخه مثل ذلك . (٢١٦) وكذلك سبط ابن الجوزي . (٢١٧) أما « السلاسي » فيقول : إن مدينة طرابلس كانت مملوءة حينذاك بالعلماء من المسلمين ففني منهم خلق كثير بعد أن فني فيها الجوع والضائقة والقتل . (٢١٨)

وحين كتب « تاج الدين بن الأثير الحلبي » تهنئة على لسان السلطان المنصور قلاوون إلى

ويلقونها في الماء الذي في الآلاء فتطوع على وجهه ، ثم يأخذون حجراً « من المغناطيس كبيراً » ملء الكف ويدنونه من وجه الماء أو يحركون أيديهم دورة اليمين ، فتمتدح تدور الآية على صفحة الماء ، ثم يرفعون أيديهم في غفلة وسرعة فإن الآية تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال . رأيت هذا الفعل منهم عياناً في ركنونا البحر من طرابلس الشام إلى اسكندرية في سنة أربعين وسبائة . (٢١٩)

ووضع « أمين الريحاني » كتاباً بعنوان « النكبات » (٢٢٠) تحدث فيه عن النكبات التي حاقت بلبنان والشام عبر التاريخ ، ولم يشر إلى إحراق أو ضياع مكتبة طرابلس على يد الصليبيين ، وكأنها لم تكن نكبة حضارية وإنسانية في نظره .

كذلك فإن « فيليب طرازي » وضع كتاباً تحدث فيه عن تاريخ لبنان ، وأبرز فتح المماليك لطرابلس سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م . وركز القول على أن المسلمين « قوضوا دور المدينة ، ولم يتركوا برجاً » من أبراجها إلا دكوه ، ولا كنيسة من كنائسها إلا هدموها ... وقتلوا جماعة من الكهنة والشمامسة والراهبان والراهبات » . (٢٢١) ولكنه تناسى الحديث

( ٢١٦ ) العلوم عند العرب - لقري حافظ طوقان - ص ٥٠ و ٥١ ، القاهرة ، سلسلة الألف كتاب ، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية - ٢ - سميد هاشم - ص ١٢٥ ، القاهرة .

( ٢١٧ ) النكبات أو خلاصة تاريخ سورية - أمين الريحاني - بيروت ١٩٢٨ .

( ٢١٨ ) أصدق ما كان من تاريخ لبنان وصلحة من أخبار السريان - فيليب طرازي ج ١/٦٣ ، بيروت ١٩٤٨ .

( ٢١٩ ) قبل تاريخ دمشق ١٩٦٢ .

( ٢٢٠ ) الكامل في التاريخ ٤٧٦/١٠ .

( ٢٢١ ) البداية والنهاية ١٢/١٧١ .

( ٢٢٢ ) مرة الزمان في تاريخ الامم - ج ٨ ق ٢٧/١ ، حيدر أباد ١٩٥١ .

( ٢٢٣ ) مختصر التاريخ - السلاسي - ص ٢٧٧ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٠٥١ و رمز ح .

صاحب اليمن المظفر يوسف بن رسول بفتح طرابلس الشام واسترجاعها من الجسليبيين في سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م . أتى على ذكر دار العلم وصفها بالمشهورة . فقال : « وهذه المدينة لها ذكر في البلاد ومنعة ، كانت قد ضربت دون القصد بالاسداد ، فتحت في صدر الاسلام في زمن الصحابة الكرام في ولاية معاوية بن أبي سفيان ، وتنقلت في أيدي الملوك من ذلك الزمان ، وعظمت في زمن بني عمار ، حتى استهلكت ولو بتطبيق الأعمار ، وبنا بها دار العلم المشهورة في تاريخ التواريخ ، فلما كان في آخر المائة الخامسة المذكورة ، ظهرت طوايف الفرنج بالشام ، واستولوا على البلاد وعاودوا بها حكام » . (٢٦٧)

هذه هي مكتبة طرابلس التي عرفت باسم « دار

العلم » ، وأصبحت هذه التسمية علما و « اسما » للمدينة نفسها ، فعرفت طرابلس في ذلك العصر بمدينة دار العلم ، وجاءت تسميتها في عدد من المصادر التاريخية . فقال ابن فضل الله العمري وهو يصف طرابلس انها « كانت تسمى قديما بدار العلم » . (٢٧٠) وكذلك يسميها الشاعر شهاب الدين محمود وهو مدح الملك المنصور قلاوون وهنثه بفتحها حيث يقول في قصيدة :

وكانت بدار العلم تعرف قبلها  
فمن أجل ذا السيف في نظمها نثر (٢٧١)  
ومن قصيدة أخرى له أيضا :

وهي أيضا بدار علم تسمى  
إنما ليس كالجبال الأكام (٢٧٢)



( ٢٦٦ ) كنز الدرر - ج ٨ ق ٢٤١/٢ ، مسالك الأنصار - ج ٨ ق ٦٠/١ .

( ٢٧٠ ) مسالك الأنصار - ج ٢ ق ٤٤٨/٢ ، الدر المنقب - ابن اللبنة - ص ٦٦٣ .

( ٢٧١ ) الأثر الزكية - ص ٢٩٦ ، عيون التواريخ - ابن شاذي الكشي - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٤٩ تاريخ - ق ١ ج ٣/١٢ .

( ٢٧٢ ) نثر الجمان في تراجم الأعيان - الفيومي - ج ٢٢٢/٢ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٤٦ تاريخ .





استرليني وأكثر من ٤٠٠,٠٠٠ حصان وبغل وحمار وما لا يقل عن ٢٢ ألف قتيل .



ويرتبط تاريخ حرب البوير بتوسع المستوطنين البيض ( الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الافريكاندز Afrikanders أو Afrikaners بمعنى شعب افريقيا ) طيلة قرنين ونصف في جنوبي افريقيا وصراعهم مع كل من الأفارقة - سكان البلاد الاصليين - والبريطانيين . ففي عام ١٦٥٢ أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية محطة للسفن في رأس الرجاء الصالح ( أو الكاب ) . وفي البداية كانت هذه المستوطنة قليلة السكان - فبعد نصف قرن من قيامها لم يزد عدد المستوطنين البيض فيها عن ٢٥,٠٠٠ نفس وهو عدد يقل كثيرا عن أعداد خدمهم الملوتين ( بما في ذلك العبيد المستوردون ) الذين كان الاوربيون يكلون اليهم القيام بالاعمال اليدوية التي يستكفون هم عن ممارستها . وكان معظم المستوطنين البيض من الكلفنيين الهولنديين والبروتستانت الالمان والهيجونوت الفرنسيين الذين اعتنقوا جميعا نوعا أو آخر من المذاهب الدينية الجديدة التي تمردت على المذهب الكاثوليكي التابع لبابا روما الذي كانت له السيطرة العقائدية على أوروبا الغربية لمدة تزيد على ألف عام . وازاء الاضطهاد الديني الذي تعرض له أتباع المذاهب الجديدة في بلادهم الاصلية فان كثيرا منهم هاجروا الى العالم الخارجي بما في ذلك مستعمرة الكاب . ومن الطبيعي أن يكون المهاجرون ساخطين منذ البداية على أوروبا التي

ونابليون - للسيطرة على القارة الاوروية . كما دمرت الاسطول الاسباني الذي حاول غزو الجزر البريطانية في أواخر القرن السادس عشر . ولعبت دورها في تصفية الامبراطورية الاسبانية في العالم الجديد ، في الوقت الذي ورث فيه كثيرا من الاملاك الفرنسية في أمريكا والهند . وطفقت طيلة القرن التاسع عشر تلتقط مستعمرة اثر أخرى حتى قيل ان الشمس لم تكن تغيب عن أملاكها . لهذا كله فان فضل بريطانيا في فرض ارادتها على المستوطنين البيض في جنوبي افريقيا من غير البريطانيين ( الذين أطلق عليهم اسم البوير ) ، بل وتعرضها للهزائم العسكرية المتوالية على أيديهم كان بمثابة صدمة للرأي العام البريطاني ، وفرصة نفست فيها الدول الاوروية عن أعقاده وشياتها مما أصاب الكيرباء البريطاني بلطمة شديدة نهت بريطانيا الى حقيقة الشعور المعادي لها في أوروبا ، وجعلتها تعيد النظر في علاقاتها الدولية وأوضاعها العسكرية .

أما حرب البوير التي اندلعت في ١١ أكتوبر ١٨٩٩ بين بريطانيا والمستوطنين البيض في جنوبي افريقيا الذين ينتمون الى أصول المانية وفرنسية وهولندية ، والتي توقع الانجليز أن تنتهي قبل آخر أعوام ميلاد القرن التاسع عشر ، فقد ثبت أنها أطول الحروب التي خاضتها بلادهم طيلة قرن من الزمان تمتد ما بين عامي ١٨١٥ و ١٩١٤ ، إذ أنها ظلت تحتدم خلال عامين وثلاثة أرباع العام . كما ثبت انها أكثر حروب بريطانيا خلال هذه الفترة تكلفة في الاموال والأرواح : فقد كبدتها أكثر من مائتي مليون جنيه

فيها أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن يعاملوا الزوج وفق ما يحلو لهم . وقد اصطحبوا معهم في هجرتهم أسرهم ومواسيتهم وأغنابهم وبنادقهم وبارودهم وكل ما يحتاجون اليه لمواجهة الافارقة ، كما نظموا أنفسهم منذ البداية على أسس عسكرية وكان برفقتهم حدث اسمه بول كروجر قبض له فيما بعد أن يلعب نجمة في أفق جنوبي افريقيا وأن يتحدى السيطرة البريطانية . وفي النهاية استطاع البوير - الذين امتلأت قلوبهم بكرهية لبريطانيا ظلت محدمة طيلة قرن من الزمان - أن يؤسسوا جمهوريتين ( دولة الاورنج الحرة وجمهورية الترنسفال ) اعتبرتا وطنيا قوميا للبوير الذين ، برغم خلافاتهم ومشاجراتهم ، كانت تجميهم عقيدة واحدة قوامها انكار المحقوق السياسية على الافارقة والملوين الذين ينتمون الى أجناس مختلطة .

وخلال ما تبقى من القرن التاسع عشر لم تسر علاقات بريطانيا بالبوير على وتيرة واحدة . فبسبب ما شاب سياستها من تردد لم تتخذ من الاجراءات ما يكفل اعتراض عبور نهر أورنج ، كما لم تحرم الاتجار مع المهاجرين ، أما حكومة الكاب فقد أصدرت تصريحاً يؤكد سلطتها على البوير الهاربين دون أن تتخذ من الاجراءات ما يكفل خروج هذا التصريح الى حيز التنفيذ . وفي عام ١٨٤٣ أنشأت بريطانيا مستعمرة ثانية حين ضمت نا تال - موطن قبائل الزولو التي تغلب عليها البوير - وكان قد تركز فيها المهاجرون البيض من مستعمرة الكاب . وما لبثت بريطانيا أن اعترفت في عامي ١٨٥٢، ١٨٥٤ بالاستقلال الذاتي لجمهورية البوير الجديدة

أرغمتهم على الهجرة ومفارقة الأهل والأوطان - ومن ثم الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم في جنوبي افريقيا وهو اسم « شعب افريقيا » . أما اللغة المشتركة التي كانوا يتكلمونها فهي تختلف بعض الشيء عن اللغة الهولندية . وقد أطلق عليها اسم Afrikans . أما البوير ( أي الفلاحون المتجولون ) فكانوا أفقر هؤلاء المهاجرين الاوروبيين وأكثرهم نزوعا الى الاستقلال - وقد أفضى بهم جريهم وراء مزيد من المراعي الجديدة الى التوغل بالتدريج في داخل القارة الافريقية .

وقد احتلت بريطانيا مستعمرة الكاب في عام ١٨٠٦ خلال الحروب النابليونية ، وقررت الاحتفاظ بها باعتبارها قاعدة بحرية على طريق الهند والشرق واحدى القواعد الاستراتيجية الهامة بالنسبة الى مواصلتها الامبراطورية . بيد أن هذه المستعمرة الفقيرة لم تجتذب كثيرا من المهاجرين الانجليز بحيث شكل الافريكاندز أغلبية سكانها البيض ، الذين أبدى معظمهم استعدادا للخضوع لسلطة التاج البريطاني ، على حين استنكف بوير المحدود ذوو النزعات الجمهورية بتدخل بريطانيا في شئونهم وبخاصة فيما يتعلق بمعاملتهم للزوج الافارقة . وحين أصدرت بريطانيا في عام ١٨٣٤ قراها الخاص بتحرير العبيد في كل أرجاء امبراطوريتها هاجر حوالي ٥,٠٠٠ من البوير يرافقه عدد مائل من خدمهم السود عبر نهري قال وأورنج الى ما وراء الحدود الشمالية - الشرقية لمستعمرة الكاب ، ساعين الى الاستحواذ على أراضٍ تبدو خالية من السكان يمكنهم

بمستقبل اثنين من كبار المليونيرات البريطانيين هما سيسل رودس والفرد بيت (Beit) - فقد أصبح رودس رئيساً لوزراء مستعمرة الكاب وأشارك مع بيت في انشاء مستعمرة بريطانية جديدة في الاراضي الافريقية الواقعة الى شمال الترنسفال ، والتي عليها اسم روديسيا ( نسبة الى سيسل رودس ) وكانت تدبر شئونها شركة ذات امتياز أنشأها رودس وبيت بمقتضى رخصة صادرة عن التاج البريطاني . وفي عام ١٨٨٦ اكتشف الذهب في منطقة وتوتوزراند الواقعة في داخل جمهورية الترنسفال - وأدى هذا الاكتشاف الجديد الى إثارة المتاعب في وجه الجمهورية التي ازدادت متاعبها في أواخر القرن التاسع عشر نتيجة لاكتشاف الفحم في المنطقة الواقعة حول مدينة جوهانسبرج . فقد أصبحت جمهورية الترنسفال أغنى مناطق جنوبى افريقيا وأقواها عسكريا ، مما عجل باصطدام البوير بالمهاجرين الجدد الذين اجتذبهم اكتشاف الذهب ، ومعظمهم من البريطانيين .

ورغم تفوق المهاجرين البريطانيين على البوير من الناحية العددية ، فقد فرض البوير عليهم قانونا انتخابيا يجرمهم من الحقوق السياسية ، مما أثار سخطهم وأضعف ولاهم لوطيهم الأخير . وعلى هذا الأساس تأمر رودس وبيت في عام ١٨٩٥ للاستيلاء على الترنسفال وضمتها للإمبراطورية البريطانية - فقد بدا لها أن سخط سكان الترنسفال البيض من غير البوير نتيجة لحرمانهم من الحقوق السياسية من شأنه - بالإضافة الى ملايينها - أن يوفر لبريطانيا

( الترنسفال وأورنج الحرة ) ، خاصة وأن حكومة الاحرار كانت تفضل الاقتصاد في الانفاق على الامبراطورية ، وتحبذ التوسع في فتح الاسواق دون أن يستلزم ذلك فرض مزيد من النفوذ البريطاني . على أن ذلك لم يرض بعض البريطانيين الذين كانوا يتحرقون الى توسيع رقعة أملاكهم - ومن ثم ضم بريطانيا للترنسفال في عام ١٨٧٧ ، ومحاولتها توحيد جنوبى افريقيا . وفي عام ١٨٨٠ ثار البوير - بزعامة بول كروجر - على الحكم البريطاني وأوقعوا الهزيمة بالجيش البريطاني في موقعة ماجوبا . وأرغمت بريطانيا ، ازاء ذلك ، على منح البوير حكما ذاتيا داخليا تاما ، واحتفظت لنفسها بالاشراف على علاقات الترنسفال الخارجية . واتخذت التسوية شكلا دوليا بمقتضى اتفاق بريتوريا الموقع في عام ١٨٨١ واتفاق لندن الموقع في عام ١٨٨٤ . ولكن كروجر - الذي أصبح رئيساً لجمهورية الترنسفال التي عادت الى حيز الوجود - لم يخف كونه يوقع على الاتفاق تحت ضغط الظروف ، وأنه سيبدل كل ما في وسعه للتفاوض حول اتفاق ثالث من شأنه أن يبعد شبح هيمنة بريطانيا عن شئون الترنسفال .

وفي تلك الأثناء أدى اكتشافان معدنيان الى قلب الخريطة السياسية لجنوبى افريقيا ظهراً على عقب : فقد اكتشف الماس في كمبرلى الواقعة في داخل جمهورية الاورنج الحرة قرب حدود مستعمرة الكاب ، وأدى ذلك الى إعادة النظر في مشكلة البوير والتمهيد لمتنع مستعمرة الكاب بالحكم الذاتى الفعال في نطاق الامبراطورية البريطانية . كما ارتبط هذا الاكتشاف

ثلاث جرى بذل محاولة إيجابية لحل مشكلة البوير باتباع سياسة توسعية ، وفي كل مرة - ولأسباب مختلفة من بينها العجلة ومناورات الحياة الحزبية - كانت هذه السياسة التوسعية تثنى بالفشل بكارثة ، وتنتهى بكارثة ، في الوقت الذى بدا فيه أن البدائل لم تكن سوى سلسلة من الأخطاء الفادحة . وبينما هذا يجرى في الساحة البريطانية ، كان البوير يزدادون ثراء وعددا بالصورة التى تشكل مزيدا من التهديد لبريطانيا وامبراطوريتها . فهم قد واصلوا تعزيز معاقلمهم في الداخل وزحزحة الافارقة صوب الاراضى الاكثر فقرا ، في الوقت الذى شكل فيه المهاجرون من غير البريطانيين ( الافريكاندرز ) مستعمرة الكاب التى أصبح وضعها في منتهى التعقيد . فهى مستعمرة لا يرتفع ولاء سكانها عن مستوى الشبهات . في الوقت الذى أدى فيه ضعف هجرة البريطانيين الى استمرار كونهم أقلية بالنسبة الى السكان البيض الذين كانوا بدورهم يشكلون أقلية بالنسبة الى السكان السود . وهكذا تبلورت المشكلة في نشوب الصراع بين البيض والسود ، وبين البيض بعضهم وبعض ، وبين البيض وأوروبا بوجه عام ، وبدا للتران تجنب جنوبى افريقيا خطر نشوب حرب لا تنتهى لن يتم الا بجمعة ، خاصة وأن كثيرا من العسكريين البريطانيين قد أبدوا سخطهم على اتفاقيتى ١٨٨١ و ١٨٨٤ مما أشعل روح التطوف الاستعماري البريطاني الذى كان ملتحا بيجاريه بمحاولة فرض السيطرة البريطانية المباشرة على جنوبى افريقيا بالطابع الامبراطوري على غط ما كان كرومر يقوم به في مصر - وكان ملتحا بعمل معه في مصر

فرصة جديدة لانتزاع الترنسفال من البوير - وهكذا وضعت الخطة على أساس قيام البيض الساخطين في داخل الترنسفال بالتمرد الذى تدعمه قوة بريطانية مسلحة تنسلل الى داخل الترنسفال تحت قيادة دكتور جيمسون أحد أتباع رودس . الا أن البيض الساخطين في داخل الترنسفال لم يتمردوا ، اذ أنهم كانوا يحظون بدخل جيد من مناجم الذهب ولم يكونوا على عجلة من أمرهم للقضاء على حكومة كروجر ، بل توصلوا الى الاتفاق مع ومع البوير . وفنسلت المؤامرة وأمر دكتور جيمسون ورجاله ، وعثر رجال كروجر معهم على معلومات تفضح المؤامرة . وبدلا من محاكمة جيمسون أثرت حكومة الترنسفال ارساله الى لندن لكى تقوم السلطات البريطانية بمحاكمته . وكانت فضيحة كادت تقضى على وزير المستعمرات جوزيف تشمبرلن الذى كان على علم بالمؤامرة التى أعطى بشأنها الضوء الاخضر لرووس .

وفي تلك الأثناء جرى تعيين أحد الامبراليين البريطانيين - وهو سير الفرد ملنر - مندوبا ساميا بريطانيا لجنوبى افريقيا وذلك في عام ١٨٩٧ ، وكانت صلاحيات منصبه تقضى بكونه الرجل المسئول عن المستعمرات البريطانية في جنوبى افريقيا . وبعد أن أمضى ملنر عامين في الكاب وجد أن للصبر حدودا بخاصة وأن سلسلة الاخطاء التى سبقت غارة جيمسون كانت تؤرقه . فخلال معظم القرن التاسع عشر كانت سياسة بريطانيا ازاء جنوبى افريقيا تتسم - في رأيه - بالضعف وعدم الاستقرار ، شأنها في ذلك شأن سياسة بلاده الخارجية بوجه عام . ففى مرات

ذمة بعض كبار أعوانه ، الا ان فشل الغارة قد أبرزه باعتباره بطلا شعبيا وأسدل ستار النسيان على ما سبق « للتقدميين » أن وجهه من اتهامات الى حكومته التي دمغت قبل الغارة بخراب الذمة . وبالإضافة الى ذلك فان عام ١٨٩٧ الذي جرى فيه تعيين ملنر مندوبا ساميا لجنوبي افريقيا شهد توقيع ميثاق عسكري بين جمهوريتي الترنسفال وأورنج الحرة . ولما كانت غارة جيمسون قد لفتت نظر كروجر الى ضعف تنظيم جيشه وحكومته ، فانه بذل محاولات لتعزير قواته المسلحة الحديثة ( وبخاصة مدافع الميدان والبنادق المتطورة ) التي جرى شراؤها من الخارج ، وبخاصة من ألمانيا وفرنسا . ولم يخف كروجر تطلعه الى أن يحقق لبلاده الاستقلال التام بوافقة بريطانيا ، كما أن كثيرا من البوير أبدوا استهتارهم بقوة بريطانيا موقنين أن بإمكانهم القيامها في البحر وإقامة امبراطورية للبوير تمتد من خليج تيبيل ( Table Bay ) الى نهر الزيمبزي . لهذا كانوا يتحرقون الى المبادرة بشن الهجوم واستغلال تفوقهم العسكري في جنوبي افريقيا قبل أن تصل التعزيزات البريطانية من الخارج ، مما يتيح لهم فرصة الاستيلاء على كميات كبيرة من الاسلحة وتشجيع بوير المناطق الداخلية على انشاء مستعمرة ثالثة . وفوق هذا كله فان « صقور » البوير كانوا يتوقعون أن يكون الموقف الدولي موائيا لهم ، وأن يبادر خصوم بريطانيا - وبخاصة روسيا وفرنسا وألمانيا - الى الوقوف الى جانبهم واستغلال المأزق الذي لابد أن تقع فيه بريطانيا لتسوية ضربة شديدة الى تفوقها

وأبدى نحوه ونحو جهوده كثيرا من الاعجاب . كان من رأى ملنر أن السياسة القائمة على أنصاف الحلول لا يمكنها أن تميز السيطرة البريطانية في جنوبي افريقيا ، وخاصة بعد اكتشاف الذهب في نلال الترنسفال في عام ١٨٨٦ . فالذهب هو الذي أغرى رودس وبيت في عام ١٨٩٥ بمحاولة فرض السيطرة البريطانية على الترنسفال ، مما أضاف غارة جيمسون الفاشلة الى سجل هزيمة ماجوبا . واكتشاف الذهب هو أيضا الذي أدى الى انتقال زعامة جنوبي افريقيا من الكاب الى الترنسفال ، وهو الذي أدى الى ذلك الوضع الشاذ الذي جعل أغلبية سكان الكاب من البوير ، في الوقت الذي كان فيه المهاجرون البريطانيون يشكلون أغلبية سكان الترنسفال .

ومن أولى المهام التي واجهها ملنر كان هو التغلب على آثار غارة جيمسون ووضع سياسة طويلة المدى للتصدي للبوير ، وتحقيق نفس الاهداف التي توختها الغارة . أي الاستيلاء على الترنسفال والتمهيد لذلك باتخاذ موقف صلب ازاء كروجر واختلاق الصدام معه وترك الاحداث تفرض الازمة ، على أن توافق الحكومة البريطانية ، طوعا أو كرها ، على المخطوط المريضة . لهذا المخطط . وما كان يشجع ملنر على السير قدما في تنفيذ مخطوطه أن وزير المستعمرات البريطاني - جوزيف تشمبرلين - كان يتحرق للقضاء على كروجر الذي كاد يقضى على مستقبله السياسي وأنه لم يكن يمانع في اتخاذ الوسائل الكفيلة بأخذ ثأره من زعيم الترنسفال . ورغم أن كروجر كان قبل غارة جيمسون قد بدأ يفقد شعبيته بسبب زعته الاوتوقراطية وخراب

عداها لبريطانيا التي وقفت وحيدة وجنت الثمرة المرة لما أسسته سياسياً « العزلة المجيدة » أزاء الحلفين القائمين على القارة : الحلف الروسي - الفرنسي من ناحية والحلف الالمانى - النمساوى - الإيطالي من ناحية أخرى . وعلى محك حرب البوير وموقف الدول الأوروبية منها تحلت بريطانيا بالتدريج من عزلتها ، فما لبثت بعد وقت قصير أن عقدت أول أحلافها الدولية مع اليابان الناشئة ( ١٩٠٢ ) وذلك لمواجهة آثار الحلف الروسي - الفرنسي في ساحة الشرق الأقصى ، ثم سعت الى تصفية نزاعها الاستعماري مع فرنسا بمقتضى الوفاق الودي الذي جرى عقده بين الدولتين في عام ١٩٠٤ . وسع روسيا القيصرية بمقتضى وفاق عام ١٩٠٧ . وهكذا أمكنها أن تنفرغ لمواجهة طموح وليم الثاني الى منافسة بريطانيا في مجال الاستعمار وتحدي تفوقها البحري ، مما أذن بتوتر الموقف الدولي والتمهيد للحرب العالمية الاولى .

أما فيما يتعلق بحرب البوير في حد ذاتها ، فإن الهزائم التي منيت بها بريطانيا في البداية وعزلتها في المجال الدولي مما جعلها تستنفر طاقاتها وتشحذ قواها لمواجهة الموقف . وقد أثبتت الاحداث صدق ولاء المستوطنين البريطانيين فيما وراء البحار ، مما أدى الى وقفهم الى جانب الوطن الأم ومساندتها بالمال والرجال . كما أبدى سكان الجزر البريطانية روحاً وطنية قوية مكنت البلاد من اجتياز الازمة بسلام . وبعد جهود شاقة تمكنت القوات البريطانية التي بلغ تعدادها حوالي ربع المليون من الانتصار على البوير الذين كان محاربوهم أقل عدداً من ذلك بكثير ، ولكن

الامبراطورى ، مما يتيح للبوير تحقيق أحلامهم الخاصة بالاستقلال والتوسع .

وهكذا تمهد السبيل للاصطدام بين الطرفين الذين أخذ المتطرفون بناصية الموقف بالنسبة الى كل منها . وحاول ملنر أن ينفذ مخططه خلال المفاوضات التي جرت بينه وبين كروجر ورجاله حول النظر في اتفاقيتي ١٨٨٩ و ١٨٨٤ ، ومن ثم تمعده استنفزاز كروجر مما جعل البوير يبادرون الى اعلان الحرب . وفي البداية أحرز البوير انتصارات سريعة هزت ثقة الرأى العام البريطاني : فقد اعتاد البريطانيون طيلة نصف قرن من الزمان أن يحرزوا انتصارات سهلة على شعوب متخلفة ، في آسيا وافريقيا دون أن يكلفهم ذلك سوى ثمن زهيد من جشت الرجال والنفقات . وما زاد في قلق البريطانيين ما أبدته دول القارة الأوروبية - وبخاصة ألمانيا - من شراسة خاصة وأن القيصر وليم الثاني أرسل الى كروجر برفيته الشهيرة التي هنأه فيها على انتصاراته . ولم يغفر البريطانيون على الاطلاق لوليم هذا التحدي السافر الذي يؤرخ بداية العداء بين بريطانيا والمانيا ، خاصة وأن هذه الاخيرة حاولت تكثيل دول القارة الأوروبية في حلف بحري ضد بريطانيا . وما وافى خريف عام ١٨٩٩ حتى كانت الحكومة الالمانية قد قررت مضاعفة عدد سفنها الحربية ، في الوقت الذي اشتدت فيه حملة الدعاية المعادية لبريطانيا في شتى ربوع القارة الأوروبية التي اشتد فيها العطف على شعب صغير يتحدى أضخم امبراطوريات العالم . فقد أبدت صحافة معظم الدول الأوروبية الكبرى

« عام الحرية » الذي عرض فيه للشجيرة الأيرلندية العظمى التي نشبت في عام ١٧٩٨ . ثم أمضى ثنائي سنوات في جمع مادة الكتاب الذي تعرض له وكتابته ، بما في ذلك الأشهر العديدة التي أمضاها في جنوبي أفريقيا حيث أمكنه إتقان اللغة الهولندية ولغة الأفريكانز المنفرعة عنها ، مما أتاح له الاطلاع على المصادر الأصلية المكتوبة بهاتين اللغتين ، بالإضافة الى المصادر الأخرى المكتوبة باللغة الانجليزية . كما اطلع على المصادر الأصلية غير المنشورة الصادرة عن معاصري الحرب ( سواء أكانت مخطوطات أم مصادر شفوية ) - ومن ذلك الأوراق الخاصة لمعظم القادة العسكريين والساسة البريطانيين الذين لعبوا أدوارهم في الحرب ، وبعضهم لم يسبق الاطلاع عليه . فقد عثر باكتهم على الاشراف المفقود الخاص بسير ريد فرز بوللر القائد العام البريطاني في جنوبي أفريقيا في عام ١٨٩٩ ، كما عثر على الخطابات المتعلقة بعمارك حرب البوير التي احتفظ بها بوللر وظلت مخبوة تحت منضدة البلياردو بمنزله في ديفسون ، وفي غرفة وزير الحرب البريطاني في ذلك الوقت لورد لانزدون . وبالإضافة الى ذلك فقد اطلع على اليوميات السرية للحرب التي وجدها بقسم المخابرات بوراا الحرب وهي تشتمل على نحو مليون كلمة ، وعلى أوراق لورد لانزدون الخاصة ، وأوراق غيره من السوزراء الانجليز ، وتتبع أكثر من مائة مجموعة من الخطابات واليوميات التي وفرها له ورثة كل هؤلاء . وفوق ذلك فانه سجل ذكريات اثنين وخمسين من قدماء المحاربين الذين اشتركوا في الحرب وكان أصغرهم سنا قد بلغ السادسة والثلاثين حين أدلى بأقواله .

بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أعوام منذ أن بدأ القتال . وكان لمنر لايميل الى عقد الصلح على أساس التفاوض ، بل كان أميل الى مواصلة القتال حتى يتم دحر البوير نهائيا وإملاء الشروط البريطانية عليهم بما يكفل توحيد جنوبي افريقيا في نطاق الامبراطورية البريطانية ، وضم جمهوريتي البوير باعتبارهما مستعمرتين بريطانيتين لا أكثر ولا أقل ، الا أن القائد العام البريطاني في جنوبي افريقيا - لورد كيتشر - ضغط في سبيل التوصل الى حل وسط أتاح للبوير قدرا كبيرا من الاستقلال الذاتي مع تبعيته في نفس الوقت للتاج البريطاني . وفي عام ١٩٠٦ أمكن للحرب الاحرار البريطانيين ان يرتفع بمستعمرتي ترنسفال وأورنج الحرة الى مستوى المستعمرات المتمتعة بالحكم الذاتي مما أدى الى اخلاص كثير من البوير للامبراطورية البريطانية ، وابتايرهم الانضمام تحت لوائها عرف باسم الممتلكات الحرة أو الدومينيون التي وقفت الى جانب بريطانيا خلال الحربين العالميتين الاخيرتين .



أما مؤلف الكتاب الذي تعرض له فهو الابن الأكبر للايرل والكونتيسة لونغفورد . وقد ولد توماس باكتهم في عام ١٩٢٣ وتلقى تعليمه في أمبلفورت واكسفورد ، وعاش خلال السنوات الاخيرة في القصر الذي شيده أسرته في إيرلندة خلال القرن السابع عشر وأعادته بنائه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وفي عام ١٩٦٩ أصدر باكتهم كتابه



الدور الهام الذي لعبه الأفارقة في حرب البوير .  
 حقيقة انهم لم يشتركوا في القتال بصفة رسمية ، الا  
 أن حوالي ١٠٠,٠٠٠ من الافارقة انضموا الى كلا  
 الطرفين بصفتهم عمالا وسائقين ومرشدين وغير ذلك -  
 وخلال المراحل الاخيرة للحرب كان حوالي  
 ١٠٠,٠٠٠ افريقي يخدمون تحت السلاح في نطاق  
 القوات البريطانية . وبالإضافة الى ذلك فقد جلد  
 البوير كثيرا من السود غير المحاربين وأطلقوا عليهم  
 النار . وحسيلة هذا كله نجد أن باكنهام يسلط الضوء  
 للمرة الأولى على كون الافارقة هم الذين دفعوا أفدح  
 ثمن خلال الحرب وفي أعقابها ، دون أن يخفف ذلك  
 من حدة التفرقة العنصرية التي لا تزال تلتطمح سمعة  
 جنوبي افريقيا بالأرواح . فلم يحل البريطانيون في  
 أعقاب الحرب دون فرض البيض الحاجز اللوني على  
 الملونين في نص دستوري الجمهوريتين السابقتين -  
 فهم قد جاملوا البوير ، وبالتالي فحين تم اتحاد  
 جنوبي افريقيا لم يبذلوا أي جهد لمنع فرض هذا  
 الحاجز الذي لم يكن يمارس في مستعمرة الكاب .  
 وهكذا نشأ تحالف بين البيض في مواجهة الملونين امتد  
 بمرور الزمن فشمّل عضوية البرلمان والصناعة وأدى  
 الى حرمان الملونين من التصويت في الانتخابات .  
 وهكذا عاد الوضع الى ما كان عليه في أواخر القرن  
 التاسع عشر : فاما التوصل الى حل وسط أرشوب  
 الحرب ، وهو الاحتال الأقوى .

وهناك ناحية رابطة سلط عليها باكنهام الأضواء  
 تربط بما عاناه المدينون من البوير ، نساء وأطفالا مما  
 جرت به الحرب من صعاب . فلقد أحرقت الحقول

وبعد أن حصل باكنهام على هذه المادة التي لم  
 يطلع عليها سابقوه من مؤرخي حرب البوير ، اخذ  
 يسجل تاريخ الحرب بأسلوب أشبه بالقصص  
 ويتحدى في أكثر من موضع وجهات النظر المقررة التي  
 طرحها سابقوه ، وبخاصة ما ورد منها في المؤلفات  
 الرسمية وشبه الرسمية التي انحازت للجانب  
 البريطاني أو تجنب مؤلفوها اغضاب أحد أطراف  
 النزاع ، بما في ذلك البوير - وكل هذه المؤلفات  
 الرسمية وشبه الرسمية لم تسجل وجهة نظر البوير .  
 ولكي يتجنب باكنهام مثل هذا التحيز أو التحرز نجده  
 يستعين بالمؤلفات التي ألفها مؤرخو جنوبي افريقيا  
 المحدثون بلغة الافريكاز . وهكذا نجده يسلط الضوء  
 للمرة الاولى على الدور الذي لعبه المليونيران سيسل  
 ردوس والفرد بيت ، اللذان جعلتهما مصالحهما المالية  
 المرتبطة بمناجم الذهب المكتشف وشبكا في  
 جوهانسبرج ، يتحالفان بصورة مستترة مع لورد ملتر  
 بهدف اشغال الحرب - ومن ثم ما يذهب اليه باكنهام  
 من أن هذا التحالف السري هو الذي أدى الى  
 تصلب ملتر بالصورة التي أدت الى بدء القتال .  
 وبالإضافة الى ذلك فقد كشف المؤلف عن الصراع  
 الناشب في وزارة الحرب البريطانية بين جناحين  
 متعارضين ، مما أدى الى سلسلة الاخطاء التي جرى  
 ارتكابها خلال الحرب . ومن ناحية ثالثة فانه اهتم بأثر  
 الحرب على الزنوج الافارقة الذين تفاض مؤلفو حرب  
 البوير عن الآلام التي عاينوها . فرغم ما ذهب اليه  
 المعاصرون من أن حرب البوير كانت « حرب  
 جنتلان » و « حرب رجل أبيض » ، الا أن باكنهام  
 أثبت خطأ مثل ذلك التعميم . وألقى الضوء على

افريقيا شبكة ضخمة من السكك الحديدية ومشروعات الري ، مما جعل الامبرياليين منهم يملكون يوصل الكاب بالقاهرة والاسكندرية ، وهو الحلم الذي تحقق في النهاية حين تم ربط سلسلة المستعمرات والمحميات البريطانية الواقعة بين أقصى الاطراف الجنوبية لافريقيا وبين البحر المتوسط .

وهناك ملحوظة أخيرة على الكتاب الذي تعرض له هي استطراده بطبيعة الحال في وصف الممارك الحربية التي شغلت حيزا كبيرا من العرض وامعانه في سرد تفاصيلها أحيانا بصورة مملّة تشق على القارئ العادي . وقد يكون له عذره في ذلك اذا وضعنا في عين الاعتبار ان الكتاب خاص بحرب هي حرب البوير وأن كاتبه قد حاول أن يفرج بعرض متكامل للحرب يجب ما قبله . وعلى أي حال فان هذا الكتاب يسجل اضافة لها قيمتها من حيث مادته وأسلوب عرضه الذي لم يسبق له مثيل بالنسبة الى موضوعه من حيث تممه اثبات وجهات نظر جميع الاطراف المشتركة في الحرب ، بما في ذلك وجهة النظر الصامتة الخاصة بالافارقة والملونين .

وجرى نهب قطعان الماشية وشحن النساء والاطفال في معسكرات الاعتقال حيث قضت الأوبة على عدد يتراوح ما بين ٢٠,٠٠٠ و ٢٨,٠٠٠ وقد أثر ما عاناه البوير نتيجة للحرب في ضمير البريطانيين ، بحيث يمكن أن يقال ان الفدائيين البوير قد خسروا الحرب ولكنهم كسبوا السلام ولو على حساب الافارقة والملونين .

أما بالنسبة الى بريطانيا فقد بين باكتنهان أن حرب البوير قد أدت الى تعزيز ميزانية وزارة مستعمراتها التي قفزت من ٦٠٠,٠٠٠ الى ٣٥ مليون جنيه استرليني . كما اكتسب كثير من الضباط البريطانيين خبرة عسكرية خلال الحرب كان لها أثرها فيما أبدوه من كفاءة خلال الحرب العالمية الاولى . وقد قبض لبعض هؤلاء أن يحصلوا فيما بعد على عصا المارشالية - ومنهم ادموند اللنبي ودوجلاس هيج . كما أتاحت الحرب الفرصة لتجربة الهندية الجديدة وحرب الخنادق ، مما أكسب البريطانيين خبرة باستعمال السلاح الجديد واتقان حرب الخنادق خلال الحرب العالمية الاولى ، وبخاصة في جبهتي الدردنيل والفلاندرز . وبعد الحرب أقام البريطانيون في جنوبي

طَبَعَ فِي  
مَطْبَعَةِ حُكُومَةِ الْكَوَيْتِ



العدد التالي من المجلة

---

العدد الرابع - المجلد الثاني عشر

يناير - فبراير - مارس

قسم خاص عن

القرآن والسنة النبوية

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة



















الخليج العربي	٥	باروت
السعودية	٥	باروت
البحرين	٤٠٠	فلس
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
اليمن الشمالية	٤,٥	ريالت
العراق	٣٠	فلس
لبنان	٢,٥	ليرة
الأردن	٢٥٠	فلس
سوريا	٣	ليرة
العمارة	٢٥	فلس
السودان	٢٥٠	فلس
ليبيا	٣٥	قرشا
مستط	٤٠٠	باي
الجزائر	٥	رناير
تونس	٥٠٠	فلس
المغرب	٥	درهم

#### الاشتراكات

للاشتراك في المجلة تكتب إلى: الشركة العربية للتوزيع - ص.ب. ٤٢٢٨ بيروت